

روضة السنين

در قلبی

البحر من الأول

بطلب من :

مكتبة مصر
شارع كامل صدقي - الفيحة

للمؤلف

(قصص قصيرة ١٩٤٧)	أطياف
(رواية ١٩٤٧)	نائب عزرائيل
(قصص قصيرة ١٩٤٨)	اثنتا عشرة امرأة
(١٩٤٨)	خبايا الصلور
(١٩٤٨)	يا أمة ضحككت
(١٩٤٩)	اثنا عشر رجلا
(رواية ١٩٤٩)	أرض النفاق
(قصص قصيرة ١٩٤٩)	في موكب الهوى
(١٩٤٩)	من العالم المجهول
(١٩٥٠ .)	هذه النفوس
(رواية ١٩٥٠)	إلى راحلة
(قصص قصيرة ١٩٥٠)	مبكي العشاق
(١٩٥١)	بين أبو الريش وجنيّة ناميش
(١٩٥١)	أغنيات
(مسرحية ١٩٥١)	أم رتيبة
(قصص قصيرة ١٩٥١)	هذا هو الحب
(١٩٥١)	صور طبق الأصل
(رواية ١٩٥٢)	بين الأطلال
(١٩٥٢)	السقامات
(قصص قصيرة ١٩٥٢)	سمار الليالي
(١٩٥٢)	الشيخ زغرب
(١٩٥٢)	نفحة من الإيمان
(مسرحية ١٩٥٢)	وراء الستار
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ست نساء وستة رجال
(١٩٥٣)	هذه الحياة

(رواية ١٩٥٣)	البحث عن جسد
(مسرحية ١٩٥٣)	جمعية قتل الزوجات
(رواية ١٩٥٣)	فديتك يا ليلي
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ليلة خمر
(..... ١٩٥٣)	همسة عابرة
(رواية في جزأين ١٩٥٤)	رد قلبي
(قصص قصيرة ١٩٥٥)	ليال ودموع
(رواية ١٩٥٦)	طريق العودة
(مقالات ١٩٥٧)	أيام تمر
(..... ١٩٥٨)	من حياتي
(..... ١٩٥٩)	لطمات ولثامات
(رواية في جزأين ١٩٦٠)	نادية
(..... ١٩٦١)	جفت الدموع
(مقالات ١٩٦١)	أيام مشرقة
(..... ١٩٦١)	أيام وذكريات
(..... ١٩٦٢)	أيام من عمري
(رواية في جزأين ١٩٦٤)	ليل له آخر
(مسرحية ١٩٦٦)	أقوى من الزمن
(رواية في جزأين ١٩٦٩)	نحن لا نزرع الشوك
(رواية ١٩٧٠)	لست وحدك
(مقالات ١٩٧٠)	من وراء الغيم
(..... ١٩٧١)	أيام عبد الناصر
(رواية ١٩٧١)	ابتسامة على شفثيه
(رحلات ١٩٧١)	طائر بين المحيطين
(قصة ١٩٧٣)	العمر لحظة

الإهداء

إلى سلاح الفرسان .
بخيوله وعرباته ودباباته وجنوده وضباطه وقواده وشهدائه ومحاربيه
القدماء .

إلى سلاح « النصر أو الموت » .
أهدى قطعة من حياته .. وحياة مصر .

يوسف السباعي

مقدمة

أشعر وأنا أقدم هذه القصة براحة من رفع عنه عبء أثقل كاهله وأنقض ظهره .

لقد بدأت كتابتها في أول هذا العام (١٩٥٤) وختمتها في آخره .. ولست أزعم أنى قضيت العام كله في كتابتها ، فقد تخللته أعباء أخرى كالكتابة للسينما وتحرير مجلة الرسالة الجديدة .. ومختلف شئون العمل والحياة التى تأخذ بتلابيب كل إنسان .

ومع ذلك ، ورغم عدم تفرغى لها طول العام ، ورغم ما تخلل كتابتها من مختلف المشاغل ، فإنى أستطيع أن أجزم أنى لم أنقطع عن التفكير فيها لحظة واحدة .. وأنها ألحت على ذهنى إلحاحاً .. دفعها إلى أن تشاركنى حياتى .. ودفعنى إلى أن أشازكها حياتها .. وملأنى إحساساً مفرطاً بأبطالها .. حتى باتت تربطنى بهم صلات الآدميين . وبت أشعر لهم بالحب والبغضاء ، والإعجاب والرتاء ، وأحزن لأحزانهم وأفرح لأفراحهم .

وأذكر أنى جلست ذات مرة إلى المائدة ومعى بعض المدعوين من الأقرباء ولحت فى يد إحداهن أسورة ذهبية عريضة مشغولة بنقوش دقيقة كأنها « التنتنة » وأعجبتنى الأسورة ولكنى وجدتها لا تناسب اليد الممتلئة التى حملتها ووجدتنى أتخيل مكانها يداً أخرى .. دقيقة جميلة .. لخلوقة تلح على ذهنى .. وتملك مشاعرى .. هى « أنجى » بطلة « رد قلبى » .

وهكذا استطاعت المخلوقة الوهمية أن تتغلب على كل المخلوقات الحية وأن تلح على مشاعرى حتى تخرج بنفسها من نطاق أوراقى إلى نطاق حياتى .

وقد يرى الناس فى قولى هذا نوعاً من جنون « الكتاب » ولكن ماذا تراهم .. قائلين .. إذا عرفوا أكثر من هذا .. أننى خلال العام الذى كتبت فيه القصة ..

كنت أرى كتابتها أهم ما فى حياتى .. وأن كل عمل يجب أن يتضاءل إلى جوارها حتى أنتهى منها ، وأننى لم أكن أخشى فى أوقات المرض أو التفكير فى الموت إلا أن أموت قبل إتمامها ، لقد كنت أخشى عليها أولاً ثم على زوجتى وأمى وأولادى .

قد تكون القصة لا تستحق كل هذا .. وقد يرى البعض أنه كان من الخير أن أموت قبل إتمامها .. ومع ذلك أرانى لا أملك إلا أن أقرر واقع إحساسى لها .. ومشاعرى خلال كتابتها .

ويبدو لى سبب اهتمامى بهذه القصة .. هو يقينى بضرورة تسجيل الأحداث الخطيرة التى حدثت فى تاريخنا المعاصر . وثقتى بأننى — بصفتى العسكرية — أقدر الكتاب على تسجيلها بحكم خدمتى فى الجيش وإحساسى بالمشاعر التى أدت إلى حدوث هذه الأحداث التى غيرت وجه التاريخ فى مصر .

ولقد حاولت قدر ما أستطيع أن أديج قصتى هذه فى قصة الأحداث الواقعية التى حدثت فعلاً .. حتى تبدو القصة كتلة واحدة .. ولست أدرى إلى أى حد وفقت فى ذلك ، ولا إلى أى حد وفقت فى القصة كلها .

ولكن الذى أدريه وأوقن به .. هو أنى قد أدت وأجباً كنت أشعر به يلح على نفسى وألقيت عبئاً كنت أحس به يثقل كاهلى .

ولا أنكر أنى أجهدت حقاً فى كتابة هذه القصة .

وكل ما أرجو ألا يضيع جهدى سدى وأن أكون قد كتبت شيئاً ناجحاً .

يوسف السباعى

(١)

ماء الوجه

كانت « السوبة » كأنها قوس قزح ، وقد صفت في أرجائها الأصص التي تكدست بها الزهور المنمقة المزركشة .

ووقف « أفندينا » أمام ركن رصت به مجموعة من زهور « السناراريا » وأشار بعصاه قائلاً :

— هذه مجموعة جيدة .. أعتقد أنها خير ما عندنا .. من أين لك بذرتها ؟

— لقد أحضرناها شتلة في مواجير من القناطر .

— خذ منها بذرة للموسم القادم .

وأحنى « الرئيس عبد الواحد » رأسه مجيباً :

— حاضر يا أفندينا .

— ومتى تنوى نقلها إلى المعرض ؟

— في الأسبوع القادم .. لقد جاء التأخير في صالحنا .. حتى يتم تفتح بقية

الأصص .. إذ آخرها برد هذا العام ، ولكن الجو قد أخذ في الدفء .. وستفتح كلها إن شاء الله خلال يومين على الأكثر .

كان الأمير « إسماعيل » يتفقد حدائقه الواسعة ، المحيطة بقصره المشيد وسط أراضيه في إحدى الضواحي التي تقع على أطراف القاهرة .. في صباح يوم جمعة من ربيع عام ١٩٣٣ .

وبدا الأمير أو « أفندينا » كما تعود الكل أن ينادوه .. طویل القامة ، مهيب

الطلعة ، أبيض الوجه ، أحمره .. وقد وضع « مونوكل » في إحدى عينيه التي لا أظن سواها من عيون عباد الله من غير الأمراء بمسلك به لحظة واحدة .

وقد منح الله عينيه — غير القدرة على الإمساك بالمونر كل — قدرة على إشعاع نظرات الكبرياء والترفع والتعاضم على غمط أصيل غير زائف ولا مفتعل . فهو بهذا الإشعاع ، والمونوكل ، والطربوش الأحمر الطويل ، المائل على أحد جوانب رأسه ، واللكنة الأجنبية الدخيلة على عربيته ، والجمل التركية والفرنسية المتخللة حديثه بين آونة وأخرى . يبدو نموذجاً للأرستقراطية والسمو ، وطيب الأصل ، ورفعة النوع ، كما تقاس بمقاييس ذاك الوقت !!

وسار الأمير متمماً جولته ، يتبعه « الرئيس عبد الواحد » رئيس بساتين القصر .. أو « الباشجناني » بجلبابه الصوفي الطويل الفضفاض ، وعمامته التي التف حولها الشال الأصفر الذي يميز هذه الفئة .. وكان الرجل أسمر الوجه ، بارز عظام الوجنتين ، متين البنيان ، صلب الجسد ، ليس به ما يميزه كثيراً عن سواه من زملائه وأبناء طبقه .

وتوقف الأمير أمام مجموعة أخرى من الأصص ، وأشار بعصاه :

— وهذه البرميولا ليست كما يجب .. أتتوى عرضها ؟

— سننتقى بعضاً منها لعمل إطار حول مجموعة السنابير .

وعاود الأمير السير يتبعه « الرئيس عبد الواحد » ويليهما ركب التوابع والحواشي ، وتلفت الأمير حوله كأنما يبحث عن شيء ، وانتقلت عدوى التلفت منه إلى بقية الحاشية ، وبدأت على وجوههم سيماء الحيرة والارتباك ، خشية أن يكون قد بدا للأمير نوع من التقصير في ناحية من النواحي ، وأخيراً ، أفصح الأمير عما يبحث عنه فتساءل :

— أين أنجى ؟

وأسرع بالإجابة رجل أسود ، أشبه « بالأغوات » قد ارتدى حلة سوداء ، « إدريس أفندى » الخادم الخاص لأفندينا فقال :

— لقد بقيت خارج « السوبة » تتنزه في الحديقة مع مربيتها « دليار » .

وبدت الصبية الصغيرة تعدو وتتواثب في الحديقة أمام المربية العجوز ،

وقطفت زهرة من زهرات الأنترهينم « حنك السبع » وأخذت تضغط عليها بإبهامها وسبابتها الصغيرتين ، محاولة إخافة المربية ، وهي تهتف بها ضاحكة :

— سيأكل السبع ذراعك .. انظري كيف يفتح فمه !!

ثم انطلقت مبتعدة تعدو على البساط الأخضر حتى وصلت إلى عربة الترولى الواقعة عند بداية القضبان ، في منحدر الممر الضيق ، بجوار سور الحديقة الأخضر المرتفع ، وعادت تصيح بالمربية العجوز :

— دادة .. أريد أن أركب الترولى .

— ليس الآن .. إن عامله في عطلة اليوم .

— ادفعيني أنت .. أريد أن أركب الآن .

وقالت المربية تنهر الصبية :

— قلت لك ليس الآن .. أنا لا أستطيع دفعه .

— سأدفعه أنا ..

— إياك .

وكان ينصت إلى المناقشة صبيان صغيران متقاربان في السن والشبه ، قد أخفتهما عن الأبصار دروة صغيرة من الغاب أقيمت لحماية بعض العقل والشتلات وراء « السوبة ».

كان الصبيان هما : على وحسين ولدا الرئيس عبد الواحد ، وقد انتهر الرجل فرصة عطلتهما من المدرسة ، ومرور الأمير على السوبة والمشتل فأحضرهما ، علّه يراهما فيغلق عليهما بعض منحه وعطاياه .

وكان « حسين » يتوق إلى مثل هذه الزيارات للقصر الكبير ، ويعتبرها نزعات مستحبة ، للهو واللعب ، والاستمتاع بالحديقة الغناء ، وبما ينفحه أهل القصر من عطايا يستطيع أن يحجز منها شيئاً لنفسه .

كان مرحاً طموحاً مندفعاً ، على النقيض من أخيه الأكبر « على » ، الهادئ الصموت ، المتميز برزانة تفوق كثيراً الخمسة عشر عاماً التي بلغها من عمره .

كان « على » يكره تلك الزيارات ، إذ كانت تشعره بحقيقة موضعهم من الحياة . وكانت تبدى له بجلاء ، البون الشاسع بين طبقتين من عباد الله ، إحداهما في السماء والأخرى في الأرض .

كانت تجربته على أن ينظر إلى أعلى فيحس بمدى ضآلته وحطة دركه وهبوط مستواه ، ولم يكن شريراً ولا حسوداً للناس ، وربما كان أخوه أكثر منه حباً لنفسه ، ولكنه في تلك الزيارات كان يشعر أن نفسه أعز عليه من أن يوردها موارد الهوان ، وأنها أكرم عليه من أن يضعها موضع العطف والإحسان .. حتى ولو جلب لها هذا العطف بعض الفائدة المادية ، فقد كانت الفائدة تذهب هباء ، وسط ذلك الشعور المرير بالمدلة والضعفة .

كانت نفس الصبى كبيرة .. وكان يكره لها التضاضل أمام سادتها ، والتضاضل كان فرضاً واجباً .. يفرضه الواقع الذى لا مفر منه إذا حدثت المواجهة .. ووقعت المقارنة ، ولذا كان الصبى يعتبر الزيارات عبثاً كبيراً .. وهماً ثقيلاً .. وكان يود فى كل زيارة لو خلفه أبوه يلعب مع رفاقة ، فقد كان يحس أنه بين أنداد له ، إن لم يكن خيراً منهم فهو مثلهم .

كان يحب أمه وأباه ، ويحب بيتهم البسيط وحياتهم المتواضعة .. كان يعتز بكل ما حوله ما دام بعيداً عن السادة من أهل القصر .. فقد كان يحس أن نفسه فى داره ووسط أهله ورفاقه .. لها قيمة ، ولها معزة .. أما هناك .. فكانت نفسه العزيزة الأبية .. ضائعة فى ضباب من الهوان والتضاضل .

وفى هذا اليوم بالذات ، حاول جهده التملص من الذهاب مع أبيه .. فقد طاقت بذهنه صورة أبيه مطأطئ الهامة ، يتبع الأمير ذليلاً صاغراً ، والرجل المتورد الوجه ، الأنيق الملابس . ذو العين الزجاجية يتحدث من طرف أنفه ويشير بعصاه هنا وهناك .

أجل .. إنه يمقت هذا المنظر .. ويمقت أكثر منه أن يهرول أبوه به وبأخيه إلى الأمير ، فيتسائل الأمير فى لكنته :

— هذان ولدك ؟ لقد كبرا .

— فى عزك يا أفندينا .

ويقبل أخوه يد « الأمير » .. ويصيح به أبوه وهو يرى تلكؤه فى التقبيل :

— قبل إيد أفندينا يا ولد .

ويود لو صاح فى وجه أبيه .. إنه لن يقبل يد أحد .. وإنه ليس « ولداً »
ولكنه يحب أباه ويكره أن يسبب له قطع رزقه .. فيقبل على اليد فيلثمها .
إنه يكره كل هذا ، ويكره اليد الممتدة بالورقة النقدية إلى أبيه وصوت
« أفندينا » يقدمها بقوله :

— هات شيئاً للأولاد يا شيخ عبد الواحد .

— ربنا يخلى « أفندينا » .. ربنا ما يحرمانا منك .

ويكره أكثر من كل هذا أن تكون الصبية ابنة الأمير حاضرة لتشاهد هذا المنظر
البغيض إلى نفسه .. منظر الإحسان ، والمذلة ، والهوان .
لشد ما كان يكره أن يرى الصبية رأى العين .. وهو لم يكن هناك أحب إلى
نفسه من أن يراها بعين الوهم .

كان يكره أن يراها رأى العين لأن الواقع يكرهه على أن يبدو منها بحيث لا يحب
لنفسه أن يبدو .. كان يكره أن يراها مستوية على عرشها فى أعلى القمة ، ويرى
نفسه بعيداً بعيداً فى أسفل الحضيض ، لا يكاد يتناول إلى ترى أقدامها .

أما بعين الوهم فكان يراها كما يريد .. ويرى نفسه حيث يحب أن تكون .
كان يضعها بجواره جنباً إلى جنب ، يسيران معاً ، الذراع فى الذراع ، واليد
مطبقة على اليد .. ولم يكن يعدم فى تفكيره الوسيلة المنطقية التى تقودهما إلى مثل
هذا الوضع .. من المساواة ، والتآلف ، والصدقة والحب .

كان يحلم ويحلم .. فى اليقظة .. وفى النوم .. كل أنواع الأحلام التى تؤدى
فى النهاية إلى هذا التقارب بين اثنين : أحدهما فى السماء ، والآخر فى الأرض .
فمرة تهبط إليه .. ومرة أخرى يصعد إليها .

تارة يشب حريق يودى بالقصر فيخوض هو وسط النيران ، ويحملها بين يديه لتعيش معهم فى بيتهم المتواضع ، وتاره أخرى يضحى ضابطاً وتقوم حرب يعود منها عودة البطل ، فيجدها توشك على الزواج مكرهة بمن لا تحب ، فيختطفها ، ويفر بها فى بهمة الليل إلى جزيرة نائية ، حيث يقضيان بقية العمر ، وحيناً يضحى مخترعاً كبيراً ، تطبق شهرته الآفاق ، ويحصل بأختراعاته على ثروة ضخمة ، يستطيع بها أن يتناع ضياع أبيها وقصره ، ثم يقدم لها القصر عربوناً لحبه ووفائه .. وحيناً آخر يصبح زعيماً لثورة يقوم بها الشعب على السادة من أصحاب الضياع ، والحكام ، ثم ينقذها هو من بين برائن الشوار ، ويضعها بجواره على مقعد الحكم .

كان يحلم بكل هذا .. ما جلس وحده وشرد ذهنه إلا وهى فيه .. بوجهها الأبيض ، وعينيها الخضراوين الصافيتين ، وشفتيها القرمزيتين ، وأنفها الدقيق ، وشعرها الذهبى المتطاير على كتفيها .. كانت شريكة أوهامه وحببية أحلامه . أما فى الواقع .. فلم يكن هناك أكره إلى نفسه ولا أرهب ولا أخوف من أن يلتقيا .. أو بوجه أدق .. من أن تراه .. فستان بين ما كانت تراه منه ، وبين ما كان يجب لها أن تراه .

واليوم قد حاول بشتى الحيل والوسائل ، أن يتخلف عن الذهاب مع أبيه ، فادعى أن لديه من الواجبات المدرسية ما يحتم عليه البقاء فى الدار ، ولكن أباه أنبأه أنه يمكن أداء هذه الواجبات بعد الظهر ، وأمره بارتداء ملابسه والاستعداد للذهاب .

وعاد مره أخرى يدعى المرض فنهزه أبوه قائلاً :
— « أفندينا » سيمر اليوم على المشتل ، وأريد أن تقلبله أنت وأخوك علّه يمنحنا شيئاً نسد به قسط المدرسة المستحق .

— يا أبى .. نحن لسنا وسيلة للتسؤل .. نحن لا نريد إحساناً من أحد .
وأطرق الأب وغامت على وجهه سحابة حزن ، وقال فى صوت خافت :

— أنا أيضاً يا بنى أكره أن أتخذ كما وسيلة لذلك ، ولكن هناك فارقاً كبيراً بين ما يحب الإنسان .. وبين ما يجب أن يفعل .. لو تركت نفسي لما أحب لما استطعت أن أدخلكما المدارس .. إن الحياة تضطرننا إلى فعل أشياء كثيرة لا نحبها .

— خير لنا ألا نذهب إلى المدارس من أن ترقيق ماء وجهك .
— لا يا بنى .. إذا كنت من أجلكما أرقت ماء حياتي .. أفلا أريق ماء وجهي؟! ماء الوجه أرخص من ماء الحياة ، ولا سيما عندما يتعود الإنسان إراقته .
— أنا يا أبت أفضل أن أعمل معك في الحدائق .. إذا كان ذهابنا إلى المدرسة سيسبب لك كل هذا .

— هذا كلام يسهل أن تقوله الآن ، ولكن عندما تمر السنون وتحصل على الشهادات التي ستجعل منك موظفاً محترماً ، ستدرك حق الإدراك أني لم أرق ماء وجهي عبثاً . فارق كبير يا بنى بين أن تكون « رئيس جنائنية » وأن تكون مهندساً أو طبيباً أو ضابطاً .

— لا أظن هناك في الحياة ما يستحق أن ترقيق من أجله ماء وجهك .
— بل هناك ما يستحق .. إذا أرقت ماء وجهي الآن من أجلكما .. فربما استطعت أن أقيكما شر إراقته من أجل أبنائكما .. ألا تجد ذلك يستحق ؟ قم يا بنى وارقد ملابسك . أنت صغير .. وعندما تكبر ستعرف الحياة خيراً مما تعرفها الآن .

ولم يجد بداً من الاستسلام ، فنهض لارتداء ملابسه .. وكان أخوه قد أتم ارتداء ملابسه .. وهو في غمرة من الطرب والمرح ، وأقبل عليه يريه قوساً من السلك قائلاً :

— ما رأيك في هذا القوس يا على .. سأركب له « الأستك » وأصنع منه نبلة هائلة .. وسأصطاد بها عصافير من الشجرة المجاورة « للسوبة » .. أعرفها؟! إنها ملأى بالعصافير ؟

ولم يجبه « على » فقد كانت عيناه مثبتتين على حجر بنطلونه في دهشة شديدة وصاح بأمه يناديها :

— أمى .. ماذا فعلت بالبنطلون ؟

وأتى إليه صوت أمه من الحجرة المجاورة تجيب ببساطة :

— ركبت له حجراً .

— حجراً ؟ ومن طلب منك أن تركبى له حجراً ؟

— أكنت تريد الذهاب إلى « أفندينا » وبه ذلك « الدوبان » الذى فى

حجره !

— لقد كان فى موضع مخنف ، وكان يمكن أن نذهب به « للرّفا » فيرفيه بطريقة لا تجعل الرتق ظاهراً .

— الرّفا ؟ أليدك نقود الرّفا ؟ .. البس .. البس .. أبوك لا يكاد يجد قسط المدرسة .. وتريد أن نعطي البنطلون للرّفا .. ؟ نقودك كثيرة !!

ولم تكن هناك جدوى من المناقشة ، قدس ساقيه فى فتحتى البنطلون ، وانتهى من ارتداء ملابسه ، وقذف بالطربوش على رأسه .

الأمل الوحيد الذى بقى له .. هو ألا تكون هناك ، وأن يبعدها القدر عن طريقه .. اليوم على الأقل .. حتى يستطيع أن يدبر مسألة حجر البنطلون .

ووضع أبوه عمامته على رأسه ، ودس قدميه فى حذائه البرتقلى ذى « الأستك » ، ثم سحب ولديه ، كلا فى يد ، وأخذ يهرول من الدار المتواضعة .. المقامة فى العزبة بجوار الجامع وشمطة سكة الحديد ، وأخذ يخوض وسط المزارع حتى وصل إلى الطريق المجاور للترعة ، ثم عبر الكوبرى متجهاً إلى الطريق الموصل للبواب الخلفى لحدائق القصر .

ووقفت الأم الطيبة تشير له هاتفة :

— مع السلامة .. حاسب على الأولاد .. ربنا يجعل لك فى كل خطوة

سلامة .

(٢)

الفراشة الطائرة

بدا المكان في أول الأمر مأموناً .. ليس به ما ينذر بالخطر .. إذ لم يكن هناك سوى البستانيين وصبيانهم يتشاغلون بقص الأسوار و « شقرفة » الأحواض وسقى الأصص .

وترك الرجل صبيته ، وأمرهما ألا يبعدا عن السوبة وحذرهما من إتلاف الأصص أو قطف الزهور ، ولم يكن « على » في حاجة إلى مثل هذه النصائح ، فقد كانت رزاقته الطبيعية تمنعه من إتيان كل ما يدخل في باب العبث ، وكان لديه — في هذا اليوم بالذات — سبب أهم كثيراً من الرزاقنة الطبيعية .. يمنعه .. لا من العبث والجري والبعد عن السوبة فحسب ، بل من مجرد التحرك ، وهو حجير البنطلون الذي أثبت أمه إلا أن تبثليه به .

وهكذا وضع نفسه في ركن محدود من أركان « السوبة » لا يتجاوزه ، وأخذ يتشاغل بسقى بعض الأصص ، معاوناً العامل المكلف بسقيها ، رافضاً الانطلاق مع أخيه ، معرضاً عن إغرائه بصيد العصافير من الشجرة الكبيرة .

وأحس « على » بشيء من الأمن في مكانه حتى وجد أباه يهرول خارج السوبة ، وسمع صوت « أفندينا » يصيح متسائلاً عنه :

— أين الرئيس عبد الواحد ؟

ولم يكن صوت « أفندينا » على مهابته ، وخشية الجميع منه — هو الذي ضيع أمنه وبدد طمأنينته ، بل صوت آخر كان — على رفته وعذوبته — آخر ما يود أن يسمع في هذه اللحظة بالذات ، كان صوت الصبية الصغيرة تهتف بمريبتها مازحة :

— هل تستطيعين أن تقضي على قدم واحدة .. هكذا ؟

(رد قلبي — ج ١)

ولم يحاول أن يستمع إلى أكثر من هذا ، ولا أن يرى ما إذا كانت المربية قد استطاعت أن تقف على قدم واحد أم لا .. فقد كان مجرد سماع الصوت ، بمثابة إنذار بخطر .. يجب عليه أن يسرع بالهروب منه .

وبدأت طلائع « أفندينا » وموكبه .
وبات من المتوقع في أية لحظة أن تبدو الصغيرة المخيفة بين آونة وأخرى ، ويصبح هو وحجر بنطلونه ، في متناول بصرها .

خير له إذن أن يسرع بالفرار ، قبل أن يطبق عليه الحصار ، وتقع الواقعة .. إنه يعرف أنها حقيقة لن تهجم عليه وتطرحه أرضاً لترى حجر بنطلونه ، ولكن يعرف كذلك أن من المحتمل جداً أن تدفعه الظروف الخرقاء إلى أن يعرضه هو عليها ، فليس بعيد أن يناديه أبوه كعادته ، لتقبيل يد الأمير ، وقد تكون الصبية واقفه بجوار أبيها ، أو في أى مكان آخر فتراه في إقباله وإدباره ، فتكون المذلة ويكون الهوان .

إنها قطعاً ليس لديها أية فكرة عن البنطلونات ذات الحجر المرقع .. وستسبب رؤيتها له بذلك المنظر ، احتقاراً وازدراء .. وهو لا يقتله شيء كالاحتقار والازدراء .. ولا سيما منها هي .. إن هذه الحادثة ستكون عقبة كأداء ، لا في سبيل صلته بها في الواقع ، فهو يعلم أن ليس لها وجود في واقعة ، ولكن في أوهامه وأحلامه .. فكيف يستطيع أن يسير معها جنباً إلى جنب ، إذا ما أضحي قائداً أو زعيماً وهي ما زالت تذكر حجر بنطلونه ؟

وفي سكون وضع الرشاشة بجوار الحوض ، وتسلسل خارج السوبة من باب خلفي صغير أفضى به إلى دروة الغاب التي وضعت بها الشتلة والعقلة لوقايتها من الريح والصقيع .

وكان الخبأ الجديد في ظاهره مأموناً ، فقد هياؤه الستر من جميع النواحي ، ولم يكن هناك احتمال لأن يمد الأمير زيارته إليه ، لا سيما وقد بدا المكان أشعث مهملاً ، كومت في أنحائه أكوام من الأصص والغاب والطمى « السبلة » .. وحتى لو دخل الأمير إليه ، فما يظنه يسمح للصغيرة بتلويث نفسها باللعب فيه .

وهكذا استقر المقام به على جذع ضخيم ملقى في أحد الأركان ، وأخذ يرقب من وراء السوبة الركب السائر يتقدمه الأمير بطربوشه الأحمر ، وعينه الزجاجية ، ويتبعه أبوه مطأطأ صاغراً .

وسار الركب ينتقل من مكان إلى مكان ، والصغيرة الخيفة ، لم تبد بعد ، حتى سمع أباهما يسأل عنها واطمأن إلى أنها باقية في الخارج مع مربيتها ، وأن السوبة لم تعد بالمكان الخطر ، بل إنها خير مكان يمكن أن ينهى به مهمته الثقيلة التي جاء من أجلها وهي تقبيل يد الأمير .

واستقر به الأمر على أن يتسلل إلى داخل السوبة . فقد توقع أن يسحب عنه أبوه ، وعن أخيه ، ليقدمها للأمير .. وأخذ يلتفت حوله باحثاً عن أخيه ، حتى يصطحبه معه إلى الداخل لكي ينفذ عن كاهله المهمة كلها .

ومن خلال فتحات الغاب أخذ يبحث عن أخيه ، ولكن شيئاً أهم من أخيه كثيراً استأثر بمراقبته .

لقد أبصر « أنجى » على بعد من السوبة تعدو أمام مربيتها كأنها الفراشة الحلوة ، وقد ارتدت بلوزة صوفية بيضاء ، مقفلة الياقة ، وبنطلوناً من القطيفة الكحلى — سليم الحجر بالطبع — وقد تطاير شعرها الذهبى .

وثبت بصره على الفراشة الطائرة ، بين خضرة الأرض وزرقة السماء ، المشوبة بقطع السحاب المنقوشة المتناثرة ، ولم يستطع بصره عنها حولاً .. فقد كانت فرصة لا يجود بها القدر كثيراً ، أن يراها دون أن تراه ، وأن يستمتع بجمالها وسموها ، دون أن يفضح فقره وهوانه .

تلك .. هى .. هى .. بلحمها ، ودمها ، بشعرها الذهبى ، وبشرتها النقية .. وقسماتها الدقيقة ، ووجهها الملائكى .. لسيست صورة في ذاكرته .. ولا شبحاً في تخيلاته .

لو استطاع أن يحرق فيها هكذا مدى الحياة ! لو استطاع أن يجمد في مكانه ، كتلك الأعواد من الغاب ، أو كهذه الأفرع من الشجرة ! لو كان شيئاً آخر ،

غير ما هو ، أى شيء ، مهما ضئول ، لكان له من رؤيتها نصيب أكبر .
وأبصرها وهى تعدو إلى الترولى ، وسمع مرييتها تنهاها عنه ، وود لو استطاع
أن يدفعها به .. ويعدو وإياها .. إلى أين ؟
بعيداً ، بعيداً .. إنه قطعاً لن يصيبه تعب ولا ملل .. أجل .. سيحملها إلى
بقعة نائية ، ويعبر بها وهاداً ونجاداً ، وسيكون هو مخلوقاً آخر غير ما هو عليه
الآن .

وفى تلك اللحظة كان الأمير قد انتهى به المطاف بركبه إلى مجموعة أصص
الفوجير ، قد وضعت فى غرفة زجاجية ، ورفع عصاه مشيراً إلى لوح من الزجاج
مكسور فى أعلى الغرفة ، وبدت على وجهه بواذر حنق .. وصاح بالريس عبد
الواحد :

— هذا اللوح لم يركب بعد ؟
— سيركب إن شاء الله .
— لقد رأيته فى المرة السابقة ونبهتكم إليه !
— لقد أبلغت إبراهيم افندى .. وقال إنه سيرسل لنا القسراتى .
وزاد الحنق بالسيد .. وهزّ عصاه فى حركة عصبية مهدداً :
— ليس لى دخل بإبراهيم افندى ، وزفت افندى ، لقد قلت لك أنت
أصلحه .

— حاضر يا « افندينا » .
— مافائدة حاضر .. أنت لا تعمل شيئاً !! مفروض فى هذه السوبة أن تبقى
دافئة ، واللوح المكسور يدخل الهواء .. فيضيع التدفئة ، ويتلف الزرع .. إلى
أرى بعض أوراق جافة صفراء .

— معلش يا « افندينا » إنها ستجدد غيرها .
— مع هذا الإهمال لن تجدد شيئاً .. كل شيء لديكم .. علاجه معلش . أنتم
شعب متكاسل متراخ .. لا يعمل بغير الكرباج .
ووجم الجميع ، وأحس الريس « عبد الواحد » بعبء ثقيل يهبط على

كتفيه ، فقد أدرك أن اللوح الزجاجي اللعين قد غير دم « افندينا » وأفسد عليه مشروعه في استدرار عطفه والفوز بمنحة يسد بها قسط المدرسة .

وسلم أمره لله .. ودعاه أن يفوت اليوم على خير .. وحمد الله أن أوقف غضبته عند هذا الحد ، ولكن غضبة الأمير لم تنته بعد .. بل كان بها حالة تجمع واستجمام ، عاودت الانفجار بعده ، فصاح :

— سأخضم منك يومين ، جزاء لك على إهمالك .

وأحس « عبد الواحد » أن اليومين قد وقعا على ظهره كأنهما سوطان .. كان يرجو أن ينعم الأمير عليه بيومين زيادة .. وهو يشعر بأنه مظلوم .. فليس من عمله تركيب الزجاج .. وقد أبلغ الشخص المسئول الذى يستطيع أن يصلحه .. فأهمل فى إصلاحه .. فما ذنبه هو ؟

وبدأ له أن كلمة استعطاف قد ترفع الجزاء ، فقال فى كلمات متقطعة ، وقد طأطأ إلى الأرض رأسه :

— قلت لإبراهيم افندى ...

وقاطعه الأمير بصيحة غاضبة :

— لا ترد .

وتدخل إدريس ، خشية أن يجرح جدل الرجل عليه ما لا تحمد عقباه فقال :

— اسكبت يا ريس عبد الواحد ، اليوم يصلح الزجاج .

وأحنى عبد الواحد رأسه فى صمت واستسلام ، داعياً الله أن يعينه ، ويصلح ما أفسده اللوح الزجاجي ، ويذهب عن الأمير غضبه .

وعاود الأمير السير متجهاً إلى مجموعة من السلب جلوسز وقد بدت فى أزهارها الشبيهة بالنفير وبألوانها المختلطة الزاهية ، ونقوشها المنمقة الدقيقة ، معجزة من معجزات الخالق .

وكان عبد الواحد قد بذل أقصى ما يستطيع من جهد وعناية فى تلك المجموعة .. واستطاع أن يقضى على حشرة « المن » التى كانت تصيبها كل عام

فداوم على رشها بالنيكوتين وأحسن لها الخلطة عند الزرع والسقيا بمنقوع السماد خلال النمو ، وكان الرجل بستانياً بفطرته وسليقته .. يعتبر الزهور ذريته ، ويرى في كل نبات يزرعه ولدأ له .. وكان وفياً لعمله ولسادته ، ولكل من حوله .. وهو يرى في النبات حياة ، وفي إهمالها خيانة للأمانه وإزهاقاً للروح .

ولذا شعر ببعض الهم يرفع عن كاهله ، وهو يقبل على مجموعة الأصص ، فقد أحس من الإقبال عليها فخراً واعتزازاً ، وأحس كذلك بأنها سترده له الجميل ، وترفع عنه الجزاء الذى أوقعه به السيد ، وتهديء من ثورته التى سببها اللوح المحطم .

ولم يخب ظن الرجل ، فقد بدأت أسارير الأمير تنفرج وتجهمه يتبدد ، وهو يخطو مغادراً البيت الزجاجى متجهاً إلى مجموعة الزهور .

وفجأة .. وقع ما لم يكن قط في الحسبان أن يقع .. وحدث آخر ما كان يرجى أو يتوقع أو يخطر على البال ، بال أى إنسان فى الركب ، وفى غير الركب . لقد سمع الجميع صوت طرقة فى أعلى الغرفة الزجاجية ، وهوى بعدها لوح آخر .. تطايرت شظاياها قرب أقدام الأمير .

كان الطارق حجراً أصاب الزجاج .

من أين ؟ وكيف ؟ ومن الذى تجاسر على رميه ؟

ولم يطل بهم التساؤل ، فقد وضع الأمر لأعينهم عندما رأوا حسيناً ابن الرئيس عبد الواحد ، يطل برأسه فى حذر من وراء جدار السوبة ، وفى يده النبلة .

وأحس الشيخ عبد الواحد أن عمامته قد رفعها شعر رأسه الذى قف من هول الموقف ووقع المفاجأة !!

انتهينا .. لقد قضى عليه قضاء مبرم ، فلا عيش له فى القصر بعد ذلك ، ولن يجدى فى الشفاعة له سنانير ولا سلب جلوسز .. بل ولا كل أزاهير الجنة .

ونظر إلى رأس ابنه المطل من وراء الجدار ، وكاد أن يقول له فى مذلة ، لولا

انعقاد لسانه من الخوف :

— لماذا يا ابني يا حسين !! ماذا فعلت بك حتى تقطع عيشي .. الله يجازيك ؟

وكان الأمير أول من تكلم . فقد صاح في غضب وقد اسمر وجهه :
— من هذا ؟

وهمس الرئيس عبد الواحد في صوت يكاد لا يسمع :
— ابني يا « أفندينا » .

— ابنك ! . وماذا يفعل هنا ؟

وارتبك الرجل ولم يعرف بم يجيب .
وصاح « الأمير » هادراً :

— انطق .. ماذا أتى به إلى هنا ؟
— أنا يا « أفندينا » .

— ولم ؟

لم يجسر الرجل على أن يقول إنه أتى ليطلب به إحساناً فقال :
— ليتنزه هو وأخوه .

— يتنزه ؟ .. كأن الحديقة قد أضحت متنزهاً خاصاً لك ولأولادك ؟
— إن اليوم عطلة .. وقد ..

— عطلة ؟ ! ولا بد أن يقضيا العطلة في إتلاف حديقتي وتسكير

زجاجها ؟ .. لماذا لا يقضياتها بين القاذورات التي تعيشون فيها ؟

وكان عبد الواحد يعرف أن الأمير في غضبه لا يوقف أذاه رجاء ، ولا يلينه استعطاف .. ولم يعد أمامه سوى الاستسلام للكلمة الغاضبة ، تخرج من شفثيه حتى يعود إلى بيته ، لا بقسط المدارس ، بل برزق مقطوع وعمل مفقود .

وطأطأ الرجل رأسه ، كمن يقف في ساحة القضاء ينتظر حكماً بالإعدام ، ولم يدر أحد ماذا ينوي الأمير قوله .. إذ لم يكده يفتح شفثيه حتى انبعثت من

الحديقة صرخة حادة كان مصدرها المربية العجوز .
وأعقب الصرخة خليط من ولولة العجوز ، وصياح الطفلة ، وانعقد الكلام
على شفتى الأمير ، واندفع والجمع وراءه إلى خارج السوبة ، ليقع بصرهم على
الترولى ينحدر مندفعاً بالصبية الصغيرة ، بعد أن فككت الرباط الذى كان يربطه .
كانت العربى الحديدية تندفع بقوة الانحدار ، ولم يكن هناك من سبيل
لوقفها ، فقد كانت المسافة بين الجمع وبينها ، أبعد من أن يستطيع أحد منهم
اللاحاق بها ، قبل أن تصل إلى نهاية الطريق الموازى لل سور ، وكان أكثر ما يخشى
أن تخرج العربى عن قضبانها عند المنحنى ، فتندفع من فتحة فى السور إلى الطريق
العام ، ومنه إلى التربة ، فإن لم تصدمها أية عربى قادمة تنهب الطريق ، سقطت
فى التربة .. وفى أى المصيرين ، نهايتها المحتومة .
كان المصير واضحاً للأذهان ، ولم يكن فى الإمكان أن تؤمر الصبية بأن تلقى
نفسها من العربى ، فقد كان من العبث أن يصل إلى سمعها صوت أو أمر فى وسط
صراخها واندفاعها .
وتسمر القوم فى أماكنهم وصرخ الأمير منادياً الصبية ، وهو يعدو لاهثاً
وراءه الركب المشدوه .
وفى تلك اللحظة أبصر القوم شبحاً صغيراً يندفع من « الدروة » الغاب ،
المقامة فى آخر السوبة التى كانت لا تبعد كثيراً عن طريق « الترولى » .
اندفع الشبح الصغير من بين الغاب كأنه صاروخ .. فوصل إلى قضبان
الترولى فى اللحظة الأخيرة ووقف بجسده الصغير معترضاً طريق العربى المندفعة .
وصدمته العربى ، واندفع جسده يطوى الطريق أمامها حاداً من سرعتها رويداً
رويداً ، حتى توقف الجسد ووقفت العربى .
ووصل الجمع المندفع إلى حيث توقفت العربى قبل أن تصل إلى الطريق وهجم
الأبوان كل يتحسس ولده ويرى ما أصابه .
ووجد الأمير ابنته سليمة .. ووجد البستانى ابنه راقداً على الثرى ، معفر

الوجه ، مخدوش اليدين والركبتين ، مرضوض الساق .
ورفع الأمير ابنته يوبخها ويؤنبها على فعلتها ، ثم نظر إلى الصبي الصغير وتساءل
في دهش :

— من هذا ؟

وأجاب « عبد الواحد » .. وقد انحنى فوق ولده يمسخ جراحة :

— ابني يا « أفندينا » .. ابني على .

ونظر الأمير إلى الرجل وولده ، نظرة ملؤها الامتنان والتقدير ، وقال للأب :

— إنه شهم ، شجاع ، مقدم .

وأحس الأب أن ساعة النحس قد ولّت ، فأجاب والدموع تملأ عينيه :

— كتر خيرك يا « أفندينا » .

ثم وجه القول لولده الذي جلس على الأرض مطرقاً برأسه :

— قم يا على .. قبل يد « أفندينا » .

ولم ينهض على ، بل استمر جالساً في مكانه .. وانتظر الأمير أن ينهض الصبي
ليأخذ يده ، حتى ينفحه بما يكافئ به خدمته الجلى .. وأحس الأب بخرج ، فعاد

يستحثه في لهجة ناهرة :

— قم يا على .. قبل يد « أفندينا » .

وأجاب الصبي وقد طأطأ برأسه :

— لا أستطيع .

وازداد الحرج بالأب ، وأصابه الغضب ، وصاح بالصبي نائراً وهو يجذبه من

ذراعه :

— قم قلت لك .

ولم ينهض الصبي .. وعض شفته السفلى ، وغامت على عينيه سحابة دمع ،

وأجاب في همس :

— لا أستطيع .

وانحنى الرجل على ولده وسأله :

— أيساقبك شيء ؟

وهز الصبي رأسه هامساً :

— لا .

— لم إذن لا تنهض !؟

ورمق الابن الصبية الصغيرة ، الذهبية الشعر .. وقد وقفت ترقبه بجوار

أيها ، ثم همس في أذن أبيه بصوت يخنقه البكاء :

— لا أستطيع النهوض ، حتى لا ترى حجر البتطلون .

(٣)

العبيد والآلهة

لم يزد « الرئيس عبد الواحد » في إلحاحه على الصبى ، فقد كان يعرفه جيداً .
وأنقذ الموقف ولده الآخر الذى يعدو بعد أن أخفى النبلة فى كوم « السبابة » ،
وبعد أن أدرك أن القوم قد شغلهم عن حسابه ما هو أهم .
وتلقفه الرجل فأمره بتقبيل يد « أفندينا » .. وسرعان ما تناول الصبى يد
الأمير ، تناول خبير مجرب ، وقبلها فى سهولة ويسر .
ودفع الأمير يده فى جيبه ، فأخرج بعض النقود ، ودسها فى يد الرجل ، وهو
يقول مشيراً إلى « على » الراقد على الأرض :
— هل أصابه شئ ؟
— لا يا أفندينا .. سليمة بإذن الله ، رضوض بسيطة ، الحمد لله على سلامة
الهائم الصغيرة .
— ضمد جراحه .. واعرضه على الطبيب إذا استدعى الأمر ، وإذا احتجت
لشئ قل لإبراهيم أفندى .
— أكثر الله خيرك يا « أفندينا » وأبقى لنا حياتك .
وكانت « أنجى » تقف متعلقة بثياب المربية العجوز .. التى أخذت تربت على
رأسها فى حنان قائلة :
— لقد نصحتك ألا تركبى العربى ، ولكنك لم تسمعى النصح .. هذه عاقبة
الشقاوة .. إياك أن تعودى إليها مرة أخرى .
ولم تسمع الصبية نصيحة المربية ، فقد كان كل اهتمامها مركزاً فى الصبى
الجالس على الأرض أمام العربى ، معفر الثياب ، مخدوش الركبتين ، وقد خفض

رأسه إلى الأرض حتى كاد يدفنه بين ركبتيه .

وبحركة لا إرادية ، اندفعت وأخذت تربت ظهره في رفق قائلة :

— أنا متأسفة .. متأسفة جداً لأني سببت لك كل هذا .

ولم يرد عليها فقد محا إحساسه بخطورة اقترابها .. واحتمال اكتشافها ينطلقونه .. كل إحساس سواه ، وكانت زجفته من مسة يدها رجفة خوف ، أكثر منها رجفة نشوة .

وأرتج عليه فلم ينبس ببنت شفة .

ولم يبد على الأمير كثير رضا عن اقتراب ابنته من الصبي . وتربيتها ظهره ، ودفعه إلى الضيق بها عامل الكبرياء والتعظيم المتأصل في قرارة نفسه .. السارى في كرات دمه ، والذي يأبى عليه إلا أن يضع هؤلاء الخدم والفلاحين في مرتبة أدنى من مرتبة البشر .. مرتبة وسطاً ، بين البشر والحيوان .. أو مرتبة أعلى من مراتب الحيوان ، وفي حالة سخطه عليهم ، يكونون في أدنى مراتب الحيوان .. أما إذا أصر القانون والعرف على أن يجعلاهم بشراً ، ويعترفاهم بحقوق البشر .. فلا أقل من أن تكون مرتبته هو وآله وذريته أعلى من مرتبة البشر ، مرتبة وسطاً بين الآلهة والبشر ، أو في أدنى مراتب الآلهة ، وفي حالات النشوة والغرور .. أعلى مراتب الآلهة .

ذلك هو الدافع الأول ، الذي دفع الضيق في نفسه ، عندما رأى اقتراب ابنته ، ذات الدم الملكي من الصبي الفلاح .. أما الدافع الثاني فهو الخوف من أن تلوئها كومة القاذورات والحشرات والجراثيم الخفية والظاهرة ، المختزنة في أجساد الفلاحين والسارية في ثيابهم .

ولم يكن إحساس الرجل بالضيق مفتعلاً ولا مقصوداً ، بل هو إحساس طبيعي ، لا إرادی ، ولم يكن وحده المسئول عن الدوافع التي يتركب منها إحساسه ، نحو هؤلاء الفلاحين .. بل كان الفلاحون أنفسهم يشاركونه معظم المسئولية .. كان الأصل مشوهاً ، والمرآة العاكسة في نفسه أكثر تشويهاً .

أما المرأة ، فكانت مرآة عكستها أنانية السلطان والجبروت وسطوة الأسياد على العبيد المتوارثة من الأجيال الماضية ، والتي علمتهم جيلاً بعد جيل ، أنهم أصحاب الدنيا والأرض والمال ، وأتتهم أصل الخليقة ، وغيرهم من المخلوقات كالخيل والكلاب والثيران والفلاحين ، قد خلقوا لمعاونتهم في التمتع بنعم الأرض وللكد في تقديمها لهم سهلة سائغة .

تلك هي مرآتهم .. لا تريهم الغير إلا بهذه الصورة .. أما أصل الصورة .. فقد شوّهته الحاجة والفقر والحرمان والعوز ، بمخلفاتها من جهل بسبل الصحة والحياة الطيبة ، والمظهر الحسن ، وعجز عن تحقيقها لو وجدت المعرفة بها . وشوّهه أكثر من ذلك ، خلق الخضوع والخنوع ، المتوارث من الأجيال السابقة ، التي تعودت حياة العبيد جيلاً بعد جيل ، وخلق الضعة والسرقة والطمع ، والخيانة والنيمة ، وغير هذا من مركبات سوء النفس التي خلقتها الحاجة ، والمذلة والجهل ، وانعدام وسائل تربية النفوس .

تلك كانت الدوافع التي دفعت الأمير إلى الضيق باقتراب ابنته من الصبي .. ضيقاً لم يستطع إحساسه بالجميل الذي أسداه الصبي أن يصدّه ولا أن يقاومه ، فصاح بالصبية :

— أنجى .. عودى إلى البيت .. خذني يا دلبار .

وتركت « أنجى » عنياً ، وعادت متباطئة إلى مريبتها ، وعندما مرت بالريس « عبد الواحد » الذي وقف منكس الرأس أمام الأمير ، رفعت رأسها الصغير وتساءلت في قلق :

— ما له لا ينهض ولا يتحدث .. أبه شيء ؟

وهز الرجل رأسه بالنفي واقترب ثغره عن ابتسامة طيبة ، وأجاب في صوت خفيض حتى لا يسمع على :

— لا يا ست هانم ليس به شيء .. إن بنطلونه هو الذي به رقعة !!

ومدت المربية يدها فتناولت يد الصغيرة ، وسارت متجهة إلى القصر ، وما

لبث ركب الأمير أن أخذ يتفرق ، وذهب كل إلى سبيله .. وعندما اطمأن « على » إلى خلو المكان ، نهض تابعاً أباه وأخاه .. عائدين إلى الدار ، بعد أن غسل ساقيه ويديه ووجهه في حوض السوبة .

وكانت إجابة الرئيس « عبد الواحد » ما زالت تلف في ذهن الصغيرة ، دون أن تجد لها مستقراً ، ولم تجد غير مريبتها لتباحث معها في مسألة البنطلون والرقعة .. والصبي الطيب الشجاع اللطيف الذى يأبى أن يقوم أو يتحدث .

وسألت الصبية وهى تصعد السلم الرخامى الكبير :

— ما هى الرقعة يا دادة ؟!

— رقعة ؟ أية رقعة تعنين ؟

— الرقعة التى فى البنطلون ؟

— آه .. إنها قطعة من القماش توضع فى حجر البنطلون .

— وهل هى ثقيلة إلى هذا الحد ؟؟

— أى حد تعنين ؟

— الحد الذى يمنع المرء من النهوض ؟

— بالطبع كلا .. بلا شك .

— وهل تمنع الناس من الحديث ؟

— لا .. لا ... إنها قطعة قماش عادية .

— ولماذا يضعونها فى حجر البنطلون ؟

— لسد الخروق التى به .

— ولماذا يضعون به الخروق ؟

— إنهم لا يضعونها .. هى التى تنشأ من تلقاء نفسها ، إذ يتآكل حجر

البنطلون من كثرة الاستعمال .

— ولماذا لا يغيرونه بدلا من أن يضيفوا له رقعة ؟

— لأنه ليس لديهم سواه .

- ولماذا لا يشترون سواه ؟
— لأنهم لا يملكون نقوداً .
— ولماذا لا يحصلون على النقود ؟
— لأنهم لا يستطيعون .
— ولماذا لا نعطيهم نحن ؟
— من هم ؟
— عم عبد الواحد الجناينى !!
— إنه يأخذ قدر عمله .
— ولكنه لا يستطيع أن يشتري بما يأخذ بنطلوناً جديداً لابنه ، بدل هذا البنطلون الذى يمنعه من النهوض والحديث .. لماذا لا نعطي الرجل ما يكفيه ؟
مادام عندنا نقود كثيرة .. لماذا لا يأخذ قدر حاجته ؟
— لأن حاجته غير محدودة ، ولم يكن هناك ما يجبره على أن يلبس ابنه بنطلوناً ، ولا أن يذهب به إلى المدرسة . يجب أن يعيش هو على قدر ماله ، ويجب أن يأخذ من المال قدر عمله .
— وهل نأخذ نحن من المال قدر عملنا ؟ إن لدينا النقود كثيرة .. ولكننا لا نعمل شيئاً !
— لقد عمل أجدادك الكثير فى سبيل الحصول عليها ، ويعمل أبوك الكثير فى سبيل الاحتفاظ بها .. ولو كان يعطي النقود للناس على قدر حاجتهم لما بقى لكم شيء .. إن الناس طماعون .. لا تقف مطالبهم عند حد .
— ولكننا نستطيع أن نعطيهم بنطلوناً جديداً .. إن لدى أخى علاء بنطلونات كثيرة تصلح له ، ولست أظنه سيطمع فى أكثر من واحد منها .
وكانا قد عبرا الطريقة المستطيلة ، التى قامت الأعمدة الرخامية على جوانبها وفرشت فى منتصفها سجادة طويلة حمراء ، وبلغا الصالة الرحبة التى سنويت فيها الأرائك الوثيرة ، والسجاجيد العجمية السميكية ، وعلقت على جدرانها الصور الزيتية الرائعة .. وتدلت من سقفها الثريات ذات الشطب البلورية البراقة ، وفى مواجهة الداخل سلم فخم من خشب « الأرو » وضع عند أوله تمثالان من

البرونز أحدهما للأمير والآخر لأبيه .

وهمت المربية والصبية بصعود الدرج متجهتين إلى حجرة الصغيرة ، عندما وقع بصرهما على علاء « الابن الأكبر للأمير » الذى يبلغ الرابعة عشرة ، وقد أمسك بقطة « أنجى » بعد أن ربطها من قدميها وساقيها ، وعلقها عند آخر الصالة ، وأمسك بقوس ركب فيها سهماً وأخذ فى شد القوس .

واندفعت « أنجى » إليه تجذب القوس من يده صائحة :

— إياك أن تطلقه .. ألم يكفك أن أقيمت « ميمى » من الشباك فقتلناها .
وضحك الصبى ذو الوجه الأصفر .. الحاد القسمات .. ورفع رأسه إلى الوراء لينزع خصلة شعره الصفرة المتهدلة على جبينه ، وأجابها وهو يجذب القوس من يدها :

— لا تخشى أيتها البلهاء .. إنى لن أصيبها .. فأنا أطلق السهام حولها .. إنى أستطيع أن أدع السهم يمر بجوار أذنيها دون أن يصيبها .. انظرى .
ولكن « أنجى » تعلقت بذراعه .. صائحه .. تستنجد بمربيته :
— دادة .. الحقى .. سأجعل بابا يقتلك إذا قتلها كالأخرى .
— قلت لك لن أقتلها .. دعينى .

وقبل أن تتدخل المربية سمعت خطوات الأب تقترب من الطريقة فترك الصبى لها القوس .. وانطلق يعدو صاعداً السلم إلى حجراته .. ورمت « أنجى » القوس .. وأسرعت تفك قطتها وتضمها إلى صدرها فى حنان. ثم سارت تتبع مربيته إلى أعلى .

ودلف الأمير إلى القاعة .. يتبعه إبراهيم افندى ناظر الدائرة ، واتجه إلى باب يقع فى يمين الداخل يفضى إلى حجرة مكتبه ، حيث رصت آلاف من المجلدات السميكة السوداء فى دواليب ركبت فى الجدران . وتوسط الحجرة مكتب أثرى ثمين من طراز « كوين آن » ابتاعه من أحد مزادات باريس منذ بضعة أعوام ، مواجهة المكتب مدفأة ، وضعت فوقها لوحة زيتية كبيرة لزوجته الراحلة .

وجلس الأمير إلى مكتبه ، ووقف الرجل الضئيل الجسد ، المغضن الوجه ، مطأطئ الرأس أمامه ، وقد أمسك بملف محشو بالأوراق .
وقال الأمير :

— ماذا تم في التحصيل ؟

— بطيء جداً يا « أفندينا » .

— طبعاً .. ما دمت تتبع معهم تلك الطرق اللينة المائعة .. قلت لك ألف مرة
إنهم طماعون لا ينفع معهم غير الكرباج .. إنهم سلاله العبيد الذين أخذوا على
كرايبج المماليك .. سأعاملهم كما عاملهم أجدادى ، سأشوى ظهورهم واحداً
واحداً ، وأنت على رأسهم .. أيها الحيوان النتن .
— لو تنازلنا عن بعض ..

وصرخ الأمير حانقاً وقد اندفع الدم إلى وجهه :

— لن أتنازل عن مليم واحد .. أنت تتأمر علىّ معهم .. تريدون أن
تسرقوني .

— يا « أفندينا » إن الأزمة عامة ، والمحاصيل مكدسة في الأراضى لا تجد من
يشترىها .

— سأخذها كلها .. سأستولى عليها .

— لن يفيدنا هذا .. إنها ستلف عندنا ، ولن نستطيع تصريفها .. إن ثمنها لا
يوازى مصاريف الشحن .. لا بد لنا من التضحية .

— أجل .. لا بد لي أن أضحي من أجل هؤلاء الكلاب الطماعين الذين لا
تجدى فيهم النعمة ، ولا ينفع المعروف ، لو استطاعوا أن يأخذوا الأرض بلا ثمن
لأخذوها .. اسمع خفض الإيجار عشرة في المائة .. هذه المرة فقط .
وبدا التردد على وجه إبراهيم أفندى . وتمتم ببعض كلمات غير مفهومة فصاح
به الأمير :

— ماذا تقول ؟

— أقول . إن العشرة في المائة .. لا تكفى .. إن « أفندينا » ليس لديه أية فكرة عن حالتهم .. لقد خربت بيوتهم .

— لتخرب بيوتهم .. وليذهبوا إلى الجحيم جميعاً .. ولكن بيتي لن يخرب .. سأسحب منهم الإيجارات جميعها وسأزرع الأرض بنفسى ، سأطردهم حتى يعرفوا أى جميل كنت أصنعه بهم .. لولاى ل ماتوا جوعاً .. هذا القطيع من المرضى والكسالى .. إن أى حيوان أصلح من أى آدمى فيهم ، وأنت على رأسهم .. أنت شيخ العصابة .

— إني يا « أفندينا » أريد أن أعمل ما فيه الصالح .

— ومن أجل ذلك تريد تخفيض الإيجار ، وتريد سرقتى ونهبى .. تريد أن تضع أملاكى وتبدد ثروتى ، ولكن أؤكد لك أنى لن أترك مليماً واحداً ينهبه هؤلاء اللصوص .. أسمع ما أقول ؟

— أجل يا « أفندينا » .

— أنا أكره أن يستغلنى أحد ، ولا سيما أنت بالذات ، اذهب الآن ، وقل لهم إنى سمحت لهم بهذا التخفيض ، على أن يكون الدفع خلال مدة أقصاها آخر الشهر .

— حاضر يا « أفندينا » سأبلغهم هذا .. ولعلمهم يستطيعون بيع المحاصيل خلال هذه الفترة .

— لبيعوا أبناءهم .. إذا لم يستطيعوا أن يبيعوا المحاصيل .. أنا لا يهمنى غير الدفع .

— أمرك يا أفندينا .

— وكيف حال الحصان ؟

— البرق ؟

— أجل .

— ما زال فى الإسطبل .

- ألن يتمكن من الذهاب إلى السباق بعد غد ؟
- لقد سألت عليه « عبد العال » رئيس الإسطل فأنبأنى أنه لا يستطيع أن يقدر بالضبط ، لأن سائسه مريض .
- يجب أن تعتنوا به العناية الكافية .. لا تبخل بالصرف عليه حتى يشفى ..
- يجب أن يشفى .. أتفهم ؟
- الشفاء من الله يا « أفندينا » ، ولكنى سأبلغه أوامركم وأحاول أن أحضره من بيته .
- من هو ؟
- السائس يا « أفندينا » .
- أيها الغبى .. إنى أعنى الحصان .. لا السائس ، الحصان هو الذى يجب أن يشفى .. مفهوم ؟
- مفهوم يا « أفندينا » .
-

(٤)

كبرياء ضائعة

صعدت « أنجي » إلى حجرتها حاملة قطتها ، وهي تضمها إلى صدرها ..
وقد أخذت تتحدث إليها وهي تربت ظهرها برفق قائلة :
— كان سيقتلك هذا الشرير .. لا تغضبي منه يانونا .. إن تلك هي
طبيعته .. يميل دائماً إلى الأذى .. ولا يعبأ إلا بإرضاء نفسه .. ولكن أنت
السبب فيما حدث .. ألم آمرك بالبقاء في الغرفة ؟! هذا جزاء الشقاوة .. كدت
تموتين بسبب الشقاوة . أليس كذلك يانونا ؟

— وأنا أيضاً كدت أموت .. ألا تعرفين ماذا حدث لي ؟

— لقد ركبت التروली .. واندفع يجرى بي .. وكاد يلقي بي في التربة .. لقد
دفعه الشيطان . أجل يانونا .. إن الشيطان هو الذي يفعل بنا الأذى دائماً ..
هكذا قالت دادة .. نصحتني ألا أركبه فلم أستمع لنصيحها .. تماماً كما فعلت
أنت معي .. وكدت أموت كما كدت تموتين .. لولا أن أنقذني كما أنقذتك ..
أتعرفينه ؟

— إنه « علي » ابن الرئيس « عبد الواحد » الجنائني .. ذلك الصبي اللطيف
الهاديء .. لقد رمى بنفسه أمام الترولى .. ودفعه الترولى في صدره ..
هكذا .. بطاخ .. وألقى به على الأرض .. لقد صعب علي يانونا ، فذهبت إليه ،
وربت على ظهره وسألته عما به ، ولكنه لم يرفع إلي وجهه ولم يجيني .. أتدرين
لماذا ؟

— لا .. لا .. لقد ظننت أنا أيضاً هذا ، ولكنى عرفت السبب من أبيه بعد ذلك . ماذا تظنيه ؟

... —

— حزرى ؟

... —

— غلب حمارك .. إنه حجر البنطلون .. أجل والله يا نونا .. لقد كان بحجر بنطلونه رقعة ، وخجل أن أرلها ، وماذا يخجل من ذلك يا نونا ؟ إنه عبيط .. أليس كذلك ؟

... —

— أنا أيضاً قلت هذا ، ولكنه مخلوق عجيب .. لقد كان فى بنطلونه المرقع ، أفضل عندى كثيراً من أخى « علاء » وهو فى بنطلونه السليم . على أية حال ، لقد فكرت فى فكرة هائلة . هات أذنك حتى أسر لك بها . ووضعت شفتيها على أذن القطعة ، وأخذت تهمس :
— ما رأيك فى أن نسرق بنطلوناً من أخى علاء ونعطيه له ؟

... —

— السرقة عيب ؟ ومن عمل الشيطان ؟

... —

— لا .. لا .. يا عبيطة هذه ليست سرقة .. هذه سلفة .. سنقترض من أخى علاء بنطلوناً وسنسلمه له .. ما رأيك ؟

... —

— اتفقنا إذن .. أنت قطعة شريفة جداً يا نونا .. سنتنظر حتى نتناول الغداء وينام أبى ، ويذهب علاء إلى الحديقة ليصطاد بالبندقية ، وتذهب دادة إلى حجرتها ، وأخبرها أنى سأجلس فى حجرتى لعمل الواجبات لأن إجازة (الإيستر) أوشكت على الانتهاء ، والمدرسة ستفتح يوم الاثنين ، ثم نتسلل إلى حجرة علاء ونسرق البنطلون .

... —

— لا .. لا .. متأسفة يا نونا .. أقصد نقترض البنطلون .

... —

— هل أعرف بيته ؟ أجل .. إنه يسكن فى بيت من بيوت العزبة وهى قرية من هنا ؟ لا .. لا .. لن يرانا أحد وسنعود بسرعة قبل أن يستيقظ أبى أو يحس بنا أحد .

واستلقت الصبية على الفراش ، وأخذت تضم القطة فى فرح وتردف قائلة :
— سيأخذ البنطلون ويرتديه .. ثم يقف ويتحدث .. إلى أحب أن أراه وأن أحدثه .. إنه لن ينجعل منى بعد الآن .. أليس كذلك ؟

وحلّ موعد الغداء ونادت المربية « أنجى » لكى تهبط لتناول الطعام .
وفى حجرة المائدة الفخمة .. جلس الثلاثة : الأمير على رأس المائدة ، وعلى يمينه « علاء » ، وعلى يساره « أنجى » ، وفى مواجهته كرسى خال كانت تجلس عليه الأم .

وعلى المائدة رصت الأطباق الصينية التى رسم عليها شعار الأمير ، والفضية التى نقش عليها نفس الطابع .. ودفع باب زجاجى مؤد إلى الأوفيس المتصل بالمطبخ ودخل إلى الحجرة خادم نوبى قد ارتدى سترة خضراء .. محلاة بالقصب .. وسروالاً فضفاضاً عند القدمين .

وأخذ يوزع الطعام وقد أمسك « السرفيس » بيساره ووضع يمينه وراء ظهره .. وانحنى ببطء مقدماً صحيفة الطعام بمهارة عجيبة .

وتناول الرجل وولداه نصيهما من الطبق .. وقد شرد كل منهم بذهنه فيما يشغل باله .. الأب فى الإيجار الذى يطمع للصوص السفلة من المستأجرين فى نهبه ، وعزمه على أن يحافظ على ثروته بكل ما يملك من جهد وقوة من أولئك الطامعين فيها .

والابن فيما يمكن أن يصيده من دقائش وعصافير بالبندقية الجديدة التى ابتاعها .

والابنة فى البنطلون ذى الرقعة ، وفى البنطلون .. الذى ستسرقه .. أستغفر الله .. الذى ستقرضه .

وفى نفس اللحظة .. كانت مجموعة أخرى تجلس لتناول الطعام . على مائدة أقل تواضعاً .. مائدة أرضية .. أو باسم آخر « طبلية » ، كانت « أم على » زوجة « عبد الواحد » قد أتمت ترتيبها .. وهى لا بد أن ترتبها حتى لو كان الأكل « دقة » ، وكانت المائدة فى هذا اليوم حافلة . فى يوم الجمعة هو اليوم الوحيد الذى يتناول الجميع فيه غداءهم معاً .

كانت تتوسط « الطبلية » إوزة توسدت حشية من الثريد ، وقد تصاعد الدخان من كليهما .. وكانت « أم على » قد أمضت طوال الأشهر الثلاثة الماضية فى تربية الأوزة و « تزغيطها » حتى اكتنز لحمها وكسته طبقة سميكه من الشحم .. كانت لديها صفيحة من الملوخية التى جففتها من الصيف الماضى .. فاستغلت فى صنعها مرقة الأوز ، واستغلت بقيته فى عمل الثريد .

ولقد ارتاعت المرأة عندما أبصرت بالخدوش التى فى وجه ابنها .. والرضوض التى فى قدمه .. وضربت بيدها على صدرها فى فزع وصاحت :

— مالك يا بنى ؟!

وأجاب عبد الواحد :

— لا شيء .. خدوش بسيطة .. نتيجة سقوطه على الأرض .

— ألم أقل لكما .. كفا عن الشقاوة .. وأنت يا على الذى أقول عليك هادئ

تصنع بنفسك هذا ؟ تعال . أرنى ما بك ؟!

— إنه لم يتشاق يا أم على .. لقد أنقذ حياة المهام الصغيرة ابنة أفندينا .. وأنقذ

مستقبلنا الذى أوشك أن يضيعه حسين .. ولولا هذه الخدوش والكدمات .. لما

استطاع الولدان أن يذهبوا إلى المدرسة .. بل لما استطعنا نحن أن نحصل على قوتنا

غداً .

ثم أخذ يقص عليها القصة .. وختمها بأن أطلق ضحكة غبطة ورضا ،

وأردف قائلاً :

— الحمد لله .. ماذا أعدت لنا للغداء ؟

— ذبحت الأوزة وعملت على مرقها ملوخية ، والآن دعوني حتى أقدح السمن للتقلية ، وأعد لكم الفتة .

وألقت الأم نظرة أخيرة على « على » وهو يسير متثاقلاً إلى داخل الدار وقد بدا حجر البنطلون الذى وضعته له ممزقاً وصاحت به :

— لقد تمزق حجر البنطلون الذى ركبته .. سأعيد خياطته ثانية !

وأجاب الولد فى يأس واستسلام :

— افعل ما تشائين .

وجلست الأم فى مطبخها الضيق .. على كرسى منخفض وأخذت تدق فى جرن خشبى أسود صغير .. خليطاً من الثوم والكسيرا والملح ، وأمامها موقد الغاز يئز .. ومن فوقه طاسة سوداء أخذت كتلة السمن التى فى قاعها تنصهر فى ببطء كما تذوب قطعة الجليد فى حرارة الشمس .

وذهب الأب إلى حجراته فأخذ فى إبدال ثيابه استعداداً للوضوء وصلاة الظهر بعد أن فاتته صلاة الجمعة ، وقد بدا راضياً قرير العين ناعم البال ، بعد أن ضمن قسط المدرسة ، واطمأنت نفسه إلى أن أمنيته الكبرى — هى أن يرى ولديه موظفين محترمين — فى طريقهما إلى التحقيق ، وأن الله لم يتخل عنه وأنه ما زال يدبر أمره .

واتجه الصبيان إلى حجرة صغيرة فرش فى أرضها حصير ، ووضع فى جانبيها سرير ذو أعمدة حديدية رفيعة ، ركبت عليها « ملة » خشبية فوقها حشية ولحاف قديم ، وفى ركن من الحجرة وضعت منضدة خشبية ، تناثرت عليها بعض كتب الكيمياء والتاريخ الطبيعى وكتب الإنجليزية والترجمة ، ورواية العبرات ، ومجنون ليلى ، وقمبز ، وبضعة أعداد من مجلة الفكاهة .. والبلاغ الأسبوعى .. وورق نشاف ، ومثلث ومسطرة .. ومصباح غاز زجاجى ..

وحول المنضدة مقعدان من الخيزران .. وعلى الحائط علق مشجب خشبي وضع عليه جلبابان وطربوش .. وجاكتة صغيرة وفانلة كرة مخططة .. وفي مواجهة الحجره دولاب خشبي قديم ذو مرآة مشدوخة مموجة .. وقد ألقى أمامه حذاء كرة .. خرج من فوهته جورب مخطط بلون الفانلة .. و« دمبلز » حديدي صغير .

كانت الحجره المتواضعة مأوى الصغيرين ، حيث يرقدان ويستذكسان ويلهوان ويقرآن .. وحيث يختليان لتبادل الشكوى والأسرار والصدائقة والعراك .

دخل « على » الحجره يجرساقية ، وحملا من الهم يرزح تحت وطأته ، وارتمى على الفراش مخفياً وجهه في النوسادة ، وبذهنه خليط مشوش مضطرب من الأفكار ، وب نفسه حشد من الأحاسيس المتناقضة ، والمشاعر المتباينه ، جعلته كالراقد في دوامة .

لم يكن يدري ما به .. أهى سعادة أم شقاء ؟! خرف أم طمأنينة ؟! فرح أم حزن ؟! استقرار أم هيمان ؟!

كان يجب أن يكون سعيداً لأنه أنقذ حياتها ، ألم يكن هذا هو ما يتوق إليه دائماً في أحلامه وأوهامه ؟! ألم يرها دائماً بعين الوهم وهي في خطر محقق بها يوشك أن يودى بحياتها ، وهو مندفع إليها لإنقاذها منه ؟

أجل .. أجل .. إن هذا هو ما كان ينعم به في أحلامه .. ومع ذلك لا يحس منه الآن كثير متعة ولا هناء .. بعد أن تجسد في واقعه .

لشد ما يكره هذا الواقع فليس أقدر منه على تشويه الأحلام .. إنه حقاً قد أنقذ حياتها .. ولكن لم تكن تلك هي الصورة التي يحلم أن ينقذها بها .. أمن هذه الصورة من صورته على صهوة جواده يسابق الريح وهي بين ذراعيه ؟! أو صورته مفتول العضلات يعلو الموج وقد تعلقت بكتفيه !! أو صورته يذود عنها بسيف بتار وقد علق نظرها به في إعجاب وتقدير !

أين من كل تلك الصور البراقة الزاهية .. صورته وهو ملقى على الأرض معفر الوجه ، ملوث الثياب ، مخدوش الساق ، خافض الرأس ، لا يجسر على النهوض خشية أن ترى حجر بنطلونه ؟

أين من صور أوهامه الجميلة ، صورة واقعه الذليل ، الذى تمت مذلتة بحفنة النقود الذى مدّ بها السيد يده إلى أبيه ، ثمناً للإنقاذ .

ولم يكن هو يستطيع أن يمنع شيئاً مما وقع ، بل كان عليه أن يذعن لكل شيء ، وكان عليه أن يقبل الأمر قبول المستسلم اراضى .

لقد طوّح القدر بها في سبيله ، ودفع بالعربة تلك الدفعة القوية التى كادت توردها حتفها ، ولم يحاول هو أن يفكر في حجر بنطلونه .. بل اندفع لإنقاذها بلا إرادة ولا وعى .. ولم يستطع أن يمنع العربة من أن تدفع بجسده الصغير ليتدحرج على الأرض في الثرى والطين تتححو منه كل سمات الآدميين .. وأخيراً لم يستطع أن يمنع أباه من أخذ النقود لأنه لم يكن يجسر على رفع بصره أو التحدث .. ولو استطاع لما فعل .. لانه يعرف قيمة هذه النقود ، التى يكره هو أخذها ، فى نفس أبيه .. وهو يذكر ما قاله له من أنه يريق ماء وجهه طائعاً مختاراً .. حتى يوفر عليه هو إراقة ماء وجهه من أجل أبنائه .

لقد أراضى الجميع بما فعل ، إلا امرءاً واحداً .. هو نفسه .

إنه يحس بأكداس من الحزن ترسب في قراراتها .. لأن كل شيء يشعره أن البون بينهما شاسع .. وأنه حتى بعد أن حقق له القدر بعض ما حلم به .. قد وجد نفسه في أدنى القرار .. وأنها ما زالت في أقصى القمة .

لعن الله تلك الكبرياء الكامنة في نفسه .. التى تأبى إلا أن تريه نفسه بأعظم وأكبر من حقيقتها .

إن مصابه في أنه يأبى أن يضع نفسه .. حيث هى كائنه .. ويصر على أن يسمو بها إلى أعلى .. لأنه يراها عزيزة القيمة .. كبيرة القدر .. رفيعة المقام .. وكان يعزّ عليه أن أن يخفض من قدرها ، في سبيل أى إنسان ، حتى ولو كانت

هى . وهكذا كان يشعر ، بعد كل ما حدث ، وبعد كل ما وصفوه به من أنه رجل شجاع وهام .. إلخ . وبعد كل ما أعطى للأمير ولأبيه ولأمه ولأخيه .. من جميل أزاح عنهم غمة اليأس ، يشعر أنه قد عاد مهزوماً كسير القلب حزين النفس .

شيء واحد هو الذى كان يسبب له عزاء يكسر من حدة ذلك الحزن الذى يريزح تحته ، وهو إحساسه بأن كل ما حدث ، مهما أساء إلى كبريائه وتسبب فى مذله ، قد انتهى بإنقاذ حياتها ، وأن النتيجة النهائية ، هى أنها تنعم بالحياة ، وكان محتملاً — لولا ما فعل — أن تكون الآن

وأغمض ذهنه حتى يبعد عنه صورة العربة مندفعة بها إلى التربة . أجل ! فى سبيل حياتها ! يستطيع أن يحتمل نتيجة كل ما حدث ، ولخير له أن تراه يسطلون ذى حجر من أن يفقدها كلية ، وهى بعد هذا كله لم تر حجر البنطلون ، أو هذا هو ما يرجوه ، وهو آخر أمل فى العزاء . وانتهت معركة الأفكار المتصارعة فى ذهنه ، والمشاعر المتضاربة فى نفسه .. بعبرات أحس بها تسيل ساخنة من مقلتيه ، وتنحدر فى صمت على الوسادة التى أخفى بها رأسه .

وقطع عليه بكاءه الصامت صوت أخيه يدخل الحجرة ضارباً بقدمه أقرب الأشياء فى طريقه ، منقباً عن فردة حذاء كرة القدم صائماً بأخيه : — هل يمكن أن أستعمل حقيقتك فى الغد لأحمل فيها لبس الكرة ؟! إن لدينا مباراة مع الإبراهيمية .

ومد « على » يده يمسخ دمه خشية أن يبصره حسين ، وبلغ ريقة حتى يسترد طبيعة صوته .. وحتى لا تبدو عليه دلائل بكاء .. ثم قال فى رد مقتضب :

— إنها عندك تحت المنضدة .

— هل تعلم أنى سألعب فى التيم الأول غداً ؟

— حقاً ؟

— إن عبد الرحمن مريض وقد أخبرنى زكى أفندى أنى سأقف بالك شمال بدله .

ولم يجب « على » . واستمر حسين ثرثرته وهو يبحث عن فردة اللذاء :
— ستكون مباراة حمامية برغم أنها غير رسمية ، ولكنها ستظهر قوة الفريقين .. الإبراهيمية هذا العام من أقوى المدارس .. فقد حوّل إليها سنتر هاف جديد من طنطا يقولون إنه هائل .. سأخرج باكراً بعد الحصّة السادسة .. بل ربما لا نحضر الحصص التى بعد الغداء كلها .

وكان ذهن « على » قد شرد مرة أخرى ، ولكن أعاده من شروده سؤال أخيه :

— أستمشهد المباراة ؟

وأجاب فى اقتضاب :

— لا ..

— يا غبى .. ألا تشاهد المباراة التى سألعب فيها لأول مرة فى الفريق الأول ؟
إن المدرسة كلها ستشاهدنى .. سأثبت لهم أن محسوبك خير من يصلح سنتر هاف بعد خروج سمبو .

وأخذ حسين يسير مختالاً فى الحجرة الصغيرة وهو يردف قائلاً :
— تصوّر محسوبك سنتر هاف بالك المدرسة على سن ورح .. لا بد أن أطالهم بزوجين من الأناكل وزوجين من الشناجير .. إنها تجعل منظر الساق وجيهاً .. ألا ترغب فى أن تجرب لبس الأناكل والشناجير ؟

وأجاب « على » مرة أخرى فى اقتضاب :

— لا .

و لم تعجب حسين تلك الطريقة المقتضية في الرد ، فقد كان يريد من يبادل له
الثروة ، فسأل أخاه :

— مالك يا على .. أما زالت الواقعة تؤلمك ؟
— لا .

— إذن ماذا بك ١٩ .. لماذا تدفن رأسك هكذا في الوسادة ١٩ قم .
وأقبل عليه محاولاً جذبته من كتفيه ، وكان الاثنان رغم عراكهما الدائم يحب
كل منهما الآخر حباً شديداً .. فقد كانا أشبه بالتوءمين ، متلازمين في المدرسة ،
وفي الاستدكار ، وفي الفراش ، لا يفرق بينهما غير اللعب ، فقد كان لكل منهما
هوايته التي تلائم طبيعته .. كان « حسين » يهوى الألعاب الجسمانية العنيفة ككرة
القدم وألعاب القوى . أما « على » فكان أميل إلى الهدوء ، محباً للقراءة ، كثير
التفكير دائم التطلع إلى الطبيعة .

وحاول « على » أن يمسك بالوسادة التي دفن فيها رأسه . ولكن نداء أمهما
عليهما لكي يقوما للغداء اضطره إلى النهوض . ولح حسين آثار البكاء على وجهه
فصاح في فزع :

— ماذا بك يا على ١٩ لا بد أن بك شيئاً .. إنك تبكي !!

— قلت لك ليس بي شيء .. لا تضايقني بالحاحك .

وكانت الأم قد أعدت « الطبلية » وانتهى الأب من صلاته ، وجلست
الأسرة تتناول الطعام وقد أخذوا يتبادلون الثروة عدا « على » الذي بدا عليه
الوجوم وتساءلت الأم .

— ما بك يا على ؟

وأجاب الأب بدلاً منه :

— لا بد أنه متعب من الواقعة .. دعيه يرقد في الفراش بعد الغداء .

وكان هذا هو أقصى ما يتوق إليه « على » .. ولم يكده يزدر بدفع لقمات حتى
ترك « الطبلية » رغم الحاح أمه .

ورقد في الفراش .. ويبدو أنه راح في غفوة قصيرة استيقظ منها على صوت عجيب .. بلغ من عجبه أنه أغمض عينيه مرة ثانية وهو يحزم أنه في حلم .
كان صوت « أنجى » ، ولم يستطع أن يدرك أية معجزة خارقة ألقت بها في دارهم الحقية في ذلك الوقت ، ولكنه أخذ ينصت مرهفاً سمعه محاولاً التقاط الحديث .

وسمع صوت أمه تقول :

— أتكلفين نفسك مشقة الحضور إلى هنا ؟ لقد زارنا النبي .. الهام الصغيرة بجلالة قدرها تزورنا .. تفضلي يا سيدتى .

— متشكرة .. لا أستطيع البقاء طويلاً .. سأنصرف الآن قبل أن يسأل عني أبى .. خذ يا عم عبد الواحد .. أعط ابنك هذا البنطلون ليرتديه بدل البنطلون المخروق .. ولا تصنعى له حجر عندما يخرق ، حتى لا ينجل منه ، بل اطلبى منى بنطلونا آخر .

وأحس « على » كأن مطرقة هوت على رأسه .. لقد ضاع له آخر أمل كان يرجوه في الاحتفاظ بكبريائه .. لقد عرفت إذاً سر بنطلونه ، وعرفت سر خجله .. كيف يستطيع أن يراها بعد ذلك ؟! بل كيف يجسر أن يراها حتى في أوهامه وأحلامه ؟!

(٥)

سد منيع

مضت بضعة أعوام على واقعة الترولى ، ولم يكن « على » قد قبل ارتداء البنطلون الذى منحته إياه الأميرة الصغيرة ، إذ كان يحس كأن طعنه حادة سددت إلى كبريائه ، وآل البنطلون إلى حسين الذى ارتداه قريراً هائلاً .. واختال به بين إخوانه مزهواً فخوراً .. وفضل « على » أن يبقى منطوياً بنطلونه القديم تضيف إليه أمه الرقعة تلو الرقعة ، وفى كل مرة كانت تنظر إليه ، وتمصص بشفتيها ، ثم تطلق تنهيدة أسف وتتمم قائلة :

— أصحاب العقول فى راحة .. كان أمامك البنطلون الذى أهديته إليك « البنية » جديداً فاخراً ، ولكن ماذا نعمل وأنت ترفض النعمة وتمسك بأهداب الفقر .

وفى خلال تلك المدة لم يبصر « على » أنجى ، إلا لماماً ، وأقلع عن الذهاب مع أبيه إلى القصر .. بل لم يحاول أن يقترب من أسوار الحديقة . إذ كان يحس من المنطقة كلها خوفاً شديداً .. كأن بكل شبر منها لغماً .. سينفجر فيه إذا وطئها قدماه .

لقد اعتبر ما وقع فى ذلك اليوم ، من اكتشاف الصغيرة أمر بنطلونه ، ومن اطلاعها على مظاهر الفقر والفاقة البادية فى دارهم ، سداً منيعاً قام بينهما ، ليس فى الواقع الملموس ، فقد كان السد قائماً بطبيعة أوضاع الحياة ، ولكننا نعى أنه قام بينهما فى الأوهام اللذيذة والأحلام المشتهاة .

لقد جعلها السد الجديد ، أبعد من مرمى أحلامه .. وأنأى من منال أمانيه ، التى يؤنس بها وحدته ، ويجمل بها أفكاره .

استيعدها بتاتاً من ذهنه ، ووأد طيفها في فؤاده ، وصلبه في قلبه ، وكان عليه — لكي ينجح في ذلك — أن يعلم نفسه كرهها ، وأن يزيل عنها كل بريق وبهاء كان يحيطها به ويضيفه عليها .

ونجح الصبي في عملية الصلب والوَأْد ، وعما من نفسه كل أمل خائب ، وأمنية سرايية برّاقة .. واندفع يعدو من حياته في طريق ضيق الجنبات ، مستقيم الاتجاه ، محدود المرمى ، واضح الهدف ، هو طريق الدراسة .

كان يدفعه قول أبيه ، إنه يريد أن يجعل منه موظفاً محترماً ، وإن الضابط أو المهندس أو الطبيب ، أفضل كثيراً من الجنائني ، ولقد أراق أبوه ماء وجهه لأجل أن يدفعه في الطريق ، وحرام عليه أن يريق ماء وجه أبيه سدى .

سيكون موظفاً محترماً ، من أجل أبيه الذي أراق ماء وجهه ، ومن أجل أمه الصابرة ، الكادة الكادحة التي تعرف كيف توفر المليم من قوتها .. ومس ملبسها .. ومن عرقها .

ومن أجل نفسه الذليلة بينطلون مخروق ، المهانة « بطليّة » خفيضة وحصير متواضع ، وقرش غير كائن في جيبه يجعله يفر من صاحبه ، عندما يذهبون لشراء مرطب من « كنتين المدرسة » .. خشية أن يعرفوا أنه لا يملك مليماً ، وخشية — شر من ذلك — أن يتطوّع أحدهم لدعوته ودفع ثمن ما يتناول ، ومن أجل قرش كائن ، ولكنه يحتفظ به لما هو أجل ، فيقطع المسافة من مدرسته إلى المحطة سيراً على قدميه حتى يوفر قرشه ولا يصرف في العودة غير أجر القطار .

من أجل نفسه الذليلة بالصمت عند ما يتحدث الرفاق عن يسوتهم وذويهم .. ويطلب هو شفّته عندما يجد أن المقارنة مخجلة مروعة .

ومن أجل نفسه الذليلة بالفرار عندما يسأله الصبية أين يسكن ، فيقول في ضاحية كذا ، فيقولون إنهم سيحضرون إليه لمشاهدة الريف ، ولركوب الخيل ، وصيد السمك والعصافير ، وتناول الغداء .

الحمقى .. الخاييل .. من يظنون !! ومن يظنون والده !! أى خيل ؟ وأى

سمك وعصافير ؟ وأى غداء ، غداء الدُّقَّة على الطبلية ؟
ويفر منهم ، وهل يملك إلا الفرار ، أو الفضيحة ؟
أجل ! سيكون موظفاً محترماً .. من أجل أبيه ومن أجل أمه ، ومن أجل
نفسه ، ومن أجل .. !

لا .. لا .. لن يسمح لنفسه بهذا السخف في التفكير ، لن يدعها مرة أخرى
تتخطى السد المنيع لتعطل على وادى الأحلام الزاخرة جنياته بالزهور الجميلة ،
المكسوة رباه بالخنخنة الياقة ، الشادية أطيّاره بالنغم الحالم ، الهاتفة ورقة
باللحن العذب .

لن يسمح لنفسه بالهيمن والضلالة ، والطريق أمامه بسيط مستقيم واضح .
ألا تكفى كل هذه الأغراض التي يسعى من أجلها ، لكى تدفعه في طريقه ،
حتى يعاود البحث عن غرض سرانى موهوم ، قامت دونه السدود المنيعه
والحوائل الشائكة !
من أجل أبيه الكاد ، وأمّه الكادحة ، ونفسه الذليلة الطموحة . من أجل
هؤلاء يسير .

لا من أجل الموعودة في قلبه .

الموعودة !! الموعودة !

ولكن أحقاً ، قد وأدها ؟

وبأى ذنب ؟

وإذا الموعودة سئلت .. بأى ذنب وثدت ؟

أجل ! بأى ذنب وثدت .. بذنب القدر الذى وضعها في القمة ووضعها في
الحضيض ، بذنب الفوارق الهائلة والمسافات الشاسعة التي تفصل بينهما ، بذنب
رفعتها وحطته ، وكبرياتها ومذلته ، بذنب معرفتها لكل ذلك .

ولكن لمن الإجابة .. والسؤال غير قائم .. وغير ذى موضوع ، من سائل
الموعودة ، وهو وحده من بين خلق الله يعرف أنها موعودة .. إنها هى نفسها

لا تعرف .. لأنها لا تحس به ، كل ما تعرفه عنه أن جسده المتوضع أنقذ روحها السامية ، وقد ردت الجميل ، بينطلون سليم بدل البنطلون المخروق .
هذا هو كل ما تعرفه عنه .

حقيقة أنها سألت عنه بضع مرات ، أو هكذا قال له أبوه وأخوه ، ولكنه فيما يعتقد سؤال عابر ، عن ابن الجنائني الذي منحته بنطلوناً .

لا .. لا . يجب ألا يعطى الموعودة فرصة أخرى للحياة . يجب أن يكون استئصالها استئصالاً .. قاطعاً بتاراً .. حتى لا تعود إلى التنفس والانتعاش في فترات الحساسية وإرهاف الشعور من فرحة طارئة أو حزن عابر .

أجل .. يجب ألا يجعلها تتسرب من وراء السد القائم .. لتتخذ مكانها من أوهامه كقوة دافعة .. أو هدف منشود ، فالقوى الدافعة معروفة ، والأهداف محدودة .

وإذا كان قد وصل بعد عامين من السير إلى مرحلة من مراحل النجاح فبفضل أبيه .. ومن أجل أمه .. ومن أجل نفسه .
أليس كذلك ؟!

انطق أيها الأحمق . مالك تتردد في الإجابة ؟
أجل !! أجل !! إنه لكذلك ، ليس لها من نفسى مكان سوى مكان الموعودة . بعد زمن من السير ، والوصول إلى النجاح ، يجب أن تعطى الفضل لأصحابه .

قم وشارك أباك شكره لله ، وأملك فرحتها ، واضحك وامرح كما يفعل أخوك .

بدل أن تجلس هكذا واجماً شاردأ ، تحاول بإنكارك لها أن تحييها من وأدها وتبعثها من مرقدها !

إنكار الشيء لا يكون بالتفكير فيه حتى ولو كان إنكارياً ، أو استبعادياً .. إنما تفكر في الذى تحاول استيقاءه في ذهنك ، حتى ولو بالتظاهر بطرده وإهماله

وإنكاره .. ولو وددت استبعاده ، لما شغل من ذهنك أكثر مما يشغله كوز الذرة في الحقل ، أو القلم على المنضدة ، أو الحشية على فراشك .
أفحتم عليك أن تجلس شارد الذهن ساعة نجاحك .. لتؤكد لنفسك أن كل هذه الأشياء مستبعدة من نفسك ولا تشغل من ذهنك أى تفكير ، كما تفعل مع الموءودة .

قم .. قم .. ما دمت قد وأدتها من زمن ، فلتدعها من تفكيرك جانباً ..
ولتكن في نفسك كغيرها من الأشياء الجملة المهمة المحيطة بك .. لتكن قلماً على المنضدة ، أو حشية على فراش ، أو حتى جورباً في حذاء .
أتكره هذا التشبيه ؟

إذن فلتكن زهرة على القناة .. أيعجبك هذا ؟

أيها الأحق الصغير

ما زالت للموءودة ، قيمتها في نفسك ، مهما أصررت على أنها موءودة .
قم إلى أهلك وأملك ، وافرح بنجاحك ، أنت الآن صاحب شهادة محترمة .
أنت رجل .. حامل بكالوريا .. تستطيع بها أن تكون طالباً في مدرسة عليا ، وتضع قدمك على أول درجات اللقب المحترم .. ضابط ، أو مهندس ، أو طبيب .. فإذا لم تشأ .. تستطيع بها أن تكون موظفاً .. نصف محترم .
ونهض « على » من مقعده أمام المنضدة ، وقد نفّس عن نفسه غبار التفكير .
وساعده على التخلص من شروده طرب أصاب نفسه برغمها من مجرد تذكره أنه أضحى حامل بكالوريا .. أى رجل له صفة رسمية في هذا البلد .

وكان اليوم أحد أيام يولية القائظة والوقت عصراً .. والشمس قد بدأت الانحدار ، وظلال الشجر قد طالت .. ودس « على » قدميه في قبقاب خشبي ، واتجه إلى الحمام للوضوء حتى يؤدي فريضة العصر .. ولمح في طريقه أباه وقد ركع في حجرتة مستغرقاً في الصلاة وقد أسبل عينيه ونطقت ملامحه بأبلغ آيات الحمد .

كانت أمه قد قبعت على حشية في مدخل الدار ووضعت أمامها سطلا نحاسياً كبيراً أخذت تذيب به بضع زجاجات من شراب الورد ، وجلس حسين بجوارها وقد مَدَّ يده بكوب فارغ وسألها راجياً :
— كوباً آخر .

ونهرته الأم صائحة :

— معدتك تنفجر .. هذا رابع كوب . ماذا سيبقى للناس ؟! ألا

تستحي ؟!

— آخر كوب .

— لن أعطيك نقطة واحدة .

— إنه شرباتي أنا .. أنا .. أنا الذي نجحت ولست أنت .

— خذ ولا ترني وجهك .

ودخل « على » في الحمام الذي لم تفلح الطاقة في أعلاه في تبديد الظلمة المخيمة عليه في رابعة النهار ، وشمّر أكماله وبدأ الوضوء ، وعادت مناقشة أخيه وأمه تطرق أذنيه .

قالت الأم :

— لقد أرسلت « بهية » بنت خالتك لتبتاع لي ثلجاً من الصندوق الذي بجوار

المحطة .. ومضى لها ساعة .. اذهب لتستعجلها .

— أنا أذهب لا ستعجال بهية ؟

— أجل .

— أنا .. أذهب .. إلى صندوق الثلج !

— ولِمَ لا .. أعلى رأسك ريشة ؟

— لا .. على رأسي أفضل من ريشة .. على رأسي شهادة .. على رأسي

، كالوربا .. عيبك يا أماء أنك جاهلة .. لا تعرفين قيم الناس .. أتعرفين من يكون

هذا الجالس أمامك ؟

— لا أريد أن أعرف .. ليس هناك وقت للثرثرة .. اذهب يا حسين وأحضر الثلج بالتي هي أحسن .

— أولاً ليس اسمي حسين .. اسمي حسين أفندى .. لأنني أستطيع أن أتوظف بالبكالوريا .. وظيفة محترمة .. وإذا أضحييت موظفاً فسينادونني حسين أفندى .. أفهمت ؟!

— اللهم طوّلك يا روح .. اذهب يا بني وأحضر الثلج .
— لأجل خاطرك سأذهب هذه المرة فقط .. إذا أعطيتني كوباً آخر .
— كوب آخر .. أجننت ؟! تبتلع خمسة أكواب من الشراب .. إن معدتك تنفجر ؟!

— لا تخشى على معدتي إنها تبتلع الزلط .
— خذ .. واذهب بسرعة .
— سألبس البدلة أولاً .. لأنني سأنزل مصر .
— ستنزل مصر ؟
— أجل .. لأنني سأذهب إلى السينا .
— من قال هذا ؟
— أنا .. لقد اتفقت مع أصحابي وأعطيتهم موعداً .
— هل معك نقود ؟
— سأذهب على حسابهم .
— استع من نفسك .. كفى تطفلاً على الناس !
— هذا ليس شأنك .. لا تعطوننا نقوداً !! ولا تتركونا نتطفل !! ما شاء الله .. لا منك ولا كفاية شرّك .
وكان « علي » قد انتهى من الوضوء وعبر الصلاة متجهاً إلى حجراته للصلاة ،
ولمحه « حسين » فصاح به :
— علي .. ألن تذهب إلى السينا ؟

— لا ..

— لِمَ ؟

— ليس معى نقود .

— سأقرضك .

— ومن أين لك النقود ؟

— سأقترض من عباس .

— لا .. لن أقترض منك .. ولن تقترض أنت من أحد .. عندما تكون النقود معنا ، نذهب إلى السينما .

وكان الأب قد أتم صلاته فاشترك فى المناقشة صائحاً من حجراته :
— اليوم ستبقيان معى لاستقبال الضيوف والمهنئين .. لقد أصبحتما رجلين .. ويجب أن تستقبلا الناس .. هذا عيد لدينا يجب أن نحتفل به سوياً .. أريد أن أفرح بكما .. لقد بيضتما وجهى .. لم يذهب تعبى فيكما سدى .
وتركت الأم المغرفة الكبيرة التى كانت تقلب بها الشرابات ورفعت يدها إلى السماء داعية :

— الحمد لله .. ربنا يتمم نجاحهما .. ولا يخيب لهما أملاً .. ربنا يقيهما شرّ العين .. ربنا يحبب فيهما خلقه .

واسترسلت الأم فى سلسلة الدعوات التى كانت لا تنفك تطلقها إلى السماء فى كل غدوة لولديها وروحة .

وبدت فى فناء الدار « بهية » ابنة أخت « زهرة » التى أحضرها أبوها لتعيش مع خالتها بعد أن توفيت أمها فى العام الماضى .

وتقدمت الصبية بوجهها الصبوح المستدير إلى الأم .. مادة يدها بقطعة الثلج .. وربت المرأة ظهرها فى حنان قائلة :

— ربنا لا يجرمنى منك .. لقد عوّضتنى عن خلفة البنات التى طالما تفت إليها .

ثم نظرت إلى ولديها وأردفت متمتمة في صوت خفيض .
— ربنا يجعل لك نصيباً في أحدهما .
وملأت كوباً من الشرابات ومدت يدها به قائلة :
— خذى .. هذا شرابات نجاح « على » و « حسين » .. عقبالك في فرحك .
إن شاء الله .

وضحك « حسين » وربت رأس « بهية » وقال :
— في فرحك سأسترد كوبك هذا بالريح المركب .. أنت لا تعرفين الريح
المركب .. ولا حتى الريح البسيط .. لا بأس .. ملخص القول سأسترد
الكوب .. خمس كوبات .
وضحك أبوه قائلاً :
— هذا ليس ربحاً مركباً .. هذا ربا .
وبدا الاحمرار على وجه الصبية وقالت :
— سأردّ لك الشرابات دون زواج .. لأنى لن أتزوج ، سأبقى دائماً مع
خالتي .

وضمتها الأم إليها قائلة :
— ستتزوجين .. وستبقين معى .. أو على الأصح أنا التى سأبقى معك ..
إذا كنت ترضين بإبقائى فى بيتك .

(٦)

يقظة الموءودة

انتهى « على » من صلاته وارتدى هو وأخوه بدلتيهما ، وارتدى أبوهما جلبابه الصوفى وعمامته الصفراء ، وبدأت وفود الجيران والمعارف تتوافد مهتئة بعد أن ذاع في البلد خبر نجاح الولدين وحصولهما على البكالوريا .. وانسابت ألفاظ التهئية من الألسنة وانسابت معها أكواب الشراب في الخلق ، وتقبل الرجل أطيب التهاني فرحاً مغتبطاً .. مبعداً من ذهنه كل ما يحيط بها من نفاق أو حسد .. واجداً فيها مظهراً من مظاهر الود والوفاء والحب والإخلاص .

وأخيراً هدأت الضجة .. ونفد « سطل » الشراب .. ونحلت دار عبد الواحد إلا من أهلها .. وأقبل الليل وجمعت « الطلبة » العتيدة شمل الأسرة الصغيرة في قاعة الدار ، وقد صفت عليها « رهرة » صحاف العشاء المكونة من الخضار والرز وطبق من « البصارة » وبعض « الخيار المخلل » .
وخلال العشاء .. شرد ذهن الرجل في الخطوة الجديدة القادمة .. لقد قذف عن كنفه عبئاً .. ليحمل عبئاً أثقل .. لقد قطع جزءاً من الطريق وبقي الجزء الأكثر وعورة والأشد مشقة .

ماذا ينوى أن يفعل بولديه بعد ذلك !. إن الثمرة يمكن الآن قطافها ولكنها ستكون بعد خضراء غير ناضجة ولن يكون لها في فمه أو فمهما حلاوة المذاق . إنه يستطيع أن يسعى لتوظيفهما .. ومحمّل جداً أن ينجح وسيساعدانه بأجرهما ، وسيوفران عليه المشقة الكبرى في الحصول على المصاريف اللازمة لتكملة تعليمهما .. ولكن أهذا هو ما كان يرجو لهما أو ما كانا يأملان فيه لنفسيهما ؟! إن « حسينا » قد يوافق .. بل أغلب الظن أنه سيرحب بذلك أشد

الترحيب .. ولكن « علياً » .. ذلك الصامت المجتهد الطموح .. هل يرضى لنفسه هذه النهاية ؟

لقد قال له مرة .. إنه يفضل أن يعمل مثله بستانياً حتى يحفظ له ماء وجهه .. ولكن .. الآن .. وبعد أن دفعه إلى منتصف الطريق .. وأخذ يتعلق بالأمل العذب .. هل يرضيه أن ينكص على عقبيه ؟

ولكن هبه اعتزم السير في الطريق إلى النهاية .. كيف يمكنه أن يدبر النقود ؟ إن المسألة ليست هينة .. فالمصروفات المدرسية أكثر مما تعود أن يدفعه في المدارس الثانوية .. والصبيان لاشك سيحتاجان إلى مبلغ أكبر للملابسهما ، ومصروفهما ، فارتداء البنطون ذى الحجر أمر إن سهل عليهما في المدرسة الثانوية ، فإن أمره في المدرسة العليا جد عسير . وكلما تقدم بهما الزمن تفتحت أعينهما ، وسهلت عليهما مقارنة نفسيهما بأبناء الغير .. وأبناء الغير في المدرسة العليا لا بد أن يكونوا من طبقة منتقاة تتحتم كثيراً ليسر العيش . وهو يأمل من الأمير زيادة تسد مطالب العيش في حالتهما الجديدة .. ولكن المصروفات .. كيف يدبرها ؟

إن لديه فدانين .. يمكن بيعهما بمائتين أو ثلاثمائة .. ولدى امرأته « كردان وأسورة » يساويان بضع عشرات من الجنيهات .. حقيقة إنه يعتمد على إيراد الفدانين في سداد بعض المطالب السنوية من خزين وملبس .. وحقيقة أيضاً أنه يعتبر حلي زوجته كمالاً احتياطياً للطوارئ ، طوارئ المرض أو الوفاة . ولكن ألا يستحق مستقبل ولديه أن يضحى بذلك كله ؟ إذا خرج من الحياة صفر اليدين إلا من ولدين محترمين .. ألا يكون قد أدى واجبه وجعل للحياة ثمناً طيباً ؟

وتناول الرجل لقمة من طبق « البصارة » وأخذ يلوكها وهو مستمر في شروده .

لقد استقر رأيه عند هذه النقطة من تفكيره على أن يستمر في السير .. مهما

كان الثمن .. لقد دفع فيما مضى ماء وجهه .. أكثر عليه أن يدفع الفدانين والحلى ؟! والله لو أدى الأمر إلى أن يدفع حياته .. ليدفعنّها راضياً . إنه يحب الولدين أكثر مما يحب نفسه .

وأخذ يرقبهما بنظرته الشاردة .. « علياً » بهدوئه ورزائته وكبريائه الصامته ، و « حسيناً » بخفته ومرحه ، وطيبة قلبه ، واستهتاره . إنهما الآن في مفترق الطرق ، وعلى الخطوة التي يوشك أن يخطوها يتقرر مصيرهما .

ترى ماذا يدور بذهنهما الآن ؟

أغلب ظنه أن برأسيهما ما برأسه .. وما من بأس هناك في أن يطرح الموضوع على بساط البحث خلال العشاء .

وبداً الرجل الحديث مبدداً غيوم الصمت بقوله :

— بيضتما وجهي أمام الناس .. لقد كنت أضع يدي على قلبي ساعة أن ناولني الشيخ « معوض » الصحيفة التي ظهرت بها نتيجتكما .. وكان أكثر ما أخشاه أن يضيع تعبكما سدى .. لقد أجهدتما نفسيكما كثيراً في الشهر الأخير .. ولكن الله عوّض جهدكما ، وجاءت النتيجة خيراً .

وتمتت الأم بصوت خافت :

— الحمد لله ربنا يتم نعمته ويقيهم شر العين .

واعترض « حسين » ضاحكاً :

— قبل أن يقينا شر العين .. يعطينا مجموعاً عالياً .. حتى تجد العين ما تحسدنا

عليه .

وأردف « علي » :

— أجل .. المجموع هو المهم .. هذا هو ما سهرنا من أجله .. لقد كان

النجاح مضموناً بنصف هذا الجهد ، ولكن النجاح في البكالوريا ليس كل شيء ، بل يجب النجاح بمجموع يمكننا من أن ندخل المدرسة التي نأمل فيها .

وسأل الأب :

— وماهى هذه المدرسة ؟

— مدرسة المهندسخانة .. أو الطب .. وإن كنت أفضل المهندسخانة .

— كنت أتمنى أن أراك ضابطاً .

وقال « حسين » معترضاً :

— سأكون أنا ضابطاً إن شاء الله . فأنا لا آمل كثيراً أن أحصل على مجموع كبير ، وأعتقد أن الطريق أمامى لمدرسة البوليس معبد .. وإنى لأستطيع الالتحاق بها بسهولة رغم الصعوبة التى يلاقىها بقية المتقدمين إليها .
وتساءل أبوه فى دهشة :

— ولِمَ

— لقد تبارينا فى العام الماضى مع مدرسة البوليس مباراة حبية فى كرة القدم ..
ولقد أعجب بى ضابط الكرة الذى كان يصحب الفريق .. وسألنى عن اسمى
وكتبه فى مذكرته .. وقال لى : عندما تأخذ البكالوريا سنرحب بالتحاقك
عندنا .

— أتظنه ما زال يذكر ؟

— بالطبع .. فقد التقيت برئيس الفريق منذ شهرين ، وأكد لى قول الضابط
وأنبأنى أنهم قد رتبوا فريقهم القادم وأنا فيه .
وضحك الأب وأجاب :

— وهكذا ستفعلك لعبة الكرة التى طالما نهيناك عنها . عجيبة !! لم أكن أظن
أن لها عندهم مثل هذه الأهمية !
وتساءلت الأم فى استنكار :

— أستبقى طول عمرك « لعباً » .. لاقيمة لك إلا فى اللعب .. حتى عندما
تصبح ضابطاً .. لا بد أنك ستكون « هفّية » بين الضباط .

— احذرى يا أماه .. أنت لا تعرفين من تكلمين .. بعد بضعة أشهر سأتى
إليكم ، وأوقف البلد على قدم وساق . وسأجعل العمدة يقبل يدي سأكون من

الحكام . أتعرفين الحكام ؟

وضحك الأب قائلاً :

— اللهم قنا شرهم .

ثم طوّح ملعقة « رز » في فمه وأردف :

— وهكذا قد صممت على أن تكون ضابط بوليس ؟

— إن شاء الله .

— إذن ليكن أخوك .. ضابط جيش .. ما رأيك في الحربية يا على ؟

وضحك « على » ضحكة خفيفة ، وانفجر « حسين » مقهقهاً . ثم قال

مجياً على الدهشة التي ارتسمت على وجه أبيه :

— الحربية .. مرة واحدة !

ونهره الأب بقوله مستنكراً :

— أتدخل أنت البوليس .. وتستعصى الحربية على « على »؟! إنه خير منك

مائة مرة .

وأردفت الأم قائلة :

— ماله « على » .. أيجدون خيراً من قوامه ومنظره .. وخلقه ؟

وقال « حسين » :

— طبعاً .. القرد في عين أمه ..

ونهره أبوه بقوله :

— لا تكن وقحاً .

وأنبتة أمه بقولها :

— والله ما قرد لديّ إلا أنت .

وضحك « على » ضحكته الخافتة وهو يرى الشتائم تنصب على أخيه وقال

مدافعاً عنه :

— يا أبى إنه على حق .. إن المسألة ليست مسألة شكل ولا قوام .. المسألة

مسألة وساطة ، لأن الإقبال على المدرسة شديد .. والعدد المطلوب ضئيل ..
إنهم لا يقبلون كل عام من السبعمائة أو الألف الذى يتقدمون إلا عشرة .
— قادر وكريم يكون لك نصيب ضمن العشرة .
— المسألة ليست نصيباً .. والقادر الكريم لا أظنه يتدخل أبداً فى انتقاء الطلبة .

— أستغفر الله .. لا تقل هذا يا « على » .
— أنا لم أقصد الكفر بالله .. ولكن .. إن الذى ينتقى هم جمع من كبار الضباط .

— ولماذا لا ينتفونك إذن ؟
— لأن هناك من هو أحق منى .
— من هذا الذى أحق منك ؟
— أبناء الضباط والكبراء .. إن الذين سيشغلون العشرة الأماكن المطلوبة ، يكادون يعرفون من الآن . لا .. لا يا أبتاه .. دعنا من الحرية فلا أمل لنا فيها ..
إنها تحتاج إلى وساطة كبرى ، فكشف الهيئة بها صراع بين الوساطات والغلبة للوساطة الأقوى .

وشرد الأب بذهنه لحظة ثم قال ببطء :
— إذا كان الأمر يحتاج إلى وساطة كبرى ، فلم لا نلجأ إلى « أفندينا » ، فقد يقبل أن يعطينا بطاقة لأحد من أولى الأمر .

وفوجئ « على » بقول أبيه ، وتصاعد الدم إلى وجهه . فقد دفع ذكر أبيه المفاجئ لأفندينا ، شيئاً آخر فى ذهنه غير أفندينا ، شيئاً وطيد الصلة به .
لقد خيل إليه أن الموعودة فى قلبه .. تنفض عنها غبار اللحد .

وأجاب « حسين » ببساطة :
— هذه والله فكرة طيبة ، فلا أظنهم يرفضون وساطة « أفندينا » .
ثم أردف مازحاً موجهاً القول إلى أمه :

— أبشرى يا أماء .. وهذا ضابط آخر .. سيحضر إليك إن شاء الله
بالمدفع .. فيدك لك دار العمدة .. سنخربها ونجلس على تلها .
وكان « على » ما زال يقاوم رجفة قلبه التى أحدثتها الموعودة اليقظى ..
وأخيراً تمكن من الرد قائلاً فى لهجة قاطعة :

— لا يا أبتاه لا داعى لأن نلجأ إليه . إنه لن يقبل أن يتوسط لنا ، فهو يحتقر
الناس جميعاً ، ومن بينهم نحن وهؤلاء الذين سنرجو وساطته عندهم .. ثم هو لن
يعجبه كثيراً أن يكون ابنك ضابطاً .. فهو لا شك يعتقد أن الجيش يجب أن
يقتصر على الطبقة الأرستقراطية .. وهو نفسه يفاخر بأنه كان ضابطاً فى الجيش
التركى .. فلا مبرر لأن نريق وجهنا بلا فائدة . ولم كل هذا ، والمهندسخانة فى
أيدينا ؟! إنى واثق إن شاء الله أنى سأحصل على مجموع ضخم ولا سيما فى مواد
الرياضة ، وستكون المسألة فى غير حاجة إلى وساطة ولا رجاء .. أنترك ما بيدنا لنأمل
فيما يستحيل تحقيقه إلا بمعجزة ؟!

ولم يكن الأب ينصت إلى حديثه .. فقد أخذ يحدق فيه ويتخيله فى حلتبه
الرسمية بجوار أخيه .

أيه سعادة تصيبه لو تحقق الحلم !
وعندما أجاب الرجل على قول ابنه .. سرد فى ذلك الحلم الذى يجول بخاطر
قائلاً :

— كم أود أن أراك ضابطاً يا « على » ! ستكون من خير الضباط شكلاً وخلقاً ،
ووسامة ورجولة .

وأردفت الأم وهى تشارك الرجل حلمه :

— إى والله .. ليت الله يحقق حلمك يا أبا على .

— الله يقول .. اسع يا عبد .. وأنا أسعى معك .. فيجب علينا أن نسعى .
وصاح « على » معترضاً :

— يا أبى لا داعى للسعى فيما لا يمكن تحقيقه .. أرجو منك ألا تذهب إلى

أفندينا ، وألا تسأله شيئاً .. لأنى واثق من رفضه ، وواثق من خيبيه مسعانا .

وتدخل « حسين » قائلاً :

— يا أخى دعه يجرب .. ماذا ستخسر أنت ؟

وهمس « على » كأنه يحدث نفسه :

— سنخسر مزيداً من ماء الوجه المراق .

وأجاب الأب :

— قلت لك إن ماء وجهه لا يراق سدى أبداً .. إني أريقه لكى تحفظه أنت ..

سأذهب إليه وأرجوه .. أو أرجو الله فى شخص .. والله لا يخيب لمؤمن رجاء ،

ولا تنس أن مدة الحربية قصيرة ، ومرتبها مضمون فهى لا ترهقنا كغيرها من

المدارس ، وستعوّضنا فيما بذلنا سريعاً ، وستكون أنت فى ثلاث سنوات ضابطاً .

محترماً يهابك الجميع ويحترمك الجميع .. عندما تعود إلى البلدة بحلتك فيها كما

يسير الأمير .. إى والله .. لن تكون أقل منه .

ولم يجب « على » فقد أحس برجعة فى قلبه مرة أخرى . هذه المرة كانت يقظة

الموعودة تامة .. ولم يحاول أن يرقدها ، ولا حاول أن يهبل عليها الثرى ، بل

تركها تشرئب بعنقها لتتهف به :

— من أجلى أنا سر فى الطريق .. مهما وأدتنى ، ومهما أنكرتنى ، فأنا الدافع

وأنا الهدف .. بعد أشهر سترتدى حلتك ذات الشريط الأحمر والسترة المغلقة

« الياقة » .. ستكون وسيما .. حتى لا أكاد أميز فيك الغلام المعقر الذى رقد أمام

الترولى وأنقذ حياتى ، وبعد ثلاث سنوات ستكون ضابطاً ، كما كان أبى ..

سنقف أنا وأنت على قدم المساواة .. لن يكون أحدنا فى القمة والأخر فى

الحضيض .

وغادر الصبى « الطليّة » ، وقد انهار السد القائم ، وتدفقت فى نفسه الأحلام

الحلوة والأمانى العذبة .

(٧)

خطاب توصية

في صبيحة اليوم التالى كان الأب يغادر الدار مغرقاً في الصمت.. إلا من أنفاس هادئة تتردد في حناياه ، وعبر بضعة الأكواخ المجاورة لداره ، وسار على الطريق المحاور للترعة متجهاً صوب القصر ، ووصل إلى الباب الخلفى المجاور للسوبة ، والذي تعود الدخول منه ، واتجه إلى كشك خشبى تجمع أمامه البستانيون والأنفار والصبية ، وحيا الجمع ، ثم أخذ يوزع الأعمال عليهم قائلاً :

— لا بد اليوم من إتمام تغيير الطمى ، سنبدأ بالأحواض الغربية .. نخذ معك أربعة أنفار يا ريس عبد الظاهر .. أو نخذ ستة حتى ينتهى العمل بسرعة ، وابدأ بنقل الطمى القديم من الأحواض ، وافرشوه فوق النجيل المجاور ، افرشوه جيداً حتى لا تضطر أن نعيد تسويته مرة أخرى ، وبعد ذلك انقلوا إليها الطمى بوساطة عربة الترولى من الكوم الموجود عند الباب الذى بجوار الترعة .
ثم التفت إلى رجل آخر وقال :

— وأنت يا أبا خليل نخذ نفرين وشقرف أحواض الداليا ، فقد تكاثر فيها السعد .

وأجابه الرجل :

— كنت أنوى أن أقص السور الشرقى ، فقد تكاثفت الدرنة وتكاد أطرافها تقلع العيون .

— إذن فاذهب لقصّها واترك الشقرفة .

وهكذا استمر « عبد الواحد » فى توزيع الأعمال ، وانتشر رجاله بين أرجاء الحديقة المتسعة ، بفئوسهم وغلقانهم ومقصاتهم وشقارفهم ، والريس يجول

بينهم حتى استقر به المقام فى السوبة ، متنقلا بين أصص « القراولة » التى نقلها حديثاً من الكوبات الصغيرة إلى القصارى الكبيرة ٢٥ .
وعندما قربت الساعة من التاسعة .. اتخذ طريقه إلى مكاتب الدائرة ، وقد بدت عليه سيماء الجذ والتفكير .

كان يدير فى رأسه الطريقة التى يحدث بها الأمير ، يجب أن يختار الوقت المناسب لكى يطلب طلبه .. إذ يتحتم أن يكون الأمير على حال من الرضا تسمح له أولاً بالإصغاء وثانياً بالقبول ، ورضا الأمير عليه فى هذا الوقت من العام متعذر . إذ ليس هناك ما يسببه ، فمعظم الأحواض خالية من الزهور ، وليس لدى « عبد الواحد » ما يستطيع أن يباهى به ، أو يرضى به نفس الأمير ، بل إن لقاء الأمير فى هذا الوقت من العام أمر صعب ، فمروره على الحديقة لا يكون إلا فى أوقات متقطعة ، غير محددة ، ولا معروفة ، وهو وشيك السفر إلى قصره فى الإسكندرية ، ويعلم الله إن كان سيعود قبل موعد القبول أم سيقضى فى الإسكندرية حتى أكتوبر .

إن عليه أن يفعل شيئاً قبل سفر الأمير .. لا بد أن يقوم بعمل حاسم خلال هذا الأسبوع .. أو على الأصح خلال هذا اليوم .
وإذا كان لقاء الأمير متعذراً .. فعليه أن يوسط لديه أحداً ممن يلقونه بسهولة وفى أى وقت يشاءون .

ومن أقدر على ذلك سوى إبراهيم افندى ناظر الدائرة ؟ إنه رجل طيب وهو يحب « عبد الواحد » ، وكان من أول مهنتيه بنجاح ولديه ، وهو من أقرب الناس إلى الأمير ، ويستطيع أن يلقاه وقتما شاء وحيثما شاء .

ووصل « عبد الواحد » إلى مكاتب الدائرة ، وحيا الخفير ، وسأله عن إبراهيم افندى فأنبأه أنه فى حجراته .

وكانت مكاتب الدائرة تشغل بضع حجرات أرضية ، فى ركن قصى من أركان الحديقة المتسعة ، لها مدخل يفضى إلى الشارع وآخر يفضى إلى الحديقة .

ومرّ الرجل بمكاتب الموظفين محيياً حتى وصل إلى حجرة إبراهيم أفدى ،
فطرقها طرقات خفيفة مترددة ، وسمع صوت الرجل يصيح به من وراء الباب :
— ادخل ...

ودفع « عبد الواحد » الباب ، وتقدم إلى مكتب الرجل الذى كوّمت عليه
الدوسيهات والأوراق وشد على يده محيياً .
ورد « إبراهيم » على تحيته مرحباً :
— أهلا .. أهلا .. كيف حالك يا رئيس عبد الواحد ، تفضل اقعد . خير إن
شاء الله .

وجلس « عبد الواحد » ، وأخذ يفرك كفيه .. وقد أسقطهما فى حجره ،
وصوّب نظره إلى قدمي إبراهيم أفدى الباديتين من أسفل المكتب ، وبعد فترة
صمت استعاد فيها رباطة جأشه قال :

— لى رجاء عندك يا إبراهيم أفدى .. أخشى أن أثقل عليك به .
— قله يا ريس عبد الواحد .. ليس هناك ما يثقل منك .. فأنت رجل
طيب .. لا ترجو إلا الخير .

— كنت أود أن تتوسط لدى أفندينا حتى يكلم أحداً من ذوى الشأن لقبول
ابنى فى الكلية الحربية .

ورفع الرجل وجهه عن الدوسيه الذى ثبت عليه بصره ، ولم يستطع أن يخفى
الدهشة التى بدت عليه ، ومد يده فخلع منظاره وتشاغل بمسحه ، وأخيراً قال
متسائلاً فى استنكار :

— الحربية .. الحربية .. هكذا مرة واحدة ؟!
وبدا الارتباك على وجه الأب ، المغالى فى تقدير قيمة ابنه .. وزاد من طأطأة
رأسه ، ولم يعرف كيف يجيب .

وأردف « إبراهيم » فى صوت أكثر رقة وأقل استنكاراً :
— الحربية يا رئيس عبد الواحد لا تقبل إلا عدداً محدوداً .. إنها ليست لنا ولا

لأبنائنا .. لماذا ترهق نفسك من أمرها عسراً .

ورفع « عبد الواحد » رأسه وازدرد ريقه وأجاب في تودة :

— نحن نحيا لأولادنا يا إبراهيم أفندى .. لا بد لكل نبت من تربة يمتص منها غذاءه ، ومادمنّا أنبتنا نبتاً فلا بد أن نكرس أنفسنا لإتمائه ورعايته .. إن كل جهد نفعله يجب أن يكون من أجلهم .. ونحن لا نطلب منهم رد جميل .

وتمم إبراهيم أفندى في اعتذار :

— معك حق يا ريس عبد الواحد .. سيكون أولادك إن شاء الله .. رجالاً كباراً ، ولكنني فقط أرى أن مسألة الحربية هذه تكاد تكون مستحيلة .

— وما وجه الاستحالة فيها .. لو أن أفندينا رجا أى واحد من أولئك الذين بيدهم الأمر .. لما تأخروا في قبوله .

— أجل .. لو أنه رجا .. لو ...

وصمت الرجل برهة ثم أردف :

— و .. ولكنه لن يرجو .

— لماذا ؟ !

— أنا أعرفه جيداً .. أعرف كبرياءه و « عنطرته » وأنايته .. هو لا يرجو أحداً .. من أجل أحد . لا فائدة .

— لنحاول .

— لا فائدة يا ريس « عبد الواحد » لا تكن لحوحاً .. إني واثق أنه سيثور لو عرف أنك تفكر في هذا .. وأنتك تود أن يكون ابنك ضابطاً . أنت لا تعرف كيف يحتقرنا هؤلاء الأمراء .. إننا في نظرهم أداة لخدمتهم ، ولولا حاجتهم إلينا لما ارتضوا ببقائنا في أرضهم لحظة واحدة .. إنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً .. أننا نوع من الدواب التي لا تساق إلا بالكرابيج ، وهم يكرهون منا أننا نتخذ صفات الآدميين ، وأنا نفكر ونفهم .. وأن لنا مطالب في الحياة ، ولهذا يفضلون علينا الدواب .. إن كلابهم وخيولهم أعز عليهم منا .. وأؤكد لك أنه أسهل على

إدخال ابن الفرس الجديدة في الكلية الحربية من أن أرجوه إدخال ابنك أنت ، مفهوم يا ريس ؟

وأطرق الريس « عبد الواحد » ، وأطلق تنهيدة أسي لم يستطع كتبها ثم قال وهو يهم بالنهوض :

— مفهوم يا إبراهيم أفندى .. أكثر الله خيرك .. لا تؤاخذنى فيما أثقلت عليك به .. متشكر جداً .

وتقدم إلى المكتب ماداً يده مودعاً .

وأحس إبراهيم أفندى — رغم أنه لم يقل غير الواقع — أنه أساء إلى الرجل ، وأنه كان جافاً في صراحته إلى حد آلمه ، وأنه كان يستطيع أن يرده بخير من هذا ، وأن يفهمه بطريقة أرق .. وألا يقضى على آماله الطيبة ومطامحه السامية هذا القضاء القاسى ، ولم يجد بداً من أن يلاطف الرجل ويخفف من ألم الصدمة التي أنزلها به ، فقال وهو ما زال ممسكاً بيده :

— اجلس قليلاً يا ريس عبد الواحد .. دعنى أطلب لك فنجاناً من القهوة .. لقد شغلنا عنها بالحديث .. اجلس .

متشكر يا إبراهيم أفندى .. لا بد لى من العودة السريعة . أنت تعرف الأنفار .. إن لم أقف على أيديهم أفسدوا كل شيء ، وقد تأتى الطوبة في المعطوبة ويمر أفندينا .

— اجلس برهة .. إن لى طريقة يمكننى معاونتك بها في مسألة الحربية . — كيف ؟

— إنى أعرف عبد الجليل أفندى باشكاتب المدرسة .. كنا زملاء في السودان قبل نزول الجيش .. وما زال الود بيننا قائماً حتى الآن ، وهو رجل طيب جداً . — ولكن أتظن أن فى يده شيئاً ؟

— من يدري ! إنه باشكاتب المدرسة ، وهو بلا شك على صلة بمديرها وكبار ضباطها ، ويستطيع أن يساعدنا فى التوسط لديهم . اجلس حتى أكتب

لك خطاب نوصية يقدمه ابنك إليه عند تقديم أوراقه ، وذكرني يومذاك أن أحدثه بالتليفون .

وجلس عبد الواحد وهو يتمتم :

— أكثر الله خيرك .. ومد في عمرك .

وأخذ إبراهيم أفندي في كتابة الخطاب ، ثم وضعه في ظرف وألصق حافته ومد به يده وهو يقول :

— شيء خير من لا شيء يا ريس عبد الواحد ، وهو كل ما نستطيع .

— فيه القبول إن شاء الله .. كل شيء منك مبارك .

— من يدري فقد يضع سرّه في أضعف خلقه .

— بل أفضل خلقه .. إن أفضالك علينا لا تنسى .. السلام عليكم .

— وعليكم السلام ورحمة الله .

وغادر الرجل المكتب ، بعد أن وضع الخطاب في محفظته بعنايه كأنه يضع

تيممة مقدسة وهو يحدث نفسه :

— مقبولة بإذن الله .. مقبولة بإذن الله .

واتخذ طريقه يستحث الخطأ عابراً الممر الخلفى المفضى إلى الحدائق وأخذ

يلقى ملاحظاته على العمال في هيئة صيحات استحثاث يوزعها يمينة ويسرة :

— شد حيلك يا ريس عبد الظاهر .

— الشد على الله يا ريس .

ثم يصيح بآخر :

— أخرج السعد من جذوره يا محمد .

— حاضر يا ريس .

ولثالث :

— رجالك نائمون يا عبد الجليل . الظاهر أننا سنقضى الموسم كله في تغيير

طمي الأحواض .

— لا تخف يا ريس .

— ما زالت عندنا الأحواض الشرقية .

— كله يهون بنفسك .

وهمّ بإلقاء صيحة رابعة عندما أبصر جوادين قد برزا من منحني الطريق وأقبلوا نحوه ، وكان يمتطى أحدهما «علاء» ابن الأمير وتمتطى الآخر «أنجي» ، وكان الجواد الأول يتصبب عرقاً وقد ابتل جسده وبدأت حول فمه رغبة بيضاء ، مختلطة بخيوط حمر ، هي آثار دماء تنزف من فم الحصان .

وسمع «أنجي» تحدث أخاها :

— لقد كدت تقتله .

— إنه عنيد يستحق القتل .

— إنه عنيد لأنك تعانده .. لم يكن هناك داع لشكمه حتى يجرح فمه .

— ليس هذا شأنك .. إنه ليس حصانك .

— ولكنه مخلوق حي .. حرام عليك .

— أنت لست قيمة على الأحياء .

— سأقول لأبي كيف عدوت به حتى جعلت جسده يتصبب عرقاً ، وحتى .

جرحت فمه ، وأوشك أن يسقط من فرط الإعياء .

— قولي ما تشائين .. إنه حصاني .

واقترب الاثنان من الرجل وقد وقف على جانب الطريق بادي الخشوع ، وبدأت «أنجي» كالزنبقة البيضاء في فجر ندى ، رقيقة السمات ، نبيلة الملامح ، وقد امتطت جوادها بسرج جانبي خاص بالآنسات ، وبنطلون ركوب «جدبور» من الكستور المضلع ، وحزام سماوي عريض في وسطها ، وقميص أبيض نمّ عن صدره برعمين يوشكان على التفتح .

وسار الصبي في طريقه ، وتوقفت الصبية عندما وقع بصرها على الرجل الواقف في خشوع ، وافتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة وحيته بإيماءة من رأسها

قائلة :

- صباح الخير يا ريس .
- صباح الخير يا فندم .
- كيف حالك ؟
- الحمد لله .
- وحال زهورك ؟
- طيبة بأنفاسك .
- لقد أبصرت زهرة من الداليا « تشانجا » بنفسجى مقلّم بأبيض جميلة جداً .. أليديك منها كثير ؟
- الحوض المجاور للفراندا البحرية كله منها .. عندما تتفتح كلها سيكون منظرها رائعاً ، ولدينا أيضاً نوع بمبة مقلّم بأبيض ولون ياقوتى صغير من الداليا « البومبون » .. لقد أحضرنا كمية كبيرة من البطاطس الطازجة من هولندا .
- إذن أستطيع أن أقطف ما أشاء للزهرات ؟
- طبعاً يا سيدتى .. الحديقة كلها تحت أمرك .
- أنت تقول هذا ، وأنى يحرم القطف .. قائلًا إنها أنواع نادرة والقطف يضعف العود .
- لا يا سيدتى .. تستطيعين أن تقطفى من الداليا ما تشائين .
- متشكرة يا ريس عبد الواحد .
- وهمت بمعاودة السير ، ولكنها توقفت مرة ثانية متسائلة :
- وكيف حال أولادك ؟
- الحمد لله .. لقد نجحنا فى الامتحان .. وحصلنا على البكالوريا .
- حقاً؟؟ مبروك .. لماذا لم تقل لى حتى أهنيك وأهنئهما ، لقد نجحت أنا أيضاً ، وأصبحت فى السنة الثانية فى كليته الأمريكان .
- مبروك يا سيدتى .. إن شاء الله نجاح دائم .. وماذا فعل سيدى « علاء » ؟

— لقد رسب .

— شيء يؤسف له .

— من ناحيته هو لم يأسف كثيراً .. إنه لا يأسف لشيء أبداً ، وكيف حال ابنك « على » الذى لا يحدث الناس ؟

— إنه بخير والحمد لله ، إنه يريد أن يدخل المهندسخانة ، وأنا أود أن أدخله الحرية .

— معك حق .. إنى أحب منظر الضباط بملابسهم الرسمية ، وأعتقد أنه لا بد أن يكون وسيماً .. إنى ما زلت أذكره .. يوم أن وقف فى طريق الترولى وأنقذنى من موت محقق .. أذكر شعره الأسود الملقى على جنبه ورأسه المدفون بين كتفيه ، وساقيه المليئتين بالخدوش ، وثيابه المعفرة . لن أنسى منظره أبداً .. عندما رفض النهوض أو الرد على ، أظنه لن يخجل من مخاطبتى وهو فى حلته الرسمية .. لأنى لا أعتقد أن ينظرونه ثقباً .

وضحكت الصبية وضحك الرجل ، ومرّ بخاطره أن ينتهز فرصة تلتطفها معه فيلقى إليها برجائه لتوسط الأمير فى إدخال ابنه المدرسة الحربية ، وهمّ بالحديث عندما أبصر بأخيها قد عاد ، وعندما ألقت هى إليه التحية معاودة السير معه ، أحس بخيبة أمل شديدة كأن فرصة العمر قد ضاعت من يده .

(٨)

كلام لئن

مر شهران وأقبل سبتمبر .. وحل موسم التقديم للمدارس .. والاستعداد لبدء عام دراسي جديد . وانتهى « على » و « حسين » من إعداد أوراقهما المختلفة ، ما بين تحقيق للشخصية وشهادات لحسن السير والسلوك ، والجنسية وغيرهما .. وتقدم « حسين » بمجموعة أوراقه إلى كلية البوليس ، وتلقاه ضابط الكرة ورئيس الفريق بالترحيب الشديد .. وأكدوا له ضمان القبول ما دام ينجح في الكشف الطبي .

وتقدم « على » بمجموعتين من الأوراق : الأولى إلى المهندسخانة .. وكان مجموعه يضمن له فيها قبولا مؤكداً .. والثانية إلى المدرسة الحربية .. وكان يشعر أن تقدمه إليها كان تقدماً أرضى به رغبة أبيه .. ورغبة أخرى خفية متوارية .. تلم به الإمام طيف بأحلام الدجى .. كلما احتواه المرقد وأغمض عينيه عن واقعه .. وعن أعمدة السرير الحديدية .. والسقف المشقق وأخيه المتقلب بجواره .. وأغفى ذهنه المادى ليوظ ذهنه الحالم .. ويوقظ معه الموعودة في القلب .. ويهيم وإياها في عالم من صنع أوهامه .

كان يرقد ويغمض عينيه .. ويرى نفسه تقدم بخطاب التوصية إلى عبد الجليل أفندى .. ويصوّر نفسه كيف يبدو عبد الجليل أفندى .. ويتخيل مكتبه وكل ما حوله .. ثم يرى عبد الجليل أفندى وقد تقدم به إلى مدير المدرسة ، فأبدى هذا إعجابه به ، ويرى نفسه قد قبل في كشف الهيئة ، وفي الكشف الطبي .. ثم أعلن بالقبول النهائي .

وكل هذا منطقي محتمل معقول .. نتيجة لما فعله في الواقع .

وبعد!!

إنه يعود إلى بيته بعد غيبة ، وقد ارتدى الحلة الكحلية ذات الياقة المغلقة والبنطلون ذا السيبيا والشريط الأحمر .

وتراه هي .

ولكن أين !! ليس في البلدة مكان ملائم لكى يلتقيا .

أين تراه ؟! تراه في أحد المحلات العامة أو في إحدى دور السينما .. أو في الأوبرا !!

ويستمر في أوهامه .. حتى يلم الكرى بجفنيه .

وبهاتين الرغبتين .. رغبته في إرضاء مطامع أبيه .. ورغبته في إرضاء مطامع أحلامه .. سار في شارع الخليفة المأمون يحمل دوسيه أوراقه ، ومن بينها خطاب التوصية من إبراهيم أفندى ناظر الدائرة ، إلى عبد الجليل أفندى باشكاتب المدرسة .. خطاب التوصية الوحيد .. الذى كان يطلب منه أن يقاوم الحشد الهائل من خطابات التوصية الأخرى من الوزراء والكبراء والأمراء وكبار الضباط .

أجل .. كل عدته في المعركة .. كان رجاء من كاتب إلى كاتب .

وهزّ « على » رأسه في يأس .. وواصل السير .

كان عليه أن يقطع المسافة من مزلقان العباسية إلى كوبرى القبة سيراً على الأقدام ، فقد ركب الترام من المحطة إلى العباسية .. ولم يعد لديه من النقود سوى ما يعيده من العباسية إلى المحطة .. ومن المحطة إلى بيتهم .

إن مليمات الترام الأبيض ، قد تنفع في اليوم الأسود ، فليوفرها ويمشى .

وكانت الساعة تبلغ الحادية عشرة .. والريح راكدة .. وأوراق الشجر ثابتة لا تهتز ، وكل ما في الكون يبدو كأنه قد كتم أنفاسه ، عدا الشمس التى أرسلت أنفاسها الحارة في سياط تلهب الوجوه والأقضية .

وبطريق الخليفة المأمون عند بدايته من العباسية صف من النخيل يحيط به

صفان من شجر الفيكس المغروس على شريط من نخيل ، والذي كان يمنح المارة في هذا المهجير وقفات رقع من الظل أخذ « على » يلوذ بها ، القطعة تلو القطعة حتى بلغ مفترق الطرق أمام باب السوارى حيث ينقطع خطا الفيكس وينحدر خط الترام الأبيض السائر على اليمين بجوار الأسوار العالية لشكنات العباسية إلى منتصف الطريق بين صفين من نخيل ذى ظلال خفيفة متفرقة لا تقى من لسعة الشمس . وكان عليه أن يقطع المسافة الباقية إلى المدرسة والشمس مسلطة على رأسه والعرق يتصبب من جبينه ، وقدماه تغوصان في أتربة الرصيف الذى لم يمتد إليه أسفلت التنظيم بعد .

وأحس أن الشمس والتراب قد أتت على البقية الباقية من الوسامة الطبيعية التى وهبها الله له .. والتى يتغلب بها إلى حد ما على رثالة ثيابه وعلى مظاهر الفقر البادية عليه ، وسار فى طريقه وقد ملأه اليأس وضاعت من نفسه الثقة ماراً بأول بناء عسكري صادفه بعد السوارى كتب عليه « قسم القاهرة » ثم أخذ فى الاقتراب من باب المدرسة وأخرج منديلاً جفف به عرقه ، ثم مسح حذاءه فى أسفل بنطلونه ، القدم تلو الأخرى ، كما كان يفعل فى المدرسة الابتدائية عندما كان ضابط المدرسة يقوم بالتفتيش على الأحذية .

ووقف أمام الباب الخشبي المنخفض الذى وضع أمامه مدفعان ضخمان علامهما الصدا . وعلقت على أحد جانبيه لافتة نحاسية كتب عليها « المدرسة الحربية » . ونظر إلى العسكري الأسمر الخشن .. وأحس من هيبة المكان ومظاهر القسوة البادية فى كل حجر من حجارتة بيأس شديد .. وود لو عاد أدراجه مسلماً ساقيه للريح .

ولكن قبل أن يأتى بأى حركة جديدة . سأله العسكري فى صرامة وقد وجده مسمراً فى مكانه لا يدخل ولا ينصرف :

— ماذا تريد ؟

— عبد الجليل أفندى الباشكاتب .

— إنه فى الداخلى .. على يدك اليسرى .

وتقدم « على » محاولاً طاقته أن ينفذ عن نفسه غبار اليأس والتهيب . وعبر فناءً صغيراً قامت على جانبيه بضع أشجار عتيقة من شجر « الجوكورندا » ووقف فى شرفة أرضية مقبية الفتحات قائمة فى مدخل البناء ، فى نهايتها من الناحية اليسرى باب ذو مصراعين من السلك كتب عليه « المدير » ، يواجه باباً آخر فى الناحية اليمنى كتب عليه « الأركان حرب » .

وفى الناحية المواجهة ممر قصير يفضى إلى فناء رحب تطل عليه طريقة أرضية بطول البناء .

واتجه فى الطريقة إلى يساره ، كما أنبأه العسكرى ، ومرّ ببضعة أبواب أبصر على أحدها لافتة « الباشكاتب » .

وتردد أمام الباب برهة حتى مرّ به أحد الجنود فسأله :

— أهنا حجرة عبد الجليل أفندى ؟

وهزّ العسكرى رأسه وهو سائر فى طريقه ، ووقف « على » برهة أمام الباب يلتقط أنفاسه اللاهثة ، ثم طرق الباب طرقات وجلة مترددة وأتاه صوت من الداخل يقول :

— تفضل ..

وتفضل .. فى خطى متتلة .. ونفس هيابة .. وكانت النوافذ السلكية تحجب عن الحجرة ضوء النهار ، وكان مصباح الكهرباء المدلى فوق المكتب يعاون الضوء المتسلل من فتحات السلك فى تبديد الظلمة .

وكان قد وطن نفسه على تلقى كل ما يحتمل من خشونة المقابلة وجفوة الصدى ، ولكن منظر الرجل وطيبته البادية بعثت الطمأنينة فى نفسه وأزالت عنها الكثير من الرهبة والخشية .

وتساءل الرجل فى صوت رقيق :

— خير يا بنى ؟

وازدرد « على » ريقه ، وألقى بالتحية وهو يتقدم نحو المكتب ببطء :
— السلام عليكم .
— عليكم السلام ورحمة الله .. تفضل . أى خدمة ؟
ووقف أمام المكتب ومدّ يده بدوسيه الأوراق ..
ولم يمد الرجل يده لأخذ الدوسيه بل أشار إلى الحجرة المجاورة قائلاً :
— سلمها لمكتب الكتبة .. لعبد القادر أفندى .. أو أى موظف تجده
هناك .. فى أول مكتب على يدك اليسرى .
وعندما أبصر التردد البادى على وجهه أردف متسائلاً :
— أليست هذه أوراق تقديم ؟
— أجل .
— اذهب بها إذن إلى هناك وسيفحصونها ثم يتسلمونها منك بعد التثبت من أن
طولك لائق .
— ولكن !!
— لكن ماذا ؟
— إن معها رسالة إليك .
— إلى أنا ؟
— أجل .. من إبراهيم أفندى .
— إبراهيم أفندى مَنْ .
— إبراهيم أفندى ناظر دائرة البرنس إسماعيل .
— آه .. إبراهيم جاد المولى .. أهلاً .. وسهلاً .. تفضل يا بنى .. اجلس ..
كيف حاله ؟
— الحمد لله بخير .

— لقد مضى عمامان على آخر مرة التقينا فيها .. فى القطار الذهاب إلى
الفسن . والله زمان يا إبراهيم ، والله زمان .. كانت لنا أيام فى السودان سقى الله

عهدها .. إن أيام الصبا لا تعوّض .. وكيف صحته الآن ؟! لقد كان يشتكى من الكبد آخر مرة لقيته فيها .. لعله تحسن ؟

ولم يكن « على » واثقاً من أن الرجل قد تحسن لا كثيراً ولا قليلاً .. بل لم يكن لديه أقل فكرة عن مرضه بالكبد ، ولكن كان عليه أن يجارى الرجل في حديثه ، وأن يثبت له أن الرابطة بينه وبين إبراهيم أفندى قوية متينة .

وعاد الرجل يواصل ثرثرته وقد وضع دوسيه الأوراق أمامه .
وفتح الدوسيه ثم أخرج المظروف الصغير المطبوع عليه « دائرة الأمير إسماعيل » والذي كتب عليه بالحبر : « حضرة المحترم محمد أفندى عبد الجليل باشكاتب المدرسة الحربية » .

وفضّ الرجل الرسالة ، ثم قرأ أسطر الترحيب التي سطرها إبراهيم أفندى والتي قال فيها إن « علياً » قريب له ، وإنه يرجو أن يفعل من أجله كل ما يستطيع ، وهزّ الرجل رأسه قائلاً :

— حاضر .. عينيّ الاثنتين .. قل له سأبذل كل ما في وسعي .. إن القبول مسألة عسيرة جداً .. ولكن سنحاول ما نستطيع .. والله المستعان .. من حسن الحظ أنهم قد زادوا العدد المطلوب هذا العام ، لقد أخذنا في العام الماضي عشرة ، ولكن من المحتمل أن يرفع الرقم في هذه الدفعة إلى ثلاثين ، وأعتقد أن الفرصة حينئذ ستكون أكبر .

ودقّ الرجل جرساً أمامه ، وأحس « على » من كلام الرجل بسكينة عجيبة .. لقد أقرأه رداً جميلاً ومنحه أملاً أجمل ، ولو لم يفعل له شيئاً بعد ذلك .. لكن ما فعل برأ به وعطفاً عليه .

وتذكر قولاً قرأه في كتاب أدب الدنيا والدين :

« بنسى : إن البر شيء هين وجه طلق وكلام لين »

أجل والله .. إن البر شيء هين .

وأقبل أحد الكتبة ، فسلمه الرجل الدوسيه بعد أن احتفظ بخطاب التوصية

وقال له :

— فض هذه الأوراق وتسلمها منه بعد قياس طوله .. إنه يبدو فارغ الطول وهو لا شك أطول كثيراً من الحد المطلوب ؟

ثم وجه القول إلى « على » :

— أظن كشف الهيئة قد تحدد مواعده في الخامس عشر من هذا الشهر .

وقلب مفكرة أمامه ثم أردف :

— أى يوم السبت بعد القادم ، والمقبولون في هذا الكشف سيجرى عليهم الكشف الطبى .. إنه كشف أولى للتصفية .. إن العدد المتقدم كبير جداً .. بلغ الآن ما يرى على الستائة .. وليس من المعقول أن يجرى الكشف الطبى على كل هؤلاء .. إن شاء الله يكون لك نصيب .

— إن شاء الله .

— أما الكشف الطبى فنتيجته عليك وحدك .. فشدد حيلك حتى تتقدم لكشف الهيئة الأخير .
— الشدة على الله .

هذا الرجل حسن النية جداً .. كأنما قد ضمن قبوله في الكشف الأول حتى يرجوه أن يشد حيله في الكشف الطبى .

ما كل هذه السدود والحوائل والكشوف المتعددة ؟ والله إن دخول اللجنة أيسر سبيلاً !!

كشف هيئة أول .. ثم كشف طبى .. ثم كشف هيئة آخر .. وفى النهاية رفض أكيد .

لماذا لا يوفر على نفسه التعب من أول الأمر ؟

أليس من الأفضل أن يخبر الرجل أنه قد عدل عن رأيه ... وأنه قرر سحب أوراقه والاكْتفاء بالتقديم إلى المهندس خانة ؟
أجل .. أجل .

ولكنه لم ينبس بينت شفة ، بل سلم على الرجل الطيب الذى هز يده بشدة وهو يقول :

— سلم لى على إبراهيم أفندى .. قل له إنى أود أن أراه فى أقرب فرصة .. إنى ما زلت أجلس فى مقهى شارع خيرت .. نفس جلستنا القديمة .. لقد أوحشتنى سهرتنا فيها .. قل له إنى سأجهز له كوباً مترعاً من عصير القصب الذى يحبه .
وغادر « على » المدرسة وهو يشعر أنه قد أدى فرضاً لا بد من تأديته .. ولم يكن من السذاجة بحيث يخدعه لقاء الرجل الهاش ولا حديثه الجميل ، كل ما هناك أنه حمد للرجل الطيب أنه فوت المرحلة الأولى بسلام .. وأنه صان كبريائه من الهوان ، ووقاها من المذلة ، فلم يهمله ، ولم يسىء استقباله ، وكل ما يرجوه أن تمر بقية المراحل على خير كما مرت هذه المرحلة .

وعاد إلى البيت فنقل إلى أبيه كل ما حدث .. وكان حتماً على أبيه أن يخدع بما يخدع به هو ، فقد وجد فى حديث الباشكاتب ما يدفع الأمل فى نفسه ، إذ كان شديد التفاؤل ، وكان يعتقد أن الباشكاتب هذا لا بد وأن يكون له فى المدرسة صولة وسلطان .

وحلّ يوم كشف الهيئة الأول ، ومن الفجر استيقظ كل من فى الدار وأحاط الجميع بعلى ، كأنه عريس فى ليلة عرس ، وكرس كل ما فى الدار من ملابس لكسوته .. وكانت الأم قد ولفت له بذلة من خير الجاكترات وخير البنطلونات المنتقاة من ملابس أخيه ، وقامت بتنظيفها وكيها ، وكان « على » قد رتق الفتق الذى فى مؤخرة الحذاء .

ووقف « على » يربط الكرافطة التى قدمها إليه حسين ، وأخذت « بهية » الصغيرة تنظف الطربوش بكمها ، وانهمكت الأم فى تحضير لقمة يغير بها ريقه حتى لا يذهب إلى الكشف — على حد قولها — على لحم بطنه .

وأخيراً اكتمل لبسه ، ووقف أمام المرأة المشروخة يلقي على نفسه نظرة فاحصة ، ثم ابتسم لمن حوله مازحاً :

— ما رأيكم ؟

وقال حسين وهو يضحك :

— لا ينقصك غير المونوكل وتصبح أفندينا .

وقالت « بهية » فى براءة :

— والله إنك لخير منه .

وقال الأب فى لهجة جازمة :

— أعمى ليس عنده نظر .. الذى لا يقبلك فى كشف الهيئة .

وأقبلت الأم حاملة طبق الفول والأرغفة :

— ربنا يقيك شر العين .. ولا يخيب لك رجاء .

وغادر « على » البيت وفى صحبته أخوه ، وذهبا إلى محطة سكة الحديد وفى وقفته على الرصيف ، بدت جدران القصر وراء أسواره العالية ، وقد تساقطت الأسهم الحمر عليها من وراء الأفق الشرقى ، وهبت عليه ريح الصباح رطبة ندية تحمل خليطاً من أعشاب الحقول وورود الحدائق .. وسرى به الذهن مع هبات النسيم وأشعة الشمس فأوصله إلى مضجع وراء الأسوار ، رقد عليه صدر يعلو ويهبط فى سكونية ، وأنفاس تسرى فى هدوء .. وأحس فى عبير النسيم السارى هبات الأنفاس الزكية .. وملأ به صدره كأنه يخشى عليه من التبديد والضياع . أهذا هو كل حظه منها .. أو هام .. أو هام .. وأوهام .. نسيمات سارية .. وصور فى أحلام .. وإحساس لا يننى .. وشعور لا يخمد .. وكلما وأدها فى قلبه ازدادت منه تمكناً وفيه استحكاماً !

وعلا صفير القطار فاتخذ هو وأخوه محلها على مقعدين متقابلين .. وأخذت أسوار القصر تمر به من النافذة وتتباعد .. وفى جوفها .. الشبح الجميل .. والأمنية العزيزة .

راقدة فى سكونية لا تكاد تحس به .. أو تشعر بوجوده .

ويحه وويحها !

أىكون نصيب أكثر الناس إحساساً بك .. ومعرفة لقدرك .. هو أن يبقى

منك فى عالم الإنكار .. والجحود .. والإهمال .. والنسيان . (رد قلبي — ج ١)

(٩)

الدرج يتناقص

وصل الأخوان إلى المحطة .. واستدعى كل منهما ذهنه من جولته الهائلة في سماء الأمانى ، وأخذ ترام ٣ إلى العباسية ، وهناك افترق كل منهما ، فاتجه « على » إلى كوبرى القبة ، وذهب « حسين » إلى كلية البوليس للسؤال عن نتيجة الكشف الطبى ، على أن يعود لانتظار أخيه حتى ينتهى من كشف الهيئة ، ثم يعودان معاً إلى الدار ..

وصل « على » إلى المدرسة ، واجتاز الباب الذى وقف أمامه الجندى وتكأ كأحوله حشد من أهالى الطلبة الذين اصطحبوهم إلى انكشف ، وكان الطلبة قد بدأوا يفدون إلى المدرسة جماعات وفرادى ، وسار « على » مع جموعهم المتلاحقة ، فاجتاز الممر الذى أفضى به إلى الفناء المتسع والطريقة المقوسة الفتحات حيث مكتب الكتبة والباشكاتب ، وكان قطيع الطلبة قد احتشد فى الطريقة والفناء ، وبعد فترة أقبل أحد الكتبة ، وأخذ ينادى الأسماء ، وسار هو مع الطلبة الذين نودى على أسمائهم وأخذوا فى الصعود إلى سلم جانبى حجرى أكلت نعال الأقدام حروف حجارتها فبدت مقوسة منحوتة من الوسط . وفى نهاية السلم سار يميناً فى الطريقة التى تعلو الطريقة السفلى ، وأخذ يمر بنوافذ وأبواب عنابر النوم ، ومرت به أول لافتة كتب عليها : « الصنف الثالث » ولم يعرف ماذا يكون هذا الصنف ، ولكنه أدرك أنه لا بد أن يكون بلغة العسكرية كناية عن مجموعة أو جماعة . ثم مرت به لافتة أخرى كتب عليها « نادى الطلبة » ، أخذ القطيع ينساب إلى بابها ، ووجد بضعة طلاب من طلبة المدرسة بسترهم البيض ، ذات الأسبلايط القصب اللامع ، المثبت فوق أكتافهم ، وبنطلوناتهم الكحلية ذات الشرائط الحمر ، وطرايشهم الطويلة ، وأجسادهم البادية الصلابة والشدة ،

وقد أخذوا يقودون الطلبة وينظّمونهم في محلاتهم .
وكانت الحجرة رحة متسعة .. تتكوّن من قسمين يلتقيان بزاوية قائمة عند المدخل .. وفرشت الحجرتان بمقاعد ضخمة من النوع الأسيوطي غامقة الخشب ، بيضاء الفرش ، ذات طقطوقة معدنية وضعت في فتحة مستديرة عند مسند اليد ، وفي أركان الحجرة وضعت مقاعد خشبية صلبة الحشيات ، غير مريحة الجلسة ، وعلى أحد المناضد وضع صندوق للشطرنج ، وعلى منضدة أخرى صفت مجلات إنجليزية عسكرية .. وعلى الحائط علقت في الصدر صورة « الملك فؤاد » وصور أخرى متشابهة ، تمثل صفوفاً متراصة من طلبة المدرسة القدامى ، بينادقهم وحلّهم الكاكية ووجوههم المقطبة التي لا تميز منها وجهاً عن الآخر .

وفي وسط الحجرة صفت « دكك » خشبية ، أخذ طلبة المدرسة يصفون عليها القطيع المتدفق على الحجرة .

واستقر الطلبة أخيراً في مقاعدهم ، داخل نادي الطلبة وخارجه في الطريقة المستطيلة .. وجلس هو يرقب من حوله وقد خيمت على نفسه سحابة يأس وضيق .

لو كانت له إرادة لقطع جبال الأوهام ، ونفخ في السحب واستقر على الأرض ، حيث هو كائن ، وحيث يجب أن يكون .. ولترك كل هذا الحشا البغيض ، والبناء الموحش الرهيب ، واكتفى بالأهداف الواقعية ، التي يبصره جليلة واضحة أمام عينيه .

ولكنه لا يفعل ، لأنه ضعيف الإرادة ، أو لأن تعلقه بالأمنية الوهمية العذبة ، أقوى من إرادته ، بل أقوى من كل شيء في حياته ، أقوى .. حتى من حبه لأمه وأبيه .. بل ونفسه .

إنها أعذب ما في حياته .

أجل ! هذه الأمنية الوهمية ، التي لا طائل تحتها ولا أمل فيها .. هي ملاذه من

صخب الحياة .. وملجؤه من وحشتها ، ومتعته في ضيقها وشقائها ، وحلاوته في مرارتها ، والندى الذى يبّل به روحه ، ويندى كبده .. فى جفافها وقفرها ويابها .

إنه مخلوق غير طبيعى .. إنه لا يلهو كغيره من الصبية ، إنه لا يجرى ، ولا يلعب كأخيه « حسين » ، ولكنه يفكر .

والأمنية العذبة هى فكرته .. أو هى أجمل ما فى فكره وأحلى ما فى ذهنه .
أبعد هذا يبعدها عن ذهنه ويذودها عن قلبه !

لا .. لا .. يجب أن يتحمل من أجلها .. من أجلها .. كفكرة .. أو وهم ..
يجب أن يقبل .. حتى ما يثق فى أنه لا طائل تحته ، ولا أمل فيه .
أليست هى نفسها ، مجرد فكرة .. لا طائل تحتها .. ولا أمل فيها ؟
« على عبد الواحد » .

وانطلق الاسم فى أذنيه يصيح به أحد طلبة المدرسة ، فأخرجته الصيحة من شروده ، وصاح مجيباً :
— أفندم .

ثم هرول متجهاً إلى خارج الغرفة ، حيث قاده أحد الطلاب إلى ضابط ضخم الجسد ، أحمر الوجه ، كثير الصخب ، على الصوت ، صاح به متسائلاً :
— على عبد الواحد ؟

— أجل .

— اعدل طربوشك .

وعدل طربوشه ، ثم تبع الضابط إلى حجرة فى نفس الطريقة كتب عليها « المكتبة » .

ولم يكن فى حالة تمكنه من فحص الحجرة ، فقد كان يشعر أن قلبه يدق دقات متوالية .. وراعه منظر بضعة رعوس بيض ، استقرت على أكتاف حشدت فيها العلامات العسكرية اللامعة ، وياقات وضعت عليها العلامات الحمر .. التى

تبدى صاحبها كأنه قطعة ربط عنقها بشريط أحمر .. ووسط هذه السرعوس البيض ، والوجوه المجددة المتجهمة وجد وجهاً أحمر يرمقه من وراء المنظار بعينه الزرقاوين ، ولم يستقر به المقام لحظة أمام مجموعة الوحوش الضارية .. حتى سمع صوت صاحب العينين الزرقاوين يصيح بعربية ركيكة :

— بعده ..

وعند استدارته ليخرج من الحجرة ، لمح وجهاً أحس من نظراته برداً وسلاماً ، وجهاً أسمر طيباً ، منحه ابتسامة كانت أشبه بقطرة ماء لصاد في حمارة قيظ .

كان وجه عبد الجليل أفندى باشكاتب المدرسة ، وقد وضع أمامه كوماً من الدوسيات على منضدة صغيرة مجاورة للمنضدة الكبيرة التي التف حولها الزبانية .

وخرج « على » من الحجرة ليتسلمه الضابط الضخم ، الأحمر الوجه ، ويدفعه إلى طالب من المدرسة يقوده في الاتجاه الآخر من الطرقة ويأمره بالانتظار في أسفل حتى ينتهى الكشف وتعلن النتيجة .

وهبط إلى أسفل من سلم قبلى مشابه للسلم البحرى الذى صعد منه واستقر به المقام فى الممر السفلى مع بقية الطلبة الذين أتموا الكشف .

ومرّ الوقت بطيئاً مملاً ، وأخذت تعاوده نوبات اليأس ، وهمّ بالتسلل من وسط الطلبة والعودة إلى داره حتى أخرجه من وحدته ويأسه رفيق من رفقاء مدرسته الثانوية يدعى « سليمان زكى » ، طويل القامة ، طيب النفس ، أخذ يسرّى عنه قائلاً :

— ومن منا عنده أمل ، إنها مجرد محاولة يائسة .. أو تحصيل حاصل .. حتى لا يعود الإنسان باللوم على نفسه فى المستقبل .. قائلاً : لو كنت قدمت ، لكنت دخلت .. لقد قدمت أنا .. لأقطع على نفسى طريق اللوم والتأنيب فأنا أعرفها جيداً .. عندما تقول لى فى المستقبل .. لو كنت قدمت .. سأقول لها ..

لقد قدمت وفشلت فوفرى لومك .

وضحك « على » قائلاً :

— إى والله معك حق .. لقد فعلنا ما علينا .

— على أية حال ، ليس لك أن تحملهما .. فأمامك المهندسخانة مفتوحة ..

هى فى نظرى والله خير من الحرية ولا سيما لك .

— أجل ! إنها لا شك من خير المدارس .. ولكن الحرية بها مغريات كثيرة ،

على الأقل هذا التهافت العجيب عليها ، وعدم قبولها غير عدد محدود ، يجعل الفوز بالقبول فيها مسألة يتمناها كل إنسان .

— ولا تنس البدلة .. والمدة القصيرة .. والمستقبل المضمون .

وقطعت حديثهم صيحة مفاجئة صدرت من الطرقة العليا .. صيحة من

حنجرة تتضاءل أمامها جميع ميكروفونات العالم ، هى حنجرة الضابط الضخم الأحمر الوجه ، والذي عرف « على » فيما بعد أنه « أركان حرب المدرسة » .

— اسمع الطلبة .

واندفع الطلبة متدفقين من الطرقة السفلية ، ومن بقية أرجاء الفناء ..

فتكأوا أسفل المكان الذى يصيح منه الرجل .

وعاد الرجل يكرر صيحته الإنذارية :

— اسمع الطلبة .. لقد انتهى الكشف .. وسأنادى أسماء الطلبة المقبولين فى

كشف الهيئة الأول .. وهم الذين سيجرى عليهم الكشف الطبى أما الذين لا

يسمعون أسماءهم فهم غير مقبولين ، ويمكنهم الحضور غداً لسحب أوراقهم من

سكرتيرية المدرسة .

وبدأ الرجل فى مناداة الأسماء بصوته الجهورى ، وحنجرته الميكروفونية ،

وتوالت الأسماء على سمع « على » .. دون أن يطرق اسمه أذنه .. ودب اليأس فى

نفسه .. ولكنه عزى نفسه ، بأن فى اليأس من أول الأمر راحة من عذاب

الكشف الطبى ثم الكشف الآخر .. ثم الفشل فى النهاية .. ما دام القبول

مستحيلاً .. فمن الخير أن يرفضوه من أول كشف .. إن عليه أن يحضر في الغد لسحب أوراقه ، ثم الذهاب إلى الهندسة لمعرفة النتيجة .
— على عبد الواحد .

وانطلق الاسم من الخنجرة الصائحة الصاخبة .
غير معقول .. غير ممكن .. إنه لا شك وهم في السمع .. أجل .. إن الأذن أحياناً تسمع الإنسان ما يشتهي ، لا ما هو سامع .
ولكن صاحبه « سليمان » شد على يده في فرح وقال له :
— مبروك .

وفي نفس اللحظة التي هنأه فيها انطلقت صيحة الرجل باسمه فمد « على » يده إليه راداً له التهئة :
— مبروك يا سليمان .

— الله يبارك فيك .. عقيبى للكشف الطبي .. والكشف الأخير .
الكشف الطبي .. والكشف الأخير !! ..
لا .. لا .. إن هذا أمل مستعص وأمنية مستحيلة .. إن مجهود الرجل الطيب عبد الجليل أفندى لن يتعدى أكثر من هذا .. لقد استطاع الرجل مشكوراً أن يحشره بين المحظوظين في أول كشف .. أما الكشف الطبي .. فلا أظنه بقادر على اجتياز عقباته الهائلة واختباراته الدقيقة .

أما الكشف الآخر .. فلا يقدر عليه إلا الآلهة .. أو أنصاف الآلهة .. من الأمراء والكبراء والوزراء .
على أية حال لا ضرورة لأن يعكر على نفسه صفو النجاح المؤقت في هذا الكشف .

وانتهى الرجل من مناداة الأسماء ثم أعلن موعد الكشف الطبي قائلاً :
— الساعة السابعة والنصف سيتحرك الطلبة المقبولون من المدرسة إلى المستشفى العسكري ، يوم الثلاثاء القادم . تفضلوا .

وعند الباب التقى « على » بأخيه الذى وقف ينتظره بعد عودته من مدرسة البوليس .

وتساءل حسين فى لهفة :

— ماذا فعلت ؟

— الحمد لله .

— أقبلت ؟

— أجل .

وعاد حسين يصيح بمرحه الطبيعى :

— مدهش .. أنا أيضاً نجحت فى الكشف الطبى .. إن أبانا سيجن من الفرح .. هيا نأخذ الترام الأبيض .. لا تقل دعنا نسير .. إن قدمى « بقبق » من السير .. ومليمات الترام الأبيض لن تغنينا شيئاً .

وضغط « على » يده قائلاً فى صوت خفيض :

— اخفض صوتك .. فضحتنا .. ماذا يقول الناس عنا ؟

— لا يهتمك الناس .. فستكون ضابطاً ، وتستطيع أن تضع قدمك على رءوسهم .. كما أنوى أنا أن أفعل .. إن أول ما سأفعله هو أن أوقف الترام والأتوبيس فى غير المحطة بمجرد إشارة من يدى .. هيا لقد أقبل الترام .

وعاد الأخوان إلى البيت ، ليزفا إلى والديهما بشرى النجاح . وأطلقت الأم زغرودة دون أن تدرك شيئاً من التفاصيل .. إذ كان فهمها يقصر عن فهم سلسلة الكشوفات المفروض على ولديها أن يجتازاها ، وإنما كانت تعرف فقط أن هناك نجاحاً وسقوطاً ، وقد طرقت مسامعها ألفاظ نجاح كل من ولديها فأطلقت زغرودة حارة عبرت بها عما يصطبخب فى صدرها من مرح .

وأطلق الأب زغرودته فى صورة ركعتين حاريتين مخلصتين أداهما إلى الله .. وأقبلت « بهية » الصغيرة تهنى ابنى خالتها فى فرحة ظاهرة . وإن كانت فرحتها لحسين أكثر عمقاً . فقد كانت تحس أن يداً خفيه تشد أحدهما إلى الآخر ، وأن

رابطة لا تدري كنهها تجمعهما معاً
لم تكن تدري لماذا .. فقد كانت كل الظواهر تحتم عليها أن تجس للأخوين شعوراً
متساوياً ، وكان هذا هو ما تحاول دائماً أن تسم به تصرفاتها نحوهما ، ولكنها مع
ذلك كانت في مقارنتها لا تستطيع أن تقاوم ذلك الميل العجيب إلى حسين .
كان « على » الأكثر وسامة ، والأفضل خلقاً .
ولكنها مع ذلك كانت تفضل حسيناً .. رغم اقتناعها عند المقارنة بأن علياً ..
أفضل .

بأى شيء كانت تفضله ؟ ربما كان لأنه غير الأفضل .. وربما كان لخفة كفته
في المزايا .

أجل إنها كانت تفضله كما هو .. بنزقه ، وخفته ، وطيشه ، وأنايته .. كانت
تفضله بلا تفكير .. وإذا فكرت .. فهو بعدم أفضاله أيضاً .. مفضل عندها .
كان أقرب إليها من « على » .. لأنها تشعر بأنه يحتاج إليها .. وأنها تستطيع أن
تقدم إليه الكثير .. كانت ترتب له كتبه وتغسل له ملابس الكرة .. وكانت تبتاع
له بعض الحاجات من المحطة ومن السوق ، وكان يحتاج إليها في معاونته على
الكذب عندما يريد خداع أمه أو أبيه .

كان أقرب إليها .. لأنه كان أكثر إحساساً بها .. كان ينهرها ..
ويسترضيها .. ويعاقبها ويكافئها .. وأحياناً عندما تصيبه نوبة حمق يضربها .
كانت ترى فيه .. بشراً قريباً حبيباً .

أما « على » فكان بكل ما فيه من أفضال .. بعيداعها ، كان في غير حاجة
إليها .. بل في غير حاجة إلى أحد .. كان ما يسمونه مكتفياً بنفسه ، مستقلاً
بذاته .. لم يكن يكلفها بشيء لأنه لم يحتاج أبداً لشيء .. ولم يدعها تقدم له
مساعدة لأنه دائماً كان يقوم بمساعدة نفسه .. كان مرتباً منظماً لا يسأله عن
شيء .. لأنه يعرف أين وضع ذلك الشيء .. وما كان يطلب منها أن تذهب
لشراء حاجة .. لأنه كان يفضل أن يذهب لشراء حاجته بنفسه ، ولا يضطجع

على الفراش فى كسل كما كان يفعل أخوه .
كان بعيداً .. بعيداً جداً .. كان أبعد من السحب الهائمة فى السماء .
وكانت تشعر أنه ليس لها ، ولا لأحد منهم ، بل لإنسان آخر يجذبه بعيداً عنهم .. إنسان يهيم معه بين السحب العالية .
وأقبل الليل ، وآوت القافلة إلى مضاجعها ، وأغمض كل منهم عينيه وأطلق ذهنه قبل أن ييسط عليه الكرى سلطانه ليتصيد من المرئيات أحبا إلى نفسه ، فأبصرت الأم ولديها صحيحين معافيين ، وأبصرهما الأب ضابطين محترمين ، وأبصرت « بهية » حسيناً يختال فى حلته الرسمية وقد ضمها إليه ، وأبصر « حسين » نفسه يختال بالشريط الأحمر ، ويوقف الترام فى غير محطته ، ويتلقى إعجاب الفتيات فى شوارع القاهرة .. أما « على » فقد انطلق يهيم فوق أبراج القصر ، وقد أحس أن الدرج الطويل الذى يفصل بين القرار والقمة والمضى به إلى هام السحب قد نقص درجه .

لقاء مفاجيء

حل موعد الكشف الطبى ، وذهب « على » إلى المدرسة .. وسار طابور الطلبة المتقدمين للكشف يقوده بعض طلبة المدرسة القدامى ، متجهاً إلى المستشفى العسكرى ، ودخل الطلبة من الباب الخلفى للمستشفى إلى عنبر الكشف على يمين الداخل ، وجلسوا على دكك خشبية قد صفت في قاعة تبدو كأنها « طرقة » وسدت جوانبها بجدار نصفه الأسفل من الخشب ونصفه الأعلى من مربعات الزجاج الإنجليزى . وبدأ الكشف ، وأخذ أحد الجنود المرضيين ينادى على الطلبة واحداً بعد واحد ، حتى حل دور « على » فدلف من الباب المفضى إلى حجرة الكشف ، ومرّ بمراحله المختلفة ، من قياس للنظر والصدر ، واختبار للأعصاب ، وتحليلات متعددة .

وأخيراً انتهى الكشف ، وعاد طابور الطلبة مرّة أخرى إلى المدرسة وبعد فترة انتظار ، وقف أحد الكتبة يعلن نتيجةته .

وتتابعت الأسماء على أذنه ، وبلغ مسامعه اسم صاحبه سليمان زكى .. فأحس بيد اليأس تعتصر قلبه .. لأن اسم صاحبه بعده .. فإذا كان قد نودى عليه دون أن ينادى على اسمه .. فلا شك أنه رسب في الكشف .

ولقد صدق ظنه ، فما كاد الرجل ينطق ببضعة أسماء بعد ذلك ، حتى هبطت يده بالورقة التى يقرأ منها ، ثم صاح في الطلبة :

— هؤلاء الذين ناديت أسماءهم ، عليهم الحضور صباح السبت القادم لحضور كشف الهيئة الأخير .. أما الباقون فيمكنهم الحضور غداً لسحب أوراقهم .

ولم يستطع « على » أن يمنع موجة الحزن الجارفة التي طغت على نفسه . إنه حقاً لم يكن يؤمل كثيراً في النجاح ، ومع ذلك فهو يجد طعم الفشل مريراً .. وأكثر من هذا ، يجد الدرجة التي تناقصت من سلم الأوهام الذي يقضى به إلى السحب ، قد عادت درجات فوق درجات ، بل إن السحب قد تباعدت في ظلمات اليأس ، حتى بات لا يكاد يدركها في أمسياته الحاملة .

وأخذت جموع الطلبة في الانصراف .. وهم الكاتب بالعودة أدراجه إلى حجرته ، عندما أقبل عليه جندي ممرض من جنود المستشفى ، يحمل دوسيتها به ورق ، وقدم إليه ورقة مكتوبة .

ومرة أخرى صاح الرجل منادياً :

— على عبد الواحد .. الطالب على عبد الواحد .

وصاح « على » مجيباً ، وكأن يداً قد مدّت لانتشاله من الغرق :

— أفندم .

— عد مع الأمباشي إلى المستشفى لإعادة كشف التحليل .

إعادة الكشف ؟ .. ثانية !! لقد كان يأمل من صيحة الرجل أن يكون اسمه قد سقط سهواً من أسماء الناجحين .

ولكن الأقدار تأتي إلا السخرية به .. سيعاد الكشف الطبي عليه .. هو وحده .. دون بقية الطلبة .. لكي يمنحه القدر ذبالة أمل .. وسيسقط في النهاية .

وود أنه لو رسب وانتهى الأمر ، ولكنه لم يملك إلا أن يخوض وسط الطلبة حتى يصل إلى الكاتب .. الذي سلمه للجندي الممرض .. الذي عاد به إلى المستشفى العسكري .

وأعيد كشف التحليل ، ثم عاد مرة أخرى إلى المدرسة .. وقد تملكه يأس شديد ، وتمنى لو استطاع الفرار من الجندي ليعود إلى داره .

وفي المدرسة تسلم الكاتب ظرفاً مغلقاً من الجندي .. وفضّه وأخرج منه

بضع أوراق ، ثم وضعه على المكتب ، وعاد إلى الانهماك في ترتيب بقية الأوراق التي أمامه .

ووقف « على » يرقب مصيره المعلق بين الشفتين المغلقتين ، والرجل مقطب الجبين ، منهمك في الأوراق ، وقد بدا عليه الإجهاد والضيق .

وتقدم منه « على » قائلاً في صوت خفيض ولهجة مترددة :

— أستطيع أن أذهب ؟

ورفع الرجل رأسه قائلاً بلا تفكير :

— أجل .

ماذا يريد بعد هذا ؟ .. لقد كان عليه أن يتوقع هذه النتيجة ويريح نفسه من أول الأمر .. إن عليه أن يعود إلى بيته ليحمل أنباء الفشل إلى أبيه .. مسكين أبوه .. لشد ما كان يأمل أن يراه ضابطاً .

وهمّ بالانصراف ، حاملاً فوق كتفيه حملاً ثقلاً من الضيق والتعب والفشل واليأس .

إن عليه أن يعود غداً لأخذ أوراقه .. هذه آخر مهمة ثقيلة سيقوم بها في هذا البناء الرهيب .

وتردد في خطواته عندما سمع صوت الكاتب يقول بنفس اللهجة المتبرمة :

— ستعود يوم السبت .

وكان تفكيره مركزاً في سحب الأوراق ، فرد متسائلاً بلا وعى .

— لسحب الأوراق ؟

وبدت الدهشة على وجه الكاتب ، وتساءل بدوره :

— أى أوراق ؟

— أوراقى !!

— ولماذا تبشر على نفسك من الآن .. عندما تظهر نتيجة الكشف يوم

السبت ، وترى نفسك لم تقبل .. اسحب أوراقك مع بقية الطلبة .

— ولكنك قلت إن الأوراق يمكن سحبها غداً .
— أجل .. للذين لم يقبلوا في الكشف الطبي .. وأنت قد قبلت .
وعقدت الدهشة لسانه ، ومضت برهة ، وهو يحلق في وجه الرجل أقبل
حقاً ؟ ولماذا إذن لم يخبره الرجل من أول الأمر ؟
لا بد أن يكون قد افترض فيه المعرفة .. وأبى عليه إهماله وإرهاقه أن يفصح
بالنتيجة .. الحمد لله .. إنك يا رب كريم ، تأبى إلا أن تفرقه بفيض رعايتك .
وأحس بعبء اليأس والهم يذوب من فوق كاهله .. وتمنى رغم رزاقه وتعلقه
لو استطاع أن يثب على الرجل فيوسعه أحضاناً وتقبيلاً .. إن عليه الآن أن
يسرع لينبئ أباه بالنبا العظيم .. إن المسألة قد هانت .. والفرصة قد زادت ، فكل
الذين نجحوا في الكشف الطبي لا يزيدون على الثمانين ، فإذا صدق قول عبد
الجليل أفندى ، وكان العدد المطلوب هو ثلاثين . والأمل والتفاؤل يرفع الرقم إلى
أربعين ، فتكون نسبة القبول خمسين في المائة ، أى إن باب القبول سيسمح
بدخول طالب من كل طالبين يحاولان اجتيازه : إن الخيار سيكون بينه وبين فرد
آخر .. أيمن أن تكون هناك فرصة أكبر من تلك ؟
وبعد كل هذا .. تقع السخرية الكبرى ، ولا يقبل .. بعد أن صعد إلى
منتصف درج أوهامه .. وبعد أن أحس بالبون قد تناقص .. وبالقرار قد قارب
القمة .

بعد كل هذا ، يلقي به من حلق مرة أخرى !
ولكن ماله يثقل على نفسه بهذه الاحتمالات المزعجة ؟ ماله يطبق عليها بأعباء
اليأس ، وأجراس الأمل الحلوة تدق في حناياه !
ليعد إلى أبيه . لينطق . ليطر ، قبل أن يبدل الرجل كلامه مرة أخرى .
ولكن يجب أن يتأكد .. يجب أن يسمعها من الرجل ثانية ، حتى لا تكون
زلة لسان .. أو زلة سمع .
وعاد يسأل في وجل :

— أقدر قبلت حقاً في الكشف الطبي ؟

وأجابه الرجل في ضيق ودهشة :

— أجل .. قبلت . أتظننى أمزح معك ؟؟ إلى ...

ولم يسمع بقية قول الرجل ، فقد انطلق من الحجرة يعدو إلى الخارج ، وبعد لحظة كان يستحث الخطى في شارع الخليفة المأمون في طريقه إلى العباسية .

ووصل إلى ميدان العباسية وهو يحس بفرحة شديدة وخشية أشد .. فرحة النجاح ، بقطع مرحلة كبرى من مراحل طريقه إلى الهدف المنشود ، وخشية الفشل بعد هذه المرحلة من النجاح .

واتجه إلى الترام ، فوجد صفّاً طويلاً من عرباته متوقفة نتيجة حادث في الطريق ، فعاد إلى محطة الأتوبيس ، إذ لم يجد مفرّاً منه رغم الغثيان الذي يصيبه من ركوبه .

ووقف أمام محطة الأتوبيس ينتظر العربة القادمة من اتجاه مصر الجديدة لتحمله إلى المحطة .

وطال به الانتظار ، وقد شرد ذهنه في الاحتمالات القادمة لأحلامه .
يجب ألا يترك الفرصة تضيع منه ، ولكن كيف يجتاز كشف الهيئة الأخير ؟ لا جدال في أنه ستكون هناك معركة هائلة بين الوساطات ، فهل تستطيع وساطة عبد الجليل أفندى أن تجتاز المعركة !
لا يظن .. إن الأمل ضعيف جداً .

لو كان الأمير يتوسط له ، لضمن الدخول ، ولكن كيف يقبل الأمير التوسط ؟! إنه يذكر ما قاله إبراهيم أفندى لأبيه عندما ذهب لرجائه أول مرة .. وهو على حق في كل ما قال ، فالأمير مخلوق أناني متعجرف ، لا يمكن أن يحتمل فكرة أن يكون ابن الرئيس عبد الواحد الجنائى .. ضابطاً .. مثل ما كان .. ومثل ما يحتمل أن يكون ابنه علاء .

على أية حال .. ليركها إلى الله .. وإذا كانت وساطة عبد الجليل أفندى أضعف

من أن تقف في وجه بقية الوساطات ، فوساطة الله أقوى من الجميع .
من يدري ؟

وكانت العربات الخاصة تمر أمامه في سرعة البرق .. دون أن تكون بينها
إحدى عربات الأتوبيس .

وفجأة لمح إحدى تلك العربات التي تنهب الأرض ، تتوقف مرة واحدة بعد
أن مرت به .. ثم ظلت واقفة في مكانها برهة كأن صاحبها ينتظر شيئاً ، ثم أخذت
تعود القهقري حتى توقفت أمامه .

ولم يلق إليها بالاً حتى سمع صوتاً يهتف به من داخلها :
— على .

وأذهله الصوت ، وأذهله أكثر .. ما وقع عليه بصره عندما نظر إلى داخل
العربة .

لقد كانت هي !!

أجل .. هي بعينها ودمها ولحمها .. وسموها وروعتها .. ودقتها .
ودق قلبه دقات متوالية .. وأحس بالدم يتصاعد إلى وجهه ، وخيل إليه أن
الأرض قد تخلت عن قدميه ، وأنه بات يتأرجح في الهواء .
وكان عليه أن يجيب بعد أن فتحت الصبية الباب ونادته مرة ثانية . وفتح
شفثيه عن حلق جاف وصوت مشدوه وأجاب :

— أفندم ..

— أتحب أن أوصلك ؟

توصله !!؟ أجنونة هي ؟ .. أيستطيع أن يركب عربتها الفاخرة ويجلس
بجوارها ؟!

لا .. لا .. إن مكانه على قدميه فوق الأرض ، أكرم وأثبت .. كيف يركب
بجوارها ؟!

وأجاب وهو يهز رأسه هزات متوالية ، كأنما ينفذ عن نفسه جريمة يدعى إلى

ارتكابها :

— لا .. لا .. متشكر .

— لماذا ؟

— إني أنتظر الأوتوبيس .

— ولماذا تنتظر الأوتوبيس إذا كنت أستطيع أن أوصلك ؟ أجل ! لماذا ؟ ..

ماذا يقول ، وبماذا يعتذر ؟

وفتح الله عليه بالرد فقال متلعثما :

— ربما كان طريقي يخالف طريقك .

— إلى أين أنت ذاهب ؟

ولم تكن لديه القدرة على الكذب ، ولا الفرصة لتدبيره ، فأطلق الإجابة بلا تفكير :

— إلى البيت .

— حسن جداً .. أنا أيضاً ذاهبة إلى هناك .. اركب حتى أوصلك .

ولم تكن هناك طريقة للمقاومة ، لقد أخذت عليه السبل . كانت دعوتها مخلصه وبسيطة إلى الحد الذي جعل ركوبه بجوارها في العربة لكي توصله معها إلى العربة ، يبدو أمراً مفروضاً أن تفعله ، ومفروضاً عليه أن يقبله .

واستقر به المقام بجوارها .. وأدار السائق الأسود محرك العربة ، وانطلقت في طريقها إلى القصر .

حدث الأمر كله في مثل لمح البرق .. وبدت المسألة كلها بالنسبة له ، كأنها مجرد حلم من أحلام ليلاليه التي لا يحتاج الأمر منه ، لكي يجد نفسه بجوارها إلا إلى غمضة عين ، يهيم بعدها وإياها في قصوره الشم وأبراجه العوالي .

ومضت فترة استطاع خلالها أن يتمالك نفسه ، ويهدئ أعضابه المتوترة ، ويمسك بزمام ذهنه الشارد الحائر ، وتملكه شعور السارق الذي قرّ بغنيمة ظلّ طول حياته يحلم بالحصول عليها ، فلما سقطت في يده أخذ يعدو بها كالجنون ،

والناس تطارده ، حتى إذا بلغ بها مأمناً من مطارديه ، وضعها جانباً وجلس يلتقط أنفاسه ويتحسسها بيديه ليطمئن على وجودها ، وهو غير مصدق لحصوله عليها .

أجل .. إنها تجلس بجواره ، في واقعه ، لا في أحلامه ، أى إنه يستطيع لو انخرق ببصره أن يراها .. أو مد يده أن يلمسها ، ولكنه مع ذلك لا يجسر .. لا أن يخرق ببصره .. ولا أن يمد يده .

كل ما يستطيعه ، هو أن يخلق ببصره من النافذة .. إنه هانىء سعيد بمجرد إحساسه بوجودها إلى جواره .

ولكن يا له من أحق غيبى ، إذا كان هو هانىء سعيداً بجلسته هذه وحملته وصمته .. أتراها هي سترضيها حالته ؟ أستقنع منه طوال الطريق بالصمت والحملقة ؟ لا بد أن يتحدث .. لابد أن يقول شيئاً .. إنها فرصة العمر لكي يتحدث إليها ويسمع صوتها .

ثم ماذا يخشى منها وقد دعت إلى الركوب في رقة وتواضع ، وإلحاح . أجل .. إلحاح ، فلقد وقفت العربية ثم أعادتها إلى حيث وقف .. وطلبت منه الركوب ، وألحت في طلبها .

إنها لا شك ترغب في صحبته .. فلا أحد هناك يرغبها على ذلك . ليتكلم إذن . ليقول شيئاً .

ومع ذلك فقد أخذت أعمدة الكهرباء تمر ، وسيقان الشجر تتوالى ، وهو في صمته وحملته .

وأخيراً أنقذته من ورطته وتحدثت قائلة :

— كنت أزور « تنت إيناس » في دارها بمصر الجديدة إذ كانت بها وعكة خفيفة .. لقد نزلت بالعربة مع أخى علاء وتركته في نادى الصيد وذهبت إلى زيارتها ، وسيقضى أخى يومه في البلد ، وسأرسل له العربية بعد أن توصلنى . واسترسلت « أنجى » في الحديث حتى تزيل ببساطة حديثها جو التكلف

والتوتر الذى تلبدت غيومه بينهما .

إنها تريد أن يتحدث .. لقد مضت فترة طويلة وهى لا تراه إلا رؤية خاطفة ، وما زالت تنطبع فى ذهنها صورته بجلسته أمام الترولى وصمته المتعالى .. وخجله المتكبر .. لقد تمت كثيراً لو استطاعت أن تلتقه وتحديثه ، ولكنها لم تكن تلقى غير أبيه وأخيه ، وكانت دائمة السؤال عنه حتى عرفت من أبيه فى آخر مرة أنه نجح فى البكالوريا ، وأنه ينوى التقدم إلى الحرية .

ولقد فوجئت اليوم بمראה أمام محطة الأتوبيس .. لم يتغير وجهه كثيراً عن آخر مرة أبصرته فيها ، وإن كان جسمه قد نما ، وقامته قد طالت أما شفتاه المزمومتان ، وأنفه الدقيق المستقيم ، وحاجباه المقرونان ، المزوى ما بينهما كأنما قد أساء صاحبهما شئ .. أما سماته الحازمة ونظراته المتعالية فكما هى .. لم تصب بتغيير ولا تبديل .

وعجبت لما أصابها من اللمحة السريعة العابرة ، التى رمت بها وهو واقف فى انتظار الأتوبيس ، لقد أحدثت فى نفسها ما يشبه الشر الذى يحدث من مسة سلكين كهربيين أحدهما موجب والآخر سالب ، فهتفت بالسائق أن يقف . وعللت وقوفها لنفسها وللسائق .. بأنها تؤدى واجباً نحو جار لهم وإن كانت تدرك فى قرارة نفسها أن هذا المخلوق أكثر لديها من مجرد جار وأنها تريد أن تراه عن كثب وتحدث إليه فترة طويلة .. تستطيع أن ترفع خلالها ذلك الحجاب الثقيل الذى يسدله حول نفسه من الصمت والتباعد .

(١١)

وسيلة وغاية

كانت تفكر فيه كثير من الأحايين ، ولم تكن تدري سر ذلك الاهتمام به ..
لقد كان في نظرها مخلوقاً آخر غير تلك المخلوقات التي تشابهه .. كان أكثر كثيراً
من ابن بستانى .. ليست تدري لِمَ ؟ لأنه أنقىذ حياتها ذات مرة ؟ أم لأنه تباعد
عنها وترفع عن الحديث إليها ؟

على أيه حال ، إنها فرصة سانحة أن يجلس وإياها طوال مدة الذهاب إلى
البيت ، وهى تستطيع أن تتجاذب وإياه أطراف الحديث فتقطع وحشة الطريق
وملله .

ولكن إلى متى سيعطل مغرقاً فى صمته .. أتراه لا ينوى التحدث إليها طوال
المسافة ؟ !

ووجهت إليه سؤالاً تستدرجه به إلى الحديث وتخرجه من صمته :
— وأنت أين كنت ؟

وأجاب وهو يستدير إليها نصف استدارة ، وقد حوّل بصره من النافذة إلى
أطراف قدميها :

— كنت فى المدرسة الحربية .

— حقاً ؟ وماذا كنت تفعل ؟

— ذهبت للكشف الطبى .

— وكشفت ؟

— أجل .

— والنتيجة ؟

— قبلت .

وتهللت أساريرها ، وبدت عليها فرحة صادقة ، وقالت مهتمة :

— مبروك .. ستدخل المدرسة إذن ؟

— ربما .

— ولماذا « ربما » ؟

— لم يزل أمامي كشف الهيئة .

ونظرت إليه وقد افتر ثغرها عن ابتسامة حلوة .. لم يستطع هو أن يراها لأنه كان ما زال مصوباً نظره إلى طرف حذائها .. وقالت في براءة وبساطة :

— هذا كشف يسير بالنسبة إليك . ولا شك أنك ستجتازه بسهولة ، فلا

أظنهم سيجدون هيئة خيراً من هيئتك .

ولم يستطع أن يمنع الدماء من أن تتصاعد متدفقة إلى وجهه ، حتى تبلغ أطراف أذنيه ، لقد وقع قولها البريء الساذج من نفسه موقعاً أعمق مما كانت تقصد أو تتصور .. أحقاً تراه كذلك .. أم هي مجرد مجاملة ؟

ورفع شعاع بصره المصوب إلى طرف قدميها ، فجعله يستقر على ركبتيها وعلى يديها الرقيقة ، وأناملها الدقيقة المبسوطة على فخدها ، وتمنى لو ينحني حتى يمس بشفتيه أطراف أناملها .

وعندما نفخ عنه الخجل ، وأعاد الدماء المتصاعدة من وجهه إلى قلبه الصاخب الضاحك .. أجابها وهو يرفع شعاع بصره رويداً رويداً حتى بلغ ذقنها الصغير قائلاً :

— لا أظن هيئتي تتميز كثيراً عن سائر الهيئات المعروضة ، وعلى أية حال ،

لست أظن الهيئة لها دخل كبير في كشف الهيئة .

— كيف ؟

— لأن الغلبة فيه .. ليست للهيئة الأفضل ، بل للوساطة الأقوى ؟

— عجيبة !! إنى لا أصدق أنه يمكن رفضك ؟

وأظربه قولها أكثر مما لو كان قد قبل في الكشف نفسه ، وأحس في تلك اللحظة أنه لم يعد يأبه كثيراً للقبول في المدرسة ، لقد فاز بالقبول من نفسها ، وكان يعتبر القبول في المدرسة مجرد وسيلة للقبول في نفسها .. أما وقد تحققت الغاية ، فما حاجته بعد ذلك إلى الوسيلة .

ومرة أخرى أحس بحنين لا يقاوم ، ورغبة لا ترد في أن ينحنى على أناملها الرقيقة البيضاء .

إن مسة يدها خير لديه من العمر كله .. مسة واحدة .. ليتها تسمح له بها ومن يدريه أنها لا تسمح .. إنها مخلوقة كريمة رقيقة .. لقد وهبته في لحظات أكثر مما ناله هو نفسه منها في الأعوام من الأحلام .

ونظرت إلى جبينه المقطب ، وسيماء الشاردة وسألته :

— ما بالك شرد منك الذهن ، أتخشى عدم القبول ؟

وأجابها صادقاً :

— أبداً .. على الأقل الآن لا أخشاه .

وسألته في دهشة :

— ولِمَ ؟

وأحس بأن شخصاً آخر في داخله يتحدث .. شخصاً أقدر منه على التعبير

عن نفسه المرهفة ومشاعره الدائبة :

— لأن أمل في الحياة صار أكبر من أن يحصر في مثل هذا الهدف الضيق .. لقد

باتت لديّ آمال كبار .

ولم يبد عليها أنها فهمت شيئاً من قوله .. وعادت تسأله :

— أليست لديك وساطة ؟

— لم تعد للوساطة قيمة فيما آمل .

ورفعت إليه وجهها وحدثت فيه .. وقد ازدادت بها الدهشة وسألته :

— لقد كنت تقول الآن إن الوساطة هي كل شيء .

ورفع بصره من ذقنها إلى شفيتها القرمزيتين إلى طاقتي أنفها الضيقتين وأخذ يرقبهما ، وكأنه يرى الشهيد في دخوله والزفير في خروجه ثم رفع شعاع بصره رفعة يسيرة فالتقت عيناه بعينيها للمرة الأولى منذ جلسا ، بل للمرة الأولى في حياته .. واضطرب الاثنان لحظة شعر بعدها أن الثقة قد عادت تملأ نفسه ، وأن الهوة السحيقة ، والبون الشاسع الذى كان يفصل بينهما لم يعد لهما وجود .. وأحس أنهما متجاوران كما كانا متجاورين في أحلامه ، وأنه قد بات تماماً فى الوضع الذى كان يحب لنفسه دائماً أن يكون فيه .
وأحست هى كأن الحجاب الذى كان يسدل بينهما قد رفع ، وأن السد قد زال ، وأحست باضطراب لذيذ وهى تجد عينيها قد ثبتتا فى عينيه ، وأخيراً خرج من صمته قائلاً :

— منذ لحظات كنت أجد القبول فى المدرسة هو أقصى أمانى .. أما الآن فقد بات الدخول وعدمه سواء لى .
— لماذا ؟

— قد تعرفين بعد ذلك .. أما الآن فلا أظننى أجسر على الإفصاح .
وعادت وهى تقول ملححة :
— ولكنك يجب أن تدخل المدرسة منحصرة ألا تدخل .
وأحس بالفرحة تغمره وهو يجد منها ذلك الاهتمام ، وأجاب ضاحكاً :
— على أية حال ذلك يتوقف على مقدرة عبد الجليل أفندى .
— عبد الجليل أفندى !
— باشكاتب المدرسة .
— وما دخله فى الموضوع ؟
— إنه هو وساطتى .. أو على الأصح كان وساطتى فى الكشف الأول ..
وأرجو ألا يخذلنى فى الكشف الأخير .
— ولكن أتظنه يستطيع إدخالك ؟

— هو وحده .. لا أظن .. ولكنى أعتمد على آخر يساعدني ويساعدني .

— من هو ؟

— الله .

— أتمرح ؟

— أبداً .. أوساطة الله تعتبر مزاحاً ؟

— الله وساطته مشاعة بين الجميع .. وهو يساعد كل الناس ، فليس لأحدهم

أن يختص بنفسه بوساطته .

وسرته إجابتها .. وابتسم .. فابتسمت ، وأجابها قائلاً :

— معك حق .. ولكن ماذا يملك العاجز إلا أن يؤمل نفسه في وساطة الله ..

إن الله دائماً ملاذنا الأخير ، وعلينا أن نبذل جهودنا ، ثم نترك أمورنا لتدبيره .

وأطرقت ، وبدا عليها التفكير ، وأحست برغبة شديدة في أن تقدم له

المعونة .. لقد فرقت بينهما اللحظات القصار التي قضتها بجواره .. والحديث

العابر الذي جرى بينهما .. وأحست أن في جوهره شيئاً يدعو إلى التقدير

والاحترام ، وأنه إذا تعالى ، ففي باطنه ما يسوغ له تعالى والاعتزاز .. ولقد

سبق أن ردت إليها حياتها دون أن يقبل مجرد كلمات شكر ساقتها إليه ، بل إن

البنطلون الذي قدمته إليه بحسن نية ، متخيلة أنه سيقبله شاكراً ، قد رفض

ارتدائه بدليل أنها رأت أخاه يرتديه في أول مرة أبصرته في الحديقة .

إنه يعرف قدر نفسه .. وقد عرفت هي قدره من الحديث المقتضب ،

والكلمات القصار التي جرت بينهما .

إنه لن يطلب منها المساعدة .. رغم أنه يعرف في قرارة نفسه أن وساطة أبيها

الأمير لا شك ستدلل له السبيل إلى المدرسة ، ولو عرضت عليه المساعدة

لرفضها ، كما رفض البنطلون ، فنفسه أعز من أن يذلها ، حتى في سبيل أمانيه .

على أية حال إنها تستطيع مساعدته دون أن تشعره .. وهي إذا ما ساعدته فقد

كان أسبق بمساعدتها ، فليس تقديمها المساعدة غير رد للجميل .

وخلفت العربة القاهرة ، بدورها وشوارعها وبدأت السير في الطريق الزراعى .. وقد صفت على جانبيه أشجار الكافور والجازورينا ، وبدأت من ورائها الخضرة المنبسطة تعترض انبساطها أكواخ القرى ، وهياكل الأشجار القائمة فوق السواقى باهتة في الأفق .

وتلفتت إليه فوجدته قد شرد ببصره من النافذة ، فاسترعتة إليها متسائلة :

— فيم تفكر؟؟

— فى لا شىء .

— لا يمكن أن يفكر الإنسان فى لا شىء .

— أفكر فى شىء أصبح من فرط تفكيرى فيه كأنه لا شىء .. لقد بت أفكر فيه

بلا تفكير .

وضحكت قائلة :

— هذا قول عجيب أن تفكر بلا تفكير .. أأستطيع أن أعرف هذا الشىء أو

اللا شىء الذى تفكر فيه بلا تفكير .. أقرب هو أم بعيد ؟

— كان بعيداً عن الواقع قريباً فى الأحلام ، فأضحى قريباً فى الاثنين .

— أهو أمنية ؟

— أكبر من أمنية .. إنه حياة أخرى .

— لست أفهم !

— لا ضرورة لأن ترهق نفسك فى الفهم .. لكل إنسان أفكاره التى لا

يفهمها إلا هو .

— ولكننى وددت لو فهمت أفكارك .

— أحقاً تؤدّين ذلك ؟

— أجل .. فى كل مرة أراك .. أود لو أعرف أفكارك .. أتذكر عندما

تقدمت إليك وأنت تجلس أمام الترولى ، وحاولت شكرك فلم تجبني ، ولم تنهض

عندما سألك أبوك النهوض ؟ لقد تمنيت أن أعرف ما فى رأسك ، ماذا منعك من

إجابتي !! وماذا منعك من النهوض !! ولقد سألت أباك فأخبرني عن خجلك من البنطلون .. وحاولت أن أرسل لك آخر رغم أني لم أر فيه ما يستحق الخجل !!

— إني لم أخجل منه .. ولكنني خجلت منك .. لقد كانت المقارنة بيننا تروغني .. وكنت أخشاك دائماً .. ولقد روّعتني دعوتك لي إلى الركوب الآن .. ولولا مفاجأتك لي ، وإصرارك على دعوتك .. وسدك عليّ كل سبل الفرار ، لهربت من أمامك .

— عجباً !! لم كل هذا ؟

— لست أدري .. وإن .. وإن دريت فلا أظنني بمستطيع الإفصاح .. إن خير ما منحه الله لنا من وسائل الأمان أن أعطانا القدرة على أن نغلق رءوسنا على ما بها .. وإلا ..

— وإلا ماذا ؟

— لا شيء ..

— لماذا لا تتكلم ؟! إني أود أن أسمع منك الكثير .. قل .. ماذا تنوى أن تفعل بعدما تتخرج في المدرسة ؟

— وماذا أستطيع أن أفعل أكثر من أن أكون ضابطاً ؟

— لست أدري لماذا يخيل إليّ أنك لن تكون ضابطاً عادياً ..

— لست أدري أنا .. لماذا أنت حسنة الظن بي إلى هذا الحد ؟! لأجل انطلاقي

أمام الترولي لإنقاذ حياتك ؟. إن هذا كل ما فعلته أمامك لكي يظهر في كمخلوق غير عادي ، وحتى هذا لا يبدو لي مثلاً خارقاً ، فلا أظن أي إنسان مكاني إلا كان فاعله .

— لا أظن كل إنسان يعرض حياته للخطر في سبيل إنقاذ مخلوق لا يمت له

بصلة .

— لا يمت له بصلة ؟

- أجل .. إني لست أختأ لك .. ولا قريية .
- أليس هناك بين الناس سوى صلات الأخوة والقراية ؟! ألا يوجد بين صلات الإنسانية !!
- لا أظنها بالقوة التي تدفع الناس لأن يضحوا بأنفسهم في سبيل الآخرين .
- على أية حال .. أنا لا أجد ما فعلت يستحق منك هذا الاهتمام ، وأكره أن يستند مركزى في نفوس الناس على أحد أعمال البطولة المصادفة الطارئة .. فالإنسان لا تسنح له هذه الفرص في الحياة كثيراً .. وخير للإنسان أن يقدره الناس بأعماله الدائمة وشخصيته الطبيعية ، من أن يقدره بهذه الأعمال الفجائية المعتمدة على الظروف والفرص .
- أنت لا تستطيع أن تفرض على الناس أسباب تقديرهم لك وإعجابهم بك .. إن لهم هم أن ينتفوا الأسباب .
- بالطبع .. ولكل فرد ما يستهويه في الفرد الآخر .
- وبدت محطة البسكة الحديد ، ولاحت على الجانب الآخر منها البيوت المتواضعة التي تكوّن العزبة ، وفي آخر الطريق بدت أسوار القصر ، وقال « على » وهو يرى العربة تقترب من دارهم :
- أستطيع أن أنزل هنا ؟
- أقدر وصلنا سريعاً !!
- أجل .
- لم أشعر بمرور الوقت ، ولا بطول الطريق ، وددت لو طالت الفرصة لكي نكمل حديثنا .
- في فرصة أخرى إن شاء الله .
- ولكنك لا تحضر إلى الحديقة .
- سأحضر وقتاً تشائين .
- ألم يعد هناك ما يخيفك ؟

— لا .. لقد حطمت بحديثك السور الشائك الملغم الذى كنت أتوهمه بيننا .. والذى كنت أخشى القرب منه .

ووقفت العربية ، وهبط منها « على » ، ووجد « أنجى » قد مدت إليه يدها .. فأحس برجفة وهو يوشك أن يمد يده إليها .

وتلامست الأكف .. واحتوت كفها الصغيرة كفها الكبيرة .. وشعر بقلبه يوشك أن يشب من بين أضلعه .. وابتسمت له ابتسامة رقيقة وهى تودعه بقولها :
— مع السلامة .. سأراك قريباً ؟
— إن شاء الله .

ووقف يرقب العربية التى أخذت تتباعد .. وهى تشير إليه بكفها الصغيرة .. وعندما اختفت العربية عن ناظره رفع كفها التى صافحها بها .. وأخذ يحدق فيها فى شئ من الدهول ثم أطبقها ووضعها فى جيبه .. كأن بها شيئاً ثميناً يخشى عليه من التبدد .

ما كل هذا الذى حدث ؟! لشد ما يخشى أن يفتح عينيه فيجد نفسه مازال رابضاً أمام محطة الأتوبيس .

أجل .. أجل .. لا يمكن أن يكون ما مر به أكثر من حلم .. أن يراها .. ويجلس بجوارها .. وتبدى فى كل فقرات حديثها ما يشعره بتقديرها له ، وتفكيرها فيه .

ثم بعد هذا تمد يدها وتصافحه ، وتطلب منه أن يجعلها تراه فى فرصة قريبة !!
لا .. لا .. هذا شئ لا يمكن أن يكون قد حدث فى عالم الواقع .. إنه نوع من الأمانى التى كان يغرق نفسه بها .

وسار واضعاً يمينه فى جيبه وهو يشعر كأنه يتحرك فى دوامة .
واقترب من البيت فوجد « حسين » ينتظر عند الباب .. ولم يكذب يراه حتى أقبل عليه وسأله فى لطفة :

— ماذا فعلت ؟! ما النتيجة ؟

و لم يعرف فيم يسأله أخوه .. وكاد يجيبه وهو مغرق في شروده :
— لقد أمسكت يدها .. لقد دعنتى إلى زيارة الحديقة .
ولكنه تذكر أن أخاه يسأله عن نتيجة الكشف الطبى .. وأن تلك هي النتيجة
الهامة التى ينتظرها كل من فى الدار .
وابتسم « على » وأجاب أخاه :
— لقد قبلت ..
واندفع حسين يبلغ النبأ لمن فى الدار .

(١٢)

محض صدفة

توقفت العربية بأنجي أمام باب القصر .. ووثبت منها في خفة وبنفسها إحساس بطرب لا تدري كنهه ولا تعرف سببه ولا مبعثه .. أو على الأصح تتجاهل سببه ومبعثه .. إذ لم يكن يخطر لها ببال أن مثل هذا الطرب الشديد يمكن أن ينشأ عن مثل هذا السبب التافه .. الذى لا تستطيع أن تعترف صراحة بأنه مبعث طربها .

أيمكن أن يكون مجرد مجاورته لها في العربية هذه المدة القصيرة .. قد سبب لها مثل هذا الطرب ؟ من يكون هو ؟ إنه لا يزيد عن آدمي .. فرد .. وهو في مقاييس أسرتها واعتبارات تقاليدها .. غير ذى وزن ، وغير ذى قيمة .. فهو ابن الرئيس عبد الواحد الجنائنى .

ولكن .. أترأه حقاً .. لا يزيد عن ذلك ؟! أترى تلك هى المقاييس والاعتبارات التى يوزن بها الأشخاص في النفوس ؟! لا .. لا .. إنها جد خاطئة .. إن هناك مقاييس أخرى . وليس أدل على ذلك من الشعور الواضح المحسوس الذى يجزم بأنه في نفسها ذو وزن .. وذو قيمة .. وذو موضوع .

إن في باطنها مقاييس غير تلك المقاييس الظاهرة المصطلح عليها .. في باطنها ميزان خفي .. أغلب الظن أنه يكمن في ذلك الشيء الرابض في جنبات الصدر .. الشيء الدقاق المرهف الخفاق .. المسمى بالقلب .

لا يعنى قياسها إياه بمقياس القلب .. أنها تحبه .. فذلك إحساس لا يمكن الجزم به بعد .. ولكنه يعنى أن العامل المسيطر في إحساسها نحوه هو القلب .. هو الذى سلط عليه أضواءه ، فجعل منه مبعث طرب وجعل منه كائناً غير بقية الكائنات

المماثلة له .. جعله مثلاً ، شيئاً آخر غير أخيه .. بل أكثر من هذا ميزه عن غيره ممن يكون أثقل وزناً وأكثر فضلاً إذا ما استعملت مقاييس الحياة الطبيعية العادية ، مقاييس التقاليد والطبقات فهو خير في نفسها من كثير من أبناء طبقتها وأصدقاء أخيه .

ألم يلم بها طيفه بين آونة وأخرى على طول النأي ، وكثرة التباعد ؟ ألم تتمنّ دائماً لو أنه عاد إلى الحديقة مع أخيه وأبيه ليشاركها لعبها ، وليدفع بها الترولى ؟ ألم تلمحه وهو ذاهب إلى المحطة وهي راكبة مع أبيها وودّت لو استطاعت أن تدعوه إلى الركوب لولا الخوف من أبيها وأخيه ؟

ألم يمسه منه شرر لمجرد أن لمحته اليوم في طريقها ؟ وبعد كل هذا .. تنكر أن ما أصابها من طرب إنما هو مبعثه .. وتقول إنه مجرد آدمي .. فرد !!

حمقاء .. بلهاء .. وأشد منها حمقاً وبلهاً مقاييس القلب التي لا تعترف بفوارق الأوضاع ، ولا تقدر غنى ولا جاهاً ، ولا غير ذلك من المقاييس التي اصطلاح عليها البشر لتنظيم حياتهم .

واستمرت الأفكار تصطبّخ في رأسها ، وهي جالسة على المائدة تنتظر نزول أبيها من حجرته .
وسألها أبوها :

— كيف حال عمّتك ؟

— بخير .. لم يكن ما بها أكثر من برد بسيط في طريقه إلى الزوال .

— وأين علاء ؟

— تركته في النادي .. لقد أنبأني أنه قال لك إنه سيتخلف للغداء هناك .. ألم

يقول لك ؟

— أجل .. أجل .. لقد تذكرت .

— وسألني أن أرسل له العربة إلى بيت البرنس كمال حيث سيتناول الشاي مع

سهيلة وإبراهيم .

— سأمر عليه أنا عند عودتي من افتتاح مؤتمر الطيران الدولي في هليوبوليس .
وظهر الخادم يحمل صحاف الطعام ويمر بها على الأب والابنة ، وأخذت
« أنجي » في تناول طعامها .. وأرسلت ذهنها يطوف بمبعث طرفها .
ماذا قال لها في العربة ؟ لقد حدثها حديثاً غامضاً .. لم تستطع أن تحدد
لنفسها معانيه ولا مقاصده ، ولم تستطع أيضاً أن تمنع نفسها من أن تستشعر منه
لذة ، رغم غموضه وإبهامه .

قال لها أشياء عن أمله الذي بات أكبر من أن يحصر في هدف ضيق وقال لها إنه
منذ لحظات كان القبول في المدرسة هو أقصى أمانيه ، ثم بات الدخول وعدمه بعد
ذلك سواء .. فلما سألته أن يفصح أنبأها بأنها قد نعرف بعد ذاك .. أما الآن فلا
يجسر على الإفصاح .

وأخذت تستعيد لنفسها كل ما قال ، وأدهشتها حدة ذهنها وقوة ذاكرتها في
وعى أحاديثه .. كأنما كانت ستؤدي فيه امتحاناً ، وهي التي كثيراً ما جلست
مع أقاربها وأصدقائها فلم يحاول ذهنها أن يلتقط من أحاديثهم كلمة .. بل قد تمر
عليها الجلسة دون أن تعي منها شيئاً .. أترى كان ذلك لقيمة ما قال ، وتفاهة ما
قالوا ؟

أم أن المقياس الدقاق الخفاق .. قد حشر نفسه حتى في وزن حديثه وقياس
ألفاظه ؟!

وأحست أن بنفسها رغبة في أن تراه وتسمعه ثانية .. وتذكرت كبرياءه ،
وأنفته ، وتعالیه عن أن يطلب منها وساطة أبيها ، كما تعالى — من قبل — عن لبس
البنطلون الذي أهده إياه .

ونظرت إلى أبيها نظرة خاطفة وقد انتهى من طعامه وأمسك بقطعة
« كيردون » يخلل بها أسنانه .. إنه يستطيع بكلمة منه أن يحقق أمله ، وينيله
أمنيته .. ولكن أتراه يقبل أن يقول هذه الكلمة ؟! أتراه يقبل أن يرجو أحداً
لإدخاله المدرسة الحربية .. أي لكي يصنع ضابطاً من ابن الجنائني ؟!
أليس هذا هو كل ما يراه فيه ؟ مادام لا يملك المقياس السحري الذي تملكه ،

والذى جعل منه مخلوقاً آخر غير مخلوقات الله .
على أية حال لير ما يراه هو فيه .. أما هي فعليها أن تفعل من أجله كل ما
تستطيع .. وإذا امتعض أبوها أو ثار فعليها أن تقنعه بأنها لا ترجو أكثر من رد جميل
من أنقذ حياتها .

ولكن كيف تبدأ الحديث ؟ وبم توجيه إذا سألتها من أين عرفت أنه يريد الدخول
في المدرسة الحربية ، وأنه قبل في الكشف الأول الطبى ، وأنه لم يبق أمامه غير
كشف الهيئة الأخير ؟ إن عليها أن تقول إنها لقينته في الطريق والمواصلات معطلة ،
فأضطرت إلى أن تنقله إلى داره .. ليس في هذا عيب .. ومن المحتمل جداً إن لم
تقله هي له أن يقوله السائق .

على أية حال يجب أن تتحدث .. وتحدث الآن ، فهذه هي خير فرصة يمكن
انتهازها ، فرصة هدوءه وخلوتهما وعدم وجود أخيها الذى لا شك سيكون
تدخله في غير صالح « على » فهو أكثر من أبيه ازدراء لطبقته واحتقارها .
وهمت بالحديث ولكن أباه سبقها به قائلاً :

— وصلنى اليوم خطاب من مدرستك أظنه على مكتبى .. يحددون فيه موعد
الدخول ، ويطلبون أداء القسط الأول ، ويسألون إذا كنت تريدان الاشتراك في
دروس الموسيقى ، وسأرسل لهم النقود والرد غداً مع إدريس . لا تنسى أن
تذكرينى .

— سأنزل معه صباحاً .

— ولم ؟

— أريد أن أذهب إلى المدرسة لرد بعض كتب اقترضتها من المكتبة ولاستعارة
كتب أخرى .. و ..

وصمتت برهة تستمع لجمع شجاعتهما .. إنها لا بد أن تقول .. ولكنها لا
تعرف كيف تبدأ ، وليست الشجاعة هي التى تنقصها ، ولكن فقط بداية
الحديث ، وأساليب الرجاء .

وتنهدت وازدردت ريقها ثم عاودت الحديث :
— و .. كنت أود أن أرجوك في موضوع خاص بعلى ابن الريس عبد
الواحد .

ورفع إليها الأب عينيه .. وقوس حاجبيه .. وجعد جبينه .. وقاطعها
متسائلاً في دهشة واستنكار :

— على ابن الريس عبد الواحد .. ومالك أنت به ؟
— لقد لقيته مصادفة وأنا قادمة في طريقى وكانت المواصلات معطلة فدعوته
إلى الركوب معى .

— دعوته إلى الركوب معك !! وركب ؟
— أجل .. بعد أن ألححت عليه .
— ولماذا ألححت عليه ؟! بل لماذا دعوته ؟! لم يبق إلا أن تركبى أبناء الفراشين
والجناينية بجوارك فى العربة ؟
— لقد كانت المواصلات معطلة .

— وما شأنك أنت .. أمسئولة أنت عن تجهيز سبل المواصلات له ؟! لماذا لا
يسير ؟

— إنى لم أجد فى ركوبه معى غضاضة .
— أنت لا تجدين فى أشياء كثيرة غضاضة .. إنك كثيراً ما تنسين نفسك ،
وتنسين من تكونين ، ولقد كنت أقول فيما مضى إنك صغيرة .. ولكن الآن ما
عذرك وقد أصبحت فتاة مكتملة . يجب أن تعرفى دائماً أن هناك فارقاً بين السيد
والمسود . لقد كنت أكره فى أمك هذا الجانب اللين . وأكره أن ترثيه عنها . إن
هؤلاء القوم إن كنت لهم طمعوا فيك .. وإذا أركبتهم مرة بجوارك ، اعتبروا ذلك
حقاً لهم ، إن موضعهم الأسمى تحت موطئ القدم .. لا بجواره .. وإذا حدث
واضطرتك الظروف إلى أن تقدمى إلى أحدهم نوعاً من المعونة فأفهميه أن هذا
فضل منك .. واذكرى له أن ذلك إحسان لا حق له فيه .. هل فهمت ؟

فهمت ؟ هل يمكن أن تفهم هذا ؟ لا .. لا .. إنها لم تفهم ، ولا تود أن تفهم ، وإذا فهمت .. فهل تستطيع أن تطبق نصائحه تلك على معاملتها لعل ؟ عبث .. في عبث .. إن تلك الطريقة في معاملة الناس هي أكثر ما تكرهه في أبيها .. أن يحتقر من حوله .. وإذا أعانهم .. كانت معونته إحساساً مذلاً وهبة مهينة .

أتجسر هي أن تفعل ذلك مع « على » .. المترفع المتكبر المتعالى ؟ ووجدت أن أباهما انحرف بها عن غرضها .. وأنه قد جعل المطلب أكثر عسراً وأشد مشقة ، ولكنها كانت قد أصرت على أن تصل إلى بغيتها ، فلم تملك إلا أن تجيبه موافقة ، موافقة ، للترضية والتسكين فقالت :
— أجل .. فهمت .

ثم صمتت برهة وأردفت قائلة :
— لقد علمت من « على » أنه تقدم إلى المدرسة الحربية .. وأنه اجتاز الاختبارات التي تقدم إليها حتى الآن .. ولم يعد أمامه إلا كشف الهيئة الأخير وهو كشف يحتاج إلى وساطة كبيرة .. فإذا كان يمكنك أن ترجو أحداً من ذوى الشأن .

وكانت الدهشة تزداد على وجه الأب .. وأخيراً لم يجسر على مواصلة الإنصات وقاطعها في غضب واستنكار :
— أنا أرجو أحداً من ذوى الشأن ؟ لأجل ابن الرئيس عبد الواحد .. حتى يكون ضابطاً ؟! أمجنونة أنت ؟
— لماذا يا أبت ؟!

— هؤلاء الناس لا يعرفون حدودهم .. ماذا يدعو هذا الجنائني الغبي إلى أن يتقدم بابنه إلى المدرسة الحربية ؟ ومن ذا سيعمل في الخدائق إذا كان كل أولاد الجنائية سيتعلمون .. ويدخلون المدرسة الحربية ؟!
— ولكن ليس كل أبناء الجنائية مثل على .

— لماذا .. أعلى رأسه ريشة ؟

— لا . ولكنه يبدو إنساناً ممتازاً ، ولا شك أنه سيكون رجلاً ذا قيمة .

— كلهم حيوانات .. لا يستحقون أن يكونوا أكثر مما هم عليه .

وأحسست « أنجى » بغصة في حلقها .. وحاولت جهداً أن تكبت غيظها وقالت لأبيها في شبه توسل :

— ولكنك تذكر يا أبتاه كيف أنقذ حياتي .. فلا أقل من أن نرد له الجميل .

— لقد سبق أن رددته لأبيه .. إن أكثر العمال والفلاحين تمتعاً بمنحى وعطاياى هو الرئيس عبد الواحد ، فكفى أنت عن التدخل فى أمره وأمر ابنه ، ولست أريد منك بعد هذا الاحتكاك بهذه الطبقة .. مفهوم ؟

وكانت لهجته خشنة ناهرة .. دفعت الدماء إلى أذنيها والدموع إلى مقلتيها ، وتركت المائدة دون أن تتمم بقية طعامها ، وقد غامت المرثيات أمام ناظريها ، واندفعت صاعدة إلى حجرتها .

لقد كرهت أن يأخذها أبوها ، وأن تتدخل هى بدورها علناً ، ولم تعرف بهذا يمكن أن تفعل سوى الاستسلام للبكاء .

وغادر أبوها المائدة وصعد إلى غرفته ، وعاونته إدريس فى ارتداء ملابسه ، وبعد نصف ساعة كانت العرببة تنهب الأرض فى طريقها إلى القاهرة لحضور المؤتمر الذى كان عليه أن يترأس افتتاحه .

ووقفت العرببة أمام مدخل فندق « هليوبوليس » ، وخفت لاستقباله فى شرفة الفندق القائمة على مدخله بعض كبار المدعوين الرسميين وغير الرسميين ، وكان بين الحاضرين إبراهيم « باشا » وكيل وزارة الحربية ، وكان صديقاً حميماً للأمير ، فأقبل عليه يحببه فى حرارة .

وانتهى افتتاح المؤتمر ، وغادر الأمير المكان وقد سار فى صحبته إبراهيم « باشا » يودعه حتى العرببة .

وسأل الأمير صاحبه وهو فى طريقه إلى العرببة :

— كيف حال عزبتك التي اشتريتها في المنصورية ؟

— إنها نحتاج إلى إصلاح كثير .. بها أرض مرتفعة ومنخفضة لا بد من تسويتها ، ولا بد من عمل مصرف في الناحية الغربية .. وإن كان بها قطعة طيبة تبلغ حوالى الخمسين فداناً .. لقد صنعت بها مزرعة للدواجن ستعجب أفندينا كثيراً ، وإذا سمح وقتك بزيارة لنا ، فسأرى سموك أنواعاً جديدة استوردتها أخيراً ..

— سأريك أنا مزرعتي أولاً .. إنها ستدهشك ، وسأريك المنحل الذى أقمته أخيراً .. أنت الذى عليك أن تبدأ بالزيارة . متى أنتظرك ؟

— قريباً إن شاء الله .

— لا .. لا .. أنا أسمع منك ذلك دائماً .. فى كل مرة ألقاك تقول لى قريباً .. سأنتظرك غداً صباحاً .

— غداً سأكون مشغولاً طول اليوم مع الوزير .

— إذن يوم السبت ؟

— بعد الظهر إذن .. لأننى سأكون مشغولاً فى الصباح بحضور مجلس إدارة المدرسة الحربية لإجراء كشف الهيئة الأخير على الطلبة الجدد ، لأننا سنأخذ هذا العام دفعة كبيرة .

وكان الأمير قد وصل إلى باب العربية وهم بالانحناء للدخول ، ولكنه عندما سمع الكلمات الأخيرة جعلته يستقيم ثانية ليسأل قائلاً :

— تقول إنكم ستأخذون هذا العام دفعة كبيرة فى المدرسة الحربية ؟

— أجل .. ثلاثة أضعاف ما تعودنا أن نأخذ كل عام .

وتذكر الأمير رجاء « أنجى » ، وتذكر غضبها وبكاءها ، وتركها المائدة ، وأحس أن القدر يأتى إلا أن يلبى رجاء الصغيرة ، وكره أن يقف فى وجه القدر ، وأن يرفض الفرصة السانحة التى ساقها إليه لإرضاء ابنته .. إن كلمة واحدة يقولها الرجل .. لن تكلفه شيئاً ، وستكفل بإرضاء الصغيرة العزيزة ، وتعمل من ابن الرئيس عبد الواحد ضابطاً .

ضابطاً ، أو لصاً ، ليكن ما يكون ، إنه لن يغير ما بالكون . وقد ساق إليه
الحظ هذه المنحة .. فليأخذها ويذهب .

وأردف إبراهيم « باشا » متسائلاً :

— أريد أفندينا التوصية على أحد ؟

— أجل .. أنت ابن حلال .. عندى فى العزبة رجل قديم لابنه فى المدرسة .

— هل نجح فى الكشف الأول ؟

— أظن ذلك .

— والكشف الطبى ؟

— أجل .. أجل .. لم يبق له غير الكشف الأخير .

— هل لأفندينا أن يذكر اسمه ؟

وأخرج الرجل من جيبه قلماً وبطاقة ، ووقف الأمير يحاول أن يذكر الاسم

قائلاً :

— اسمه .. شيئاً عبد الواحد .. أبوه اسمه عبد الواحد .. تذكرت .. اسمه

على .. أظنه هو المتقدم إلى الحربية .

وكتب الرجل الاسم ثم مده يده يشد بها على يد الأمير قائلاً :

— إن شاء الله سيكون أول المقبولين ، وسأقـى لزيارة أفندينا بعد ظهر يوم

السبت عقب الانتهاء من الكشف .

— سأكون فى انتظارك .

وعادت العربة تنهب الأرض فى طريقها إلى العزبة بعد أن مرّ على بيت الأمير

كـال حيث اصطحب معه ابنه علاء .

وفى القصر جلس الأمير على مائدة العشاء ، وجلس ابنه بجواره ، وكان مقعد

« أنجى » ما زال خالياً .

وصاح الأمير متسائلاً :

— أين « أنجى » ؟

وأجاب كبير الخدم :

— إنها فى حجرتها .

— لماذا لم تنزل ؟

— لقد أرسلت تقول إن رأسها مصدع .

— قل لها أن تهبط .. لأنى سأعرف كيف أزيل صداعها .. لقد لبيت

رجاءها .. أو على الأصح .. لقد لبيت القدر رجاءها .. إنها محض صدفة ، ولكن

للصبي قسمة فيما حدث .

(١٣)

توافه الأمور

في صباح يوم السبت كان « على » يجتاز باب المدرسة ، وقد بدا — على قدم حلته — وسيما نظيفاً ، وضمهم مرة أخرى قاعة النادي التي انتظروا فيها كشف الهيئة الأول ، وكان الزحام أقل كثيراً من المرة السابقة إذ لم يتجاوز عدد المتبقين من الكشفيين الأولين الثمانين .

وكان طلبة المدرسة القدامى قد أخذوا يقومون بترتيبهم وتنظيمهم ، وجلس « على » بجوار « سليمان » وقد خفت من نفسه الرهبة والقلق اللذين تعود أن يشعر بهما في كل مرة ضمه هذا البناء العتيق .

كان إقباله على الكشف في هذه المرة إقبال الزاهد المتصف ، فقد ظهرت نتيجة قبوله في مدرسة المهندسخانة يوم الخميس .. وكان أكثر مما يرحو .. فقد أتاح له مجموعه القبول في المدرسة بمجانية دائمة .. وبذلك اطعمت نفسه إلى أنه لن يكلف أباه عبء مقصرو فانه إذا ما طالت به الدراسة في المهندسخانة وقد قبل أخوه في مدرسة البوليس ، وهو يستطيع بذلك أن يرصى رغبة أبيه ويحقق حلمه بأن يكون له ولد من أصحاب الكسوة العسكرية والإمارة والسلطان .

وأكثر من هذا كله .. كان يشعر أن المعبر الذي كان يفصل بينه وبين إلهة أحلامه ، والذي كان يرجو أن تعاونه الحلة الأنيقة والمركز المرموق على اجتيازه ، قد اجتازه بلا حلة ، وبلا مركز .

لقد أضاع لقاء العربة كل ما كان يملؤه من هبة وخشية ، وبدد ذلك الوهم الذي كان يربه نفسه في القاع ، ويربه إبابها في القمة .. وملأه حديثها بالثقة ، فقد عرف منه حقيقة صورته في نفسها ، واستشف جمال روحها ورقة مشاعرها وطيبة قلبها ، وأيقن أنها هي نفسها لا تحس بتلك الهوة السحيقة التي كان يأبى

هو ، ويأبى اختلاف طبقتيهما إلا أن يقيسها بينه وبينها .
وثمة شيء آخر أضاع من نفسه القلق والخشية ، وهو اليقين من الفشل ،
والجزم بعدم القبول .

أجل .. لقد كان بنفسه يأس مريح .. إذ كان يعلم أنه يتقدم إلى الكشف في
هذه المرة .. وهو صفر اليدين .. حتى من الوساطة المتواضعة التي ذلت له
السبيل أول مرة ، فقد حمله أبوه بطاقة أخرى من إبراهيم أفندى إلى عبد الجليل
أفندى زيادة تأكيد وتذكيرة .. ولكنه علم أن الرجل مريض ، وأنه يرقد في بيته
طريح الفراش ، ولن يتمكن مرضه من حضور الكشف . ومَرَّق « على » البطاقة
ولم يرد أن يفجع أباه ويضيع أمله فأنبأه أنه سلمها للرجل وأنه وعد خيراً .

وجلس يتحدث مع سليمان حديث اليأس من القبول ، وأخذ يعزى نفسه
عن المدرسة بتعدد مزايا المهندس خانة ، حتى نودى على اسمه وساقه الضابط
الأحمر أمام المجلس كما ساقه في المرة السابقة .

وكان في هذه المرة أكثر هدوءاً وتمالكا لأعصابه ، فاستطاع أن يقرأ اللافتة
الموضوعة على خجرة الكشف ، وكانت « المكتبة » . واستطاع كذلك أن يقرأ
لافتة « الضابط » التي وضعت على باب الخجرة المغلقة التي بين النسادى
والمكتبة .

واستطاع أن يبصر « الدواليب » الزجاجية التي صفت الكتب على
رفوفها .. وأن يميز إلى حد ما الوجوه المجددة والرءوس البيض التي استقرت على
الأكتاف اللامعة ، والتي أخذت ترمفه بنظرات فاحصة .

وسأله رجل يرتدى الملابس المدنية قد توسط المنضدة :

— أنت على عبد الواحد ؟

فأجاب :

— أجل .

ومال الرجل على الضابط الإنجليزي الجالس بجواره وهمس في أذنه بضع كلمات ثم قال :

— حسن .. اخرج .

ثم أردف موجهاً القول للضابط الأحمر :

— اللى بعده .

وخرج وهو يتنفس الصعداء :

الحمد لله .. لقد انتهت العملية الشاقة .. ما كان أغناه عنها من أول الأمر .. ولكن لا بأس عليه .. إنها مجرد تجربة .. وعلى أية حال ، إنه لن يؤنب نفسه بعد ذلك عندما يرى أحد أصدقائه في حلة رسمية ، فلقد حاول وأخفق .. الحمد لله . ولم يهبط من السلم الآخر كما فعل في المرة السابقة ، فقد كان الطلبة ينتظرون في الجانب الآخر من الطريقة .

وأخيراً انتهى الكشف ووقف الضابط أركان حرب المدرسة ينادى الأسماء . وشرذ ذهن « على » . لقد طلبت منه « أنجى » أن تراه في الحديقة .. ولكن متى ؟ وكيف ؟ .. لقد قادته قدماه ذات أصيل فطاف بالسور الخلفى وتسلسل إلى السوبة .. ولم يجسر على أن يتجاوزها .. وعاد من حيث أتى .. كيف يراها ؟! وهو لا يعرف متى تهبط إلى الحديقة !! أم ترى عليه أن يربط فيها ليل نهار حتى يضبطها هابطة إليها !

ثم ماذا يفعل إذا رآه أبوها وأخوها ؟ بل ماذا يقول إذا رآه أبوه هو ؟ أيقول إنه قد أتى ليرى « أنجى » لأنها دعتة إلى رؤيتها ؟

وأحس بمرفق سليمان يضربه في ذراعه ويقول له في صوت مأخوذ :

— أجب .. ألا تسمع ؟

فتلفت إليه في دهشة :

— أسمع ماذا ؟

— اسمك . إنهم ينادونه .

— أنا ؟

وعاد الصوت الجمهورى ينادى فى لهجة حانقة :

— على عبد الواحد ؟

— أفندم .

وعاد سليمان يدفعه قائلاً :

— انتقل إلى الصف الأمامى .

وعلا الصوت منادياً الاسم الذى بعده :

— سليمان زكى .

وقبل أن يتم نطق الاسم ، كان سليمان قد قفز بجوار « على » ، وأحس

« على » بيد سليمان تضغط على يده بشدة وهو يهمس :

— مبروك .

— مبروك ماذا ؟

— لقد قبلنا .

— غير معقول .

— ما هو هذا غير المعقول .. لقد نادوا أسماءنا .

والتفت إليه « على » وهو يقول مؤكداً :

— أيها الغبى .. لا بد أنهم ينادون أسماء الذين لم يقبلوا لأنى واثق أنى لم أقبل

إن عبد الجليل أفندى مريض .. وأنا لم أره فى ..

وقبل أن يتم حديثه كان الرجل ذو الصوت الميكروفونى يصيح صيحته

التقليدية :

— اسمع الطلبة .. الذين لم يسمعوا أسماءهم يمكنهم سحب أوراقهم الآن من

السكرتيرية .. ليتفضلوا حتى لا يتعطلوا .. أما الذين ناديت أسماءهم فبيقون فى

أماكنهم .

وهز « على » رأسه كأنما ينفض عنه حلماً . وهمس لصاحبه :

— غير معقول .. غير ممكن .

وأعجزته المفاجأة عن التفكير .. إنه لم يحضر ذهنه لقبول النبأ .. ولم يعرف كيف يفر .. ولا استطاع أن يستحضر في رأسه ما يمكن أن يترتب على قبوله من نتائج وتطورات خاصة به وبها وبأبيه وأمه وأخته . ، بل بكل ما في حياته . ولم تترك له الحوادث السريعة التي مرت به بعد ذلك فرصة للتفكير. كان أول ما حدث هو خروج مجلس الإدارة ومروره على طايفر الطلبة المصطف .. وإعادته النظر فيهم .

وانتهى المرور بعد أن توقف الرجل المدني أمامه برهة مع الرجل الإنجليزي ثم عبراه بسلام .

وهبط الطايفر بعد ذلك إلى الفناء السفلي يقوده الطلبة القدامى ، الذين بدعوا يباشرون سلطانهم على الطايفر بمجرد أن أعلنت نتيجة القبول ، حتى بدوا كأهم تجار في سوق عبيد ، وأن الطلبة المقبولين قد أضحوا ملكا لهم . وبدأت عملية أخذ المقاسات المختلفة ، وانهمك التريزية في قياس الأطوال والأعراض ، وانهمك صانع الأحذية في أخذ مقاس الأقدام . ثم بدأ رئيس الطلبة القدامى الذي كانوا يدعونه الباشجاويش « رجب » في توزيع قوائم الملابس الخاصة المطلوب إحضارها يوم الدخول . وأخيراً .. وبعد أن قاربت الساعة الثانية ، أطلق سراحهم وحدد لهم موعد الدخول في العاشرة صباحاً من يوم الخميس .

وغادر « على » المدرسة وبصحبته سليمان ، وقد أفعمت نفسيهما فرحة القبول ونشوة النجاح ، وإن كانت مفاجأة « على » بها قد تركته في شرود واضح غطى على مظاهر الفرح . وقال سليمان وهو يهز رأسه باسماء :

— عجيب هذا القدر .. يجعل مصائرنا معلقة بحوادث تافهة .. تبدو في ظاهرها لا تربطنا بها صلة . ولا نكاد نلقى لها بالاً ولا نهتم بأن تحدث أو لا

تحدث .. ومع ذلك .. فبحديثها أو عدم حدوثها تتعلق مصائرنا . لقد ذهبت يوم الأحد الماضى إلى بيت خالى وهو موظف فى وزارة المالية ، ذهبت لغرض معين ، وكان من المحتمل جداً ألا أذهب لو كان معى نقود تمكننى من الذهاب إلى السيما . ولم أجد إبراهيم ابن خالى ، وأخبرتني أمه أنه لن يتغيب كثيراً وعرضت على انتظاره ، وكان من الممكن ألا أنتظر ، ولا سيما وأنى لم أكن أريده فى حاجة ملحة بل لمجرد التسلية . ومع ذلك فقد انتظرت . وقبل أن يعود طرق الباب فرّاش وأنبأنا أن خالى موحود فى بيت « زكى بك » مدير الميزانية وقد أرسله ليحضر دوسيهماً أخضر نسيه على المكتب . وأحضرت زوجة خالى الدوسيه المطلوب ، ولكنها قبل أن تسلمه للفرّاش ثارت فى نفسها وسواس جعلها تخشى على الدوسيه . وكان من المحتمل أن يحضر ابنها فى تلك اللحظة فتطلب منه أن يحمل إلى أبيه الدوسيه . وكان الأمر قد انتهى بالسبب لى عند هذا الحد ، ولكن الابن لم يحضر والوسواس تملأ نفس السيدة وأنا جالس أتصفح إحدى المجلات .. ولم تجد بداً من أن تسألنى أن أذهب بالدوسيه مع الفرّاش لأسلمه لخالى .

وذهبت ، ووصلت إلى البيت ولم يكن يبعد كثيراً عن بيت خالى .. وكان من المحتمل ألا أعقد الأمور فأعطى الدوسيه للفرّاش عند الباب لإدخاله ، أو حتى أسلمه للخادم الذى فتح الباب .

كان يمكن أن أفعل ذلك فينتهى الأمر .. ولكن الوسواس الذى وسوس فى صدر زوجة خالى وسوس فى نفسى . فأصررت على أن أؤدى واجبى كاملاً وطلبت أن أسلم الدوسيه لخالى .

ودخلت فوجدت خالى جالساً فى رفقة رجل ممتلئ يرتدى روبا وطاقية ، وآخر وجهه المنظر يرتدى ملابس كاملة .

ودهش خالى من رأى وسلم على وسألنى عما أحضرنى ، فأخبرته أن خالى خشيته على الدوسيه من عبث الساعى فأرسلته معى .

وضحك الرجل ذو الروب وقال :

— معها حق .. إنها حريصة .
وقدمنى خالى إلى الرجلين قائلاً :
— سليمان ابن أختى .. لقد حصل على البكالوريا هذا العام وهو متقدم إلى
المدرسة الحربية .
وضحك « لا بس الروب » الذى أدركت أنه لا بد أن يكون صاحب الدار
ورئيس خالى ، وقال للرجل الآخر مازحاً :
— إنه حربية مثلك .. سنخرج نحن من المسألة !
وضحك الرجل الآخر وقال مجاملاً : إنه يبدو طويل القامة .. سيكون
ضابطاً فخماً !
وعلق خالى على قوله فى شبه أسف :
— والله لا أظن .. فالحربية مستعصية جداً !
وقال صاحب الدار فى لهجته المازحة :
— كيف تكون مستعصية .. وأمامك سكرتير مالى الحربية بجلالة قدره !
وابتسم خالى وقال راجياً :
— لو تكرم علينا سعادته بالمساعدة فستكون مئة لن ننساها .
واستمر صاحب الدار فى مزاحه :
— وكيف لا يتكرم .. إنه أمر .. أنا أعرف جماعة الحربية لا يطيعون إلا
الأوامر .
وضحك السكرتير المالى قائلاً :
— سمعاً وطاعة .. سأرجو له مدير المدرسة ، إنه صديقى .. وله عندى
طلب لن أنفذه له إلا إذا أجاب مطلبى . ما اسمك ؟
وسرعان ما كتب خالى اسمى على ورقة وسلمها إليه .
وخرجت وأنا غير مصدق لما حدث .. أترى الرجل سيرجو حقاً ؟! وهل إذا
رجا سينفذ مدير المدرسة رجاءه ؟

وهززت كتفى فى استخفاف .. إن المسألة كلها غير ذات أصل .. كلها بنت الظروف .. وفى عدة مراحل فيها كان يمكن أن تتوقف .
وكما أنها حدثت فقد كان يمكن ألا تحدث .. فليس هناك داع للتفكير فيها ..
وتعليق مصيرى بها .

وأخذت أبعدها عن تفكيرى كلما دفعنى الأمل إلى التعلق بها .
والآن .. أجد المعجزة قد حدثت .. وأجد نفسى قد قبلت .. وكان من المحتمل ألا أقبل .. لو كان معى نقود وذهبت إلى السينما ، أو لو وجدت ابن خالى ، أو لو لم يوسوس الوسواس فى صدر أمه .. أشياء كثيرة جداً كان يمكن ألا تحدث .. فتمنع قبولى .. ومع ذلك حدثت .. وقبلت .. أهنأك أعجب من مصائرنا المعلقة بصغائر الحوادث وتوافه الأمور ؟

وضحك « على » .. ورفع سليمان رأسه فازداد « على » ضحكا .. وسأله سليمان :

— ماذا يضحكك ؟

— لقد دخلت أنت المدرسة لأن حادثة وقعت .. وكان من الممكن ألا تقع .. حسن .. أنت على الأقل تعرف لماذا قبلت .. ولكن ما رأيك فيمن لا يعرف كيف قبل .. ما رأيك فيمن لا يعرف ماذا حدث ؟ وماذا لم يحدث ؟ حتى وجد نفسه مقبولا .

— أحقاً تقول ؟

— طبعاً .. كانت وساطتى عبد الجليل أفندى .. ولقد تخلى عنى ولزم الفراش فى اللحظة الأخيرة .

— غير معقول .. أن تقبل بلا وساطة ، قد يكون أوصى بك ، وهو فى فراشه ؟

— ماذا تظنه يكون .. رئيس الوزراء .. حتى يوصى بى وهو فى فراشه فأقبل ؟!

— وقد يكون أحد توسط لك دون أن تدري ، على أية حال لقد قبلت وانتهى الأمر .. أنت مخلوق طيب .. ولا بد أن الله يرد لك جميلاً صنعته في أحد وفجأة ومضت في ذهن « على » بارقة كأنها الشرر .. أيمن أن تكون هي ؟ من يدري ؟ ولكنه لم يطلب منها المساعدة .. ولم تعده هي بها .. وهو لا يظنها تهتم به إلى هذا الحد ، ولا يظن أباه ، قد لبي رجاءها بهذه السهولة . ورأى سليمان شروده فسأله عما به وهز « على » رأسه مجيباً :
— لا شيء .

وكان الأوتوييس قد وصل إلى المحطة وذهب « على » لركوب القطار ، واتجه سليمان إلى الترام الموصل إلى شبرا . وجلس « على » في القطار .. وتتابع المراتب أمام عينيه .. وبمثل سرعتها توالى الأفكار على ذهنه .

إن المسألة لم تتجلى في ذهنه بعد .. إنه لا يستطيع أن يركز تفكيره في شيء معين .. فلا شيء يثبت في رأسه ، وكل الأفكار تغدو متلاحقة .. هي ، وأبوه وأمه وأخوه والبيت ثم المدرسة .. ثم هي مرة أخرى ..

وأخيراً وصل إلى محطة بلدتهم ، ولم يكذب يغادر القطار حتى وجد أباه قد ارتدى جلبابه الصوفى وأقبل يهرول مع أخيه وهو يقول لاهثاً :

— ما هذا ؟ ما الذى أنحرك ؟ لقد شغلنا عليك .. لو لم تأت في هذا القطار لأخذت أول قطار إلى القاهرة .. ماذا حدث ؟

وأقبل عليه حسين يهزه من ذراعه :

— ما النتيجة ؟ ! قل ما لك متجهماً هكذا ؟

وضحك على :

— أنا لست متجهماً .. ولكن أعطوني فرصة أتحدث .

وعاد حسين يقول ملحاً :

— يا أخى .. قل .. ما النتيجة ؟

— قبلت .

وصاح حسين فرحاً :

— أقبلت !؟ أحقاً تقول !؟

ثم هجم عليه يحتفضنه ويقبله وهو يعاود سؤاله :

— حقاً قبلت !؟ أمتأكد أنت ؟

— أجل .. أجل .. قبلت .. وأخذوا مقاسي وطلبوا مني الحضور يوم

الخميس .. ماذا تريد تأكيداً أكثر من هذا ؟

وانطلق حسين يعدو إلى البيت راقصاً .. وتذكر وهو يرقص في الطريق أنه

ضابط بوليس .. وأن عليه أن يكون محترماً .. ولكنه طلب من نفسه

« الصهينة » قليلاً .. فالفرحة أكبر من أن يقطع بها الطريق سائراً كبقية الخلق ..

وهو بعد لم يرتد البذلة .. ولا مانع هناك من بعض « البجبة » .

ووصل إلى البيت ، وكان أول من صادفه « بهية » فأخذها بين أحضانها

وأوسعها تقبيلاً وهو يقول :

— بنت يا بهية .. لقد قبل « علي » وأضحينا نحن الاثنين ضابطين .. أتفهمين

معنى هذا !؟ سيصبح هذا البيت مقر الحكم .. سأجلد العمدة علي هذه العتبة .

وأقبلت أمه مهرولة :

— أي عمدة هذا الذي ستجلده !؟ أين أخوك علي ؟

— لا تقولي « علي » حاف .. من الآن فصاعد .. أنا الضابط حسين أفندي

وهو الضابط علي أفندي .. لقد قبل في الحربية .

وهتفت الأم :

— أحقاً تقول ؟

— أجل . حقاً .

وقالت بهية ضاحكة :

— ومالك فرحان هكذا كأنك أنت الذي قبلت ؟ .. إنك لم تفرح بدخولك

البوليس فرحتك بدخوله الحربية .

يا غبية لأن دخولي البوليس كان مضموناً .. أما دخوله الحربية فمعجزة .. ثم
إني أعرف أنها كانت من أعز أمانيه رغم أنه لم يكن يفصح عنها .. أنا أعرف
« على » أكثر منكم جميعاً .. إنه يستحق أكثر من هذا لأنه خير من في أسرتنا ، بل
خير من في بلدنا .. إنه حتى خير مني .

وهمست « بهية » لنفسها وهي تنظر إليه في حب منطو في جوانحها :

— والله ليس هناك خير منك .. حتى ولا على .. بكل ما فيه من خير .

وأقبل « على » ، وأبوه من الباب ، وتلقت الأم علياً بين أحضانها وضم
« على » أمه إليه .. رغم أنه كان يكره مظاهر العطف من أحضان وقبل ، ولكنه
أحس وهو يضمها إليه أنه لا يضمها ضمة الفرح وتبادل التهنة ، ولكنها ضمة
الوداع .. إنه لم يضمها من قبل .. بل كان يتركها تضمه .. أما في هذه الضمة
فقد ضغط « على » جسدها بذراعيه .. فبعد بضعة أيام سيغادر أحضانها التي
كان يحس أنها تحتويه حتى على بعد .. كانت في نظراتها ضمة .. وفي حركاتها
ضمة .. في مسة يدها ضمة .. وفي همسة شفيتها ضمة .

عجبية هذه الأم ، وعجيب حبها . في بهمة الليل كانت تتسلل إلى فراشهما
لتعجر عليهما الغطاء ، وإذا مسه هو أو أخوه ضر كانت الساهرة التي لا يغمض لها
جفن .. جالسة بجوار الفراش وبجوارها طبق الخل ، وفي يدها الكمادات ، واليد
الأخرى على الجبين .

كانت تحرم نفسها ليشبعها ، وكانت لا تحل لنفسها إلا اللقمة الفائضة ،
وكانت تخدعهما وتقول إنها أكلت حتى لا تقاسمهما الطعام ، وكانت ترقبهما
هائنة مغتبطة .. كانت تفعل من أجلهما كل ما يخطر على بال بشر من
تضحيات .. ولأجل ماذا ؟! للشيء ، ولا ثمن .. إن حبها هو أسمى أنواع
الحب .

وضمها « على » ضمة الوداع خفية ، لأنه كان يكره مظاهر العطف ..
وكان يكره أن يضمها علناً عندما تحين ساعة الوداع .

(١٤)

الليلة الأخيرة

رقد « على » في فراشه لآخر ليلة قبل أن يغادر الدار ، وكان السكون قد ران
إلا من أصوات ليل الريف التي تبدو كأنها جزء متمم لسكونه .. نقيق في
مصرف ، أو نعب على شجرة ، أو خوار في حظيرة ، أو نباح على باب .
وأغمض « على » عينيه برهة وهو يستدعى النوم الهارب إلى جفنيه . وتلحمل
في فراشه ثم فتح عينيه وحرق في العروق الخشبية التي أقيم عليها سقف الغرفة ، ثم
في ظلال أعمدة السرير المترقصة على أعلى الجدران ، ثم في فتيل المصباح المهتر
كلما هبت عليه من النافذة نسمة من نسيمات الصيف الناعمة .
وأطلق بصره من فتحة النافذة فاستقر على صفحة السماء المعتمة التي تلالأت
فيها النجوم مهتزة مرتجفة كأنها الذبالة في مهب الريح .
وعلا صدره ثم هبط عن تنهيدة حارة طويلة .
ما للكآبة تزخر في نفسه ! وما للوحشة تفعم روحه ! وما للدمع يوشك أن
يظفر من مقلتيه !! وما لصدوره يصطبغ ببكاء حبيس !
ما لكل هذا ، وأمانيه قد باتت ملء يديه ، وغده القريب سيعمله إلى دنياه
الجديدة .. دنيا المستقبل الحافل ، والآمال العريضة .
ما لكل هذا .. وقد حقق في يومه أجمل أحلامه .. الأحلام التي لم يخطر له
ببال قط أن تتمدى محيط الأحلام ، الأحلام التي تعود أن يسعد بها في مرقد ..
كلما طافت بذهنه .
الأنها الليلة الأخيرة في مضجعه هذا .. الذي أحس فيه بأعذب أحاسيسه ،
ورأى أجمل أحلامه ؟

الأنها ليلة التفرقة والبعد عن مرقد حملت إليه النسائم أنفاساً عططرة تسرى من وراء
الأسوار القرية والجدران الدانية ؟

الآن غده سيحمله بعيداً إلى حيث لا تصل إليه هبات الأنفاس ؟
الآن غده سيبعده عن كعبته بعد أن أصبح الطريق إليها معبداً والطواف بها
مستطاعاً ؟

الآن غده سينأى به عن الروح وقد عادت ، والقلب وقد ردّ ، والفؤاد وقد
دنا ؟

أجل .. لقد أحس اليوم بعودة الروح وارتداد القلب ، وودنو الفؤاد ..
ورويداً رويداً أخذت الوحشة تنزل ، والكآبة تتبدد ، وهو يستعيد في ذهنه
الذكريات القرية الحلوة التي حدثت له في فجر يومه هذا .

كان يشعر في بضعة الأيام الماضية التي تلت قبوله في المدرسة بخنين فياض إلى
رؤيتها ، ورغبة جامحة في لقائها .. كان ما يزال يذكر قولها له إنه يجب أن يدخل
المدرسة .. ويذكر كذلك قولها إنها تود أن تراه .

وكلما مضى يوم أحس بالرغبة تزداد والحنين يشتد .. فقد كان يجد فرصة
لقائها تقل يوماً بعد يوم ، وكان دائم الطواف بالسوية والحديقة والأسوار ، وهو
الذي كان يخشى الاقتراب منها فيما مضى .

كانت نفسه مليئة بالثقة .. وكان يشعر أن لقاءها في هذه المرة سيكون أقرب
إلى لقاء الأنداد .. وأن الهوة العميقة التي كانت تفصل بينهما فيما مضى ، لم يعد
لها وجود الآن .

كان يود أن يلقاها مرة واحدة ليشكرها على الثقة التي ملأت نفسه بها في اللقاء
الأول ، وعلى هدمها لذلك السد العالي المنيع الذي أقامته الأوهام بينهما ، والذي
كان يديه وحيداً ذليلاً في أسفل القاع ، ويديها مترفعة في أعلى القمة ، وأكثر من
هذا كله .. كان يود أن يشكرها على ذلك الصنيع الذي — وإن لم يدل عليه
دليل — كان يراود نفسه إحساس خفي بأنها صاحبتة ، فقد كان قبوله بلا

وساطة يكاد يكون شيئاً مستحيلاً .. وكان يحس في قرارة نفسه أن الوساطة المجهولة لا بد وأن تكون هي .. رغم أنه لم يسألها شيئاً .. ورغم أنها لم تعد بشيء .

ولم يزعجه في الواقع أن تكون صاحبة فضل عليه بعد التطور الجديد الذي أصاب مشاعره ، وبعد الرقة التي عاملته بها ، والإقبال الذي أبدته نحوه فأدنته به من نفسها .. لقد تبدد من نفسه ذلك الشعور الذي دعاه لأن يرفض البنطلون الذي أحسنت عليه .. لأنه ، وإن كان يرفض الإحسان ، إلا أنه لا يرفض العون ولا يستنكر المساعدة التي تقدم من رغبة .. والتي تبدو له دليلاً على التقدير أكثر مما هي مظهر للمدلة .

وبات أمسه وهي ملء أحلامه ، واستيقظ في الفجر وقد تزايد الحنين واشتد الشوق ، وغادر الدار والأهل نيام ، وخرج يخوض بين المزارع وهو يعلم أن اليوم هو فرصته الأخيرة .

وكانت الشمس لم تبد في الأفق بعد ، والضوء الرطب قد تسرب في الحقول ، وندى الخريف قد كسا الأوراق الخضراء ، والكون كله قد بدا كأنه مازال يلفظ أهدأ أنفاسه قبل تشاؤب اليقظة .

وقفز « على » القناة الضيقة التي تقع بين البيت والطريق ، وكان يرتدى قميصاً أبيض وبنطلوناً رمادياً ، وأخذ يضرب بحذائه أطراف الحشائش المبتلة حتى وصل إلى الطريق فسار على جانبه متمهلاً وقد وضع يديه في جيبي البنطلون .

ووصل إلى الباب الخلفي المؤدى للسوبة ، ودفعه ، ودلف إلى الداخل وقد تبددت من نفسه كل بقايا الرهبة والخشية .. وحيا الحارس الجالس على باب السوبة والذي ردّ على تحيته بأحسن منها ، وهو يحس في قرارة نفسه أنه لا يحصى ابن الرئيس عبد الواحد فحسب ، بل يحصى ضابطاً مقبلاً ، أو مشروع ضابط .

ولف « على » لفة حول السوبة وهو يضرب ببصره في الطرق والممرات

الحيطة عليه يلمح لها شبحاً أو يصير لها طيفاً .. لكن الحديقة كانت خلواً إلا من الزهور والأشجار .

وأخذ يبتعد رويداً رويداً عن السوبة سائراً في اتجاه القصر ، حتى بدا له مدخله الفخم ذو الأعمدة الرخامية الضخمة .

وأحس أنها جراءة منه أن يقترب إلى هذا الحد . ولم يعرف كيف يمكن أن يتحدث إليها حتى لو أسعده الحظ برؤيتها في هذه المنطقة القريبة من القصر ، والمعرضة للنوافذ والشرفات .

وأخيراً أخذ يعود أدراجه ، مستحمقاً نفسه على مغامرته ، وعلى توهمه أنها يمكن أن تستيقظ مثله في هذه الساعة المبكرة .

إذا كان الشوق قد دفعه إلى الانطلاق في الفجر جرباً وراء طيفها ، فماذا يمكن أن يدفعها هي ؟ ..

وغادر الباب الخلفي ، وأخذ يسير بجوار الترعة الرئيسية وقد صوّب بصره نحو المياه المتدفقة التي عكس صفوها طمى الفيضان وأحس بنوع من اليأس يتملكه لأن الفرصة الأخيرة توشك أن تفلت دون أن يتزود منها بنظرة أو يلقي إليها بكلمة وداع قصيرة ، وانحدر من الطريق إلى حافة الترعة واستقر على الحشائش التي تكسوها وتطلع ببصره إلى جدران القصر البادية من وراء الأسوار .

وبلغت مسامعها أصوات حوافر دابة تطرق أرض الطريق طرقاً منتظماً ، وظنها دابة عابرة تنقل بعض محصولات الأرض ، ولكن الطرقات توقفت وساد السكون برهة ثم علا صوت رقيق يهتف :

— على .

ودون أن ينظر إلى مصدر الصوت أصابته رجفة ، وأحس بدقات قلبه تتزايد بسرعة خفيفة ، وحاول جهده أن يتمالك روعه ، وأن يصلب نفسه لمقاومة وقع المفاجأة ، واستدار ليوأجه الوجه الرقيق والبسمة الحلوة وقد استقرت صاحبتها على ظهر جوادها الهادئ الأشهب الذي أخذ يمد عنقه إلى الأمام جاذباً من يدها

العنان كأنما يود المبطوط إلى حافة التريعة
وقبل أن ينهض « على » ويتقدم لملاقاتها ، كان الجواد قد انحدروا بها إلى أسفل ،
وفي غمضة عين قفزت عن ظهر الجواد فاستقرت واقفة بجواره ، ومدت ينها
محيية ، وقد أمسكت عنان الجواد بيسراها .

وقالت وهي تهز يده في حرارة :

— مبروك يا على .

— الله يبارك فيك .. كيف عرفت ؟

— سمعت إبراهيم أفندي يتحدث مع إدريس ، وكنت أود أن أهنتك قبل هذا
ولكنك لم تتح لي الفرصة ، فانك فيما يبدو تصر على عدم الحضور إلى الحديقة .
— لقد حضرت ما يزيد على عشر المرات دون أن أجد لك أثراً .

— متى حضرت ؟

— أمس .. وأول أمس .. وقبل أول أمس .. ومنذ لحظة ذهبت حتى أبواب
القصر .

— عجباً !! إن سوء الحظ قد تدخل في عدم اللقاء .. لا بد أنك كنت تحضر
عندما أكون في داخل الدار .. أو في القاهرة ، كان يجب أن نتفق على موعد .
— الحمد لله أن أتاحت لنا الصدف لقاء على غير موعد ، لشد ما كنت أخشى
أن تضيع الفرصة الأخيرة في لقاءك .

— الأخيرة .. كيف ؟

— سأذهب غداً إلى المدرسة .. وكنت أكره أن أسافر دون أن أشكرك .

— تشكرني .. علام ؟

— على أشياء كثيرة محسوسة ، ولملموسة .. وإن كنت أجد الشكر أعجز
وأضال من أن يوازن ما فعلت .

— لست أفهم !

— أما المحسوس فقد فعلته بلقائك السابق .. وبرقتك ودعوتك لي إلى

الركوب .

— ولكن كان يجب أن أدعوك إلى الركوب .

— لست أعنى مجرد الدعوة بشكلها المادى .. رغم أنها لا شك عمل يستحق الشكر .. ولكن ما أراحت به نفسى وهدأت به مشاعرى أكثر كثيراً مما أراحت به جسدى .. ولست أدري أمن اللائق أن أفصح عن أشياء خافية فعلتها بنفسى .. وهل إذا أفصحت أحسن الشرح والتعبير .. أم من الخير أن يظل ما بى منطقياً بين جوانحى ؟

وجذبت « أنجى » الجواد وتقدمت إلى ناحية من حافة التربة قامت بها بعض أعواد الغاب تحجبها عن الطريق ، وقالت وهى تستقر على الحشائش بجوار الغاب وتفلت عنان الجواد ليرعى بجوارها :

— أنجلس قليلاً .. أم لديك ما يشغلك ؟

— أبداً ليس لى شىء .. لقد خرجت لألقاك وأتحدث إليك .

وخيمت عليهما سحابة صمت أصابتها بالارتباك ، وحاول كلاهما أن يتمالك نفسه ، وقالت وهى تحاول تبديد الصمت :

— ماذا كنت تقول ؟

— كنت أقول إننى وددت أن أشكرك على ما فعلته بنفسى .. مما قد لا تدركين مداه ، ومما يحتمل أن تكونى فعلته عن غير قصد منك .. ولكن إذا عرفت أنك جذبت إنساناً كان يأبى إلا أن يلقي بنفسه فى هاوية . من الضياع والإحساس بالتضاؤل .. وأنت قد جعلت من أمانيه التى أقيمت فى أحلام ضائعة وشيدت على أوهاام متبددة .. أمانى حيّة يمكن أن يراها فى صحوه ويحس بها فى واقعه .. وأنه لم يعد هائماً ولا ضالاً ، بل إنساناً يسعى ، والثقة تملأ نفسه ، بأن ما يرجوه ويأمل فيه يمكن أن يبلغه ويطبق عليه بيده . أفهمت ؟

وران الصمت .. وأحس بأنه يسمع صوت أنفاسها متلاحقة ، وخيل إليه أن أنفاسه قد باتت هى الأخرى تلاحق أنفاسها .. وكأن كليهما يعدوان فى سباق . وقالت فيما يشبه الهمس :

— أكاد أفهم . ولو كنت أعلم .. لفعلت ما فعلت من زمن مضى .. ولكنى

لم أكن أعرف ، كنت أراك متباعداً مترفعاً ، ولم أكن أفهم شيئاً .
— لم تكن هناك وسيلة ، ولم يكن يخطر لي ببال أنى بمستطيع بلوغك إلا فى الأحلام .

ونساد الصمت مرة أخرى وعاد وهو يقطعه بقوله :
— هذا هو الشيء المحسوس الذى فعلته بى .. وهو لا يقدر بشكر ولا يستطيع رده .. لأنه أكبر من أن يرد ؛ أما الشيء الملموس ؛ فإنى أشكرك .. لا لتأثيره ، بل لجرد أنك ذكرتني به .. وفعلته من أجلى .
— لست أفهم ما تقصد ؟
— قبولي فى المدرسة .

وعلا الاحمرار وجهها وتساءلت وهى تطرق برأسها فى الأرض ، وتعبث بعصاها فى الحشائش :
— من قال لك ؟

— لم يقل لى أحد .. ولكنى أستطيع أن أستنتج .. لقد قبلت دون أن أعرف لى وساطة فى القبول ، وأحس أنك كنت وساطتى .. أو على الأقل أتمنى هذا .
— أحقاً أتمنى هذا ؟! كنت أخشى أن تعلم فتغضب وترفض مساعدتى كما رفضتها من قبل .
وضحك قائلاً :

— تقصدين البنطلون ؟

— أجل .

— إنى جد آسف على رفضه ، ولكن كان بى إحساس من فقدان الثقة الذى حدثتك عنه ، وكنت أكره منك الإحسان لأنى لم أكن أود أن أضعك منى موضع المحسن المتفضل . أما الآن ..

وأطرق قليلاً ثم تشاغل بالعبث فى الماء يعود من الغاب وهمست « أنجى » متسائلة :

— أما الآن ؟

وعاد يردد وهو يحدق في الماء كأنما يحدث نفسه :
— أما الآن ، فكل مظهر من مظاهر اهتمامك بى يملأنى نشوة ، ويحملنى من
السعادة ما كاد أنوء به .. إني حقاً لا أعرف كيف أشكرك .
— دعك من كلمة أشكرك ، لا أظن أحداً منا يعاون الآخر وفى ذهنه أى
انتظار لكلمة الشكر .. وإذا كنت قد حملتك بما فعلت سعادة ونشوة ، فقد
حملت نفسى مثلها ، عندما أحسست أنى سببت لك نوعاً من السعادة .
ونظرت إلى الساعة فى معصمها ثم نهضت قائلة :

— لقد آن لى أن أعود . إن « علاء » لا شك قد وصل إلى البيت ، لقد سار
هو عبر المزارع ، وسرت أنا بجوار الترعة على الطريق .. إن إلهاماً فى داخلنا يدفعنا
أحياناً إلى الطريق الصحيح الذى يجب أن نسلكه .. ولو لم أسر بجوار الترعة لما
التقينا .

ونهض « على » ووقف بجوارها وقد أمسكت بعنان حصانها وتذكر حديث
صديقه « سليمان » عن الحوادث التافهة التى يمكن أن تقع أو لا تقع ، فإذا ما
وقعت غير وقوعها يجرى حياتنا .. وقال وهو ما زال يعث بعود الغاب فى الماء :
— لست أدرى كيف يمكن أن تتعلق مصائرنا هكذا بحوادث كان من الممكن
ألا تحدث .. فتقلب مصائرنا رأساً على عقب ؟ . إني لا أستطيع أن أتصور كيف
كان يمكن أن تكون حياتى لو خلت من هذه اللحظة التى مررت على فيها بعربتك ،
أو لو خلت من اللحظة التى دفعتك إلى المرور بى الآن ؟ عندما أفكر فى مصيرى
بغير تلك اللحظات أحس برجفة .. ثم أحمد الله الذى لم يسقطهما من سجل
حياتى ، وأمتعنى بهما وبما أعقبهما من نتائج جعلت منى ما أنا عليه . إني أحمد الله
وأحمدك ، رغم أنك لا ترضين حمداً ولا شكراً .

وسمعت حصانها على منحدر الترعة حتى بلغت الطريق .. ثم سارت تجاه
القصر و« على » بجوارها .

وأحس كلاهما بقرب الفرقة .. وبدا لهما أن هناك الكثير مما يودان قوله ولكنهما لم

يقولا شيئاً .. وخيل إلى كل منهما أن بنفسه ما بنفس الآخر ، وأن انعكاس
المشاعر في باطنهما قد جعل التفاهم مستطاعاً بلا حاجة إلى إفصاح .

وقالت متسائلة تقطع حبل الصمت :

— متى تنوى الرحيل ؟

— غداً صباحاً !

— ومتى تنوى العودة ؟

— أظن بعد شهرين .. فالطالبة الجدد كما سمعت لا يخرجون إلا بعد تمضية مدة
المستجدين .. وبعد أن يتعلموا التحية .

ونظرت إليه وقالت ضاحكة :

— ستتعلم كيف تضرب عقيبك أحدهما بالآخر ، كما يفعل الجنود ؟

— ولِمَ لا ؟! لست أجد في ذلك أمراً عسيراً .

— وددت لو أراك في المدرسة .

— لا أظنك سترين ما يسرك ؛ فستجديننى حليق الرأس ، خشن الثياب ،

قبيح المنظر .

— لا .. لا .. إني واثقة أنك ستكون وجيهاً في ثيابك العسكرية .. في

الجاكطة الكحلية والبنطلون ذى الشريط الأحمر .

— هذه ثياب لا يرتدونها إلا خارج المدرسة .

— وماذا إذن يرتدون في الداخل ؟

— ثياب « كاكية » شبيهة بثياب الجنود حتى تحمل الأعمال الشاقة من

« طوابير » المشاة .. وضرب النار .. وركوب الخيل .

— ستركب خيلاً ؟

— أظن ذلك .

— إذن فسنركب سوياً عندما تعود في كل عطلة .. سأجعلهم يعدون جواداً

ثالثاً لكى تخرج للركوب معنا في المزارع أليس كذلك ؟! إننا سنراك طبعاً عند

عودتك في كل عطلة ؟

وأطرق « على » ولم يدر بماذا يجيبها .. إنه سيحيا خلال هذين الشهرين بأمل واحد وهو أن يعود ليراها . ولكن كيف يراها .. ألا تعرف أن تلك هي المشكلة الكبرى ؟ إن عطلته لن تكون أكثر من يوم ونصف .. ورؤيتها تحتاج إلى أن يتجول أسبوعاً في الحديقة حتى يتكرم الحظ بتدبير لقاء .. خارجها !!
وطال صمته فسأله في دهشة :

— لماذا لا تجيب .. ألا تنوى أن نلتقى ؟

— إن هذا أحب الأمنيات إلى نفسي ، ولكنى لا أعرف كيف نلتقى . لقد قضيت أسبوعاً أحاول أن ألقاك فلم أفعل في ذلك إلا الآن .. ومحض صدفة .
— إذن لنتفق منذ الآن .

— في أول أسبوع أعود من المدرسة سأجلس في انتظارك في دروة المشتل التي وقفت عندها الترولى .. أتذكرينها ؟
— بالطبع أذكرها .

وكانا قد بلغا باب الحديقة الخلفية واجتازاه ، وتباطأ الاثنان في سيرهما ، وقال « على » في صوت خافت :
— أظن من الخير أن أعود ؟

ومدت « أنجي » يدها ، فتناولها « على » في يده مترفقاً ، وأحس برجفة تسرى في كيانه .. وضغط كلاهما يد الآخر وأفصحت اليدان عن الكثير مما لم يستطيعا قوله ، ثم قطفت هي وردة من حوض مليء بالورود وأعطتها له .
وهمس هو :

— أشكرك ، على كل شيء ، أشكرك على ما فعلته أنت وعلى ما ستفعله بي ذكراك في وحدتي .. وما سيؤنسني به طيفك في وحشتي .. أنا لا أحس بألم الفرقة لأنه لا يستطيع نزعك مني مجرد تباعد مادي .. أنت في ذهني .. وفي قلبي .. وفي دمي .

وأطبق على الوردة وغادر المكان .. وكأنه يهيم بين السحب ولا يمشي على الأرض .

ذلك كان زاده من الذكرى يجتره في مضجعه .. ومد يماه تحت الوسادة
فأطبق على الوردة ووضعها على شفتيه .. ثم مد يسراه ففتح حس رأس أخيه الراقد
في سباته .. وتملكه حنين إليه .. هذه آخر ليلة يرقد بجواره .. وهو الذي لم
يفترق عنه ليلة واحدة .. لقد كان « حسين » يحب دائماً أن يقبل أخاه
ويحتضنه .. وكان « على » ينفر من مظاهر الحنان والعطف ، ولكنه في تلك
اللحظة لم يستطع أن يقاوم حنيناً جارفاً يدفعه إلى أن يضم أخاه إليه ويقباه .. إنه
يحبه ويحس الحاجة لفراقه .

(١٥)

إحساس بالظلم

مرت الأيام الأولى لعلی فی المدرسة الحریة دون أن یسعر کیف مرت ، فقد كانت المشاغل تأخذ بخناقه فلا تعطیه فرصة لتفکیر أو شروء .. وکان یبدو کالدائر فی دوامة لا تتوقف ولا تنی ، یسلمه صبحه إلى ليله ، وليله إلى صبحه ، بلا وعی ولا إدراك .. فهو من ليله فی غیوبة نوم لا تجد الأحلام خلالها منفذاً إلى جسده المنهک المجهد المسجی کالقتیل ، وهو من یومه فی غیوبة عمل لا تجد الأفكار خلالها منفذاً إلى ذهنه .. المأخوذ المشدود ، المتبدد هباء ، الطائر شعاعاً .

وهكذا وحده نفسه ، وقد أکره حتی على الفرقة الذهنية فلم تجبره المدرسة على البعد عن « أنجی » بجسده فحسب .. بل أجبرته على البعد بأفکاره ، فقد سلبه الجهد فرصة التفکیر والقدرة علیه .. وبات لا یملك لإلهته التي کان یقضى الليالى والساعات فی الطواف بذهنه حول کعبتها .. إلا هنيهات خاطفة یسرقها ما بین رقدة جسده وإغفاءة ذهنه عند ما یلقى بنفسه فی إعیاء على الفراش الضيق الکامن فی رکن عنبر « الصنف الرابع » بعد عودته من الحمام .. وهو يعدو فی الطرقة خشيّة أن تمسک بتلابیه نوبة رجوع قبل أن یعود إلى العنبر .

کان یرقد فی الفراش ساحباً الملاءة على وجهه ، واضعاً یمناه تحت الوسادة العليا ، وحركة الطلبة قد بدأت تخف ، وضجة العنبر قد أخذت تهدأ ، و « نوبتجی الصنف » قد وقف بالمنامة والطربوش والشبشب اللباد ، وقد أخذ یسترجع فی ذهنه التمام ، الذی سیلقیه على الضابط النوبتجی الذی سیلقیه على الضابط النوبتجی الذی یمر على العنبر بعد نوبة نوم مع الجاويش النوبتجی :

« تمام يا فندم .. عشر بنادق وعشر سناكى واثنين سيف وبندقية موريس » .
ويغمض « على » عينيه على آخر ما يراه من يومه الحافل .. حريف
« الدولاب » والنوبتجى المصلوب القامة ، وجزء من « السلاحليك » صفت
عليه البنادق . وتصل إلى أذنيه نوبة نوم طويلة هادئة ، وتخرج من صدره أول
تنهيدة راحة يستطيع التنفيس بها عن صدره المطبق المتوتر ، ويمد جسده ثم يتركه
مسترخياً ، وهو يحس أنها الفرصة الوحيدة ، فى خلال ست عشرة ساعة
مضت ، التى يتهاى فيها لجسده استقرار على ظاهر الأرض .
ويبدأ ذهنه طوافه حول كعبته .. وتلوح له ربة الكعبة سارية بطيفها الرقيق ،
ثم يعجز ذهن عن متابعة الطواف وتعجز الذاكرة عن اجترار التفاصيل ، وتنهار
كل مقاومة أمام سلطان النوم ، الذى يجثم فى تناقل على الجسد المنهك والذهن
المكدود .

وفى الصباح يهب العنبر فى صحوة عنيفة .. كأن نافح « السورى » فى نوبة
صحيان ، لا يصدر منه إلحاد موقظة ، بل يصدر منه عواصف وأعاصير تعصف
بكل ساكن ، وتثير كل راقد .

ويبدأ الاندفاع مع بقية الريش .. فى مهب العاصفة .. عاصفة الصحيان ،
بالوقوف فى صف أمام الأومباشى حكمدار العنبر ، ويتبادل كل منهم سرد جملة لم
يكن يدري معناها ، ولا الغرض منها وهى « تمام يا فندم مستجد » ، ثم يبدأ
ترتيب الفراش والحلاقة والتشطيف واللبس وسلسلة التفتيشات التى تنتهى إلى
الطابور ، أو زفة الطبول .

ولم تكن لديه أية دراية سابقة بالحياة العسكرية .. ولكن صفات الصبر ،
والجلد ، والطاعة ، والنظام ، المغروسة فى خلقه ، والأمل الجميل المطوى فى
نفسه ، والذى يدفعه إلى الرغبة فى أن يكون فى المقدمة وكذلك رغبته فى رفع
عبء المصروفات عن أبيه ، والتمتع بميزة المجانية التى تسمح للمتقدمين . وفوق كل
هذا خشية الزجر ، وكره العقاب والتأنيب .. المتأصل فى نفسه ، كل ذلك كان

يدفعه إلى أن يبذل أقصى جهده كي يكون طالباً ممتازاً .. ومع ذلك ، فلشدهما كان يخذله ألا يجد أثراً لكل تلك الجهود الشاقة التي كان يبذلها وأن يجد نفسه مغموراً لا فضل له ولا ميزة .

كان يسمع صف الضباط ، أى الطلبة الرؤساء ، يختصون بعض الطلبة بالمديح العلني في « الميس » عقب تناول الطعام أو في الطوابير أو في الفصل .. ويقولون : إن هؤلاء يجب أن يقتدى بهم الطلبة .. ثم يأخذون في سرد مزاياهم التي لا يجد نفسه خلواً من إحداها ، ومع ذلك لا يعرفه أحد ولا يذكره أحد . وانتهت أيام المستجدين ، وهو في شبه معزل عن الدنيا والناس ، يكاد لا يكلم أحداً إلا صديقه « سليمان » الذي كان يخلو وإياه في المدرج الخشبي المشرف على ملعب الكرة في أيام الجمع عندما يشغل بقية الطلبة بالزيارات ، ويجلس الاثنان وحيدين ، فيسرد كل منهما لصاحبه همومه وينفس عن كربه .

وقد قرب الإحساس بالوحدة والغربة بين الصديقين ، وزاد من أواصر الصداقة بينهما .. وكان « سليمان » مخلوقاً هادئاً رزيناً ، فأحس « على » بالثقة فيه ، ووجد نفسه يفضي إليه بدخيلة قلبه ، وكشف له عن خبيثة صدره رغم ميله إلى الكتمان وقدرته على الكبت .

وبادله « سليمان » إفضاء بإفضاء ، وكشفاً بكشف .. ولكن صدر « سليمان » لم يكن يطوى ولهاً ولا حياءً ، بل مرارة وضيقاً سببه إحساسه بشعور أعم من شعور « على » ، شعور غريزي نمته الدراسة بوطنه وبقيده الاستعمار الذي يكبل بأغلاله يديه ، وبشبح المحتل الذي يجثم على أنفاسه ، والسوس الأجنبي الذي ينخر في عظامه ويفت من عضده .

كان سليمان يجلس إلى « على » الساعات الطوال أسفل شجرة الكافور على حشائش ملعب الكرة بجوار المدرج ، أو على دكة خشبية قريبة من شجرة الحلاق بجوار الباب الخلفي للمدرسة ، حيث كانا يستطيعان الحصول على « الطعمية » التي كان يقوم بتزويدها « زكى » صبي الغسال من « كاتين السواري » إلى طلبة المدرسة .

وكان سليمان يسترسل في حديث طويل عن الاحتلال وعن ثورة عام ١٩١٩ ، وعن سعد زغلول ، وعن مراوغة الإنجليز ، وعن الفرقة التي بشيعونها بين أبناء مصر ، وعن صدق والدستور المعطل ، والجهاد في سبيل إعادة الدستور ، وكان يهمس له أحياناً أن الإنجليز يعتمدون على القصر في قضاء مآربهم ، وأن الملك لا يحس بمشاعر شعبه .

كان يحدثه في أشياء كثيرة بحماسة شديدة لم يكن « على » يحس منها شيئاً ، وكان يشرّد بذهنه في كثير من الأحيان ثم يوافق مستسلماً عندما يقول له : لا بد من حدوث رجة عنيفة في هذا البلد لكي ينال الشعب مطالبه .

وكان « على » يدهش من أحاديث « سليمان » ومن انشغاله بمصر ومتاعها وأحزائها .. وكان يعتقد في قرارة نفسه أنه مبالغ في تصوراته وأحاسيسه ، وأن المسألة لا تستحق منه كل هذا الضيق والسخط ، وأن ما يضيق به من أعمال الحكام إن هم إلا شيء طبيعي لا يمكن أن يحدث غير .

وكان « على » يعجب بكل ما في صاحبه من صفات وتصرفات ، عدا تلك الحماسة التي ييطنها نحو وطنه ، والضيق الذي يخفيه نحو الاحتلال ، وسوء الحكم ، والذي كان « على » يعتبره من نواحي ضعفه وما أخذه ، تماماً كما كان يعتبر سليمان حب « على » المستولى على لبه ، المستعر في جوانحه ؛ والذي يتركه هائماً حالماً غير شاعر بالآلام ووطنه أو عايق بمتاعبه .

ولم يمنع خلاف الرأي هذا من اشتداد أواصر الصداقة بين الصاحبين ، ولم يمنع أحدهما من الاسترسال في الإفصاح عن أفكاره وأحاسيسه ، ولا منع الآخر من الإنصات إليه وإراحته بالموافقة والتسليم .

وأخيراً قرب موعد الخروج ، وانتهى تعليم السلام بالعصا وبغير عصا ، وانتهى « التريزية » من « نقييف » بدل الفسحة ، وتسلمها الكواء لإعدادها ليوم الخروج .. وبات « على » ليلة الخميس وهو يشعر بالسعادة تتسرب إلى نفسه وتملأ جوانحه ، وقد تكأكت الأحلام الذهبية على رأسه حتى استطاعت أن

تقاوم سلطان النوم العاتى .. وتتركه فى يقظة حتى تسمع أذناه الدقات العشر التى يدقها جرس القره قول .

واستطاع فى نصف الساعة التى قضاه فى فراشه يقظاً ما بين سماعه نوبة نوم فى التاسعة والنصف وسماعه الدقات العشر التى تؤذن بالساعة العاشرة ، أن يرى بذهنه أجمل الصور والأوهام ، وأن يحقق أعذب الأمانى ، فرآها بشباب الركوب تجلس فى أنيقة على بجوادها وهو يسير بجوارها على جواده ، ثم أبصرها مرة أخرى بجواره فى العربة وقد ارتدى حلته الرسمية ، وانسابت بهما العربة فى فخامة وروعة والجنود تحييه .. ومرة ثالثة وجدها بجواره على شاطئ الترعة وراء كومة الغاب وقد أمسك بيدها الرقيقة بين يديه والتقت عيناهما فى شوق ولهفة .

ويضيق سلطان النوم بمقاومته وأفكاره ، ويضيق جسده المتعب من الطواير ، والعدو والقفز ، والسباحة ، والملاكمة ، والشيش ، وبقية أنواع الإرهاق والمشقة التى تفرض عليه فرضاً فوق الطاقة ، فيتعاون النوم المطرود والجسد المنهوك على وقف الذهن الجائل الصائل ، ولا تكاد تنتهى الدقة العاشرة حتى يروح فى سبات عميق لا يفيقه منه غير النوبة العاصفة .

وينهض فى نشاط وفرحة ويقف فى طابور التمام . ولأول مرة تتغير الجملة المذكورة فينقص منها لفظ ، وتبادل على السنة الطلبة المصطفين : « تمام يا أفندم » بلا كلمة « مستجد » فلقد زالت عنهم صفة المستجدين منذ اليوم .

ويرتدى ملابسه بسرعة ثم يذهب إلى السلاح ليأخذ بندقيته ، حيث نبه عليهم الحكمدار أمس أن طابور الصباح بالسلاح .

تناول البندقية رقم ٧٩ التى فرضت رقمها عليه وعلى ملابسه حتى أضحت أقرب إليه من اسمه ، ولم يكن بينه وبين البندقية المذكورة كثير ود ، فلقد تسببت له منذ أن دخلت فى حوزته أو دخل فى حوزتها فى عدة جزاءات .

كان أول تلك الجزاءات هو طابور زيادة أعطاه له الباشجاويش لأنه رآه وقد رفع فوهتها إلى أعلى محاولاً التنشين ، فأفهمه أن حمل البندقية فى موضع التنشين خطأ ثم « لهفه » طابور زيادة .

وتوالت عليه الجزاءات بعد ذلك كلما خرج بالبندقية إلى أحد الطوابير وتعرضت البندقية للتفتيش في « لبس ثانى » حيث كان يقوم جاويش الصنفين أو باشجاويش المدرسة بالتفتيش على الملابس والأسلحة ، التفتيش النهائى قبل الطابور ، أو كلما تعرضت لأى تفتيش آخر لأسلحة البلاتون أو المدرسة .

وكان يعلم أنه يبذل أقصى جهده في نظافتها ، وأنه كان أكثر الضبة استعمالاً لحبل التنظيف الذى كان يمرره في ماسورتها مكرراً التنظيف المرة تلو المرة .. بل لقد استعمل بضع مرات سلك التنظيف رغم أنه لم تكن قد صدرت لهم الأوامر باستعماله ، ورغم أنه لم يكن يستعمل إلا بعد ضرب النار .

ولكن الذنب لم يكن ذنبه بل كان ذنب الماسورة اللعينة ، فقد كانت بطبيعتها قدرة أو كان بها ما يسمونه وساخة معدنيه ، فكانت تبدو معنمة مهما حاول تنظيفها .

وأقبل في هذا الصباح يوسع البندقية تنظيفاً .. فقد كان يخشى أن يقع تحت طائلة جزاء يعطل حروجه ، ويحرمه من لقاء كان يحلم به طيلة الشهرين الماضيين .

ووقف في « لبس ثانى » في الطابور بجوار بقية طلبة « انبلاتون » ، ورفع بندقيته للأمام مائلة في وضع التفتيش بعد أن نادى حاكمدار الطابور : « للتفتيش ميلا سلاح . تفتيش سلاح » .

وفتح الترباس ثم وضع ظفر إبهامه مقاطعاً لأسفل الماسورة .. حتى ينعكس عليها الضوء لكي يستطيع الناظر من أعلى الماسورة أن يفحص داخلها . وأقبل الباشجاويش يفحص البنادق الواحدة بعد الأخرى بعين الرضا حتى وصل إلى بندقيته ، فحذق في ماسورتها بإحدى عينيهِ مغمضاً العين الأخرى ، ثم بدت الدهشة المزوجة بالأسى وأخذ « يطقطق » بشفتيه أسفاً ثم قال :

— هذه بندقية بها عناكب .. الظاهر أنك لم تمد يدك إليها

وقبل أن ينبس « على » بينت شفة أصدر حكمه ووقع عقوبته قائلاً في عصب :

— تفتيش سبرى .

ثم تجاوزه إلى غيره .

وأحس « على » بغصة في حلقه ، فقد كان في هذا الجزاء تأخير لا شك فيه عن موعد الخروج .

وانتهت الطوابير والدراسة وانطلق الطلبة إلى عنابر النوم يعدون أنفسهم للخروج ، ولاحت البنطلونات ذات الأشرطة الحمراء في الطرق والعنابر والفناء رائحة غادية ، وعلى أصحابها سيماء الفرح والنشوة ، وبدأت المدرسة في تلك الساعة وفي كل ساعة مماثلة من كل خميس ، وقد سرت في أرجائها رنة طرب ، وعلا هنا وهناك صوت شاد يغنى أو صافر يترنم .

كان « على » وحده الذى يحس بضيق في جوائحه ، وكان قد انهمك في تلميع نحاس « البل » وشنطة الجراية الجربندية ، ثم أخذ يخرج ملابسه من الدولاب ليرصها في الجربندية التى سيشدها إلى ظهره لكي يقوم بالتفتيش السبرى الكامل .

وكان سليمان قد انتهى من ارتداء ملابس الفسحة ، وأقبل عليه يساعده في تنظيف البندقية وتلميع الأزرار .

وقال سليمان محاولاً أن يسرى عن « على » وقد أحس بما يهتمل في نفسه من ضيق وحزن :

— افرد وجهك يا أخى ولا تكسب .. كانوا يقولون لنا ونحن أطفال « علقه تفوت ولا حد يموت » واليوم نقول تفتيش يفوت ولا حد يموت . سينتهى التفتيش حالا ، وستلحق ببقية الطلبة في الخروج ، وسأمكث أنا معك حتى نخرج سوياً .

— وما الداعى لبقائك أنت !! وما ذنبك تبقى حتى الرابعة ؟

— ولكنك لن تبقى حتى الرابعة .. إنك تستطيع أن تفتش الآن .

— لا .. لقد أرسل لنا الشاويش « حسين » يقول إنه سيقوم بالتفتيش على

المذنبين في الساعة الرابعة .

— وما السبب ؟

— يدعى أنه يريد أن يعطيهم فرصة تامة لكى يشدوا الشدة السفرية على أكمل وجه لأنه لن يتساح في أى خطأ .

— يا للسخافة .. لم أر أثقل من هذا الشاويش .. ولست أدري ما سبب تلك العجرفة التى يظهرها للمطلبة .. بودى لو ضربته قلمين وسط الطابور .. ولكن ما دخله هو بالتفتيش ؟

— إنه شاويش المذنبين ، وهو فى الوقت نفسه الشاويش النوبتجى ولن يخرج هذا الأسبوع بالطبع ، فليس هناك ما يدعو له للعجلة .
وفى الساعة الرابعة وقف ، « على » للتفتيش أمام الجاويش حسين وكان أحمر الوجه ، نافش الجسد ، أشبه بالديكة منه بالآدميين .

ولم يكن لدى الجاويش — كما توقع على — ما يدعو له للعجلة ، فبدأ يجرى التفتيش وكأنه يقوم بعملية مسلية لا يريد الانتهاء منها ، ففك الشدة وأخذ يفحص الملابس التى بالجربندية قطعة قطعة ، ويتمم على كل محتوياتها . وسأل علماً عن مسافة الزراير وعن فرشاة البوية وفرشة الجوخ وعن بقية التفاهات الأخرى من محتويات الجربندية .

ومر التفتيش بسلام ، ولم يستطع الجاويش الأحمر أن يجد فيه هنة يؤاخذ عليه « على » ، حتى أمسك بالبندقية فأمسك « على » قلبه ولكنه تنفس الصعداء عندما فحص ما سورتها ولم يبد عليها ملاحظة .

وأخيراً ، وبعد أن انتهى التفتيش أو كاد . أمسك الجاويش بالبندقية ثم قلبها وفتح الفتحة النحاسية التى فى أسفل الطيان ، وهز البندقية كأنما يحاول أن يسقط منها شيئاً ثم دفع بسبابته فى داخلها وقال وفى صوته رنة انتصار ، كأنما قد أوقع علماً فى الشرك :

— أين المزية وحبل التنظيف ؟

وقال « على » وقد بدت عليه دهشة من فرحة الشاويش بإيقاعه :
— فى الدولار .

وصاح به الشاويش ناهراً :

— فى الدولار ؟ .. وماذا تصنع فى الدولار يا شاطر ؟
— تركتها هناك .

وقال الجاويش ساخراً :

— فى المرة القادمة لا تتركها هناك .. عندما يخرج الجندى بالشدة السفرية ،
لا بد أن يضع المزيطة وحبل التنظيف فى الطبان . إن نظافة البندقية أهم من نظافة
أجسادنا .. لماذا تذكرت أن تضع لنفسك قطعة صابون وغيار فى الجربندية ،
ونسيت البندقية .. ما قيمتك فى الميدان بغير بندقية ؟

ثم صمت برهة وألقى عقوبته الرهيبة فى صوت ممتد :

— حبس خميس .. يجب عليك أن تقضى الليلة فى المدرسة .. حتى تعرف
كيف تشد الشدة السفرية مضبوطة .. مفهوم ؟

وأجاب « على » وهو يبذل جهده فى ضبط أعصابه وكبت غضبه :
— مفهوم يا فندم .

وربط الشدة وحمل البندقية .. وسار فى خطوات عسكرية منتظمة حتى بلغ
دولابه .. ففك الشدة ووضع البندقية على السلاحليك ، ثم جلس على فراشه
وأحس برغبة شديدة فى البكاء .

وفى هدوء استلقى على الفراش ووضع رأسه أسفل المخدة ، ثم ترك عبراته
تنساب فى صمت . لقد كان هذا هو السبيل الوحيد للتنفيس عن ضيقه وكربه .
وعندما انتهى من البكاء أحس بشيء من الخجل وأسرع يمسح عينيه خشية أن
يكشف أحد بكاءه .

واندفع يؤنب نفسه على ضعفها .. علام كل هذا ؟ .. لأنه لم يخرج اليوم ؟
ماذا فى ذلك ؟ .. إنه سيخرج غداً .. وإن غداً لناظره قريب .. وحتى إذا لم

يخرج في الغد .. فسيخرج في الأسبوع القادم ، إنه يستطيع أن يصبر أسبوعاً آخر كما استطاع أن يصبر طيلة المدة السابقة .. إنه قد أضحى رجلاً .. ويجب ألا يضيق بمثل هذه العقوبات التافهة .. عيب عليه أن يبكي لأنه حبس « خميساً » . وحاول جهده أن يزيل ضيقه بمثل هذه الاعتذارات . ولكنه أحس أن الضيق ما زال يحثم على قلبه .. لقد كانت العلة أعمق من هذا .. إنه لم يضق بالعقوبة في حد ذاتها .. ولكنه ضاق بإحساسه بالظلم .. إنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه العقاب ، وهو قد بذل أقصى ما في جهده لكي يؤدي واجبه ، ومع ذلك فقد أوقع به الجراء ، دون أن يفكر أحد في أنه مظلوم ، وكان الجاويش ينظر إليه نظرتة إلى عدو يجب أن يقهره .. أو إلى عبد يجب أن يمارس فيه سلطانه .

كان هذا مبعث ضيقه ، أو على الأصح بعض مبعث ضيقه ، أما البعض الآخر .. أو البعض الأهم — فهو إحساسه — أن فرصة اللقاء توشك أن تفلت منه .. أو هي أفلتت فعلاً .. فهو لن يخرج في الغد قبل الثامنة .. ولن يصل إلى بيته قبل التاسعة .. وموعد اللقاء المتفق عليه قبل الشروق .

أجل .. قبل الشروق في دروة المشتل .. لقد اتفقا آخر مرة على هذا . ولكن أتراها ما زالت تذكر ؟! أتراها تفكر فيه بعض ما يفكر فيها ؟! أما زلت تنتظر مواعده ؟! ولكن من أدراها أنه سيخرج هذا الأسبوع ، أم تراها تذهب إلى الموعد في فجر كل جمعة منذ خروجه ؟

عجباً له !! لقد كان فيما مضى لا يرجو سوى لقاء في الأحلام ، واليوم يطلب منها أن تنتظره كل فجر حتى يعود .

(١٦)

عودة وسؤال

فى الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة كان « على » يهبط من القطار ويجتاز
مزلقان المحطة متجهاً إلى البيت .

كان منظره فى حلته الرسمية نموذجاً للأناقة والوسامة ، وبينطلونه ذى الشريط
الأحمر المثبت فى حذائه بالسببية ، المفروود على ساقيه ، المشدود إلى وسطه شدة لم
تترك به ثنية واحدة ، والسترة الكحلية الملتصقة بجسده ، المحيطة بإقتها العالية
المقفلة بعنقه ، اللامعة أزراها فوق صدره ، وقد بدا جسده طويلاً معتدلاً بارز
الصدر ، ضيق الوسط ، عريض الكتفين ، واستقر طربوشه الطويل فى استقامة
على جبينه .. وأمسك بعصاه يؤرجحها فى يمينه موازية للأرض بالطريقة التى
تعلمها فى الطواير .

ووجد نفسه بلا تفكير يتخذ لداره الطريق الأطول الذى يمر بسور القصر
وبالباب الخلفى للحديقة .. لقد كان بنفسه حزين إلى أن يمر بالمكان رغم يقينه أنه
لا أمل له فى لقاء ربه . فموعد اللقاء — إن كانت تذكره — كان فجراً ..
وفرصته إن كانت تنوى منعها له .. قد ضاعت .. لأن الوقت قد تأخر .. وهى
لو كانت قد انتظرت فلا شك أن موعد مدرستها قد حان ، وأجبرها على الرحيل .
ولقد وصل إلى هذه النتائج منذ أن تحرك من مدرسته ، وألقى بنظرة طويلة
على بناء مدرستها عندما مرّ به فى الأوتوبيس فى طريقه إلى المحطة ، كأنما كان يرجو
من الجدران أن تشف له عما بها .

ثم أخذ يرقب العربات الغادية من الناحية الأخرى من الطريق ، على يجد بينها

عربتها تحملها إلى المدرسة ، وفي القطار استمرت المراقبة للعربات حتى وصل إلى محطته دون أن يرى لها أثراً .

وهو يتجه الآن إلى مكان اللقاء ، وكأنه يؤدي فرضاً لا وجه للتفكير في التخلي عن أدائه . ولم يكن يدفعه إلى المكان أى أمل في لقاء .. ولكن المكان نفسه هو الذى كان يجذبه ، وكأنه يردد قول قيس :

أمرّ على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدار
ولم يكد يصل إلى الباب الخلفى ويمتازه حتى لمح أباه وقد وقف مشمراً عن ثيابه .. وأخذ في نقل الأصص من مكانها .

وتقدم « على » إلى أبيه وقد أحس بحنين مفرط إلى عناقه . وقبل أن يلتفت إليه الرجل كان أحد العمال قد لمح به وصاح به صيحياً في دهشة :

— أهلاً سى على أفندى .

وأذهلت الصيحة المفاجئة عبد الواحد ، فالتفت في دهشة وأصابته رجفة وهو يرى علياً في حلته الرسمية ومنظره البهيج . ثم أصابه شيء من الارتباك وهو يرى نفسه بثيابه المشمرة الملوثة بالطمى غير لائق باستقبال ابنه .. وكأنما خشى أن يسبب لابنه بعض الخجل وهو يعرف مبلغ اعتزازه بنفسه .. ولكن علياً قطع عليه أوهامه بالاندفاع بين أحضانه وضمه إليه في شوق ولهفة وهو الضنين بمظاهر العواطف .

وضم الأب إليه ولده ، ولم يستطع أن يكبح جماح عبراته فتركها تنساب فوق خده الأسمر الجاف .. ثم أسرع لمسحها بكم فانلته .

وفرد الرجل ثيابه المشمرة ثم جذب علياً من يده وهو يقول له :

— هيا إلى البيت .. إن أملك تكاد تجن شوقاً إليك .. لقد اعتقدنا أنك لن تأتى هذا الأسبوع .. وكان حسين سيزورك اليوم في المدرسة .

— أقد خرج حسين ؟

— أجل . لقد أتى أمس إلى البيت أول مرة ، وكان يعتقد أنك ستخرج من

- المدرسة أمس ، ولكن لما طالت غيبتك قال إن خروجكم لا بد قد تأجل .
— وكيف يبدو في حلة المدرسة ؟
— وجيه مثلك . إنكما تبدوان كأنما خلقتما للحلة العسكرية .. هيا بنا .
— دعني ألق نظرة على المكان .. لقد أو حشني كل شيء في بلدتنا .. كيف حال السوبة والحديقة وأصحابها ؟
— بخير كلهم .. كانوا يسألون عنك دائماً .
وأحس « على » في صدره بشيء يدق وهو يحاول أن يبدو في سؤاله غير مكترث :
— سألوا عني أنا ؟
— أجل .
— من ؟
وابتسم الأب كأنما يقول لابنه أنت أدرى أيها الماكر ، ثم قال :
— الست الصغيرة .. « أنجي » هائم .
— أحقاً سألت عني ؟
— دائماً .. في كل يوم خميس كانت لا تكاد تأتي من المدرسة حتى تهبط إلى الحديقة لتسألني .. كيف حالي وحال الزهور .. ثم تسألني بطريقة عارضة .. كيف حال « على » و « حسين » ، ومتى سيحضران من المدرسة .
وأحس « على » بخيبة أمل من قول أبيه ، ولم يستطع أن يخفي مظاهر الضيق التي بدت على سماته وقال في لهجته غير المكترثة :
— كانت تسأل علينا كلنا ؟
وأدرك أبوه خيبة أمله وأدرك مقصده من قوله ، فقال وقد افترسه عن ابتسامة واسعة وهو يربت ظهر ابنه :
— أجل .. كانت تسأل علينا كلنا من أجلك أنت .. أنت تعرف ذلك يا بني .. وأنا أعرفه .. لقد كانت تكثر من النزول إلى السوبة ، وكانت تستدرجنني

إلى الحديث عنك .. كانت تسألني عن أخبارك ، وعن كل شيء عنك ، وكنت أحدثها بإسهاب دون أن يبدو عليها ملل أو ضيق .. بل كانت تنصت في لهفة .
وأحس « على » بخيبة الأمل تتبدد ، وبالضيق واليأس يتطاير ، ثم أطرق وقد أصابه كثير من الخجل وهو يرى أباه وقد عرف الكثير من أمره .
وكان الاثنان قد جاوزا الباب الخلفي وسارا في الطريق إلى الدار بعد أن طافا بالسوية وبالدروة التي وراءها .

وسادت فترة صمت شرد كل منهما بذهنه وبدأت عليهما سيماء التفكير . وكان الابن يخلق في سماء أوهامه وقد ملأت نفسه نشوة جارفة بعد أن عرف كيف كانت « أنجبى » تسأل عنه وتنسجم أخباره . إنها ما زالت تذكره ، وتفكر فيه كما يفكر فيها .
وكان الأب يفكر في تلك السعادة البادية على ولده ، والتي منحه إياها عندما ذكر له كيف كانت « أنجبى » تسأل عنه . وأحس بخطورة تلك السعادة كما أحس بخطورة اليأس الذي بدا عليه دون أن يشعر عندما عرف أنها سألت عنهم جميعاً دون أن تخصه وحده بالسؤال .

هذا كله في نظر الأب شيء خطير .. فهو لا يمكن أن يؤدي إلى شيء سوى الخيبة والفشل ، وهو يعرف ابنه وعزة نفسه وشدة كبريائه . وماذا يمكن أن تفعل به النهاية الفاشلة لتلك المشاعر والأحاسيس .

إنه حقاً يراه خير الناس .. وهو كذلك لا يعتقد أن هناك من يفضلوه وهو كفاء بشخصه لأي مخلوقة .. ولكن بأصله لا يظنه كفوئاً لهذه التي يحاول ربط مشاعره بها .. إن بينهما هوة لا يمكن تخطيها .

ولو كان « حسين » هو الذي يتورط في مثل هذا الشعور لما اهتم الأب كثيراً ، فهو يعرف أن « حسين » لا يزج بنفسه إلى الأعماق ، بل يتوالتب فوق الأسطح ويدع ما لا يستطيع إلى ما يستطيع دون أسى ولا أسف .. وهو إن تطلع إلى ابنة الأمير تطلع تسلية وعبثاً .. فإن قربته نعم بها .. وإن صلتته ألقى بها في زوايا النسيان .

أما « على » ففى عمقه وتؤدته وصمته خطورة شديدة .
ثم إن المسألة كلها لا يجب أن تكون .. وإن كانت فلا يمكن أن تؤدي إلى
نتيجة طيبة مهما جرت في أولها من بعض مظاهر السعادة .
أجل .. مهما صار « على » .. فليس هناك ما يمكن أن يحو الحقيقة الثابتة ..
وهي أنه ابن الجنائني .. وهي ابنة الأمير .

ولكن ماله يفكر في المسألة هذا التفكير الجدى .. أجرد سؤال من الصبية
الرفيقة الطيبة الأميرة على ابنه ، و مجرد طرب من الابن لهذا السؤال يجعله يقفز
بذهنه إلى كل هذه النتائج !

لا .. لا .. يجب ألا يعقد الأمور بمثل هذا التفكير .. يجب أن يتركها تجرى
سهلة في أعنتها .. ثم ليس هذا وقت الضيق والأسف .. يجب أن يفرح بولده .
وكان « على » يرجو أن يحدثه أبوه عن « أنجي » أكثر من هذا ؛ بل كان يريد
منه ألا يكف عن الحديث عنها ، فلما طال صمت الأب قال يستحثة استحثاث
ماكر :

— وماذا قلت لها عنى ؟

وأفاق الأب من شروده وأجاب في اقتضاب :

— قلت لها كل خير .

ثم أراد أن يحول مجرى الحديث فقد أحس بأنه يشترك في دفع ابنه نحو هوة
خطرة ، وخيل إليه أنه بإبعادها عن حديثه قد أبعداها عن ذهنه ، قال :

— أوصلتك النقود والأشياء التي طابتها في خطاباتك ؟

— أجل .. لقد أحضرها خليل ، وإبراهيم أفندى ، ولكن لماذا لم تأت أنت

لزيارتي ؟

وصمت الأب برهة قبل أن يقول :

— المشاغل كثيرة يا على ؟

— المشاغل يا أبى تمنعك عن زيارتي مرة في الأسبوع ؟! أتصدق أنى الطالب

الوحيد الذى لم يزره أهله طوال مدة البقاء فى المدرسة .. إلى عاتب عليك .. ولم أرد أن أسألك الزيارة فى رسائللى لأن من حقى أن تزورنى من تلقاء نفسك .
ومرة أخرى بدا الشرود على الأب وأحس أن تأنيب ابنه فى موضعه ، ولكنه أحس أنه مظلوم . وتمتم قائلاً محاولاً رفع الظلم عن نفسه :
— الحق أنى لم أزرك .. من أجلك يا على .

— كيف ؟

— خشيت أن أخجلك بين الطلبة إخوانك ، فلا أظن آباءهم الذين يزورونهم يأتون إلى المدرسة بالجلباب والعممة الصفراء .. وأنا أعرف عزّة نفسك .. فحزمت على أن أجنبك مشقة زيارتى .. وأن أكبت شوقى إليك حتى تخضر إلينا .
وذهل « على » من قول أبيه وقال فى دهشة :

— كيف تقول ذلك يا أبى .. أنا أخجل منك ؟! إنك فى نظرى خير من أنجبت الأرض .. أبعد كل هذا الذى فعلته من أجلك أخجل منك ؟! إننى أعتبرك من أول مسببات عزّة نفسى .

وكانا قد أشرفا على البيت ، ومرة أخرى أحس الأب بأن الدمع يوشك أن يطفئ من عينيه وهو يرى مدى إحساس ابنه بما أداه له .

ووجد « على » تغييراً واضحاً بدا على الدار ، فقد امتدت إليها يد الإصلاح وأعيد ترميمها وبياضها ونظف ما حولها ، وأنشئت حديقة صغيرة فى فنائها .

وصاح « على » فى دهشة :

— ما هذا الذى جرى للدار ؟! تبدو من خارجها كأنها دار أخرى .
— وسترى داخلها أيضاً أنها قد أضحت دار أخرى ، كان يجب على أن أجعل الدار أهلاً لكما ، إنها الآن أضحت سكناً لضابطين .. لا لرئيس جنائنية .. إنها كما يقول أخوك « حسين » قد أضحت مقراً للحكم .

ووضح لعل مما فعله أبوه بالدار .. ومما قال عن سبب عدم زيارته ، أن بأبيه خوفاً من أن يكون سبباً فى إحساس ولديه — ولا سيما على — بالخجل منه ..

وكره أن يكون هو السبب في ذلك الشعور الذى يسيطر على أبيه ، وود لو استطاع أن يزيل منه ذلك الاعتقاد .. وألا يكون السبب في إرهاقه من أمره عسراً .. فهو يعلم أنه يكاد يسدد مصروفاتهما ، وأن كل تلك المظاهر ستزيد من إرهاقه .

وقال على :

— إننا لا نستحق كل هذا .. لقد باتت الدار خيراً منا . لِمَ كل هذا يا أبتاه ؟
لقد كلفتها الكثير وأنا أعرف أنك لا بد أن تدبر القسط الثانى من المصروفات .
— لا تحمل هماً .. سيدبر الله كل شئ .

— ولكنى أخشى أن أكون السبب .. إن حادثة البنطلون الذى كنت أخجل من حجرة لا شك عالقة في ذهنك .. لقد كان لهذا الخجل سبب خاص ، ولقد تغيرت مشاعرى تغيراً كلياً .. ولم أعد أخجل من مظاهر العجز المادى ، ولا بات يهمنى أبداً أن يكون بيتنا كوخاً أو قصراً . ما دامت طاقتنا لا تهيب لنا خيراً منه .. إن هذه المظاهر لم تعد تخجلنى لأنى أحس من الثقة بك وبنفسى ما يجعل كل هذه المظاهر تتضاءل بجوارها . كل ما يهمنى الآن هو ألا أكون سبباً في إرهاقك .

— ليس هناك إرهاب يا على .. لقد بعنا « كردان » أملك ، وهى لم تعد في حاجة إلى أن تتحلى به قدر ما أصبحنا في حاجة إلى أن نتحلى جميعاً بالدار . إن للمظاهر قيمها يا « على » .. تعال .

وبدا « حسين » فى النافذة .. فلم يكذب يصرع عالياً حتى نددت منه صيحة فرح ودهشة وصاح :

— أم .. « على » أتى .

ولم يهبر حتى يدخل « على » بل قفز من النافذة وعدا إليه يضمه بشدة هاتفاً :

— ما كل هذه الوجاهة ؟ لقد كنت أظننى أوجه من ارتدى الشريط الأحمر ، ولكنك أضعتنى بجوارك .. أرنى نفسك .

ثم أخذ يدور حول « على » وهو يرتدى قميصاً أبيض فوق البنطلون الرسمي الذي شده على كتفيه بالحماله ، وبدا رأسه عارياً أجرد ، ومد يده فاخترطف طربوش « على » صائحاً :
— أرني رأسك .

وبدا رأس « على » أجرد كرأسه .. واستمر هو في هذره :
تصوّر كنت أو شك أن أخرج بشعري وقد بلغ طوله هكذا (وأشار بسبابتيه موضحاً مقاسه) وأردف قائلاً :

— تماماً كما كنت قبل الدخول .. ولكن الباشجاو يش — الله يخرّب بيته —
ضبطني في آخر لحظة .. ونادى الحلاق فمسحها لي كما ترى .
وعبر « على » الباب وتلقته أمه في أحضانها .. ولم يستطع أحد من الولدين والأب أن يوقف اندفاعها في بكاء حار .

وأخذت تتحسس علياً كأنما تحاول التأكد أنه قد عاد إليها سليماً كما ذهب دون أن ينقص يداً أو ساقاً أو أنفاً أو شفه .
وكان أول ما سأله هو :

— أحضر لك طعاماً ؟ إنك تبدو هزيلاً .. لا شك أنهم لم يكونوا يطعمونك كفايتك ...

وضحك « على » فقد كانت أمه تعتبر أن أول واجباتها في هذه الحياة .. إطعامه وإطعام أخيه .. وكانت تعتقد أنهما ما داما بعيدين عنها .. فهما لا شك جائعان ، وأن أول ما يجب عليها فعله هو أن تعوّض ما فاتهما من طعام في غيبتهما عنها .

وأقبلت « بهية » في صمت ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة خجولة ومدت يدها إليه قائلة :

— حمد الله على سلامتك !

— الله يسلمك .. كيف حالك يا بهية ؟ لقد كبرت في هذين الشهرين وازددت جمالا .

وازداد خجل « بهية » ولا سيما عندما أردفت الأم قائلة :
— بهية ست الناس .. ربنا يجعل لها نصيب في أحدكم ..
وكان قول الأم قولاً عابراً ، ولكنه ترك وجه « بهية » وقد تصاعد الدم إليه
وشعت منه الحرارة .

وصاح « حسين » بها :
— هاتي السترة يا بهية . يجب أن تتعلمي من الآن كيف تلمعين الزراير .
وذهبت « بهية » لإحضار الجاكته وقلبها يدق .
يجب أن تتعلم من الآن تلميع الأزرار !! ومن أدراه أنها لاتعرف ؟! إنها لا
حاجة بها لأن تتعلم أى شيء خاص بخدمته لأنها تحذقه بالسليقة .. وبالرغبة ..
وبالحب .

وقال « حسين » وهو يرتدى جاكته :
— سنذهب إلى سينما رويال صباحاً .. هناك فيلم هائل يا على ويجب ألا
يفوتنا .

وصاحت الأم بحسين ناهرة :
— انخشع قليلاً .. اهلاً ..
— ألم يكف خشوعي بالأمس .. لقد سجننتني في البيت .. أتظنين أني قد
خرجت من المدرسة بعد طول حبسي لأقبع في البيت !
— إذن دع أخاك يهدأ .. إنه لم يستقر لحظة .
— لقد هدأ كفايته .. وما زال أمامنا نصف ساعة نستطيع أن نجلسها
معكم .. أظن نصف ساعة كفاية جداً .. لأن تشبعي منه .
— ونقود السينما .. أليست خسارة !. أظن النقود تجري في أيدينا .. أليس
من الأفضل أن تشتري بها شيئاً تأكله ويرجسك ؟
— ليس أمامك سوى الأكل .. ماذا تظنينني ؟ وزّة يجب تزغيطها ، أم خروفاً
يجب علفه ؟ إن في الحياة مباحج أخرى غير الأكل .. وأنا سأدخل علماً على

حسابي .. إن معي نقوداً كافية .. بقية المصروفات التي أعطوها لنا عندما سافرنا
إلى الإسكندرية للعب الكرة .. معي خمسون قرشاً .. سنتجيب بها سويّاً .
وبعد نصف الساعة كان القطار العائد يحمل الأخوين إلى القاهرة .. في
طريقهما إلى السينما .

(١٧)

تحدّ .. !

وصل الأخوان إلى السينما بعد ابتدائها ودخلا يتلمسان طريقهما في الظلمة ، ووقفوا برهة حتى تتعوّدها عيناها وتقدم منهما أحد المراقبين فأوصلهما إلى محليهما .

ومضت مدة قبل أن يحاول أى منهما تركيز ذهنه فيما يعرض أمامهما ، فقد شغل « على » باستعادة ما قاله أبوه عن « أنجى » وعن رغبتها في أن يحدثها عنه . أما حسين فقد شغله التلفت حوله ومحاولة أن يكتشف في الظلمات أقرب الوجوه الجميلة إليه وعن نوع جاره أنثى أم رجل ، وعن أغلبية الجنس الموجود في مقاعد البلكون نساء أم رجال .

وحلت فترة الاستراحة ، فأراحت نظر حسين من طول البحث في الظلمة ، وأراحت ذهن « على » من طول تفكير وعدو وراء « أنجى » .. وتشاغل الاثنان بفحص جمهور المتفرجين وتحية بعض زملاء المدرسة الذين غصت بهم المقاعد . وسأل حسين أخاه :

— ألا تريد التمشي قليلا ؟

— لا .. إني أفضّل البقاء .

وقام حسين متجها إلى الخارج بطريقة استعراضية ، ولكنه لم يكد يسير بضع خطوات حتى عاد بسرعة إلى أخيه .. ثم مال عليه قليلا وهمس قائلا :

— إن أنجى ابنة أفندينا موجودة هنا ومعها أخوها .

— وكان « على » ينوى أن يؤنب أخاه على حركاته اللافتة من نهوض وعودة وهمس ، ولكن ذكر « أنجى » أصابه بارتباك مفاجيء واضطراب شديد أفقده قدرة السيطرة على نفسه .. بله السيطرة على أخيه .

ولم يعرف كيف يجيب أخاه .. ووجد نفسه ينهض على غير إرادة فيتبعه إلى الخارج كأنه يفر من معركة .. وفي سريره حانت منه التفاتة إلى الاتجاه الذي أشار إليه أخوه فالتقى بصره ببصرها ، وطالعت به بسمتها الرقيقة المشرقة المهدئة المطمئنة التي تبدد من نفسه الاضطراب وتملؤه ثقة وأملا .

وابتسم .. وأشار برأسه .. فأشارت برأسها .. وود لو استطاع القفز بين المتفرجين وضمها إليه .. ولكنه لم يملك إلا أن يسير تابعا أخاه إلى الخارج .. واتجه حسين بأخيه إلى البوفيه قائلا :
— دعنا نشرب شيئا .

— لا داعي لذلك .. كفانا إسرافاً .

— سأسقيك على حسابي ، أنت ضيفي اليوم ، ما زال من الخمسين قرشاً بقية للبحبة ...

— أبقها تنفعك في الجمعة القادمة . القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود .

— اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب .. لكل مثال رده .. لا تحاول أن تستعين عليّ بالأمثال .. فليس أكثر لدينا من الأمثال والحكم التي يناقض بعضها البعض .. هيا .. « لا تضق هماً بأمس وغد » .

ووقف الاثنان أمام البوفيه .. وبدأ حسين يتناول زجاجة « سيلر » وعينه تنقبان عن الإناث .. ولسانه لا يكف عن الثرثرة قائلا لعل :

— إن أنجى تبدو رائعة .. لقد أبصرتها تثبت بصرها فيك وأنا سائر إلى الخارج .. وقد خصتك بابتسامة وتحية .. حلال عليك .

وفي تلك اللحظة بدت أنجى مقبلة عليهما .. وقد ارتدت فستاناً من الصوف الأخضر بسيطاً ، وحذاء منخفضاً .. ولم تحاول أن تبدي شيئاً من التكلف والدلال ، أو تظهر أنها تقصد السير إلى البوفيه ، وأن « على » جاء في طريقها مصادفة .. بل اتجهت إليه مباشرة .. ومدت يدها إليه في ترحاب واضح .. وشوق لم تحاول أن تخفي مظاهره وقالت باسمه :

— حمد الله على السلامة .. لم أكن أعلم أنك خرجت . لقد سألت والدك

بالأمس فأخبرني أنك لم تأت بعد .
وأحس « على » بارتباكها يتطاير أمام تواضعها ومدت يدها بحية أخاه الذي
أدهشته البساطة التي أقبلت عليهما بها والتي حدثت بها أخاه .
وأجابها على :

— إلى لم أخرج إلا صباح اليوم .

— ولم ؟

— عوقبت بالحبس يوم الخميس .. لأن البندقية لم تكن نظيفة .

— أتعلمت الرماية بها ؟

— ليس بعد .. مازلنا نتعلم حملها والسير بها واستعمالها في الطواير .

— إلى أجد التنشين .. لقد علمني إياه أخي علاء .. وسنصطاد اليوم بعد

عودتنا من السينما . أتجهان الصيد معنا ؟ وقبل أن ينطق « على » أجاب حسين :

— طبعاً .. إلى أجد التنشين قبل دخول المدرسة .

ولم يكن « على » . قد أجاب بعد ، وكانت أنجي ترقب إجابته فأعادت

السؤال :

— وأنت يا على ؟

وأجاب « على » كمن يفيق من غفوة :

— أنا .. أجل .. أجل .. بالطبع .. وإن كنت لا أجد « التنشين » ..

وأول مرة حاولته في المدرسة عوقبت .

— أكل شيء عندكم بالعقاب ؟

وضحك « على » قائلاً .

— كل شيء .. لقد عوقبت مرة لأنني أسير .

— وماذا يجب عليك أن تفعل ؟

— أعدو .. إن السير عندنا لا يسمح به .. يجب أن نعدو دائماً .. حتى

عندما نتقل من الفراش إلى الدولاب .

— على أية حال سأعلمك التنشين .. سأكون أسبق من المدرسة في تعليمك إياه .

ودق جرس السينة مؤذناً بانتهاء فترة الاستراحة وقال حسين في لهجة أسف :
— لم نطلب لك شيئاً .. لقد شغلنا بالحديث .
متشكرة .. ليست لي قابلية للشرب ، إنما خرجت لكي أحرك ساقى فإن
طول الجلسة تتعبني .. هيا بنا .

وقبل أن يفرقوا ليتجه كل إلى مقعده سألت « أنجى » :
— أستعودان إلى البيت بعد السينة ؟

وردة على :

— أجل

إذن فسترجع معاً ، إلى عائدة وأخى علاء إلى البيت .. سنلتقى بهذه الرواية .
ولم تكن في دعوتها سائلة عارضة بحيث يمكن القبول أو الرفض ، بل كانت
فارضة مقررّة .

وعندما انتهت الرواية . تدفقت جموع المتفرجين إلى الخارج . ووصلت
« أنجى » وهي تلفت حولها باحثة وسط الزحام عن علي وأخيه . وكان علاء قد
سبقها إلى داخل العربة ، وعندما وجدها تلتكأ أمام بابها هتف بها :
— ادخلي يا أنجى .. عمن تبحثين ؟

وأجابت « أنجى » وهي ما زالت تبحث بعينيها وسط الجماهير المتدفقة :
— لقد دعوت علي وحسين لتوصليلهما معنا .

وبدت الدهشة على وجه الصبي ورفع حاجبيه .. وقال مستكراً :

— نوصليلهما معنا ؟ .. نركب أولاد الجنائين معنا في العربة ؟

وكان « علي » قد لاح لعينيها متقدماً وسط الجموع تجاه العربة ، ووراءه
حسين ، فصاحت « أنجى » بأخيها ناهرة :

— كفف عن هذا السخف .. إياك أن تتحدث أما مهما بهذه اللهجة .

— لن أدعهما يركبان .. ادخلي العربة .. وإلا تركتك واقفة .. وعدت
وحدى .

— بل سيركبان رغم أنفك .

ووجه علاء حديثه إلى السائق قائلاً في لهجة الأمر :
— سر يا أسطى محمد .

ونظرت « أنجي » إليه في غيظ وقالت للسائق :
— لا تتحرك يا أسطى محمد .

— قلت لك سر يا أسطى زفت .. ألا تسمعنى ؟

وحول السائق الأسود رأسه في غيظ إلى علاء وقال له مستنكراً :

— أسير وأترك أنجي هانم .. تفضل أنت ، وانزل إذا كنت على عجل .

واندفع من فم علاء سيل من السباب موجهاً للسائق ، وهو يهدد برفته وكان
الأخوان قد اقتربا من العربية وأشارت إليهما « أنجي » بالتفضل .
وقال السائق مؤنباً علاء :

— عيب يا سى علاء .. هذا الكلام لا يقوله أولاد الجنايتى الذين تأنف من
ركوبهم .. إنى سأشكو إلى أفندينا كل ما قلته .

ودلفت « أنجي » إلى العربية بجوار أخيها ، وجلس « على » بجوارها ،
وحسين بجوار السائق وسارت العربية في طريقها إلى البلدة .

وتبادل الفتيان مع علاء تحية عابرة ، وبضعة أحاديث سطحية .. وحاولت
« أنجي » جهدها أن تزيل جو التكلف والتوتر الذى سببه وجود أخيها علاء
بترفعه وعجرفته فقالت متحدثة عن الفيلم :

— لم يكن الفيلم بالجودة التى أتوقعها ، لقد قاموا له بدعاية لا يستحقها .
واعترض علاء قائلاً :

— لقد أعجبني جداً . ولا أظننى رأيت أفضل منه .

— إنه مفرط في العنف .. وهو يظهر الشر بمظهر البطولة .

— هذا هو ما يعجبني فيه .

ورغبت « أنجي » أن تشرك علياً في الحديث فقالت متسائلة :

— ما رأيك أنت يا على ؟

وأحس « على » بشيء من الحيرة ، وتردد برهة .. ثم قال محاولاً ألا يخذل أحداً منهما :

— أعتقد أن الرأي يختلف حسب طبيعة المرء .

وقلب علاء شفتيه كأن الكلام لا يعجبه . وقال في شيء من الاستخفاف :

— ما رأيك أنت ؟

ووجد « على » أن الفتى لا يستحق الجمالة . فقال له في شيء من التحدى :

— الفيلم تافه ، وليست له فكرة نظيفة ولا هدف طيب ، وغير معقول أن يرضى مخلوق طيب النزعة عن إظهار الشر بمثل هذا المظهر الرائع حتى لكنه يحض عليه .

وأردف حسين قائلاً في شيء من الوقاحة :

— الفيلم سخيف جداً جملة وتفصيلاً .

واحمر وجه علاء وخشيت « أنجي » أن يتهور بألفاظ تسيء إلى ضيفها فقالت له محاولة لإنهاء الموضوع :

— رأييت يا علاء ، أن الرأي يختلف باختلاف طبيعة المرء .. كل إنسان له رأيه .

ثم أردفت محوِّله دفعة الحديث إلى اتجاه آخر :

— ومتى ستعودان إلى المدرسة ؟

وقال على :

— المفروض أن نكون هناك في الثامنة مساء . إن الأجازة من ظهر الخميس حتى مساء الجمعة .

— إنى أتمتع بأجازة أطول فأجازتي الأسبوعية تبدأ عصر الجمعة إلى صباح الاثنين

— ولكنك لم تذهبي إلى المدرسة اليوم ؟

— إننا في عطلة عيد الشكر .. إن عطلاتنا كثيرة .. وبعد شهر تبدأ عطلة عيد

الميلاد ورأس السنة ، عطلة طويلة حوالى عشرين يوماً .
وهكذا استمر الحديث فى العربية عابراً متقطعاً لا يكاد يوصل حتى ينقطع ،
ولا يكاد ينقطع حتى تعاود «أنجى» وصله ، حتى شارفت العربية البلدة
وتوقفت . ونزل منها الأخوان و « أنجى » تقول لها :

— سننتظر كما فى الحديقة وسنجهز البنادق للهيد .. لا تتأخرا .

وأجاب « على » وهو يرفع يده بالتحية :

— إن شاء الله .

: وأجاب حسين وهو يضحك :

— همامة .

وسار الأخوان فى طريقهما إلى البيت وحسين يهز رأسه :

— لطيفة هذه البنت .

ثم أردف بحملته الثقليدية وهو ينظر إلى أخيه فى إعجاب :

— حلال عليك يا عم .. أنت دائماً لا تضرب إلا فى العالى .

ورمقه « على » مؤنباً وقال فى لهجة زاجرة :

— حسين .. كف عن الحديث عنها بهذه الطريقة .

وتتم حسين مهتدراً :

— إنى لا أقصد إهانتها .. إنى أحترمها جداً .. على الأقل من أجلك .

— من أجلى فقط ؟

— أتريدنى أن أحترمها من أجل أخيها ؟

— احترامها من أجلها هى .. ألا تجدها تستحق الاحترام ؟

وأجاب حسين جاداً :

— بل تستحقه .. إنى لم أكن أظنها بمثل هذه الرقة واللفظ والتواضع ..

حقيقة أنها من معدن غير هؤلاء المتعجرفين .. حتى ليخيل إلتى أنها لا يمكن أن
تكون ابنة ذلك الأمير المتأله .

وصل الاثنان إلى دارهما وكانت « الطليّة » العتيقة قد حلت محلها منضدة خشبية وضعت في منتصف القاعة وفرش فوقها مشمع أبيض نظيف . وكانت الأم قد أعدت الطعام ، ثم بدأت مهمتها الكبرى في تكديسه في معدني ابنيها كأنما تعوّض طول تقصيرها في مدة عيابهما .

وانتهى الطعام ، وبدأ الأخوان يتبادلان النظرات كأنما يتساءلان عن أسهل الطرق للهروب من أبويهما اللذين يريدان الاحتفاظ بهما أطول مدة ممكنة للتمتع بهما بعد طول غيبة وفرط شوق وحنين .

وبدأ حسين خطة الهروب بقوله وهو ينظر إلى الساعة في يده :

— علي .. لقد تأخرنا .

وتساءلت الأم في دهشة :

— تأخرتما عن ماذا ؟ . ألم تقولوا إن موعد العودة في الثامنة مساء ؟! إنكسا

لن تنزلا قبل السابعة .

وصدق الأب على قولها قائلاً :

— أجل ساعة تكفي جداً للعودة .. نصف ساعة إلى المحطة ، ونصف ساعة

إلى المدرسة .

ولم يجب « علي » فقد أحس بشيء من الخجل وهو يحاول التهرب من أبويه قبل أن يشبها من لقائه . وقال حسين في لهجة أضفى عليها شيئاً من الخطورة :

— إني أقصد أننا تأخرنا عن موعدنا مع علاء ابن أفلدينا .

وتساءل الأب في دهشة :

— أينكما موعد ؟

— أجل .. سنجرب له إحدى البنادق الجديدة .

— وهل أصبحتما من ذوي الخبرة في البنادق ؟

— طبعاً .. شهر ونحن غارقون في البنادق .. هيا يا علي حتى لا نتأخر عليه ..

سنعود ثانية .. لن نتعيب كثيراً .

ونفض حسين وشقيقه علي ووالدهما تتمتع في حمرة :

— ألا تخشعان قليلا ؟! ألا تريحان جسديكما ؟!

وغادرا البيت ، وبعد برهة كانا يسيران في ممرات الحديقة باحثين عن أنجى .
وتحت شجرة فيكس ضخمة من نوع البنجالنس ذات الجذور المدلاة من
السيقان والمسماة « أم الشعور » كانت « أنجى » تجلس على مقعد طويل من
الخيزران مرتدية سويتير أبيض ، وجيب كحلى ، وحناء أبيض من الكاوتش ،
وقد وضعت على منضدة قريبة ثلاث بنادق للصيد وبعض الخرطوش . وكان
علاء مقبلا من ناحية القصر وقد أمسك بندقية رابعة وأخذ يطلقها خلال سيره
على قمم الأشجار .

ونهضت « أنجى » تحيى الأخوين في رقة قائلة :

— هذه هى البنادق .. أتريدان تجربتها ؟

وحمل « على » إحداها وقال وهو يجرب التصويب بها :

— إنها أخف كثيرا من بندقية المدرسة .

وأقبل علاء .. وبلا تحية ولا ترحيب قال لهما :

— ألستما ضابطين .. وصناعتكما حمل السلاح .. إني أتحدكما .

ولم تعجب « أنجى » لهجته المهاجمة وقالت في مرح :

— لا داعى للتحدى ، نحن نريد أن نتسلى .

ولكن علاء رفع البندقية إلى كتفه قائدا :

— انظر هذا الفرع المتدلى من الشجرة .. هذا الفرع المجاور للمنضدة

سأصيب الورقة الثالثة التى به

وأطلق البندقية فأصاب الورقة ، وانطلق ضاحكاً وهو يقول :

— إني أتحدى أن يفعلها أحدا .. وأنتما ضابطان .

ولم يكن لعلى أية رغبة فى التحدى ، بل لم يكن لديه رغبة فى مجرد الإمساك

بالبندقية أو الصيد . كل رغبته كانت تنحصر فى أن يبصر « أنجى » ويسمع

صوتها ، ويتحدث إليها .. وكان يتمنى لو استطاع أن ينتحى بها جانباً فيسير معها

بين الأشجار والزهور .

ولكن حسين كان مناضلا بطبعه ، فخطف إحدى البنادق وعمرها ثم رفع بها إلى كتفه قائلا في سخرية :

— الورقة الرابعة .

ثم أطلق فأصابها وأردف قائلا في نفس اللهجة الساخرة :

— والخامسة .

وأسقطها .

— والسادسة والسابعة .

وأسقطهما ثم أخفض البندقية وهو يقول :

— هذه أهداف بسيطة .. عندما تتحدى الضباط يجب أن تتحدى في أهداف أصعب من هذه .

وتملك الغيظ . علاء وعض على شفتيه ، فقد كان يعتقد أن إجادة التنشين واستعمال السلاح يجب أن تكون قاصرة على الطبقات العليا .. وكان يكره أن يشاركه في قدرته ابن الجنائني حتى بعد أن أصبح ضابطاً .

وفي تلك اللحظة كانت « أنجي » و « علي » قد انتحزا فرصة انشغال أخويهما بتحدى بعضهما بعضاً في الضرب ، وأقبل كل منهما على الآخر متباعدين عنهما .. وأحس الاثنان وقد خلا أحدهما لصاحبه بدقات قلبه تعنف ، وأنفاسه تتلاحق وكان « علي » أول من تحدث . قال في لهجة ذائبة : كنت أخشى ألا أراك ..

و كنت أود أن أفقد نصف عمري وأخرج أمس حتى أنتظرك في دروة الغاب — أنا أيضا أحسست بخيبة شديدة عندما أنبأني أبوك أنك لم تحضر .. ورغم

هذا فقد ذهبت وانتظرتك في الفجر . و كنت أحس براحة كبيرة وأنا أنتظر هناك .. فقد خيل لي أنك ستأتي بين آونة وأخرى . لقد كنت أنتظرك فجر كل

جمعة ، و كنت أذهب بالحصان إلى الترععة حيث لقيتك آخر مرة ، و كنت أهبط فأجلس وراء كومة الغاب وأعبت في الماء كما كنت تعبت .. لم أكن أظن أني

سأفتقدك كما افتقدتك .. ولا كنت أعتقد أنسى سأحس لك بهذا الشوق والحنين .

وأحس « على » كأنه يتسامى إلى أعلى ، وكأن جناحين قد ركباه فحملاه إلى الفردوس . أحقاً قد انتظرت أوبته في كل فجر ؟!

وأرتج عليه فلم يعرف كيف يجيب ، ووجد يده تمتد إلى حوض قريب للورد فقطف منه واحدة وأخذ يعبث بها بين أصابعه وهو يهمس :

... أنا لم أحس بشوق إليك لأنك لم تفارقيني لحظة . كنت في رأسي وفي قلبي وفي عيني .. كنت في دمي .. كنت أراك في وردتك التي أعطيتها لي آخر مرة والتي استقرت أوراقها الجافة في درجتي تحمل إليّ عبيرك .

وصمت برهة ثم أردف هامساً :

— أتسمحين أن أقدم لك هذه علكة تذكّرني بها كما ذكرتني بوردتك . ثم رفع بها يده وهمت « أنجي » أن تأخذها في اللحظة التي انطلقت طليقة من بندقيّة علاء فأطارت الوردة .. وجرححت إصبع « على » وسمع علاء يقهقه وهو يقول لحسين :

— أتحدّثك في هذه الإصابة .

(١٨)

عبء ثقيل

صرخت « أنجى » صرخة جزع وأقبلت على « على » فى لفنة تحاول أن توقف
الدماء التى تنزف من إصبعه بمنديلها الصغير ، وأسكت يده فى حنان شديد
قائلة والبكاء يخنق صوتها :

— ضع منديلي عليه حتى أحضر لك قطعة وصبغة يود ، وسأعود حالا .
ونظرت إلى علاء وهو يتسهم ابتسامته الصفراء ، وقد وقف حسين بجواره
مذهولاً حانقاً وقالت :

— مجنون .. سافل .

ثم انطلقت تعدو تجاه البيت .

وأقبل حسين على أخيه يفحص إصبعه جزعاً وهو يفهمم :

— كان يجب أن أفرغ طلقتى فى رأسه .

ورفع « على » وجهه فى دهشة وقال زاجراً أخاه :

— ماذا تقول ؟ أجننت ؟ إن المسألة لا تستحق كل هذا .. إنه جرح

بسيط .. ولا شك أن الطلقة خرجت دون قصد منه .

وصاح علاء :

— لا .. لم تخرج بلا قصد .. إنما قصدت بها أن أعلمك ألا تعطى ما ليس لك

لمن ليس لك .. يجب أن يعرف المرء حدوده التى يجب ألا يتعداها .. إن الملابس

لا تمنح النفوس حدوداً أوسع مما يمنحها أصلها .. إن الملابس لا تحيل السيد

عبداً .. ولا العبد سيدياً .. هذه المرة فى إصبعك .. المرة القادمة ستكون الإصابة

أسهل ، لأن الهدف سيكون أكبر .

وأحس « على » من قول الفتى بجرح أشد إيلاماً من جرح إصبعه ، وتباعد الدم إلى وجهه ، واحتدمت في صدره عاصفة من المقت ، حاول جهده أن يكتبها ، وأخيراً قال في هدوء وهو يقذف بالمنديل الصغير الذى كان يضمده جرحه على المنضدة الخيزران :

— الملابس لا تمنح النفوس شيئاً .. الأصل كذلك لا يمنحها شيئاً .. النفوس هى التى تمنح كل شيء .. النفوس أثبت وأقوى من الملابس والأصول .. وكل أصل يبدأ من الأرض .. ويعلو إلى السماء .. ثم تسقط بذرتة إلى الأرض .. لتبدأ من الطين مرة أخرى .. ليس هناك أصل ثابت فى الأرض أو فى السماء .. ولكنه دائماً متأرجح بين هذه وتلك .. جيل فى الأرض .. وجيل فى السماء .
وهم بالسير عندما أقبلت « أنجى » تعدو لاهثة وقد أمسكت بقطعة قطن وزجاجة صغيرة بها صبغة يود ، واندفعت إليه تضمد جرح إصبعه بقطعة القطن وهى تهمس والدموع تترقرق فى عينيها :
— إني آسفة جداً .

وأحس « على » بشوائب الكدر ترسب ، وبنفسه تصفو وشعوره يرق ويرهف ، حتى لكان إصبعه لم تجرح وكرامته لم تهين .
ووجد نفسه يهمس :
— لا داعى للأسف .. أنعم بجرح تضمده يدها .

وكان حسين قد حاول التشاغل بفحص إحدى البنادق ، وتباعد علاء معاوداً الانهماك فى إطلاق بندقيته على الطيور فوق أعالي الشجر ، وكأن لم يحدث منه شيء ، ورمقه « أنجى » وهو يوشك على الاختفاء بنظرة حنق واستياء وقالت :
— أرجو ألا تأبه له .. لا تلق بالآلى ما يفعل أو يقول ، فهو مخلوق غير طبيعى .. إنه يقدم على الأذى بلا مبرر ولا سبب .. لقد سبق أن قتل قطتي .. وحاول قتل حصاني .. إنه دائماً يكره من أحب .
وأحس « على » بنشوة من قولها .. إنها تعتذر عن فعله أخيراً ومحاولته إيذاءه

بأنه يكره من تحب .. فهي تسلم ببساطة أنه قد أضحى ضمن من تحب .
وكان قد رفع إصبعه المصابة وأخذت هي تربطها بقطعة شاش .. وانتقل
بصره من جدائلها الذهبية المتهدلة على كتفها إلى أصابعها وهي تلف الشاش في
حرص وحذر ، وأحس بها تمس يده مسات خفيفة ، ووجد نفسه يرفع إصبعه إلى
أعلى رويداً رويداً ، وأصابعها مازالت تدور بالشاشة حوله .. وبلا وعى ولا
إرادة وجد رأسه ينحني حتى قارب فمه يدها ، وبأقصى آيات الرفق والحنان
والتعبد والتبتل مس بشفتيه أطراف أصابعها .

وأحست هي من مسه شفتيه ونظرة عينيه برجفة سرت في جسدها ،
ووجدت إصبعها المماسه لشفتيه تتحسسهما في بطء ثم تتحرك لتمس طرف أنفه ،
وتعود ثانية إلى شفتيه في حنين عجيب وطافت بشفتيها ابتسامة رقيقة ذائبة
وهمست قائلة وهي تنظر في عينيه :

— شكراً .

وأجابها في مثل همسها ونظراته تطوف بوجهها كأنما يتحسسها في عبادة :

— شكراً لك أنت .. على كل ما فعلته .

— أرجو ألا يكون بنفسك شيء ؟

— بل بها شيء كثير .. في كل مرة ألقاك .. تدفعين بها من الأمل والقوة ما
يهون على كل صعب .. الحياة أمامي قد خفت أعباؤها وتضاءلت مشاقها حتى
بت أشعر بقوة محارقة على تخطي كل عقبة وإزالة كل حائل .

وكان « علاء » قد عاود الاقتراب فهمست « أنجي » وهي تعقد الرباط حول
إصبعه :

— متى ستعود ثانية ؟

— في الخميس بعد القادم .

— ولماذا لا تعود الخميس القادم ؟

— يوجد عندنا صنف حريق .

— لست أفهم .

— في كل أسبوع يبقى صنف (جماعة) في المدرسة ليقوم بواجب نوبتجية الحريق ، حتى إذا حدث حريق في المدرسة وجد من يطفئه .
— وهل سبق أن حدث حريق ؟ وهل استطاعوا إطفاءه ؟
وضحك « على » وأجابها :

— الواقع أنه لم يحدث طيلة وجودي في المدرسة ولا أظنه قد حدث قبل وجودي ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن يحدث في أي وقت .. أما سؤالك عما إذا كان الصنف يستطيع إطفاءه ، فذلك لا يعلمه إلا الله .. على أية حال إنها نوع من مضايقات المدرسة .. أو على الأصح ما نطرحها مضايقات ، وإن كنت أجد فيها نوعاً من رياضة النفس على فعل ما لا تحب ، وقبول ما لا ترضى .. والتسليم به بلا جدل ولا مناقشة .. وهي رياضة واجبة على كل نفس في حياتنا هذه ، لأن الحياة كثيراً ما تجبرنا على ما نكره وتفرض علينا ما لا نشتي .. واعتقد أن النفس العسكرية خاصة أحق بهذه الرياضة التي تؤهلها لقبول الأوامر العسكرية في السلم والحرب وتنفيذها بلا جدل ولا مناقشة حتى ولو كانت غير معقولة ولا مقبولة .

— لقد وجدت فلسفة للعسكرية تسوغ بها سخافاتنا .

ثم رفعت عينيها إلى رأسه وأردفت وقد افترتغرها عن ابتسامة واسمة :

— وأظن من بين تلك السخافات حلقة الرأس .

— قد تبدو في مظهرها سخافة ، وإن كانت تخفي في باطنها أبلغ الحكم .

— كيف ؟

— أولها ترويض النفس كما قلت لك على قبول ما لا تشتهي مهما بدا من عدم فائدته وسخافته .

— وثانيها ؟

— تهويد المرء على ألا يضع اعتداده وثقته في مظهر تافه .. كأنما هو شمشون

إن زال شعره زالت قوته . إن نفسه هي نفسه .. بشعر أو بغير شعر .
— وثالثها ؟

— النظافة وعدم تضييع الوقت في التمشيط والترين .. و ..
وقاطعته ضاحكة :

— كفى .. كفى .. حتى لا تجعلني أعدو لقص شعري وتحقيق كل هذه
المزايا التي تذكرها .

وشاركتها ضحكها وهو يقول :

— إني أقصد بقولي .. الشعر .. لا خيط الذهب .

ورفعت إليه عينيها متسائلة في خبث :

— أيعلمونكم في المدرسة دروس غزل إلى جانب الدروس العسكرية ؟

وكان علاء قد اقترب ، فأردفت تقول مؤكدة :

— ستحضر إذن في الخميس بعد القادم ؟

— إن شاء الله .. ادعى الله أن يمنح البندقية رقم ٧٩ نظافة من عنده .. أو إذا

استهضمت نظافتها ، وأظنها مستعصية .. فليصب الباشجاويش رقم ١٤ محمد

على رجب « بوجع في عينيه يجعله لا يبصر وساختها .. حتى يمر الأسبوعان

القادمان على خير .

وضحكت « أنجي » قائلة :

— سأدعو الله أن يخرجك وكفى .. فلا أظنني بمستطاعة حفظ كل هذه

الأرقام التي قلتها .. سأنتظرك هنا بمجرد عودتي من المدرسة إلى حوالى الرابعة

والنصف ، وسنتفق على الذهاب إلى سينما .

— سأكون هنا في الموعد ولو أدى الأمر إلى قتل الباشجاويش ، والجواويش

الأحمر .. سأتركك الآن .. فأخوك لا يسره كثيراً وجودي .

— دعك منه .

وسلم « علي » مودعاً ، وأقبل علاء يقول « تسائلنا في استخفاف :

— أتقبل تحدياً آخر ؟

ونظر إليه حسين في غيظ وقال :

— تحدياً آخر ؟ .. أنا أقبل كل تحدٍّ ، ولكن دعنى أختار الهدف . أمسك الوردة ، وسأريك كيف تكون الإصابة .

وقهقهة علاء وقال ساخراً :

— أنا لا أمسك بالورد .. أنا أمسك سلاحاً فقط .

ونادى « على » أخاه :

— هيا يا حسين .. لقد أزف الوقت .

وقال حسين لعلاء وهو يتجه إلى أخيه :

— نحن نمسك الورد لمن يريده ، والسلاح لمن يستحقه ، سنلتقى ثانية . دع

التحدى إلى فرصة أخرى .. العمر طويل ، والأهداف كثيرة .

وقهقهه « علاء » وصاح وهو يشيع الأخوين العائدين قائلاً بلمهجة هازئة :

— ضباط .

ثم أخذ يطلق بندقيته وراءهما في الهواء وهو يقهقه في حلق .

وصاحت به « أنجي » حانقة :

— علاء .. كف عن هذا .

ثم حانت منها التفاتة إلى التّضد فوجدت منديلها الصغير وقد بدت عليه بقع

حمر من إصبع على .

وهمت بأن تصيح بعلى لتعطيه المنديل ولكنها أطبقت عليه يدها قائلة لنفسها :

— إنى أحق بالاحتفاظ به .. إن به منه أكثر مما به منى .. لقد حملته

عطرى .. ولكنه حملة دمه .. سأحفظه لدى .. كأعز ما أملك .

ووقع بصرها على الوردة التى أسقطتها الطلقة من يد « على » فالتقطتها من

فوق الحشائش وفتها بالمنديل ثم أطبقت عليه يدها ، وعادت إلى البيت ، وكأنها

تعمل كنزاً .

ورجع الأخوان إلى البيت ، وعندما أزف موعد الرحيل غادرا البيت متجهين
كل منهما إلى مدرسته .

وعاد « على » إلى المدرسة محملاً بعبء من المشاعر .. وجلس على طرف
فراشه بعد طابور التمام يخلع حذاءه الطويل « الوولنجتون » ، وأخذ يرقب زملاءه
العائدين من إجازاتهم مرحين ضاحكين يقصون مغامراتهم ويرد تحياتهم شارد
الذهن غارب البال .

إن مشاعر « أنجي » تتلاحق عليه بسرعة وعنف أشد مما يتوقع أو يحتمل ..
وهو عندما يحاول استعادة ما جرى بينهما اليوم لا يستطيع أن يصدق وقوعه
بسهولة .. ولا يستطيع كذلك أن يتذوق جماله من شدة انهماكه وفرط حلاوته .
هو لا يستطيع أن يصدق أنها قالت ما قالت .. وأنه قال ما قال .. وأكثر من
هذا لا يستطيع أن يصدق أنه مس إصبعها بشفتيه .. وأنها قالت له في صوتها
الذائب : « شكراً » .

وانتقل ذهنه بعد ذلك من الجانب الخلو إلى الجانب المزدحم .. وقفز من السهل إلى
الوعر .. فسأله نفسه : ما نهاية كل ذلك ! وذكر شعور أحياها وتهديده
وتحديه .. وأحس بالظلمة التي تخيم على النهاية .. وأحس بسرابية أمله فيها ..
وبفرط يأسره منها .. ثم حاول أن يطرد من ذهنه النهاية البعيدة وأن يقصر تفكيره
عنها فيتزكها لله والظروف والحظ والقدر ، وغير ذلك من نواحي التوكل التي
يوكل إليها اليائس كل ميثوس منه .

ولكنه حتى مع قصر تفكيره عن النهاية البعيدة السرابية الميثوس منها ..
وحصره في الحاضر الخلو المرجح منه المأمول فيه .. أحس بالكثير من الخوف
والقلق .

إلى أي حد يمكنه السير في ذلك الحاضر ؟ وإلى أي مدى تساعد إمكاناته
على الانتفاع به ؟ .. أتراه ينوي أن يقصر لقاءها على جلسة في العربة ؟ ثم كيف
يستطيع لقاءها .. وعطلته .. إذا أخذ عطلة .. يومى الخميس والجمعة وعطلتها

يومى السبت والأحد ؟ وإذا عرضت عليه الذهاب إلى السينا كما قالت اليوم ماذا يفعل ؟ أيستطيع أن يذهب ؟ أيمكنه نصف الريال الذى يمنحه إياه أبوه — وهو يعرف كيف يمنحه إياه — والذى يصرف نصفه فى المواصلات .. أيمكنه الشلن الباقى من الذهاب معها ؟! أيمكنه الشلن من دعوتها ؟! أم تراه سيسألها أن تدفع له ؟

كان فيما مضى يستطيع أن يدعوها فى أوهاما كما يشاء .. كانت الأوهام لا تكلفه إلا مجرد التفكير .

أما الآن .. وبعد أن تحققت الأوهام .. فقد أضحت المشكلة عويصة حتى لقد بات يتمنى لو عادت أوهاماً كما كانت ، أو .. لو وقع عليه الباشجاويش الحبس .. فأنقذه من الورطة التى يوشك أن يزج بنفسه فيها .

ولكن الحنين إلى رؤيتها جعل فكرة الحبس تبدو بغيضة إلى نفسه .. وإلى متى ؟! أتراه سيمحبس كل جمعة .. فراراً منها .. ومن عجزه عن الذهاب معها إلى السينا ؟

لو عرفت هى أن لقاءهما فى السينا لم يهيئه إلا الخمسون قرشاً الباقية من مصروفات حسين من رحلة الإسكندرية .. لجنته دعوتها ، ولا كتفت بلقاء بسيط فى الحديقة .

ولكن إلى متى يمكن أن يستمر لقاء الحديقة سهلاً ، ميسوراً . أسيتركه علاء ؟! ألن يشعر به الأمير ؟! ألن يهس به أحد العمال أو الفلاحين ؟ وأهل القرية ؟!

إن هذه الأشياء لا تخفى كثيراً عن الأعين الريفية الفضولية .. والطمس بها لا يمكن أن تصمت عنه ألسنتهم الثرثرة .. وإن بلغ مسامع الأمير .. فهل يأمن بعد هذا على رزق أبيه ؟

أف .. إن رأسه يكاد ينفجر !

ولكن ماله يرهق ذهنه بكل تلك المخاوف ؟! ألا يكفيه أن أحلام الدجى ،

وأمانى الخيال .. قد تحققت كأقوى ما يكون التحقق ؟! ألا يكفيه أنها تحبه ؟!
أجل .. أجل .. إنها تحبه .. إنها تفكر فيه .. إنها تدعوه .. ويحه من غيبى
أحمق !!

ووجد نفسه يقفز من طرف فراشه فى فرح وقذف بجذائه فى العين السمل
المخصصة للأحذية من الدولاب .. ثم علق بدلتة ومدّ يده فى الدرج العلوى الأيمن
المخصص لحاجيات الطالب الخاصة غير المصرفية الأميرية والذى يوضع فيه المشط
والفرشاة وعدة الحلاقة ، وأخذ يتحسس أوراق وردة حافة ذابطة ، ويدندن
بأغنيته المحبوبة :

ردت الروحُ على المضى معك أحسنُ الأيام يسومُ أرجسك
ثم اندفع بين رفاقه ضاحكاً لاهياً .

ومرت أيام الأسبوع بعد ذلك سريعة متوالية .. مشحونة بكل ما يمكن من
أنواع الإرهاق والعمل الذى يمسك بتلابيبهم فلا يدع لهم فرصة راحة ولا
تفكير ، وإن كانت « الطوابير » قد خفت بعد أن انتهت مدة المستجدين ،
والأجساد قد أضحت أكثر تحملاً من فرط ما تعودت الإرهاق ، والنفوس أشد
صبراً على الأذى والجزاء من طول ما مارسته حتى بات الجزاء عندها من لوازم
العمل .

وانقضى الأسبوع الأول .. وجلس « على » وصاحبة سليمان فى مكانهما
المعتاد فى مدرج الكرة ، ونعم « على » يا جترار الذكري وسرد تفاصيلها على
سليمان ، واستمع سليمان إلى حديث صاحبه كما تعود دائماً أن يستمع إليه
منسوراً بسروره سعيداً بسعادته ، ولكن بعض الحديث رسب فى ذهنه فعكر
صفوه ووجد نفسه يعمق بتفكيره فيه ويلتقطه ليصله بتفكيره الخاص ويربطه
بموضوعه الذى يشغل ذهنه .. فلا يكاد « على » ينتهى من حديثه حتى يلفظ من
صدره تنهيدة حارة ويقول فى صوت عميق :

... تلك هى العلة يا على .. لقد عرف أخوها كيف يشخصها ، ووضعنا

حيث نحن كائنون .. لا كما تضعنا الألفاظ البراقة التي نتشدد بها وتعمى بها عيوننا عن الحقيقة المرة .. « أحرار في بلادنا .. كرماء لضيوفنا » .. ونحن عبيد في بلادنا أذلاء لضيوفنا .. نحن عبيد للإنجليز وللأمراء وللحكام وللإقطاعيين .. ولنا حدود يجب ألا نتعدها .. والملابس لا تمنحنا حدوداً أوسع .. ونحن للأسف لا نفعل أكثر من أن نغير ملابسنا .. ونظل كما نحن بنفوس العبيد .. أشياء كثيرة في هذا البلد يجب أن تتغير .. حتى تضحي بلادنا لأهلها .. لا للإنجليز والأتراك ، ومن دار في فلکهم .. لا بد أن تتغير نفوسنا .

وصمت سليمان وقال « على » معقياً على قوله :

— إن الزمن كفيل بتغييرها .

— الزمن لا يكفي .. مفعول الزمن بطيء وغير مضمون . لا بد من الجهاد

الشاق والكفاح المرير .

ولم يفهم « على » ما يقصد سليمان بألفاظه المبهمة الواسعة غير المحدودة . وتركها تمر عابرة كما كان يمر به بقية أحاديث سليمان عن الاستعمار ، والاستعباد ، والكفاح ، والظلم والطغيان ، وغير ذلك من الألفاظ التي كان « على » لا يجد فيها أكثر من ألفاظ جوفاء يستعملها قادة المظاهرات والخطباء دون أن تقصد شيئاً أو تؤدي إلى شيء .

ومر أسبوع آخر .. وفي يوم الخميس خرج « على » مع بقية الطلبة دون أن تحول البندقيّة بينه وبين الخروج .. رغم أنه تمنى في كثير من اللحظات أن تنقذه من مواعده في الحديقة ومن ورطة السينما التي يوشك أن يزج بنفسه دون أن يعرف لها حلاً .

وعاد إلى البيت وهو يطبق على نصف الريال المتبقى من مصروف الجمعة السابقة وكان يأمل أن يكون حسين ما زال يحتفظ ببقية من النقود ليعتمد عليها في ورطته .. ولكن أمله شعاب عندما علم من أبيه أن حسيناً لن يخرج هذا الأسبوع لأنه نوبتجي .

وفي الرابعة والنصف كان « على » يدلف من الباب الخلفى ويتجول قرب السوبة كأنه يشاهد الزهور ، وقد أحس أن على كثفيه عبثاً ثاقلاً كلما اقترب الموعد حتى بات يتمنى لو استطاع العدو .. أو عاق « أنجى » عن الحضور عائق .

ولكن « أنجى » أقبلت بعد هنيئة وقد بدت عليها العجلة وكان أول ما قالته :

— لن أستطيع البقاء لأن أنجى ينتظرنى للنزول إلى البلد ، لقد قطعت أربع تذاكر حتى نضمن الجلوس متجاورين .. نخذ هاتين التذكرتين لك ولحسين ، وسأحتفظ بالتذكرتين الآخرين لى ولهلاء .. وسيبدو تجاورنا كأنه محض مصادفة .. سنكمل الحديث فى السينا .

وقبل أن يجيب عليها بكلمة واحدة عادت بسرعة من حيث أتت .. بعد أن دست التذكرتين فى كفه .

ووقف يرقبها وهى تتباعد بسرعة . وتحس التذكرتين فى دهشة .. وأحس « على » بالعصب ينزاح عن كاهله .

(١٩)

تدبير مفاجيء

يبدو أن القدر أصابته نوبة كرم طارئة ذلك الأسبوع. فهو لم يكتف بتدبير تذاكر السيما فحسب بل تطوع بتدبير لقاء لم يكن « على » يحلم به .
ذهب « على » إلى السيما يحمل التذكرتين اللتين قذفت بهما إليه « أنجى » في لقاءهما العاجل .

وجلس في مقعده وبنفسه بعض الأسف لأن « حسين » حرم من التذكرة التي في جيبه وتمنى لو استطاع أن يذهب إليه ليخرجه ويحضره معه .
وأطفئ النور دون أن تحضر « أنجى » ولم يحاول « على » أن ينظر إلى الشاشة ، بل أخذ يرقب كل شبح من المقبلين في الظلمة محاولاً أن يتبين « أنجى » وأخاها ، حتى أبصر شبحاً يقترب من الصفوف استطاع أن يميز فيه « أنجى » وحدها وسمعها تهمس في أذنه وهي تشد على يده :

— اتأخرت عليك ؟ لقد عطلسى علاء .. انتظرني مدة طويلة ثم أرسل لي السائق يقول لي إنه لن يأتي لأنه مدعو إلى سهرة في نادى الصيد .
وأحس « على » أن قلبه يوشك أن يقفز بين حناياه .. أيمكن أن يكون هذا واقعياً ؟ أحقيقة أنهما سيجلسان وحدهما طوال مدة العرض ؟

وتلفت « أنجى » بحذر وقالت مستدركة كأنما قد نسيت أمراً :

— أين حسين ؟ إنى لم أسلم عليه !

— إنه لن يأتي .. لأنه في المدرسة .

— أحقاً ؟

وخرجت كلمة « حقاً » من شفيتها تتأرجح بين الأسف الظاهر والغبطة

الخفية .. وكأن لسان حالها يقول :

«أحقاً سنجلس سوياً هذه المرة دون أن يشاركننا في خلوتنا ثالث ؟»

كأنما قد نسيت كل هؤلاء الخلق الجالسين حولهما في مقاعدهم .

وانتهى الفيلم .. انتهى هكذا في غمضة عين .. ولم ير الاثنان منه صورة .. ولم يسمعا منه صوتاً .. لقد ركزا كل حواسهما في أصابعها المتشابكة المختفية تحت معطف « أنجي » الذي بسطته على ساقها واستقر طرفه على ساقه .

وعاد الاثنان إلى العزبة .. وبنفسيهما من النشوة والإحساس بالتقارب والتلاصق والاندماج ما جعلهما يشعران أنهما شريكان في حياة واحدة .. وأن ذهابهما إلى السينما وحدهما وعودتهما إلى العزبة أمر طبيعي من الواجب حدوثه .. وأن الشيء غير الطبيعي هو حدوث الفرقة بينهما .. وأن يكون كل منهما في ناحية .

وافترقا أخيراً ، إلى لقاء ، وبنفس كل منهما إحساس بحقه على الآخر وواجبه نحوه ، حق مسلم به ، وواجب لا مفر منه .

وعاد « على » إلى المدرسة في هذه المرة .. دون أن يستبد به القلق من المصير .. والخشية من النهاية .. لقد منحته ثقة كبرى ، منحته ثقة غير مباشرة ، من مجرد طريقتها في الحديث إليه ، ومن تسليمها جدلاً ، بأن كلا منهما أصبح للآخر .

كان ما يشغله هذه المرة شيئاً آخر غير مصير حبه .. شيئاً آخر .. استطاع أن يدركه من ملامح أبيه ومن فلتات لسان أمه .. وهو القسط الثاني من المصروفات المدرسية الذي قارب مواعده على الحلول .

لقد صرف أبوه الكثير على البيت حتى يجعله يبدو بالمظهر اللائق به وبأخيه .. وغلبت رغبته في إرضائهما وفرحته بهما حرصه على التقدير الواجب لتدبير المال ، وهو رجل شديد الإيمان بالله ، شديد الثقة به ، يعتقد اعتقاداً جازماً أن الله لا يخذله ما دام يفعل ما يرضيه .

ويبدو أنه كان يأمل في مكافأة سنوية تعود أن يهبها له الأمير آخر كل عام ليستعين بها على تكملة القسط ، ولكن حال الأمير هذا العام لا ينبئ بخير وثورته الدائمة على الفلاحين وشكواه من خفض الإيجارات ومن محاولتهم نهبه وسلبه لا تبشر بأنه ينوى أن يمنح شيئاً .

ولم يبق أمامه للتسديد غير الفدانين .. وبيع الفدانين في هذا الوقت الذى هبطت فيه قيمة الأرض يعتبر جنوناً .

هذا هو ما استطاع أن يدركه من مظاهر الضيق والقلق البادية على أبيه .. ومن الأحاديث العابرة التى يفرج بها عن نفسه بين حين وآخر .

وانتقل الضيق من الأب إلى الابن ، بل كان ضيق الابن مضاعفاً .. فهو ضيق من أجل أبيه الذى كان ينزله من نفسه منزلة عليا ، وضيق بالمشكلة نفسها وبما يمكن أن يعقبها من ضياع مستقبل أو لجوء إلى قرض أو من فضيحة السؤال أو .. أو .. إلى آخر كل ما يمكن أن يقوده إليه ذهنه من النتائج السيئة والخاتمات الشقية .. التى كان يربض وراءها كلها .. شبح « أنجى » والخوف من فقدانها . وكان المفروض أن يخرج في الأسبوع التالى . وكان الأمل فى لقاء « أنجى » يضيع الكثير من مرارة الخوف والقلق .. ولكن الطالب الذى كان عليه الدور فى نوبتجية العنبر دخل المستشفى وكان هو التوبتجى المنتظر ، فاضطر إلى البقاء . وزاره « حسين » فى يوم الجمعة .. وأكد له فى حديثه ما تبينه من إحساس أبيه بالضيق والأزمة .

وزاده هذا ، بالإضافة إلى الضيق الذى يسببه بقاؤه فى المدرسة ، وتخليه عن موعد « أنجى » ، إحساساً بالحزن ، ومرّ الأسبوع التالى وهو يشعر بحمل من اليأس يجثم على نفسه ، وهو يحاول سدى أن يجد حلاً لأزمة أبيه .

إن كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يبدل أقصى جهده فى الدروس والطواير عسى أن يفوز بترتيب متقدم يمنحه مجانية التفوق ويوفر على أبيه المصروفات . ولكن حتى هذا لو فاز به — رغم أنه يجذبه أمراً عسيراً وهو يرى نفسه فى

المدرسة بلا ميزة واضحة ولا كفاية ظاهرة أمام الضباط وصف الضباط — حتى هذه الأمنية لن تتحقق إلا في نهاية العام .. وعندما يعقد امتحان الانتقال من القسم الإعدادى إلى القسم المتوسط ، والقسط مطلوب سداده في آخر هذا الشهر .

وأقبل يوم الأربعاء ، وعاد « على » من طابور الألعاب منهوك الجسد ، مخدوش الركبة ، عقب إحدى محاولات القفز العالى ، ووقف أمام الدولاب يخلع ملابس الألعاب البيضاء ليستبدل بها ملابس الطابور الكاكية استعداداً لطابور الهتاف .

وقذف بالقبعة النيل البيضاء المتهدلة أطرافها على أذنيه .. ثم بالجزام الأبيض العريض داخل الدولاب .. وجلس على حرف الفراش في حذر خشية أن يتلف ترتيب الملاءات والبساطين .. وأخذ يخلع الحذاء الأبيض الخفيف ويرتدى الحذاء الأسود الثقيل ويربط فوقه « القالشين » .

وكان يشعر لأول مرة خلال الأسبوعين الماضيين — أن عبء المعلوم الذى أثقل كاهله قد أخذ يخف .. وغيوم الضيق قد أخذت تنقشع بمجرد الإحساس باقتراب يوم الخميس ، وأن متاعب الأسبوع أوشكت على الانتهاء وأنه بعد وقت قصير ستبدأ حصص المذاكرة (أو حصص نور — كما كانت تسمى) وتبدأ معها تراخيص الفسحة أو تراخيص الحرية وجوازات المرور من الجحيم إلى الجنة .

وانتهى من ربط إحدى فردتى القالشين ، والشبح الجميل يطوف بذهنه طوافاً خفيفاً عابراً ، مسلطاً عليه أبهى الأضواء ، مفرداً أعذب الألحان ، محاولاً أن ينتشله من وهدة الكتابة والقلق التى ألقاه فيها طوال الأسبوعين الماضيين إحساسه بأزمة أبيه وعجزه عن دفع القسط .

وهكذا عاونه الإحساس بقرب الخروج وأمل اللقاء على تبديد كآبة اليأس والهم .. ووجد نفسه يربط فردة القالشين الأخرى بشدة وعزم ثم ينهض ليخلع القميص الأبيض وكأنه يخلع عنه همومه وأحزانه ويهتف بنفسه : « دعها لله

يدبرها كيف شاء » .

وفجأة ، وقبل أن يضع الجاكتة على جسده .. انطلق صوت البروجى يدوى .. وذهل « على » .. ونظر إلى الساعة في يده فوجدها ما زالت الخامسة وخمس دقائق .. وموعد نوبة طابور التمام والعتاف هو الخامسة والنصف .. وهز الساعة وأدار مسمار الملء لعلها واقفة .. ونظر إلى بقية الرفاق فوجدهم ما زالوا يتسكعون في ارتداء ملابسهم وقد بدت عليهم الدهشة واندفع الأمباشى « بكر » بالفانلة والسروال إلى الطريق مطالاً برأسه .. فوجد البروجى « حبلص » قد وقف بالبنطلون والفانلة .. وأخذ ينفخ في البروجى وقد احمر وجهه وانتفخت أوداجه .

وصاح الأمباشى « بكر » بالبروجى :

— حبلص .. ما هذا ؟! أجننت ؟ .. مازال باقياً على التمام نصف ساعة ؟
ولكن « حبلص » استمر في النفخ .. وانطلقت نوبة الجمع تتجاوب أصداؤها في أنحاء المدرسة محدثة بانطلاقها المفاجئ نوبة من الذعر والدهشة .. واندفع الطلبة من الحمامات .. والعنابر .. والطرقات .. أشباه عرايا متسائلين عما حدث .

وقبل أن ينتهى البروجى من نوبته .. اندفع أركان حرب المدرسة من الطرقة السفلى إلى الفناء ورفع عقيرته بالصياح :

— باشجاويش .. اجمع الطلبة .. كما هم .. عندك في الطرقة .

واندفع الباشجاويش يردد صيحة أركان الحرب :

— اجمع الطلبة .. كما هم .. بسرعة .

وسرى الصدى إلى بقية صف الضباط وفي لمح البرق ترددت الصيحة في أنحاء المدرسة :

— اجمع الطلبة .

وفي غمضة عين كانت المدرسة قد اصطفت طابوراً عجيباً في الطريقة العليا ، وقد ظهر الطلبة بتشكيلة عجيبة من الملابس والمناظر ، وقد أمسكوا بالفوط وقطع الصابون في أيديهم .

وأخذ الجاويش تماماً من أومباشية الأصناف عن أصنافهم ، وترددت في الطرقات الصيحات التقليدية للتمامات ثم انتقلت التمامات من الجاويشية إلى الجاويش النوبتجي :

— تمام واحد ؟

— تمام يا فندم .

— تمام اثنين ؟

— تمام يا فندم واحد شفخانة وواحد معاف .

وصاح الباشجاويش :

— المعاف يحضر . إنه معاف من الطوابير والألعاب . وهذا ليس طابوراً أو ألعاباً .

— حاضر يا فندم .

وفي تلك اللحظة سمعت أصوات أقدام مساعدة على السلم المؤدى من أسفل إلى الطريقة العليا .. واستطاع الطلبة أن يميزوا بطرف أعينهم أشخاص القادمين فازداد ذهولهم ، إذ تبينوا في مقدمتهم كبير المعلمين الإنجليزي ، العلويل القامة ، الضيق الكتفين ، الضخم الأنف ، وقد ارتدى طربوشه الغامق على وجهه الأحمر ، وسار محرّكاً عصاه القصيرة بين أصابعه ، ووراءه أركان حارب المدرسة بجسده الضخم ، ووجهه الأحمر ، والزبد الأبيض على طرفي شفتيه ، ولفيف من ضباط المدرسة يتبعونه في شبه طابور .

وصاح الباشجاويش وهو يرى الركب يتقدم نحوه :

— مدرسة .

ثم انتظر حتى اقترب الركب وأطلق نداءه (انتباه) ممدود المقطع الأول ،
مخطوف الثاني :

— انت ... باه .

وفي طريقة واحدة ضمت الأعقاب إلى بعضها ، ووقف الطابور كأنه صف
أصنام .

وتقدم الباشجاويش إلى كبير المعلمين فرفع يده بشدة عجياً ، واهتزت أطراف
أصابعه برهة من شدة التحية كأنها خيزران يلب ، ثم ما لبثت سبابته أن استقرت
على حاجبيه وصاح :

— تمام يا فندم المدرسة .

ورفع الإنجليزى عصاه مشيراً بها إلى جبينه ، مجيئاً تحية الباشجاويش ثم قال
له :

— صفا .

ونادى الباشجاويش :

— مدرسة .. صفا .

ونقل الطلبة أقدامهم اليسرى نقلة بسيطة واستمروا في أماكنهم كالأوتاد
وأذهانهم حائرة ونفوسهم مشدوهة وقلوبهم واجفة ، فما كان واحد منهم يمكن
أن يتوقع خيراً من الإنجليزى الرهيب .

وبدأ الرجل حديثه قائلاً بعربية ركيكة مستعیناً بإشارات من عصاه يلوح بها في
الهواء :

— اسمع الطلبة .. فيه كلام إنه ينكن (قاصداً يمكن واضعاً النون بدل الميم)

.. ينكن (وأخذ يكررها بضع مرات) يعنى ليس شيئاً مؤكداً بل مجرد احتمال ..
أن يكون هناك ترقية .. قبل آخر السنة .. أعنى أن القسم النهائى يتخرج
ضابطاً .. قبل موعده .. وجزءاً من القسم المتوسط يحل محل النهائى ، لكى يخرج
آخر السنة ، وجزءاً من الإعدادى ينتقل إلى المتوسط ، بدل المتوسط

الذى ذهب إلى النهائى .. لذلك سيجرى امتحان يوم السبت القادم .. وأمامكم من الآن فرصة للمذاكرة .. شدّوا حيلكم .

ثم رفع عصاه إلى جبينه محيياً وصاح الباشجاويش :
— مدرسة .. انتباه .

وقبل أن ينصرف أركان الحرب قال للباشجاويش :

— انصرف يا باشجاويش بدون ضجة .. اتمام فى موعده .. وكل شىء فى موعده .. وستعلن باكر مواعيد الامتحانات فى لوحة الإعلانات .

وتباعد الركب فى طريقه إلى العودة هابطاً السلم إلى أسفل وصاح الباشجاويش :

— مدرسة .. صفا .

وكان الانصراف بلا ضجة أمراً عسيراً ، بل مستحيل ، بعد هذه القنبلة التى ألقتها كبير المعلمين ببساطة .. وعاد إلى قواعده كأنه لم يفعل شيئاً .. ولم يكذب الباشجاويش ينادى صفا . حتى سرت مهمة جعلت الطابور أشبه بخلية النحل مما حدا بأركان الحرب أن يلتفت خلفه ويصيح منذراً :

— باشجاويش .

ومما حدا بالباشجاويش ، أن يصيح بدوره فى الطلبة :

— وبعدين .. يا غجر .

ولكن المهمة استمرت ، فقد كان النبأ أكبر من أن تحتملة أعصاب الطلبة .. وكان من العسير التحكم فيهم والسيطرة على الضبط والربط بينهم ، ولم يجد الباشجاويش بداً من أن يسرع بصرفهم صائحاً :

— مدرسة .. انتباه .. مدرسة .. انصرف .. لا أريد أن أسمع صوتاً أو

ضجة .. اتمام فى موعده .. وكل أومياشى مسئول عن صفه .

واندفع الطلبة كالمجانين لا يدرون ماذا يفعلون .

أمعقول هذا؟! هذه المدرسة التي جرت عاداتها على أن تخرج طلبتها بالقطارة ، وبنظام ومواعيد و « روتين » تجري امتحاناً بعد غد !
وكان أول من فقد السيطرة على نفسه هم صف الضباط المفروض فيهم أن يحافظوا على نظام الطلبة .. فقد رأوا أنهم سيصبحون ضباطاً في غمضة عين .. وينطلقون بعد بضعة أيام من سجن المدرسة .

واندفعوا يحتضنون بعضهم البعض وانهالت التعليقات من أفواه الطلبة الآخرين ، وأخذ معظمهم يضربون كفاً بكف وصاح أحدهم في ذهول :
— امتحان يوم السبت .. ومن الذي يستطيع أن يستذكر كل هذه الدروس في يومين ؟

— الكل في الهوى سوى .. سيكون الامتحان .. اختباراً للذكاء .. لا .. للاستدكار .

وسار « على » في صمت ووجوم وذهول .. دون أن ينبس ببنت شفة .
عجباً هذا القدر !! أيمن أن يكون الله قد نوى تدبير أمره بهذه السرعة وبهذه الكيفية ، لقد ألقى هو العبء عليه وهو يرتدى ملابسه عندما طافت « أنجي » برأسه وبددت قلقه وخشيته فهتف لنفسه من أعماق قلبه .. « دعها الله يدبرها كيف شاء ! » .

وعندما قال هذا ، لم يكن يدرى كيف يمكن أن يدبرها الله .. ولكنه قالها محوً لا العبء الذي أثقل على نفسه .. إلى قوى قدير رحيم بعباده .. لقد ترك المشكلة إلى الله .. لا بأمل تدبيرها فعلاً ، بل بأمل إبعادها عن نفسه .. وإلقاء همومها ، حتى لا تعكر صفوها عندما يلتقى بأنجي .

ولكن القدر يبدو وكأنه كان ينتظر دعوته ليستجيب له ويدبر أمره .
إن الامتحان بعد غد ! وسينقلون العشرة الأوائل إلى المتوسط بدل العشرة الذين سيعملون محل النهاب المتخرج .. وهكذا أتاحت له فرصة القرب من

امتحان يمكن أن يجرب فيه قدرته ، ويحصل على مجانية تفرق توفر على أيه مصروفاته وتجنبه حاجته ، وهي بعد ذلك ستوفر له عاماً من عمره .. وتقرّب له أمله المرموق اثنى عشر شهراً .

ولكن هل سيهيء له الله النجاح ؟ أم ترى المسألة لا تزيد على برق خلب لا يلبث أن يخبو ؟

على أية حال لقد سنحت الفرصة ، وعليه أن يذل جهده ، والامتحان بهذه الطريقة العاجلة ، هو أفضل طرق الامتحان بالنسبة له ، فهو دائم الفوز في الامتحانات المفاجئة الخاطفة التي لا يطول التحضير لها . وكلما طالت مدة الاستذكار كلما قلت فرصته ، فهو شرود الذهن يضيق بكثرة الاستذكار ويعمل طول الانكباب على الكتب ، فإذا تساوى الجميع في قلة الاستذكار والتحضير ، أصبح الذكاء وصفاء الذهن هما العاملان الحاسمان في نتيجة الامتحان ، وهما سلاحان يعتبرهما من أمضى أسلحته .

وانتهى طابور المتناف ، ودخلت كل فرقة فصلها .. وما زالت المدرسة كخلية النحل .. وطلبة القسم النهائي يكاد يكون سيرهم رقصاً ، وحديثهم غناء وصفيراً .

وجلس « على » على مقعده في الاتصال وذهنه ينطلق في شروده لا يستطيع أن يسيطر عليه لاستعماله في الحركة الجديدة التي يوشك أن يخوضها .

وبداً حكمدار الفرقة يوزع الترخيصات التي انهمك الطلبة في كتابتها وأمسك « على » بالتريخيص وارتسمت على صفحته البيضاء صورة حبيبة إلى قلبه ، ذهبية الشهر ، وضاعة القسمات ، وحلوة البسمات ، وأحس بالحنين إليها .. وبدأ بكتابة اسمه محاولاً إقناع نفسه أنه يستطيع أن يأخذ الكتب ، للاستذكار في البيت .. على أن يكتفى بلقاء « أنجي » بضع دقائق في الحديقة يطفئ فيها ذلك الحنين المستعمر في حناياه ، ثم ينبئها بأن لديه امتحاناً وأنه لا بد (رد قلبى — ج ١)

أن يعود للاستذكار . .
وانتهى من كتابة الترخيص ثم أحس بوجه آخر يحل محل الوجه الأول ، وجه
مغضن لا ذهبي الشعر ولا حلو البسمات قد أحاط به الشال الأصفر وارتسمت
عليه ملامح ضيق حاول جهده أن يضيعها بإيمانه وصبره .
وخيل إليه أن الوجه يوشك أن يريق ماء مرة أخرى فأمسك بالترخيص
ومزقه ، وتمم بشفتيه بضع كلمات كأنما يعتذر « لأنجى » المنتظرة العاتبة ، ولقلبه
المتشوق اللائم .

(٢٠)

طريق شائك

بدأت فترة الامتحان ، وكان « على » يحس أنها فترة جهاد شاق عنيف لا بد له أن يجتازها ، فأبعد عن ذهنه كل عوامل الشرود ومسببات الترفيه ، وجرده من أوهامه الجميلة وأحلامه الميسورة .. وانطلق يعدو بكل ما يملك من قوة وجهاد في صحراء جرداء من الطساوير والمحاضرات وامتحانات التكتيك .. والطبوغرافيا .. وهندسة الميدان .. والتاريخ العسكري .

ولم يخرج في الجمعة التالية فقد كانت الامتحانات لم تنته بعد .. وكان قد عزم على ألا يمنح نفسه فترة استرخاء أو استجمام حتى ينتهي الامتحان ، وأن يستمر في حرمان نفسه وصوم قلبه وفطام ذهنه حتى تمر فترة الجهاد .

وكان حسين قد زاره مستفسراً عن سبب غيبته منبأ إياه أن « أنجي » سألت عليه في الأسبوع الماضي .. ناقلاً إليه شوق أمه وأبيه ، وفي الأسبوع التالي تقرر سفر المدرسة إلى منقباد لعمل المناورة . ولإتمام بقية الامتحانات العملية للمشاة والتكتيك والطبوغرافيا ، وبدأ الاستعداد للرحيل .. وتسلم الطلبة مهمات المناورة من مخلاة لوضع الملابس ومشمعات للنوم .. ومعاطف كأكية .. وزنطاط (طراير تلصق بياقة المعطف) . وأخذوا يفرمون أمتعتهم استعداداً للرحيل يوم السبت .. عقب أن يعود الطلبة من إجازاتهم الأسبوعية .

وحل يوم الخميس وكان قد مضى على « على » شهر من الصوم ، وأحس أن سفره إلى المناورة سيلقى به إلى شهر آخر من الحرمان .. وأنه إن لم يتزود هذا الأسبوع بما يقيم أوده من اللقاء الجميل والذكرى الممتعة فقد جلدته وأضاع صبره . وارتدى ثياب الفسحة وملأ قلبه الحنين وملأ نفسه الشوق .. وذهب إلى

الدار ، فالتقى بأبيه ، وأمه ، وأخيه .. وأمسكت به أمه تعلفه كما تعلف الماشية ،
وتزغطة كما تزغط الأوز .. وعندما انتهت من مهمتها الكبرى ، أقبل عليه أبوه
متضاحكا وسأله :

— أو حششتا يا « على » .. لماذا كل هذه الغيبة ؟

— كنت في حاجة إلى كل دقيقة للاستذكار .. وخشيت أن أضيع الوقت في
الذهاب والإياب .

— لقد كنا في أشد الشوق إلى رؤيتك .. وكان الذهاب والإياب فرصة تريخ
نفسك فيها من عناء المذاكرة .

— فرص الراحة كثيرة يا ألى .. ولكن فرصة قفز سنتين في سنة نادرة .. كان
يجب أن أبذل فيها كل جهدي .

— غوّضك الله عن جهدك خيراً .. وأثابك عن تعبك بالنجاح .

— أرجو هذا يا ألى ، ولو أن النجاح لا يكفى .

— كيف ؟

— المهم هو الترتيب .. إن الذين سينقلون هم العشرة الأوئل ولو نجحت
وكان ترتيبى الحادى عشر لما انتقلت ، وهذا هو ما يقلقنى .

— يقلقك لماذا ؟ ألم تبذل كل جهدك ؟

— أجل .

— ألم ترض ضميرك ؟

— أجل .

— إذن دعها لله ، ونحن لا نستطيع أن نفعل أكثر من بذل الجهد وإرضاء
الضمير .. أما النتيجة فعلى الله تدبيرها ، وكل تدبير من عنده مشكور محمود .

وانتهت فترة التحيات وتبادل الأشواق ، وبدأ « على » يحس بالقلق ، وود لو
استطاع أن يثب من بينهم ويعدو إلى القصر ليضم « أنجى » إلى أحضانه ، وكان
يشعر من فرط جنينه أن هذا هو العمل الطبيعى والواجب عمله بعد طول غيبة

وصوم وحرمات .

وانسحب « علي » وأخوه إلى حجرتيها ، وكان السرير الحديدي القديم قد استبدل به سريران صغيران ، والحصير قد حلت محله سجادة أضفت على الحجرة بعض الرونق .

وأحس « علي » بالحاجة إلى معونة « حسين » ، وود لو استطاع أن يعرف منه معلومات عن « أنجي » أو يصطحبه إلى حديقة القصر ، ولكنه وجدته قد بدأ في خلع ملابسها إيداناً بالاستقرار في البيت وهو الذي لا يستقر فيه أبداً . فسأله في دهشة :

— ماذا تفعل ؟

— كما ترى !

وضحك « علي » وتدارك سؤاله :

— أقصد لماذا تخلع ملابسك ؟

— لأنام .

— تنام ؟ الآن ! .. أنت ؟ !

— أجل .. سأنام .

— ولكن لا يبدو عليك المرض !

— إني لست مريضاً .

— لماذا إذن ستنام ؟

واقترب حسين بشفتيه من أذن « علي » وهمس :

— لأنني سأسهر .

— ستسهر ؟ ماذا تعني ؟ . أستاذي إلى السينة ؟

— سينا ؟ ياغبى .. أهذا سهر ؟ سأسهر عند « سنية » .

— سنية من ؟

— سنية الضباطي .

— من تكون ؟ لم أسمع عنها من قبل .
— لا ضرورة لأن تكون قد سمعت عنها من قبل ، هذا لا يضرها كثيراً ، لقد
سهرت عندها في الأسبوع الماضي عندما كنت محبوساً مع تيم الكرة لأننا هزمنا في
مباراة الزراعة .

— وكيف خرجت وأنت محبوس ؟
— بعد أن نام الضابط النوبتجى ارتدينا ملابس الفسحة ووضعنا المخدّات في
السرير وفردنا عليها البطاطين حتى لا يكشف أمرنا عندما يقوم الضابط
النوبتجى بالمرور ليلاً ، ثم خرجنا من البوابة الغربية ، وكان معنا الشاويش
« رزق » كابتن التيم ، وهو صديق حميم للشاويش النوبتجى .
— أنت مجنون ؟! هذه مغامرة خطيرة .. كان يمكن أن « تُفصل » فيها لو
ضبطت .

— الحمد لله .. لقد مرّت على خير .. على أية حال .. الليلة كانت تستحق
المغامرة .. لا تتصور أية ليلة قضيناها ولا كيف استمتعنا بها .. لقد رحبت
« سنية » بنا جداً .. إنها تغوى الضباط .. ولا عيب الكرة .. فتصور كيف تلقى
لاعبي الكرة الضباط في الوقت نفسه .. لقد بيتنا هناك .. كأنا في بيتنا .. ولديها
نساء مدهشات .. ولكنني شبكت مع « سنية » نفسها .. لقد استلطفتنى من
أول نظرة .. ولم تعجبني في أول الأمر .. فقد بدت لي سمينة وكبيرة .. ولكن
بعد فترة قصيرة وجدتها لطيفة جداً وفي النوم وجدتها هائلة ، وهي متساحمة جداً
ولقد عرضت عليّ أية امرأة تعجبني .

وكان « حسين » يتحدث في صوت خفيض ، وقد أتم خلع ملابسه و
« على » ينظر إليه وقد بدت في عينيه أقصى أمارات الدهشة والذهول وأمسك
بذراعي أخيه وهزه وقال مستكراً :

— ما هذا يا حسين ؟! كيف تجسر على ما فعلت ؟! إنه أمر خطير جداً .. إن
هذا الطريق الذي تسير فيه سيسىء إلى مستقبلك وإلى سمعتك وسيسبىء إلى

صحتك أيضاً .. ثم النقود من أين لك النقود التى تمكنك من كل هذا ؟
— نقود ؟ أية نقود ؟! إني لم أدفع مليماً واحداً .. لقد كنت أشبه بصاحب بيت .. والمسألة ليست بهذه الخطورة التى تتوهمها .. لقد قضيت بضع ساعات فى جو لطيف مرح .. مع نساء جميلات .. بلا نقود .. أية خطورة فى هذا ؟!
— والهروب من المدرسة ؟

— لن يتكرر .. سأقصر ذهابى على أيام الفصح .

— وماذا تقول لأبيك عن السهر ؟

— سأقول إنه ليس لى إجازة سوى الخميس وأنى سأبيت فى المدرسة .

— وفى الأسبوع القادم ؟

— لن آتى الخميس .. وسأخبره أنى لم أخرج إلا الجمعة .

— والذى بعده ؟

— يحلها ربنا .

— ولم يبد الإقتناع على وجه « على » واستمرت علامات القلق بادبة على وجهه وظهر عليه الشرود .

وسأله حسين وهو يحجر الغطاء على جسده :

— مالك يا على ؟

— لا شىء يا حسين .. إنى قلق عليك من هذا الطريق الذى تندفع إليه .. هذا جنون .

— لِمَ تقلق يا «على»؟ إنك ما زالت على نياتك! نحن قد أضحينا رجالاً وهذا هو ما يفعله الرجال . لا بد أن نمتع أنفسنا .

— نستطيع أن نمتع أنفسنا ، ولكن بغير هذا السبيل الشائك الوعر .

— شائك ؟! وعمر ؟! أنت موهوم منه جداً .. لو أتيت معى ليلة ، لعرفت أن

المسألة أبسط مما تتصور .. ستجد نفسك جالساً فى بيت ، بيت عادى جداً .

مريح جداً . وستجد حولك نساء ضاحكات ، وزملاء مرحين .. وستجد

عندك الحرية أن تفعل ما تشاء وقتما تشاء .

وصمت برهة وهو يحدق في وجه أخيه الشارد .. ثم أردف قائلاً :

— ما رأيك يا « علي » لو أتيت معي الليلة ؟ أؤكد لك أنك ستسمر جداً
وستجد المسألة أيسر كثيراً مما تتصور ، وستبدد كل أو هاملك عنها ، وأؤكد لك
أن « سنية » سترحب بك جداً . لقد حدثتها عنك ، ووصفتك لها .. وسألتني
أن أحضر لك معي مرة ، ما رأيك يا « علي » ؟

ورفع « علي » وجهه ورمقه بنظرة استنكار قائلاً :

— رأيي في ماذا أيها الأحمق الإنى لن أذهب إلى تلك الأماكن أبداً . إن نفسي
تشمئز من مجرد تصورها .

وضحك « حسين » وقال متسائلاً :

— تصور ماذا ؟ . كيف تستطيع أن تتصور شيئاً لم تره ؟ أتشمئز نفسك من
بيت أنيق مريح ونساء جميلات لطيفات ؟ ثم تقول عني أنا الأحمق . اسمع
نصيحتي وتعال معي الليلة وقل لأبيك إنك لا بد أن تعود إلى المدرسة من أجل
المناورة .

ورمقه « علي » بنظرته الاستنكارية وقال له في اقتضاب :

— لا تتعب نفسك ، أنا أكره هذه الأمكنة .

— جرب مرة واحدة .

وهز « علي » رأسه في إصرار وأردف « حسين » قائلاً :

— ألق على المكان نظره واحدة ، ثم انصرف إذا لم يعجبك .

— قلت لك .. لا .

— أنت عنيد .. بعد بضعة أشهر سترجوني أن آخذك عندما تفهم الدنيا

جيداً .

ثم جرّ النطاء على رأسه قائلاً :

— دعني أغفل لحظة .

ووجد « علي » أنه لم يظفر بما يريد ، وأن المفأجاة التي ألقاها عليه « حسين » قد أنسته ما يرجوه منه ، وتردد برهة محاولاً أن يجد مفتاحاً يفتح به الحديث ، أو معبراً يعبر به إلى ما يريد .

ومضت فترة صمت وهو لا يجد شيئاً يقدم به لما ينوي أن يقول ؛ وأخيراً لم يجد بداً من أن يلقي بسؤاله دون مقدمات ، فقال :

— اسمع يا حسين .

وأجابه حسين دون أن يرفع رأسه من تحت الغطاء :

— ها ...

وحك « علي » جبينه بيده وأحس بشيء من الارتباك .. وعاد صوت أخيه يقول من تحت الغطاء ، وكأنما يستحثه على الحديث :

— ها .. ماذا تريد ؟

— رأييت أحداً ؟

— أحداً !. طبعاً رأييت أحداً .. ماذا تظنني ؟ .. أسير سجنين الهينين ؟
وحقق « علي » في رأسه المغطى بغيظ وهو يعلم أنه يدرك ما يقصده ، ولكنه فقط يريد محاورته ، وقال في نفس اللهجة المترددة المرتبكة :

— أقصده رأييت .. « أنجي » ؟

— آه .. لا .. لم أر أحداً .

وساد الصمت البغيض ، وعاد « علي » يتساءل :

— ولكنك قلت ، إنها سألت عني الجمعة الماضية ؟

— أجل سألت عنك .

— ماذا قالت بالضبط ؟

— لقد قلت لك ما قالت بالضبط .. قلته لك في الأسبوع الماضي خمس مرات

متوالية .. أتريد مني أن تلوه عليك مرة سادسة .. حسين ..

سألتني : « هالو حسين .. أين علي ؟ » . قلت لها : « في المدرسة » .. قالت :

« لماذا لم يحضر ؟ » .. قلت لها : « علمى علمك » .. قالت : « لقد مضى عليه أسبوعان دون أن يحضر ؟ » قلت لها : « كان فى الأسبوع الماضى نوبتى .. فقالت : « ولكنه لم يخبرنى » .. قلت : « إنها نوبتية مفاجئة » .. قالت : « لعله محبوس هذا الأسبوع ؟ » .. قلت : « يمكن » .. قالت : « ألا تنوى زيارته ؟ » .. قلت : « أجل » قالت : « بلغه سلامى » .. هذا كل ما قلت ، وكل ما قالت .. أتريد أن أتלוه عليك مرة سابعة ؟ كل هذا والغطاء فوق رأسه .

وساد الصمت برهة وعاد « على » يقول :
— ألم تقل لك شيئاً آخر ؟ .. أعنى ألم تقل أين ستكون هذا الأسبوع ؟ أقصد هل ستظل فى القصر .. أم ستذهب إلى السينما ؟! أم
— لا .. لم تقل ، ولكنى أعرف .
— أين ؟

— لن تكون فى القصر .. ولا فى البلدة .. ولا فى القاهرة بأكملها لأنها فى الأقصر .

وبدت الدهشة والخذلان على وجه « على » وتساءل مردداً قول أخيه فى عصبية :

— الأقصر !!

— أجل .

— وكيف عرفت ؟

— عرفت من أبى أن أهل القصر كلهم ذهبوا إلى الأقصر لمناسبة إجازة رأس السنة .

وامتلاً « على » شعوراً بالمرارة وأحس أن « أنجى » قد خذلته وتخلت عنه .. ألم تقل إنهما سيلتقيان كثيراً فى عطلة رأس السنة وأنهما سيركسان الخيل وسيتنزهان فى المزارع !! كيف نسيت وعدّها وسافرت إلى الأقصر ؟

ولكن ألم يكن هو البادىء بالخذلان؟! ألم يتركها شهراً دون أن يذكر لها كلمة واحدة؟ ولكنه أكره على هذا. لقد مكث الأسبوع الأول لنوبتجية طارئة ثم أتى بعد ذلك الامتحان.. وكان واجبه يحتم عليه البقاء فى المدرسة. ولكن ألم يكن من الخير أن يعتذر عن غيابه وينبئها بسببه؟ ولكن كيف؟.. إنه لا يجسر على أن يكتب إليها.. كان يمكن أن يطلب من أخيه أن ينقل لها اعتذاره ولكنه خشى أن تكرهه هى أن يعلم أخوه بما بينهما. ولكن ألم تسأل هى عنه؟ أجل. أجل. كان يجب أن يبلغها سؤاله واعتذاره. أتراها غاضبة؟! أم تراها أكرهت على السفر؟ أترى غيبته ستطول أم تراها ستعود قريباً؟ ولكن ماذا يهمه هذا.. وفرصة اللقاء لا تتجاوز اليوم وغداً.. ثم تتلوها فرقة طويلة خلال سفره فى المناورة.

وتملكه حزن شديد ويأس ثقيل مضن ، وطالت فترة الصمت ، وضاق بها حسين ذرعاً . فقد كان رغم تناومه ما زال ينتظر رداً من أخيه ، وأخرج رأسه من تحت الغطاء وقال له وهو يرى أمارات الضيق واليأس البادية على وجهه :

— أستذهب معى الليلة ؟

وهز « على » رأسه رافضاً فى إصرار وحزم .
وأخذ حسين يرمقه وهو مطرق فى حزنه الصامت ، ثم قذف بالغطاء وقفز من الفراش ووقف بجواره يتعسس رأسه الأجرد ويريت ظهره المنحنى على المنضدة قائلاً فى إشفاق :

— الطريق الوعر الشائك .. هو الذى تسير فيه أنت يا « على » .. أنا لا أشد .
نفسى إلا بمتعة ليلة .. ولكنك توثق نفسك بهوى عمر .. أنا إن تخلفت عنى لفظتها ، وأنت إن تخلفت عنك حطمتك شظايا وبددتك هباء .. إني أمد يدي إلى ما تستطيع أن تصل إليه .. أما أنت فتمد يدك إلى النجوم والسحب .. أنا أمسك الثمرة وأنت تمسك أوهاماً ملونة كقفوس قرح .. أنا إن أقبلت على ضحكك وإن أدبرت ضحكك أكثر . وأنت إن أقبلت عليك همت وإن أدبرت تركتك أشد هياماً وأكثر وجداً . أنا أقبض المتعة فوراً وأنت لا أمل لك فى سداد ولا رجاء فى قبض .. أنا أمسك بمن فى طريقى .. وأنت تسير فى طريق

وترجوا ما في الطريق الآخر .. وطريقك سفلى .. والطريق الآخر علوى ..
والطريقان — بأوضاع حالتنا الراهنة — التي لا أمل لنا في تغييرها يسيران
مستقيمين متوازيين ، أحدهما في الأرض والآخر في السماء .. والطريقان
المستقيمان المتوازيان — كما تعلم — لا يلتقيان أبداً .. يا أخى ألق بها من ذهنك
واقذف بها من فوق كاهلك .

وصمت حسين ونظر إلى أخيه فوجده ما زال في إطراره فأردف قائلاً :
— أتأتى معى الليلة ؟

ولم يجب « على » فتركه حسين في صمته وعاد إلى فراشة .
استغرق حسين في النوم وغادر « على » الحجرة مرتدياً سترته وطرבוشه ،
وعندما أبصرته والدته سألته :

— إلى أين يا « على » ؟ ألا تستريح كأخيك ؟
— سأتمشى قليلاً .. كلما غبت أحسست بشوق إلى البلدة .. إلى أهلها
وحقولها وترعتها وكل ما بها .

— متى ستعود ؟

— لن أغيب كثيراً .

وغادر « على » البيت واضعاً يديه في جيبى بنطلونه ، وعبر ساحة المنزل
بخطوات بطيئة هادئة .. متناسياً خطواته العسكرية الشديدة السريعة
العصاومة .. وترك العنان لقدميه توجّهانه كيف تشاء .. وترك العنان لذهنه يرعى
في ذكريات عذبة لم يفقدها الزمن جدتها وحلاوتها .

وإلى حيث ذهب ذهنه يرعى ، قادته قدماه .. ولسان حاله يقول :

وسا زرتكم عمداً ولكن ذا الهوى

إلى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

وطاف ببقعة على القناة احتشدت فيها كومة غاب .. حجبت لقاءهما الأول
عن الأعين ، ومرّ بمحوض وراء السوبة ، كان مقراً لأول ورشة وهبتها له ،

وبشجرة عتيقة شاهدت أول مسة من أصيبتها لشفتها .. وانتهى علو افه بكعبة
أحلامه وموطن ذكرياته .. ثم عاد إلى البيت ونفسه أكثر طمأنينة وروحه أكثر
استقراراً .

ووجد أخاه قد ارتدى ملابسهم وهم بالخروج قائلًا لأبيه :

— سأبيت في المدرسة لأن لديّ نوبتية بكر .

وأردف هو قائلًا :

— وأنا أيضاً .. لدينا مناورة لن نعود منها إلا بعد عشرين يوماً ..

وذهل حسين، وهو يرى أخاه يخرج معه وقد نوى المبيت في الخارج .. ولم
يكادا يغادران البيت حتى التفت إليه صاحكًا وقال في لهجة شماتة وفوز :

— أنويت المجيء معي ؟

— بل سأعود إلى المدرسة فعلاً .. ما زالت لدينا بضعة امتحانات عملية
تحتاج إلى مذاكرة .

وعاد « على » إلى المدرسة وهو يحس أنه لم يعد له نذارجهها مطلب .. وكان
أول ما فعل هو أن فتح الدولاب وأخرج من أحد أدراجها علبة صغيرة ضمت
أوراق ورده جافة أخذ يتحسس ما بها في حنان ورفق

(٢١)

تمهئة

رحل « على » مع الطلبة إلى منقباد . وكان يعتقد أنه ليس هناك أشق من حياة المدرسة .. حتى باشر حياة المناورة .

كان في المدرسة يضيق ذرعاً بتسوية الفراش .. أما في المناورة فلم يجد الفراش الذي يضيق ذرعاً بتسويته .. إذ. كان عليه أن يرقد مع بقية الصنف داخل خيمة صغيرة (طرز استتالية) ترص فيها المشمعات على الأرض وتفرش فوقها البطاطين .. أما الوسادة فقد كان أمرها متروكاً لابتكار النائم .. فإما أن يستعمل ذراعه تحت رأسه ، وإما أن يطوى تحتها بضعة ملابس تستقر عليها .

وكان يضيق في المدرسة بنوبة صحيان ، أما في المناورة فلم يكن هناك مبرر للضيق بها ، إذ كان عليه أن يستيقظ قبلها لطفى الفراش (أى المشمع) ثم تسوية « كنارات » الخيمة (وهى جروف من الرمل تحيط بكل خيمة) ومحاذاتها « بكنارات » الخيام الأخرى ، ثم الاشتراك في « ترحيف » الجزء المخصص له من أرض المعسكر ، حيث تسوى الأرض الرملية بجر أحد المشمعات أو البطاطين عليها .. لكى يعاد « لخبطتها » بمجرد أن تمر عليها قدم .. وليس أكثر في المعسكرات من الأقدام المارة .

وكان يضيق في المدرسة ببعد الحمام عن عنبر النوم واضطراره إلى الخروج ليلاً في الطريقة المكشوفة والتعرض للهواء ، أما في المناورة فلم يجد طريقة يضيق بها ، إذ كان عليه أن يقطع كل المعسكر في العراء للوصول إلى الحمامات ، وكانت الحمامات نفسها مكشوفة لا تعدو دروة من الصاج بلا سقف . أما دورات المياه فكانت دروات من قماش الخيام يدعونها بالتزالك .

وكان في المدرسة يضيق بالطواير المتعددة ، أما في المناورة فلم يعد هناك وجه لضيقه من تعددها ، فقد أضحت كلها طابوراً واحداً يبدأ من السابعة عند ما يصطفون .. وبرودة الصباح تلسع أطرافهم وتنفذ إلى عظامهم دون أن تفلح الفانلة الصوفية (فانلة ضرب النار) ولا القميص الصوفي السرج ، في صد غائلتها .

وكان الطابور يبدأ سيره وقد شدوا « البل » على أكتافهم وملأوا الكفف بالجباخانة « الفشنك » وعلقوا البندقية بالقايش على أكتافهم ، وقد تهدلت حافة المظلة الخلفية التي كبس فيها الطربوش على أكتافهم واستقام رفرها الأمامى فوق أعينهم ، وأخذوا يدقون الأرض بكعوب أحذيتهم الحديدية . وأخذت الزمازم وشنطة الجراية تحدث « خشولة » باحتكاكها ورجرجتها كأن الطابور السائر قافلة جمال .

ويظل الطابور يضرب في بطن الأرض .. يسير .. ويسير .. دون أن يدري السائر شيئاً سوى أن اليوم هجوم .. أو دفاع .. أو حرس جنب أو مؤخرة .. أو غير هذا من الأسماء التي لا يخرج عنها التكتيك وقتذاك .. وبعد ذاك !! وتأخذ الشمس في الصعود ويبدأ الجو في التغير .. وتتحول البرودة الشديدة التي كانت تجمد الأطراف إلى حرارة قاسية تلهب الأجساد .. وتصبح الأصواف التي كان البرد يبيدها خفيفة لا تصد ريحاً ولا تقاوم صقيعاً ، عبثاً ثقيلًا ترزح تحته الأبدان ويتصبب من أسفلها سيل من العرق .

والطابور يسير ويسير .. حتى يعلن فجأة أن العدو قد ظهر .. وظهوره — رغم أنه لم يكن أكثر من بضعة بيارق منتشرة على الروابي هنا وهناك — كان مفزعاً في تأثيره ، فقد كان إيذاناً باقتراب مرحلة الاقتحام .. أو بلغة مفهومة انقلاب السير .. إلى جرى .. والانبطاح في الأرض وضرب بضع طلقات ثم النهوض .. والجرى مرة أخرى ، حتى تبهز الأنفاس .. وتتهك الأجساد .. فلا يصل الطابور إلى العدو ، إلا وقد قضى على نفسه قبل أن يقضى على العدو . ثم يبدأ بعد هذا لم الشمل والعودة .. ولم الشمل هذا .. أكثر إزعاجاً من

تشتته ، فقد كان بلغة العسكرية .. يعنى .. « لم الفاضى » .
أجل .. كان على الجيش الذى قضى على العدو أن يعود القهقري ليجمع
الظروف الفارغة للطلقات التى أطلقت حتى لا تنقص الذخيرة الفارغة طلقة
واحدة .

وكان « لم الفاضى » فى الواقع أهم كثيراً من إطلاق المليون .. أى أن إصابة
العدو وقتله لم تكن تهم المهاجمين قدر ما يهمهم أن تعود الذخيرة الفارغة تامة غير
منقوصة .. لأن هذا هو الذى سيحاسبون عليه .. أما العدو .. فلن يستطيع أحد
أن يتعصى إصاباته .

وعلى ذلك .. ولكى يوفر المهاجمون على أنفسهم مشقة لم الشمل .. أو لم
الفاضى فى العودة .. كانوا يلومونها وهم يهاجمون العدو .. فكان الطالب قبل أن
يطلق الطلقة فى وجه العدو يبحث عن الطلقة الفارغة التى أطلقت ثم يدهسها فى
جيبه مطمئناً على نفسه من نقص الذخيرة قبل أن يطمن على نفسه من العدو .
ويعود الطابور .. بعد الانتصار على العدو طبعاً — ليقطع الشوط الذى قطعه
فى الذهاب .. والصوف يخر أجسادهم كالإبر ، والرمل والثرى قد حط على
رعوسهم وملاً أفواههم .

وكان عليهم بعد ذلك .. أن يرفعوا عقيرتهم بالغناء منشدين :
« بلادى ، بلادى ، فداك دمسى وهبت حيات فداً ناسلمسى »
والتعب يهون إذا ما انتهى إلى استلقاء أو استرخاء .. ولكن تعب الطابور كان
يقتضى بشراً منه وهو تفتيش السلاح .

وفى المدرسة كان « على » يفضى بيندقيته ووساختها وهسى قابضة على
السلاحيك فكيف بها الآن وقد أقيت فى الثرى وغمرت فى الرمال ولوئت
ماسورتها بوساخة « الفشنك » !

كان الطابور يعود بعد أن انتهى من الهجوم على العدو ، للهجوم على المطبخ ..
لا للطعام .. بل لأخذ جرادل الماء الساخن لتبريره فى مواشير البنادق حتى تكون

عملية التنظيف تامة كاملة .

ويقف « على » أمام البندقية وهو يدخل حبل التنظيف ويخرجه المرة بعد المرة .. وقد بات أقصى أحلامه رقدة واسترحاء .. لا على الفراش لأن الفراش أضحي متعذراً ، بل على المشمع أو الأرض .

وتنتهى النظافة والتفتيش ، ويعيد الطلبة السلاح إلى خيمة السلاحيك ثم يدخلون إلى « الميس » لتناول الطعام .

وكان « على » يذكر أن من أولى قواعد الصحة التي تعلمها أن يستريح الإنسان بعد الطعام مدة لا تقل عن الساعتين حتى يمكن للطعام أن يهضم وحتى لا تلتف المعدة .. ومع ذلك فلم يكن نظام المناورة يعترف قط بهذه القاعدة إذ كان لا يكاد يتناول الطعام ويبدل ملابس الألعاب البيضاء بملابس الطابور حتى يبدأ الألعاب .. ولم يكن يدهشه أن المدرسة لا تأبه بتلك القاعدة الذهبية من قواعد الصحة ، ولكن الذي كان يدهشه حقاً .. هو أن معدته نفسها لم تشك قط من خرق هذه القاعدة .. بل كانت في أوج قوتها وأتم صلاحيتها .. فلم يحدث أن تلتفت أو توقفت عن الهضم .

وكان « على » يضيق في المدرسة بقصر وقت النوم فهو لا يكاد يضع رأسه في الفراش حتى يستيقظ . أما في هذه الليلة من ليالي المناورة ، فلم يكن هناك وجه للشكوى من قصر فترة النوم .. لأنه لن ينام .

كانت الليلة نوبته في الدورية وقد وقف في تمام المساء مرتدياً المعطف و « الزنط » وفوقه « البلي » وأمسك بالبندقية في وضع « جنبياً سلاح » .

ونادى الباشجاويش : « مدرسة .. انتباه .. دوريات .. كنفاً سلاح » ثم أسطى تماماً للضابط النوبتي .. وأجرى الضابط تفتيشه على سلاح الدوريات ثم نادى : « سلام سلاح » وهنف .

وكان دوره هو الخدمة الثانية في دورية السلاح التي كان عليها أن تتولى حراسة خيمة السلاح ، وكان عليه أن يقوم بنوبتين من الخدمة : أولاً من الساعة

الثامنة حتى العاشرة ، والثانية من الثانية حتى الرابعة .
وبدأت الخدمة الأولى ، وكان أمرها سهلاً ، إذ كان المعسكر مستيقظاً
والحياة ما زالت تدب في أرجائه ، وحاول النوم بعد انتهاء الخدمة . ولكن النوم
استعصى على عينيه فقد كانت أعصابه متوترة وكان من المتعذر عليه أن ينام
بالخذاء والقالشين وبالملابس الكاملة . وفي الساعة الثانية بدأت الخدمة الثانية
وكان يحس بجسده منهكاً والقالشين يضغط على ساقيه ، والخذاء يثقل قدميه ،
وأمسك بالبندقية وعلقها على كتفه وتحسس الرصاص في كفف البلى ، وكان
رصاصاً حياً .. وكان عليه أن يستعمله ضد أى معتد .

ودار حول الخيمة وهو يحس برهبة وسط السكون الشامل ، ولفحت ريح
الليل الباردة وجهه ولمسعت أنفه وتسلفت من ثبايا المعطف والزنط لتسرى في
حنايا جسده وتتخلل رأسه .

ومد يده فضم المعطف وكبس الزنط .. وتنحى لمنحى عالية كما كان يفعل الخفراء
في بلدتهم .. وردت له المنحى من فرد الدورية السيارة وكان قد اقترب في لفته
حول سور المعسكر من ناحية الخيمة وسمع صوت سليمان يناديه :

— على .

وأجابه « على » منادياً :

— سليمان .

— كيف الحال ؟

— تكاد أطرافى تسقط من البرد ، ويكاد عظمى يسحق من طرق الريح .

— لم لا تمشى ؟

— لقد لففت حول الخيمة ما يقرب من مائة مرة حتى دخت .

واقترب سليمان من « على » حتى أضحي منه على قيد خطوات وعاد

الحديث قائلاً :

— ألم تسمع شيئاً عن النتيجة ؟

— وأنتى لى ؟.. ألم تسمع أنت ؟

— سمعت . ولكن أغلب ظنى أنها كلها شائعات .

— يقولون إن المفتش العام سيزور المعسكر غداً لرؤية طلبة القسم النهائى الذين سيتخرجون ضباطاً . وأغلب ظنى أن النتيجة لا بد أن تكون قد عرفت .

— طبعاً عرفت ، لقد انتهى كل شىء ، وهى موجودة لدى كبير المعلمين .
والقسم النهائى سيتخرج يعد المناورة مباشرة .

— ولكن علام هذه العجلة ؟

— نحن مقبلون على أحداث كثيرة . فإن إنجلترا قلقة من ناحية إيطاليا وألمانيا .
وغزو إيطاليا للحبشة وقوتها فى البحر الأبيض يجعل إنجلترا متلهفة على استقرار فى
مصر وعلى ضمان أكبر مساعدة لها فى حالة حدوث حرب بينها وبين دول
المحور .

وهز « على » رأسه ورفع كتفيه قائلاً :

— لست أفهم علاقة ذلك كله بتخريج القسم النهائى !

— عيبك « يا على » أنك تعيش وكأنك مغمض العينين .. لست أدري أغبى
أنت ، أم تحاول التغايب ؟! لماذا لا تهتم بأبعد من محيط حياتك الفردية ؟ إن إنجلترا
يقلقها موقفها المائع فى مصر ، وهى قد ضاقت ذرعاً بمنأوة المصريين ..
ومطالبتهم بالجللاء ، وتريد أن تضمن استقراراً فى مصر بوساطة اتفاق مشروع
يضمن لها منوالاة مصر ومعانتها ، اتفاقاً مشروعاً يمكنها من معاونة مصر لها
معاونة صديق ، ويمكنها من استغلال أقصى ما يمكن من مواردها فى حالة حدوث
حرب . وهذا الاتفاق وشيك الوقوع وهو سيمنحنا جزءاً كبيراً من استقلالنا
وسيبين لنا فرصة لتنمية جيشنا .. إن الإنجليز دائماً .. ينظرون للأمر من
وجهة نظر صالحهم ، ويخيل إلى أن صالحهم الذى كان فيما مضى يحتم عليهم
إضعاف جيشنا قد بات يحتم عليهم الآن تقويته ، لأنهم قد يستعينون به ، ذلك هو
سبب الاتجاه الجديد إلى زيادة الجيش ، والذى كان أثره المباشر تخريج القسم

النهائى . ألا ترى معنى هذا ؟

وصمت « على » برهة ثم أجاب :

— يحتمل .. على أية حال إنها ظاهرة طيبة واتجاه محمود .. فتقوية جيشنا شىء

مرغوب فيه .. حتى ولو كان مبعثه استعانة بإنجلترا به .

— أجل .. إنها ظاهرة طيبة واتجاه محمود .. ولكن إلى أى مدى يمكن السير

فيه . إن القوة المنفذة لأى مشروع أو اتفاق أهم بكثير من الاتفاق ذاته .. ويخيل

إلى أننا بوضعنا الراهن لا نملك أية قوة منفذة حرة تعمل لصالح البلد .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن القوة الحرة تصدم دائماً بقوة العرش ، وهى قوة مغرضة لا أظن

صالح البلد الحقيقى يعينها فى كثير ولا قليل ، فلا بد من إزالة هذه القوة المزعزعة .

— إزالتها ؟ إزالة ماذا ؟ إزالة العرش !! أنت مجنون ؟

— لا أقصد إزالته بحاله .. بل إزالة الجالس عليه .. وهذا ليس على الله

بيعيد .. إن حالته الصحية على غير ما يرام .

— يا سليمان لا تتفوه بمثل هذا الكلام .. إنه كلام خطير جداً .. إنه خيانة .

— أنا أعلم أنه كلام خطير .. ولكنى لا أقوله إلا لذلك .. إنه مجرد أفكار نسنح

لى ، أنفوس عن صدورى ببشها إليك .. إن تفكيرى دائماً ينتهى إلى أن العرش بحالته

الراهنه و بالجالس عليه سيكون عقبة كأداء فى سبيل أى شئ يحسن مجرى لصالح

هذا البلد . إني لا أشعر قط بأنه مصرى . إن عنصر السيادة التركيه متغلغل فى

نفسه ، ولا أظن صدره يمكن أن يصطبغ بحماسة من أجل مصر أو يشور

لصالحها .

وساد الصمت بين الاثنين وصفرت ، حولهما هبة ريح باردة أصابت كلا منهما

برجفة ، وبدا تفكير على وجه « على » مالبث أن قطعه بقوله :

— لشد ما أخشى عليك من أفكارك يا سليمان .. لست أدري لِمَ تتعقد

الأمر فى ذهنك بهذه الكيفية ؟ لِمَ لا تكون أفكارك بسيطة مثل أفكارنا ؟ لِمَ

تأبى دائماً إلا أن تتجاوز حدودك .. وتشغل ذهنك بأكثر كثيراً مما لك !؟ هذه الأفكار لها أصحابها .

— الأفكار يا « على » حرة لكل إنسان .. ليس التفكير مقصوراً على شخص دون شخص ، وشئون وطننا الذى يكون كل فرد فينا جزءاً منه يجب أن يعيننا كلنا ، ليس صالح الوطن حرفة يحترفها أشخاص بذاتهم ، بل شعور يجب أن نشارك فيه جميعاً .

— لست أدري مدى ما فى قولك من الصحة .. إني أعتقد دائماً أن كلا منا يجب أن يؤدى واجبه نحو وطنه فى حدود عمله ، ونحن ما زلنا طلاباً ، فيجب أن نكون طلاباً نافعين .. وعندما نصل إلى الحد الذى نصبح عنده مسئولين عن سياسة البلد يمكننا وقتذاك أن نفكر فيما تفكر فيه . المهم الآن هو أن تؤدى امتحاناتنا بأقصى ما نستطيع من جهد .

وقبل أن يجيب ، سمع وقع أقدام تقترب فأرهمف « على » أذنه ثم صاح بصوت حاد :

— قف من أنت ؟

وأجابه من الظلمات صوت يصيح :

— ضابط نوبتجى .

وصرخ « على » بأعلى صوت :

— ضابط نوبتجى .. دورية سلاح .

وأيقظت صرخته المدوية أفراد الدورية وهبّ حكمدارهم يصيح وهو نصف نائم :

— اصحى الدورية .. اجمع سريع .

واندفع يهرول مع بقية أفراد الدورية إلى العارضة الخشبية الصغيرة فى مقدمة الخيمة التى وضع عليها سلاح الدورية ، وأخذ كل سلاحه وهو يحاول إصلاح ملبسه قدر ما تسمح به هرولة وتفكيره انشغلت بين غيبوبة النوم وشروء الفراغ .

ووقف الحكمدار يستحث جماعته على الاصطفاف والانتظام محاولاً بكل ما يملك من وعى أن يقوم بالتفتيش على سلامة ملابسهم وتام سلاحهم ، وفي نفس الوقت يحاول أن يتحسس ملابسهم ، وهم بإعطاء تمام للضابط النوبتجى الذى وقف ينتظر على مقربة من الخيمة بجوار الجاويش النوبتجى والأباشى النوبتجى ، وعندما سمع « على » يهمس به :

— المظلة والطربوش يا أومباشى .

وتحسس الأومباشى رأسه فوجده عارياً فاندفع فى ارتباك وذعر إلى مرقد الدورية .. ومد يده فى الظلمة يتحسس طربوشه ومظلته وما لبث أن عاد بهما فى عجلة ووقف بجوار دوريته على استعداد لتفتيش الضابط النوبتجى .
وتقدم الضابط فى خطوات هادئة متزنة وقال للأومباشى فى شيء من السخرية :

— خمس دقائق لكى تعد دوريتك ، إنها كافية جداً لسرقة الخيمة وتجريد المعسكر من سلاحه . يجب أن تجمع دوريتك بإسرع من هذا .
— حاضر يا فندم .

— هذا عمل يجب ألا يعجز عنه أومباشى عادى فى الجيش وأنت بعد بضعة أيام ستكون ضابطاً .

ثم بدأ الضابط يجرى تفتيشه على أفراد الدورية مبدئياً بعض الملاحظات ، ثم أمر بانصراف الدورية واصطحب الأومباشى إلى داخل الخيمة .. ومر بصفوف البنادق المرصوفة على السلاحليكات الخشبية والتى كان الزيت يلمع على مقدماتها وخزائنها .

وقال الضابط وهو يلقي نظرة على صفوف البنادق :

— هل تمست على البنادق جيداً ؟

— أجل يا فندم .

— وفحصت الجنزير جيداً وتأكدت أنه يمر فى قنطرة التلك لكل بندقية ؟

— أجل يا فندم .

— والأقفال ؟

— مغلقة جيداً يا فندم .

وكان « على » يسمع المناقشات وقد وقف بباب الخيمة مصلوباً كأنه لوح من الخشب .. وقد شدّ كتفيه وأبرز صدره .. وخرج الضابط من الخيمة يتبعه ثلة من ضباط الصف . وعندما مرّ « بهلى » توقف أمامه برهة وأخذ يفحصه وبدأ كأنما يود أن يقول شيئاً .. وكان « على » يعرفه جيداً إذ كان هو الضابط الذى يقوم بتدريس التاريخ العسكرى . وكثيراً ما أحس منه « على » نوعاً من العطف والرقّة افتقدتهما فى حياته العسكرية وكانت له بلسماً وسط الجفاف والصرامة والشدة التى أحاطت به من كل جانب .

وتحدث الضابط متسائلاً فى رفق :

— أهذه أول مرة تقوم بالدورية ؟

— أجل يا فندم .

— وكيف الحال ؟

— الحمد لله يا فندم .

والتفت الضابط إلى الجاويش النوبتهى وحكمدار الدورية قائلاً :

— هذا الطالب من خير طلبة المدرسة إن لم يكن خيرهم جميعاً !

ثم وجه إليه الحديث قائلاً :

— إن شاء الله نهشك قريباً .

ثم سار فى طريقه وحياه حكمدار الدورية ثم عاد إلى « على » وشدّ على يده

قائلاً :

— مبروك يا « على » .

(٢٢)

ريح الرجاء

عاد « على » من المناورة وخرج في أول إجازة بعد طول غيبة عن الأهل ، وكانت النتيجة قد أعلنت وظهر ترتيبه الثالث فاستحق النقل إلى القسم المتوسط ضمن العشرة المنقولين ، واستحق — خيراً من هذا — المعافاة من دفع بقية المصروفات .

كان القطار يحمله إلى البلدة وقد جلس بجوار النافذة الزجاجية مرتدياً معطفه الكحلي ذا الياقة العريضة والأزرار النحاسية اللامعة وقد وضع حقيبته الصغيرة فوق ساقيه وحقق بناظره من النافذة الزجاجية ، وقد توالى عليها الأراضي الخضراء المليئة بالبرسيم والقصب تبدو من وراء جذوع الكافور والجازورينا المضخمة القائمة على الطريق الأسفلت المجاور لسكة الحديد والتي تعالت أوراقها الخضر الرمادية لتحجب السحب المتلاحقة في أديم السماء الأزرق .

وكان « على » في جلسته يحس بالاستقرار بعد طول عدو ، والهدوء بعد طول كفاح ونضال ، وكان يملؤه شعور مزيج بتأدية الواجب والتضحية وبذل الجهد ، وإحساس بحمد الله الذي كافأ جهده وعوض تضحيته ولم يضع كفاحه سدى . كانت الثقة تملأ نفسه لأنه استطاع أن يقدم لأبيه من المساعدة ما يفك ضيقه ويحل أزمته ويحفظ ماء وجهه ، ولأنه تمكن بجهده أن يشارك أباه حمله الذي طالما ناء به وحده .

وعلى هذه القاعدة من الإحساس بالرضا والاستقرار والراحة كان يقوم إحساس آخر ملأه الغموض والحيرة .. إحساس أشبه بالدخان لا تبين له ملامح ولا تتضح له حدود ، إحساس يندفق من القلب ، مزيج من الشوق والحنين

والقلق والنشوة والفرح والخوف واللهفة .. و .. و .. انخ .
كان يشعر أن غيبة الشهرين كأنها غيبة دهر .. وكان يسائل نفسه .. كيف
يرأها ؟ وكيف يكون لقاءها له ؟ أما زالت كما هي .. أم تبدل شعورها ؟ أما
زالت تذكره .. أم دب النسيان في قلبها ؟ أما زالت تحن إليه .. أم سلتته على طول
البعد ؟ وكانت الذكريات تتدفق في ذهنه مزدهمة متكاثفة .. ولا تلبث حتى
تتلاشى كأنها حشد من الفقاقيع .

ووصل إلى البلدة واتجه إلى الدار وطرق الباب ، ومن الداخل أتي إليه صوت
بهية يرن في عذوبة :

— مين ؟

وأجاب « على » الإجابة التقليدية :

— أنا .

واندفعت « بهية » إلى الباب في فرحة شديدة .. لقد كان صوت الشقيقين
متشابهاً ، ولم تجعلها غيبة « على » الطريفة تتوقع أن يكون هو القادم . فظنته
« حسيناً » ، وصاحت ، وهي تهرول نحو الباب :

— حاضر يا حسين .

وابتسم « على » لنفسه ، فقد كان يدرك ميل « بهية » إلى أخيه ، ويعرف أية
خيبة ستصيب « بهية » عندما تجده هو بدله .

وفشحت « بهية » الباب وفاجأتها رؤية « على » بابتسامته الهادئة ، ووقفت
تتسم في حجل ودهشة :

— على لقد ظننتك حسيناً .. حمد الله على السلامة .. لقد أو حشتنا غيبتك .

وسارت تهرول إلى الداخل معلنة خالتها نبأ قدومه :

— خالتي .. لقد أتي على .

واندفعت الأم من المطبخ تصيح في فرحة شديدة :

— على ..

- ثم أخذته بين أحضانها وقبلته دامعة العين قائلة في عتاب :
- ما هذه الغيبة يا على ؟! وما لجسدك قد نحل ووجهك قد اسمر حتى كأني بك لم تأكل منذ غادرتنا .
- تعب المناورة يا أماه .. لقد قاسينا أياماً شاقة .
- وضمته أمه في رفق وهي تقول :
- مسكين يا بني .. ربنا يقوب عليك من كل هذا الشقاء والتعب .
- على أية حال لم يذهب سدى . لقد أخذنا ثمنه مضاعفاً .
- كيف ؟
- لقد نجحت في الامتحان .. وانتقلت إلى السنة الثانية وكان ترتيبى الثالث فعوفيت من المصروفات . ما رأيك يا أماه ؟
- وبلا إرادة انطلقت زغرودة مجلجلة من فمها وصاحت غير مصدقة :
- أحقاً تقول ؟! ومتى ستتخرج ؟
- في العام القادم إن شاء الله .. لقد وفرت سنة .
- وحسين .. هل نجح ؟
- وضحك « على » وقال :
- لم يكن عندهم امتحان .. لقد كان امتحاننا مفاجأة غريبة .. لم تحدث منذ عشرات السنين .
- وتلفت « على » نحو الحجرات ثم أردف متسائلاً :
- أين أبى ؟
- ما زال في الحداثق .. إن لديه عملاً كثيراً ولن يعود للغداء .
- سأذهب إذن لرؤيته .
- وهرول إلى الخارج وأمه تلاحقه صائحة :
- ألا تنتظر حتى تتغدى ؟
- لا .. لا .. سأذهب لإبلاغه النبأ .

وعدا « على » تجاه القصر .. ليلقى أباه .. وليسأل الصدف ... ويستجدي الحظ .. لقاء جميلاً اشتد به الحنين إليه .. وعصفت بنفسه اللهفة عليه .
وسار في الطريق المجاور للترعة ، وكلما اقترب من القصر أحس بقلبه يضج في حناياه .. حتى خيل إليه أنه يكاد يشب من بين أضلعه ليسبقه إلى القصر .
وراح يسائل نفسه : كيف يلقاها ؟! وكيف يمكن أن تعرف هي بعودته بعد طول غيابها ؟! بل من يضمن له أنها إذا عرفت أن تكون بها رغبة في لقائه .
وكان يسير مسرع الخطا ، شارد الذهن ، وعندما قارب الباب الخلفي المؤدى للسوبة انحرف إليه محاولاً عبور الطريق عندما بلغ مسمعه صوت بوق عربية يدوى منذراً .

وقفز بسرعة إلى الجانب الآخر ، وربط السائق فرامله بشدة ووقفت العربة وفتح بابها ، وفي غمضة عين وبلا سابق إنذار وجد « على » « أنجي » تقف أمامه وتهتف به في فرحة شديدة لم تستطع كتمانها :

— على !

وتهتف هو الآخر بلا وعى :

— أنجي .

وأحس كل منهما برغبة شديدة في أن يندفع إلى أحضان الآخر فقد كان ذلك هو المخرج الطبيعي لشاعر الشوق المضطربة في نفسيهما ، والمظهر الملائم لما يعمل في باطنيهما ، ولكنهما لم يمتلكا سوى أن يمد كل منهما يده إلى الآخر ويشد على يده ويضغط عليها بحرارة كأنما يبلغ بها رسالة ضم وخطاب عناق ، أو كأنه يقول :

« عندي رسائل شوق لست أذكرها » .

وأخذ كل منهما ينظر في عيني الآخر وقد تلاحقت أنفاسهما وبدا علو صدريهما وانخفاضهما واضحاً ودقات قلوبهما مسموعة جلية .

وأحس « على » أنه قد ظلمها بظنونه وأوهامه وقلقه وخشيته .. فقد كان

لقاؤها ونظرها مبددة لكل ظن ، قاضية على كل قلق ووهم وخشية .
وتساءلت « أنجى » وقد افتر ثغرها عن ابتسامته الرقيقة اللطيفة :
— ما هذه الغيبة الطويلة يا على ؟ أهذا هو ما اتفقنا عليه ؟ ! لقد مضى شهران
دون أن نراك ؟

— لقد حضرت مرة خلال الشهرين ولكنك كنت في الأقصر .
— حقاً ! إني لم أقض في الأقصر أكثر من أسبوع قضيت معظمه راقدة في
الفراش .

وسأل « على » في جزع :

— ماذا ألم بك ؟

— انفلونزا شديدة .. جعلتنى لا أغادر الفندق طيلة المدة .. أنت أيضاً يبدو
عليك الهزال ؟

— من الامتحان والمناورة .

— يبدو أنك أجهدت نفسك فيهما كثيراً ؟

— كان لا بد من ذلك .. حتى لا تفلت الفرصة وحتى نوفر عاماً من الشقاء
والجهد .

— وهل ظهرت النتيجة ؟

— أجل .. لقد نجحت والحمد لله .

وبدت الفرحة واضحة في أساريرها وهتفت :

— مبروك يا على .. متى ستخرج ؟

— في العام القادم .

وظهر بعض العمال بالقرب من الباب وبدأ الارتباك على الاثنين ، وأحس
كلاهما أن الحديث قد طال وأن فرط الشوق أنساها حرج الوقفة على قارعة
الطريق .. ومدت « أنجى » يدها مصافحة وهى تقول فى صوت خفيض :
— متى سنلتقى ثانية ؟

— وفتما شئت .. من الآن حتى مساء غد .

— اليوم في الساعة السابعة عند الشجرة الكبيرة التي جُرِحَتْ تحتها
إصبعك .. أتذكر ؟

— كيف لا أذكر مكاناً لقيتكَ فيه ؟

وسارت العربة تتابع طريقها إلى القصر ، ودلف هو من الباب الخلفي إلى
السوبة للقاء أبيه .

وفي الساعة عاد إلى الحديقة يسترق الخطى فوق الحشائش متخذاً طريقه بين
الأشجار وأحواض الورود .

وكانت أولى أنفاس الريح الدافئة قد بدأت تسرى بين الأوراق الخضر
المتفتحة التي كست الأغصان العارية بعد طول تجرد ويس وجفاف ، وأزهار
المشمش البيضاء قد كللت فروعها كأنها تاج من اللآلئ أو كأنها قطرات الندى
الأبيض اللامع ، وأشجار الخوخ قد تجردت إلا من أزهارها الباهتة الحمراء الرقيقة
المنظومة على الأغصان ، وسكون الليل تكاد تسمع فيه أنفاس الزهور ، والقمر
قد بدا منه نور مبكر أحمر كأنه مصباح واطيء الذبالة ناعس النور ، والنجوم
تتراقص كمهيج تخفق أو قلوب تهفو .

وعناصر الطبيعة قد تعاونت على الرقة وتآلفت على الجمال حتى بات المكان
كأنه مهد هوى ، وموطن حب .

واقترب « على » من الشجرة الضخمة المدلاة فروعها إلى الأرض كأنها عمود
تسند أجنحتها المنبسطة وفروعها المرفرفة ، وأخذت عيناه تبحثان في الضوء
الباهت الذي تعاون القمر الناعس والنجوم الخافتة والمصابيح البعيدة الشاحبة
على أن تبديد به ظلمة الليل ، وتبدى خلاله الكائنات باهتة غامضة ، وكأن وراء
سكونها الظاهر جَوْفاً يصطخب بالمشاعر ، وحتماً تضج بالأحاسيس .

وعلى أريكة هزّازة ذات مظلة أشبه بالأرجوحة لمح بغية ، وكان ظهرها تجاهه
وقد أخذت الأريكة تهتز في رفق وهدوء كأنها « بندول » الساعة ، وبدت على

مسندها موجات شعرها الذهبي ينسدل في لين وانبساط .
واقترب « على » في خفة وسكون وقد ملأ أنفه عبير زهر البرتقال حملته إليه في
حناياها نسمة طافت بالأشجار المنتشرة في أرجاء الحديقة ، وتوقف قليلاً وأخذ
من النسمة شهيقاً طويلاً ملأ به صدره وكأنه يملأ صدره بأنفاسها العطرة ،
ورُبَّ هبة نسيم خلناها استمدت عبيرها من الأنفاس لا من الزهر .
ووصل إلى الأريكة وتوقف وراءها ونظر إليها فأبصر رأسها الصغير بـمفرق
الذهب وقد انسابت خيوط الذهب من المفرق على الكتفين وعلى مسند
الأريكة .

وقف يرمق الرأس في تعبد وأحس يديه ترتفعان ببطء فتستقران في خشوع
على جانبي المفرق وتحسسان الشعر كما تتحسس أكف المؤمنين آثار الرسل أو
معجزات الخالق .

ولم يبد عليها أنها أخذت أو فوجئت ، ومضت لحظة وهي صامته ساكنة
كأنها كانت تنعم بمسة اليدين الحائيتين الواهتين وأحست بقلها يزداد خففاً
وأنفاسها تزداد تلاحقاً ، وبكفها يرتفع ببطء فيستقر على ظاهر كفها ويتحسس
بـحنين زائد وشوق شديد ، وأخذت أصابعها الصغيرة تتخلل ظاهر أصابعه .
ورفعت عينيها فالتفت بعينيها وأشرق وجهها بابتسامته الحلوة وجذبت يده
لكى يدور ويجلس بجوارها على الأريكة .

ولف حول الأريكة ووقف قبالتها متردداً وسأله ضاحكة :
— ألا تنوى الجلوس .. أم تظن نفسك في طابور ؟!

وتلفت تجاه القصر وبدأ عليه القلق وهزت هي رأسها هزة نافية كأنما تنفي ما
يخشاه من نظراته القلقة وابتسمت ابتسامة مطمئنة وقالت :

— لقد خرج أبى وعلاء .. ولا أظنهما يعودان قبل العاشرة . كان
مفروضاً أن أخرج معهما للذهاب إلى السينما مع علاء فقد دعينا من أبناء البرنس
كـال ، ولكنى اعتذرت بالصداع .. وهو المرض الذي لا يستطيع أحد أن يجزم

أنى لست مصابة به ، وليس بالدار غير الخدم و « الدادة » ، وقد قلت لى إنى
سأتمشى فى الحديقة . اجلس .
وجلس على الأريكة المتأرجحة وثبت قدميه فى الأرض فتوقفت عن الاهتزاز
وقال ضاحكاً :

— سأجلس على شرط أن أوقفها عن الترجح .

— لِمَ ؟

— لأنى كنت أكره الأراجيح فى صفرى لأنها تعسبىنى بدوار وغثيان .

— والآن ؟

— أشعر أنى مازلت أكرهها .. لأنى أكره الترجح وأفضل الثبات

والاستقرار .

— ولا حتى على سبيل التسلية ؟

— إنى لا أتسلى بالتأرجح أبداً .. إنه ضد طبيعتى .

— وما هى طبيعتك ؟

وكانت تنقر بخفة على ساقه التى شد عليها البنطلون ذو الشريط الأحمر ،
وأحس بشعور ممتع من نقرات أصابعها ، ومد يده فضم الأصابع الرقيقة المنقورة فى
كفه وضغطها برفق ، وأجاب وقد شرد ببصره فى ظلمات الأشجار المتكاثفة
أمامه :

— طبيعتى إذا اندفعت إلى اتجاه ألا أتا رجح ثانية إلى الاتجاه المضاد ، بل أثبت

اتجاهى وأستمر فيه .. وإذا تعلق قلبى بمخلوق معين ، ثبت على التعلق به وأصبح

من المتعذر زحزحته عنه إلى غيره ، وقد يحمد مشاعره العجز وقد يثد إحساساته

اليأس ، ولكنه إخماد ظاهر ووأد شكلى ، يجعل من القلب رماداً على جمر ، وكفناً

على حى ، تطيح به أول هبة من أمل أو ريح من رجاء .

وضغطت « أنجى » على كفه وهمست ، وقد شردت ببصرها هى الأخرى فى

الظلمات :

- أو قد هبت عليك ريح الرجاء ؟ !
- كأشصف ما تكون الريح وأقوى ما يكون الرجاء . لقد أطاحت بالرماد ووهجت بجمرة القلب .
- إني أريده دائم التوهج لأنني أشعر أنه قد بدد بتوهجه ظلمة كانت تحيط بي وتجعل من حياتي فراغاً موحشاً لا تبدو به بارقة ولا هدف ولا أمل .
- ما دامت ريح الرجاء تهب فلن يتكف عن التوهج . ولكنني أنحشى على الريح أن يضيعها طول الطريق وشدة المنعرجات وكثرة السدود والحوائل .. إن ريح الرجاء قد تقوى على النفخ في منبسط سدود من طريق العمر .. منبسط الصبا السهل المعبد ، ولكن لو تجاوزنا هذا المنبسط إلى ما بعده اراعتنا المنعرجات والسدود التي يضيع فيها ريح رجائنا .
- لست أرى شيئاً يمكن أن يوقف أملنا أو يضيع الرجاء .
- ولا سدود التقاليد والفوارق الطبقية ؟
- لست أعترف بتقاليد ولا فوارق .. إني لا أعترف إلا بقيم الأشخاص وطبيعة خلقهم . إن طبيعتي من طبيعتك وتفكيرى من تفكيرك . إني أحس بروحينا تقارباً عجيباً .. أحس كأن هناك انطباقاً بين نفسيينا . لهذا أحبيتك .. ولهذا سأندفع في حبك بلا تأرجح ، ولا توقف ، ولا خشية من تقاليد ولا خوف من فوارق . إننا بقلبيينا المتوهجين وروحينا المتأججتين سنتخطى كل سدود الدنيا ، ولن يفرق بيننا إلا الموت .
- وحتى الموت لن يفرق بيننا .. سأحبك حتى بعد الموت .. فإن حبك أبقى في روحى من الروح الباقية .

(٢٣)

خطايا البشر

افترق « على » و « أنجى » ليلتذاك .. وبينهما ما يشبه الميثاق الدائم .. والسند الأبدى .. ميثاق إلى الموت كما قالت « أنجى » أو إلى ما بعد الموت ، كما قال « على » .

وعاد « على » إلى بيته وبنفسه من الثقة بالحياة والمستقبل ما جعله يكاد في سيره يحلق في السماء . ولم يعد يشعر أن الأمل في حبه قد بات — كما كان — محدود الأفق ، لا يجسر أن يتخطى منبسوط حاضره إلى قفار مستقبله .. بل أحس أن الذبالة التي كانت تنزله حيزاً محدوداً تحيط به الغياهب والظلمات التي لا يجسر إلى التطلع إليها أو التفكير فيها ، قد باتت ضوءاً ساطعاً يضيء كل حياته .. وأن الغياهب قد تكشفت ووضعت مجاهلها واستوت وهادها وتلاعها .. وفرت أشباحها وتضاءلت مردتها .. وانكشفت سدودها وحوائلها .. وبات طريقه فيها واضحاً حتى النهاية .. بل وما بعد النهاية .

بمثل هذه النفس الواثقة المطمئنة المليئة بالإيمان في المستقبل والثقة بالحياة .. عاد إلى الدار .. وكانت الساعة تقرب من الثامنة .. وطرق الباب ففتحت له « بهية » .. وكان أبوه يؤدي صلاة العشاء .. وأمه تتشاغل برتق بعض الثياب .. وقد جلست على حشيتها الأرضية الموضوعة في الركن بين باب المطبخ وباب القاعة والتي أبت أن تغادرها إلى الأريكة التي جهزت بها القاعة ضمن الأثاث الجديد .

وتلفت « على » إلى حجرتة ثم تساءل :

— ألم يأت حسين ؟

(رد قلبي — ج ١)

ورفعت أمه يديها مبسوطة على ساقها وقالت فى أسف وضيق :
— أبداً يا بنى .

— ألم يخبركم فى الأسبوع الماضى عما إذا كان سيأتى هذا الأسبوع أم لا ؟
وأجابت « بهية » فى لهجة حزينة :
— إنه لم يأت فى الأسبوع الماضى .

وأردفت الأم وهى « تمصمص » بشفتيها :

— مضى عليه ما يقرب من شهر وهو لا يبيت هنا .. إما أن يحضر الخميس
ويذهب للمبيت فى المدرسة .. وإما أن يأتى الجمعة صباحاً .. ربنا يتوب عليكما
من المدرسة . إلى أكاد لا أرى الواحد منكما إلا سرقة فى الشهر .

— كله يهون يا أماه .. ليس هنا شىء فى هذه الحياة بلا جهد .

— أجل يا بنى .. كان الله فى عونكما .. وأعاد أخاك بالسلامة .

وأحس « على » بالقلق على أخيه .. ولكنه قلق غير قلق أمه .. فقد كان
يعرف أين يوجد .. ويعرف أن الله سيحضره بالسلامة .. ويعرف أيضاً أنه لا
شك يقضى وقتاً طيباً كما قال له .

ولكنه مع ذلك يحس بالقلق عليه من ذلك الطريق المجهول الذى يسير فيه ..
ويضاغف قلقه .. أنه غير ذى تجربة وغير ذى علم بذلك الذى يدعى أخوه أنه
يقضى فيه بعض ساعات طيبة ، وهو دائماً يخشى ما يجهل ، ويراه أشبه
بالظلمات التى يتوهم فيها الأطفال مردهً وعفاريت وشياطين .

إن أخاه قد وضح له الأمر ببساطة ، وبين له أنه ليس عليه منه خوف ولا
حذر .. ولا خسارة من أى نوع .. بل لقد حاول المقارنة بين هذا الطريق وبين
الطريق الذى يتخذه « على » واستطاع أن يؤكد له أن طريقه هو أكثر أمناً وأوفر
سلامة .

و « على » يعرف أن النصيح فى هذه الأمور غير مجد .. وهو يجد أن
« حسين » ياستهتاره واندفاعه ومرحه كان أقرب إلى سلوك مثل هذا الطريق ،

ولذا لم يجد خيراً من أن يترك الأمر يمر ببساطة حتى يأخذ « حسين » متعته منه ويتركه إلى غيره كعادته في كل متعة باشرها في لوه منذ الصغر .
وخلع « على » ملابسه .. وانتهى الأب من صلاته وصاح بالأم :
— العشا يا زهرة .

وأجابت الأم وهي في جلستها على الحشية :
— أعدى العشاء يا بهيه .. إن ساقى تؤلمانسى ولا أستطيع النهوض ..
سأتعشى وحدى على الطبلية .
وقال الأب :

— وسأتعشى معك على الطبلية .. فلا تفتح شهيتى سواها .
وضحك « على » قائلاً :

— وأنا أيضاً سأتعشى معكما .. لقد أوحشتنى جلستها .
وقالت الأم ضاحكة :

— من ساب قديمه .. هاتى يا « بهيه » الطبلية .

وتلكأت « بهيه » في موضعها وقالت متممة :

— ألا ننتظر حتى يحضر حسين ؟

ونظر إليها « على » في رفق ، وأحس لها بشيء من الرثاء ، وهو يجدها تلقى بقلبها في حب عميق لا تستطيع حتى أن تسمع صدى سقوطه في القاع وقال :

— لا أظنه سيحضر الليلة . لا بد أنه سيبيت في المدرسة .

وتحركت « بهيه » تجاه المطبخ ، ولكن قبل أن تبلغه طرق الباب فاندفعت إليه وهي تهتف في تمنٍّ ورجاء :

— لا بد أنه حسين .

وفتح الباب وبدأ حسين .. وأفسحت « بهيه » له الطريق بعد أن أخذت حقييته الصغيرة من يده .

وحيا حسين أبويه وسلم على أخيه في شوق وسأله في لطفة :

— متى عدت من المناورة ؟

— بالأمس .

— والنتيجة ؟ ألم تظهر ؟

— بل ظهرت .

— وماذا فعلت ؟

— الحمد لله .. كان ترتيبى الثالث وحصلت على معافاة من المصروفات .

— مدهش .. هائل .. أنا أعرفك لا تنفع إلا في امتحانات الطوارئ

مبروك .. ألف مبروك .

ودخل حسين لكى يخلع ملابسه ، واستطاع « على » أن يتبين فيه شيئاً غريباً .. لم يكن هو حسين بطبيعته الأصيلة .. بل كان به اختلافاً جعله يحس بقلق .

حقيقة أنه سلّم عليه فى شوق ، وأن فرحته بنجاحه كانت شديدة مخلصة وحقيقة أنه ضحك ضحكات ، وأنه حاول أن يمزح مع أمه ومع « بهية » .

كل هذا حقيقة . ولكن « على » يستطيع أن يجزم مع كل ذلك أن حسين ، ليس هو حسين بطبيعته المرحّة الضاحكة الصافية التى لا تشوبها شائبة كدر ولا هم ولا ضيق .. وأنه منذ أن بدا بالبّاب قد استطاع أن يلمح مسحة الهم والشحوب الذى يعلو وجهه . ثم .. سلامه وطريقة مجونه وهذره ومزاحه ، كل ذلك شيئاً مفتعلاً ، قد يخدع به الجميع .. حتى أمه وأباه .. ولكنه لا يخدعه هو .. هو الذى كان من فرط ما عاشره وزامله يستطيع أن يفهم كل سمة من سماته وإيماءة من إيماءاته .. بل يستطيع أن يعرف ماذا يفكر فيه .. وماذا ينوى أن يفعل .

وأعد العشاء على الطبلية .. وكان حسين ما زال فى الحجرة . وصاحت به أمه :

— العشاء جاهز يا حسين .

— كلوا أنتم يا أمه .. ليس لي شهية للأكل .

— كيف ؟! أجنت حتى تنام بلا غشاء ؟!

— لقد أكلت سندويتشات في العصر .

— أهذه السندويتشات التي لا تزيد عن عقد الصباغ تسمى أكلا ، ومنذ

متى ؟! من العصر !! تعال واجلس معنا تفتح نفسك .

ويبدو أن حسيناً لم ير داعياً لا استمرار المجادلة ، فأقبل وترجع بجوارهم على الأرض أمام الطبلية .

وأخذ « علي » يرقبه .. وهو يلوك اللقمات بلا استساعة وذهنه شارد لا يكاد يستدعيه أحد من الأهل حتى يشرد ثانية .. وعندما انتهى الطعام .. تأكدت شكوك « علي » . واستطاع أن يجزم أن أمراً خطيراً يشغل بال أخيه وأنهما يطبق عليه .

وبدأت الوسوس تتسرب إلى رأسه .. وأحس أن هم أخيه قد انزل على كتفيه . وأخذ يسائل نفسه : ماذا ألم بحسين ؟ ولماذا أتى بعد أن تأخر هكذا ؟! هل أصابه شيء في المدرسة ؟! هل وقع في حب ، ؟! هل فقد شيئاً ؟!

وغادر حسين « الطبلية » إلى حجرته وكأنما خشي أن ينم شروده عما به من ضيق خفي فلجأ إلى الفراش .. ولم يطبق « علي » على وسوسه صبراً ، وسرعان ما غادر الطبلية معتذراً بأنه قد تعود النوم المبكر .

وهزت الأم رأسها في أسف وقالت :

— أنا أكاد لا أتمتع برؤيتكما لحظة .. إما في المدرسة أو في السينا أو نائمان !!

وقال الأب :

— دعيهما يستريحان .. إنك لا تعرفين الجهد الذي يلاقيانه .. كان الله في عونهما .

وعندما دخل « علي » الحجرة وجد أخاه وقد أطفأ المصباح وورق علي فراشه وفرد الغطاء على جسده ورأسه ولم يعد يبدو منه إلا كتلة منبعجة فوق السرير .

منذ متى يفعل حسنين هذا ؟ وهو الذى ما كان يتركه حتى يقص عليه كل ما فعل فى خلال الأسبوع مما يستحق وما لا يستحق .

والليلة — بعد غيبة شهر — يطوى نفسه هكذا بلا كلام ولا مزاح ولا معاكسات ولا مشاغبات !

واقترب « على » منه ودفعه فى كتفه ، وهو الذى لم يكن قط البادى بالمشاغبة .

ولم يتحرك « حسنين » ، فزادت دهشة « على » وهتف به :
— حسنين .

وعاد يهز كتفه .. وأجاب حسنين بزومة من أنفه . فسأله « على » :
— ماذا بك ؟

— لا شيء .

— كيف . لا شيء ؟ أهذه هى عادتك ؟

— بى بعض الصداع وأريد أن أنام .

— كلام فارغ .. ليس هذا ما بك ؟ قل .. ما الحكاية ؟

— أية حكاية ؟ ! قلت لك ليس بى سوى صداع .

— أنا أعرف أنه ليس بك صداع .. أنا أعرفك جيداً يا حسنين .. لا تتخايب على .

ومد « على » يده وجذب الغطاء من فوق رأسه .. ثم جذب الوسادة من تحتها ، ولكن لم تكده يده تلامس الوسادة حتى أحس بها مبتلة .
كان ما بها قطرات دمع .

كان حسنين .. المرح المستهتر الضحوك الذى لا يهزئه شيء .. ييكى ! وأخذ « على » ، وأحس كأن القطرات المراقبة على الوسادة تجذب القطرات الجامدة فى مقلتيه .

وتذكر بكاءه على نفس الوسادة منذ بضع سنين ، وتذكر دهشة أخيه

وارتياعه ولوعته عليه ، وأحس بنفس الدهشة والارتياح واللوعة ، وتملكه شعور بالحنان الجارف أشبه بشعوره ليلة افتراقاً لأول مرة ليذهب كل منهما إلى مدرسته ، وشعر برغبة في أن يضم إليه أخاه وهو الضنين بمظاهر العطف والحنان .

وأعاد الوسادة إلى مكانها وصعد إلى الفراش ، متخذاً مكانه بجوار أخيه كما تعود أن يرقداً ليلة حياتهما الماضية .. ومدّ ذراعه فضمه إليه ، ثم تحسس بسبابته جفنيه المبتلين وهمس بلهجة ملؤها الحزن :

— ما بك يا حسين ؟! إنك تبكى !
ولم يجب حسين ، وأخفى رأسه في الوسادة ، وعاد « على » يسأل في دهشة شديدة :

— تكلم يا حسين .. منذ متى تخفى على ما بك ؟
ورفع حسين رأسه من الوسادة ، وحدق في وجه أخيه في الظلمة وقد خيمت على عينيه سحابة دمع ، وهتف بصوت متحشرج :

— إني مريض .

— مريض !! بماذا ؟

— بمرض لا أجسر على ذكره .

ثم عاد يخفي وجهه في الوسادة واندفع في نوبة بكاء ، واستطاع « على » أن يدرك ما بأخيه .. وأحس يده تعتصر جوفه في قسوة .

إن هذه هي العاقبة .. عاقبة الطريق الشائك الذي اندفع فيه .

ووجد « على » نفسه يتساءل فاغر الفم في ذهول :

— كيف يا حسين ؟! ومتى ؟! أفي هذا البيت الذي ذكرته لي ؟

ورفع حسين رأسه من أسفل الوسادة وهزّها بالنفث وأردف يقول :

— لا .. لم يكن هناك .. بل كان في بيت آخر ذهبنا إليه بالأمس أنا وبعض

الزملاء عند عودتنا من مباراة الكرة . ولقد كنت متعباً ، وحاولت أن أعود إلى المدرسة مباشرة ، ولكنهم ألحوا عليّ وأصروا على اصطحابي معهم ، وعند العودة

إلى المدرسة اكتشفت الكارثة .

وأحس « على » أنها كارثة فعلا .. إن الأمراض المادية الطبيعية التي يصاب بها الإنسان والتي يحس أن القدر قد أنزلها به ، لا تحل آلامها إلا بجسده ، أما هذا النوع من الأمراض فالآلام مضاعفة .. آلام في الجسد وآلام في النفس ، والروح .. بل إن آلام النفس لأشد كثيراً من آلام الجسد .. إنها تهبط بالروح إلى أقصى الحضيض .. إنه يشعر أنه هو الذي أنزل المرض بنفسه .. ويشعر بين الناس بمهانة ومذلة .. لما تعودوا أن ينظروا إلى تلك الأمراض بالازدراء والاحتقار . فهي دليل واضح على الخطيئة ، وأثر ملموس للزلل .

ضلة لهم . كأنهم أبرار أطهار . لا يعرفون الخطيئة ولا يرتكبون الزلل . ضلة لهم من منافقين كذابين .. يترفعون في مظاهرهم عن الخطايا والخطايا ملء أجوافهم ، ويأنفون من مقترفيها وهم في اقترافها أشد ، وفي ارتكابها أعمى ، ويزدرون آثارها ودلائلها وهم بازدراء أنفسهم أولى وباحتقارها أحق .

وأرتج على « على » فلم يعرف ماذا يقول ، وعاد حسين يتمتم في يأس :

— لست أدري ماذا أفعل ؟! إني لا أجسر أن أقول لأحمد .. ولا أستطيع أن

أبقى كما أنا .. وأخشى الفضيحة هنا وفي المدرسة .. ولست أعرف كيف أخفي الأمر . وأنا لا أستطيع أن أستمع في الطواير ولا تمرين الكرة أو مبارياتها .. وإذا ذهبت إلى طبيب فلا بد من النقود ولا بد أن يعرف أبي ، وأنا أكره أن يعرف .. إني أخشى ازدراءه .. إني أشعر أن كل الناس يرمقونني بنظرات الاحتقار كأنهم يعرفون سائي .. جتى أنت أشعر بالخجل منك وأخشى أن تكره نومتي بجوارك . إني يائس .

وأحس « على » بمدى يأس أخيه .. وكره أن ينغمس فيه في لجة اليأس .. وأن يغرق الاثنان في طوفان من الاستسلام والعجز ، ورغم إحساسه بأن « حسينا » إنما يجنى ثمرة خطئه واندفاعه في طريق اصطلاح الناس على أنه غير مستقيم ، وأنه يدفع ثمن متعته آلاماً مضاعفة .. وأن الحياة كشيئتها تسترد منه ما وهبته له ، مما

سماء هو أوقاتا طيبة .. ورغم إحساسه بهذا فقد وجد أن من الخطأ أن يردده لأخيه ، وأنه يجب أن يستمد من اليأس شجاعة تمكنه من أن يمد يده لأخيه ليرفعه من وهدة .

ونضم إليه أخاه وقبله قائلا :

— تشعر بالخجل مني .. من أنا ؟

— أجل . إني أذكر نصحك لي .. وأحس بالتضاؤل أمام مثاليتك واستقامتك .

— أنا غير مستقيم ولا مثالي .. إن لي خطاياى كما لك خطاياك ، ما من بشر إلا وله خطايا . إن الخطايا كامنة في نفوسنا ، ولا فارق بين إنسان أو آخر إلا في قدرته على كتبها ، واختلاف الظروف المحيطة به والمساعدة على إتمامها وتفجيرها .

— لو سمعت نصحك ...

— ما كان يجب عليك أن تسمع نصحي . فإساءة النصح أضعف من أن يقف في تيار الرغبة .. في الحياة والمعرفة والمتعة .. إنما تنصحك تجربتك ومعرفتك .

— لو كنت أدري ما سيحدث لي ؟

— لأقدمت عليه . فما أظنك كنت لا تدري أن هذه إحدى نتائجه .

— إنها نتيجة قاضية .

— ليس فيها شيء من القضاء .. إنها أزمة تمر .. لا تدعها تعصف بنفسك ولا تتهاوى ولا تتخاذل .. إنها مجرد تجربة علمتك شيئا .

— واستقرار الناس لي وازدراؤهم ؟

— دعك من الناس .. إنهم لا بد أن يفسدوا شراً أو يتفسدوا بشراً .. إن نجحت حسدوك .. وإن سقطت استقروك . أما الذين يعرفونك فإن ما أصابك لم يغير ما بنو وسهم نحوك من معزة . إني لم أحس مما قلته لي سوى ضيق لضيقك ، وحزن لحزنك .. فإذا تجلدت وواجهت الأمر بحزم وشجاعة أصبحت وكأن لم

يصبك شيء .

— وأنى .. ماذا سيقول ؟

— إن أبانا أكثر الناس قدرة على تحمل المصائب والصبر عليها ، وأكثر الناس تقديراً لنزوات الغير وأخطائه .. سيحزن قليلاً ثم يواجه الأمر معنا أو يحمله عنا .. ماذا تظنه فاعلاً غير ذلك ؟! أتظنه يجهل أننا قد أصبحنا رجالاً .. وأن من خصائص تكوين الرجال أن يفعلوا أشياء لا مناص من فعلها !! إن الطريقة التي ركبنا بها والتي خلقنا عليها .. تجبرنا على أن نفعل ما حرم علينا فعله ، وهذا شيء لا بد أن يكون هو مسلماً به كما سلم به سواه . والنتيجة أن تحدث مما نفعل بعض مضاعفات لا بد أن تتحمل عواقبها .. مرض هنا .. ومأساة هناك .. هذا شيء طبيعي لا بد من قبوله والتسليم به ، وألا يصيبنا منه الانهيار واليأس .. والفرع والجزع .. وأن نتظر إلى أصحابه كما ننظر إلى مخلوقات غريبة أتت أفعالاً عجيبة ، ليس فعلها من خصائص البشر ، بل من خصائص الجن والشياطين .. نحن بشر .. وما يتوقع من البشر غير ما يتوقع من الملائكة . وإن واجبنا حقاً هو التطهر من الدنس والتسامي عن الشرور .. ولكن كيف نتطهر من الدنس إذا لم نوجد في الدنس ، ونتسامي عن الشرور إذا لم تغمرنا الشرور .. دع عنك يأسك وألق عن نفسك جزعك وارتياحك .. لقد فعلت ما يفعله غيرك من البشر .. وليس ذنبك أن يكون القدر قد اختارك ليجعل منك عظة لبشر لا تجدى فيهم العظة ولا تنفع التجربة .. بشر يدفعهم تكوينهم إلى الخطيئة دفعاً .. وإلا ما سموا بشراً .. أخى لا تحزن ولا تيأس فإني ما أحببتك في وقت من الأوقات أكثر مما أحببتك الآن .

وأحسن « حسين » بالعبء الذي أنقض ظهره قد تضاعل وانكمش ، والكابوس الذي جثم عليه وأخذ أنفاسه قد انزاح وانقشع ، ومدّ ذراعه فأحاط بها أخاه وضمه إليه ، وكأنه يضم درعاً تقبه غائلة الشر ويصد عنه شبح الأذى .
وهمس في أذن أخيه :

— وبماذا تشير عليّ ؟

— دع الأمر لي .. سأديره كله .. إن عليك همّ المرض وعليّ همّ التدبير ..
ألم نتشارك كل شيء في حياتنا .. فكيف لا نتشارك الهموم الآن ؟
وأغمض الأخوان أعينهما .. وقد تشاركا الهم ، فمخف عن كل منهما عبؤه ..
ولم يكونا وحدهما الشريكين في همهما .. بل كان هناك ثالث لم يحسما به ،
شاركهما الهم وحمل منه نصيبه إن لم يكن حمله كله ، حتى ناء به كاهله .
في ظلمة الليل .. وأسفل الطاقة الكاثنة في جدار حجرتهم والمظلة على ممر
ضيق يفصل بينها وبين حجرة الأم كان يجلس شبّح صغير قد التف بشال من
الصوف الأسود وقد تكوّر في جلسته ودفن رأسه بين ركبتيه وأخذ جسده يهتز
من البكاء .

لم يكن « علي » وحده هو الذي أحس بالتغيير الطارئ على حسين .. ولم
يكن وحده هو الذي يعرفه كما يعرف نفسه .. بل كان هناك مخلوق آخر قد أحس
بما به ؛ وأخذ يرقبه في صمت وألم .. وعندما ذهب إلى فراشه جلس ينصت إلى
أنفاسه تتردد من الطاقة .. وهو يحس بقلبه يدمى ليأسه وحزنه وبكائه ، ويود لو
استطاع أن يشارك أخاه في ضمه ورفع الحزن عنه . ولكنه كان يعرف أنه لا يملك
إلا جلسته الخفية وبكاءه الصامت .

كان هذا المخلوق القابع في الظلمة .. المرتجف من البكاء والحزن .. هو

« بهية » .

(٢٤)

إذا استحق أن يحيا

عاد « على » إلى المدرسة وقد استطاع أن يدبر في حدود طاقته أمر أخيه .. ولم يكن في عودته يحس بكثير من المرح ، بل كانت تطوف بنفسه موجة الحزن تلطمه بخفة .. اللطمة تلو اللطمة .. فلا تكاد تصيبه حتى تنحسر لتعاود لطمه . وكان لمصاب أخيه — رغم كل ما حاول أن يخفف من وقعته على نفس أخيه — أثر سيء في نفسه .. ولم يكن هناك شك في أنه أحد الدوافع المحركة لريح الأسي الخفية التي تدفع بموجات الحزن في نفسه .

أجل .. كانت هي إحدى الدوافع .. أما الدافع الأصلي فكان حديث دار بيته وبين أبيه وهو يسير معه عند عودته من الحديقة قبيل المغرب .

سأله أبوه بعد فترة صمت بدا خلالها كأنه يدير في نفسه كيف يبدأ الحديث : — أذهبت ليلة أمس إلى الحديقة ؟

ودهش « على » من السؤال ولم يجد هناك مسوغاً للإنكار لا سيما وهو يحس أن أباه يلقي السؤال لا للتأكد من الجواب بل لقيادته إلى حديث آخر أهم من السؤال .

وأجاب « على » في اقتضاب :

— أجل .

— ولقيت « أنجي » ؟

وزادت دهشة « على » وعاد يجهب إجابته المقتضبة وكأنه يستحث أباه لكي يقول ما يود قوله :

— أجل .

وصمت الأب فترة أخرى .. ثم أطلق من صدره زفرة حارة وقال :
— اسمع يا على .. ليس أكره إلي من نصحك .. لأنى أعرفك جيداً .. أعرف
أنك رجل لا تحتاج إلى نصيح .. بل إنك أقدر على النصيح والتوجيه والإرشاد ..
ولكننى مع ذلك لا أجد هناك بدأ من أن أوضح لك أمراً ربما يكون قد خفى
عليك .. وليس المفروض أن يرى كل إنسان كل شيء .. بل غالباً ما يعجز الإنسان
أن يرى الشيء الشديداً الملاصقة به ، بما يسهل على غيره أن يراه بوضوح .
وصمت الأب مرة أخرى ، وقال « على » وهو يحدق ببصره فى الحشائش
المتناثرة أمامه :

— قل يا أبت ما تريد .. إنى أفهم تماماً الدوافع التى تدفعك إلى هذا القول ..
إنك أبى قبل كل شيء .. ومهما كنت ترى فى من عقل وروية فلن أزيد فى أية
مرحلة من مراحل حياتى عن أن أكون ابنك الذى يحتاج دائماً إلى نصحك
وإرشادك .

— لقد كنت دائماً أوجس خيفة .. مما يمكن أن ينشأ بينك وبين الأميرة
الصغيرة .. كنت أخشى عليك من عواقبه .. ولكن كان يطمئننى قدرتك على
التحكم فى مشاعرك وعلى كبح جماح نفسك .. وأنا لا أستطيع أن أقدر ما تأتى به
الأيام فهى قادرة على فعل العجائب وتحقيق المعجزات . ولا أستطيع منعك عما
يفعلك إليه قلبك لأنك ترى به ما لا أرى بعينى .. ولكن هناك كما قلت لك أشياء
يجب على من يرى بعينه أن يرشد إليها من لا يرى بغير قلبه .. ولو لم يحدث ما
حدث بالأمس لما فكرت فى مفاتحتك الحديدية .. ولكن .. رب ضارة نافعة .
ولم يفهم « على » ما يقصده الأب .. وسأله وهو يحس كأن هناك خطر
مقبلاً :

— ماذا حدث بالأمس ؟

— لقد عرف الأمير أنك لقيت « أنجى » .

— الأمير ؟! وكيف ؟

— قال له أخوها علاء .

— وكيف عرف علاء ؟

— يحتمل أن يكون قد عرف من بعض الخفراء .. لست أدري كيف عرف بالضبط ولكن المهم أنه عرف وأبلغ أباه .

— وماذا فعل أبوه ؟

— لقد سأل « أنجى » فأخبرته أنها لقيتك صدفة وهى تتمشى فى الحديقة عندما كنت تبحث عنى ، فأمرها بعدم الخروج ليلا فى الحديقة ، وزجر المربية لأنها تركتها تخرج وحدها .

— وكيف عزفت أنت ؟

— لقد أخبرتنى المربية اليوم وحذرتنى من مغبة علاقتكما وطلبت منى أن أمنعك من محاولة الاتصال « بأنجى » إذا كنت أريد أن أبقى على رزق .
وأحس « على » من حديث أبيه وقع المطارق .. وملأه شعور خليط من الحفجل والمرارة .. الحفجل من أن يقف موقف المذنب العايب الذى يوشك بعيشه أن يتسبب فى قطع رزق أبيه ، والمرارة من الحياة التى لا يستطيع المرء أن يرشف من كأسها رشفة إلا وأعقبها فى حلقه غصة .. مهما أحس بحاجته إلى الرشفة وحقه فيها .. ومهما كان غرضه منها سامياً أو دانياً ، ومهما أحس فى أعماقه من روحانية أو شهوانية ، ومهما بدا فى مظهره من طهر أو دنس .. كله سواء .. وكل رشفة لا بد فى أعقابها من مرارة وغصة ، لقد أصاب من رشفته من المرارة والإحساس بالذنب مثل ما أصاب أخوه .

وأعقب هذا الإحساس بالحفجل والمرارة ، إحساس بالألم والخشية من أن يكون قد سبب لها متاعب وعرضها لزجر أو تأنيب أو أى نوع من أنواع الضيق . وهكذا عاد « على » إلى المدرسة ، وموجات القلق تتدافع على نفسه ، يقاوم لطمتها الحزينة إحساس أقوى وأثبت ملأ نفسه بالإيمان والثقة .. وجعل موجات الحزن تنحسر عنها دون أن تنال منها كأنها الصخرة الثابتة يتطاير من حولها الرذاذ .

كان ذلك الإحساس القوي المليء بالثقة والايان ، قد غرسه في نفسه اللقاء الأخير ووطد دعائمه في قلبه حديث ما زالت كلماته تطوف برأسه كأنه النغم الحلو والترنيمة العذبة .

كان يطغى على كل أصوات الألم والمرارة والخوف والقلق .. صوت حنون عذب يهتف به في إيمان عجيب « إن طبيعتي من طبيعتك وتفكيرى من تفكيرك ومشاعرى من مشاعرك ، إنى أحس أن بروحينا تقارباً عجيباً ، أحس كأن هناك انطباقاً بين نفسيينا .. لهذا أحببتك ، ولهذا سأندفع فى حبك بلا تأرجح ولا توقف .. ولا خشية من تقاليد ، ولا خوف من فوارق .. إننا بقلبيينا المتوهجين وروحينا المتأججتين سنتخطى كل سدود الدنيا .. ولن يفرق بيننا إلا الموت » .

كان الصوت العذب يطغى على كل ما عداه ، كان يبعث فى نفسه طمأنينة واستقراراً يتضاءل أمامه كل قلق وتبدد كل خشية ، كانت اللمسة الساحرة التى تحلى كل مرارة وتلذ كل ألم .

ماذا يضابقه ويقلقه ؟ .. انقطاع عن لقاءها ؟! أو كان هو يضمن لقاء دائماً ؟! . أليست هذه هى بعض الحوائل والسدود التى يجب أن يتوقعها والتى قد عقدت معه ميثاقاً على تخطيها بروحيهما المتأججتين ، وقلبيهما المتوهجين ؟

ألا يكفيه هناء ومتعة أن يذكر قولها .. إنها أحبته ، وإنها ستندفع فى حبه بلا تأرجح ولا توقف ؟

— أجل .. إن هذا الجد كاف لأن يملأ نفسه بالأمل والرجاء ويعينه على أن يطوى قفار الحياة .. حتى ولو لم يرها ذاك !

وبدأ الدراسة فى فرقته الجديدة فتناولته رحي الحياة التى لا تنى ولا تكل .. وأخذت تتلقفه أكف الطواير والألعاب والمحاضرات والمشروعات التكتيكية والرسوم الطبوغرافية فى فرقة المتوسط .

كانت دورات الرحي فى فرقته الجديدة سريعة مجنونة فقد كان عليهم أن يدرسوا برنامج العام كله فى بضعة الأشهر الباقية من السنة .. وكان عليهم أن

يُؤدوا في نهاية العام الامتحان الذي سينقلهم من القسم المتوسط إلى القسم النهائي . ولم يكن المطلوب هو مجرد النجاح فقد كان يتوقف على ترتيبه مستقبلاً في العام القادم كله .. إذ كانت رتب ضباط الصف الذين يديرون المدرسة تعطى حسب الأقدمية .. وكان يتوقف عليه أيضاً إلى حد كبير ترتيبه عند التخرج وأقدميته في الجيش التي ستظل ملازمة له مدى حياته .

وكان القسم المتوسط يتكوّن من سبعة عشر طالباً : سبعة منهم باقون من الفرقة القديمة التي انتقل منها عشرة إلى القسم النهائي ليحلوا محل طلبته الذين تخرجوا ضباطاً . والعشرة الآخرون الذين انتقلوا من القسم الإعدادي والذي كان هو أحدهم

وبدأ النضال بين السبعة عشر طالباً . وكان « على » يحسّر في نفسه ثقة كبيرة ، فقد بدأ يعتاد حياة المدرسة ولم يعد يشعر بعد انتقاله إلى المتوسط وتفوقه في النجاح بشعور البكرة المجهول . وأخذ يبرز في مختلف نواحي النشاط في المدرسة .. ونظر إليه الطلبة والمدرّسون على أنه أحد الأوائل المنتظر أن تكون في يدهم إدارة المدرسة في العام القادم .. فقد كان من المتوقع أن يتمكن الطلبة الناجحون من الإعدادي من المحافظة على أولويتهم في الترتيب عند انتقالهم إلى القسم النهائي ، إذ كان النضال بينهم وبين السبعة القدامى غير متكافئ ، فقد كانوا أوفر ذكاءً وأكثر جهداً وأعلى روحاً .. وكانت فرصة السبق أسنح لهم رغم حصول الآخرين على فترة أطول للدراسة طول السنة في برامج المتوسط .

وهكذا شغل النضال علماً ، ولم يعد الانهماك في الطوابير والدراسة والألعاب بمنحة إلا هنيهات قصيرة يجتر فيها أعذب ذكرياته ويهم في أنضر أحلامه وأهوى أمانيه .

ومرت الأسابيع دون لقاء .. لم يحاوله هو .. ولم تحاول الظروف أن تمنحه فرصة ، بل حرمت عليه الصدف السعيدة التي كانت تهيئها له في كل لقاء سابق .. وأخذ الحنين يزداد به .. وضيق الحرمان يشتد وهو يحاول أن يرفع عبئه

و يقاوم شدته بذكري ماضية وأمل مستقبل . مستعينا بكلمات حنون في رأسه وبقايا وردة جافة تعبت بها أصابعه وتنحسها شفتاه .. ونفثة من صدره بين آونه وأخرى لصاحبه سليمان كلما ضحمتها جلسة أو سنحت بالحديث فرصة .
وكان سليمان كعهده به يبادله بمحدث الصبابة حديث سياسة .. كان « على » يتحدث وملؤه الحنين والحب والأمل ، وكان سليمان يتحدث وملؤه التمرد والثورة واليأس .

وفي إحدى الأمسيات جلس الاثنان في قاعة الرياضة الفسيحة ينتظران دورهما في تمرين الشيش .. وقد أخذ سليمان يفضي بآرائه الثائرة ، بينما انهمك المدرب الفرنسي في تمرين أحد الطلبة ، ولمح سليمان من خلال باب القاعة كبير المعلمين الإنجليزي يسير ووراءه بعض الضباط .

وتطع سليمان حديثه وأشار بعينه إلى الرجل وهمس في يأس :
— لا أمل هناك في إصلاح ما دامت تلك الوجوه الحمر رابضة في الادنا .
ثم حوّل عينيه إلى صورة « للملك » معلقة في واجهة القاعة وعاد يهمس :
— ولا أمل في جملة هم .. ما دام هذا رابضاً على رموسنا .
وهز « على » رأسه متعجباً من قول سليمان .. إنه لا يحس بضيق من هذا أو ذاك فكلاهما أبعد عن نطاق تفكيره وأناى عن محيط ذهنه .. ولم يعرف كيف يعلق على قول صاحبه ، وأنقذه من التعليق حلول دوره في التمرين وإشارة المدرب له بأن يأخذ مكانه أمامه فارتدى القناع الشبكي ووقف أمام المدرب بستره التدريب السميكة والبنطلون الطويل الضيق ووقف وقفة الاستعداد لتمرين « السابر » الذي أعقب به المدرس تدريبهم على لعبة « الفلوريه » .
وكان التمرين مملاً بهيئاً . ليس به شيء من مظهر المباراة الحار النشاط السريع الذي طالما رآه « على » في السينا بين أبطال المباراة في عهود الإقطاع في أوروبا .. كان التمرين لا يزيد على حركات متكررة متوالية ، وكلمات متشابهة متقطعة تخرج من شفتي المدرب باللغة الفرنسية : « اضرب » « اتسق » ..
(رد قلبي .. ج ١)

« اضرب » .. « اتق » .

وانتهى دوره في التمرين ، وتقدم سليمان ليتخذ مكانه أمام المدرب .. عندما دخل الجاويش النوبتجي بسونكيه المدلى من قايش الوسط . الذي يميزه عن بقية الجاويشية وصاح بالطلبة الموجودين في الصالة في كلمات قصيرة قاطعة
آمرة :

— اجمع في الفرق .

ودهش الطلبة إذ لم يكن موعد انتهاء طابور الشيش قد حان ، وكانت طوابير الشيش والملاكمة تعمل دائماً بعد التمام في إحدى حصص المذاكرة . ولم تكن نوبة انتهاء الحصّة الأولى قد قربت ، وتساءل الطالب الأقدم (الحكمدار) محاولاً الاستفهام من الجاويش النوبتجي :

— أنجمع الآن أم بعد انتهاء الطابور ؟

وعاد الجاويش يصيح متبرماً بغباء الطالب :

— اجمع حالا في الفرق .

ونزع الطلبة ملابس الشيش واصطفوا بسرعة ثم انطلقوا بالخطوة السريعة إلى فرقهم .. ولم يكذبوا يستقر بهم المقام على مقاعدهم حتى صاح حكمدار الفرقة منادياً :

— ثابت .

ثم أدى التحية لسليم افندى الضابط الذي يدرس لهم مادة المشاة والذي تقدّم إلى منصة المدرس قائلاً للطلبة دون مقدمات :

— في خمس دقائق أريد أن يجهز كل طالب بندقيته ويركب بها القايش وتصطف الفرقة كلها أمام عنبر الصف الثالث .

ثم وجه القول إلى حكمدار الفرقة :

— مفهوم .. خمس دقائق فقط .

— حاضر يا فندم .

— انصراف الفرقة على العنابر .

ودون أن تعطى لهم فرصة للسؤال أو التوضيح اندفع الطلبة كالصواريخ منطلقين من الفرقة إلى عنابر النوم ، وفكت السلاحليكات وأخرجت منها البنادق وركبت فيها القوايش . وفي أقل من خمس دقائق كانت الفرقة مصطفة في المكان المطلوب ، وكانت بقية فرق المدرسة (الإعدادى والنهائى) قد اصطفت أمام العنابر الأخرى .

وبدأ الفهمس والتساؤل يسرى ...

ما سرّ تلك المفاجأة ؟! لماذا يغادرون الفصول ليصطفوا ببنادقهم في هذا الوقت من الليل ؟!

ليس الوقت وقت طوابير .. ولو كان هناك تمرين على السير الليلي لوجب أن يعد له من قبل ، ولكتب ذلك في البرنامج ولتنبه عليهم للاستعداد له .

إذاً ما السبب في هذا الاصطفاف العجيب ؟

أترى هناك أوامر أخرى مفاجئة كذلك التى أقيمت قبيل الامتحان ؟

أترى هناك .. امتحان آخر ؟

وإذا كان .. فما حاجتهم إلى الاصطفاف بالبنادق ؟

لا .. لا .. لا بد أن يكون فى الأمر شىء غير هذا .

لنتظر .. بعد هنيهة لا بد أن يقبل أحد رعوس المدرسة .. كبير المعلمين أو الأركانخرب .. ليجلو الغامض ويكشف السر .

وسمعت وقع أقدام مقبلة على السلم .. وصاح الحكمدار منبهاً الطلبة :
— فرقة .

ونظر الطلبة بأطراف أعينهم إلى ناحية السلم .. فلم يجدوا فى القادمين سوى مدرّس المشاة يتبعه بعض صف الضباط « التعلمجية » (المعلمين من الجنود) .

وأردف حكمدار الفرقة متمماً ندائه :

— انه تبه كتفاً .. سلح ..

ورفعت البنادق في حركات ثلاث قوية نشطة ، واستقرت على الأكتاف وعلى راحة الأيدي اليسرى بالسواعد موازية للأرض و « الكيعان » ملتصقة بالجانب .

وصاح الضابط: آمراً المعلمين :

— كل معلم يأخذ جماعته .. وجماعة الباشجاويش معوض تقسم على الجماعات .

وفي لحظات قصار كانت الفرقة قسمت كما تقسم في طوابير المشاة ووقف كل معلم أمام جماعته .

ووقف « على » بجوار سليمان مشدوهاً مأخوذاً .. وهمس متسائلاً :
— ما هذا التهريج ؟ .. أظابور سلاح في هذا الوقت من الليل و ماسر هذا الاستعجال ؟! ألن يطلع الصبح .. لا بد أن يكون سليم أفندى جن ؟
ورد سليمان هامساً :

— سليم أفندى وحده .. إن المدرسة كلها قد جنت .. إن كل الفرق قد خرجت في طابور سلاح ليلي .

— ولكن لماذا ؟!

— لا بد أنها سخافة من نزوات العسكرية المفاجئة .. شيء طرأ على ذهن كبير المعلمين فجعله يأمر بطابور ليلي .. ماذا سيضيره هو .. ما دام معلميناً في مكتبه !
— لا أظنه جن إلى هذا الحد .. لا بد أن يكون في الأمر شيء .

— أى شيء .. صدقني إن المسألة لا يمكن أن تكون أكثر مما قلت لك .

وصاح سليم أفندى بالتعلمجية :

— ابتدئ التعليم .. لا أريد « لت وعجن » .. أريد تعليم سريع .. وحركات موحدة مضبوطة .. استعمل العلفى سرك .. لا أريد أن أسمع صوتاً .

وبدأ التعلمجية تعليمهم .. وصاح الشاويش « رزق » بجماعته محاولاً إيقاظها :

— جماعه .. صفا .. جماعه .. انتباه .. جماعه .. صفوا .. شديداً ..
شديد .. مع بعض ...

وعندما اطمأن إلى يقظة جماعته بدأ التعليم :

— سنجرى اليوم تعليم وضع منعكساً سلاح .. عندما ينادى المعلم منعكساً
سلاح بالعدد في واحد . هات البندقية .

واستمر المعلم في درسه ، يعبر عن الحركة ثم يفعلها والجماعة تقلده ،
وأصبحت الطريقة كأنها برج بابل أو سوق الثلاثاء تتعالى منها مختلف الصيحات
والنداءات والحركات .

وعندما انتهى الطلبة من تعلم « منعكساً سلاح » بدأ المعلم قوله :

— انتهينا الآن من حركة منعكساً سلاح .. أريد من كل طالب بعد انصراف
الطابور أن يتمرن عليها على حدة ، وليس لدينا وقت للتمرين .. والآن سنعلم ..
تكس سلاح . عندما ينادى المعلم تكس سلاح بالعدد في واحد .. ضع
البندقية .

ويبدو أن حماسة المعلمين في التعليم قد تزايدت فقد خرج أر كان الحرب من
مكتبه ووقف في الفناء يصيح بخنجرته الميكروفونية :

— سليم أفندى .. قلنا بلا ضجيج .. يا سليم أفندى .. ليس هناك شيء
بعد .. ادخلوا العنابر من فضلك

وأجاب سليم أفندى على صيخته :

— حاضر يا فندم .

ثم وجه القول إلى التلمجية :

— على مهلك التلمجية .. بصوت واطى .. كل تعلمجنى يدخل الجماعة
العنبر الذى يصطف أمامه .. ويجرى التمرين على الخطوة البطيئة .

ودخلت الجماعات إلى العنابر .. وفى أثناء الدخول .. منحت فرصة
الحديث لسليمان فهمس فى أذن على :

— صدقت .. إن المسألة أكبر من مجرد سخافة .. إنه تمرين على جنازة .
— جنازة مَنْ ؟! من الذى مات ؟
— لم يمت بعد .. ولكنه يوشك أن يموت .. إننا نتدرب على احتمال موته .
— مَنْ هو ؟
— الملك .

وفي اليوم التالى كان الملك قد انتهى .. وارتدى الطلبة الملابس الكاكية رقم ١
وخرج طابورهم يتقدم الجنازة الطويلة الضخمة الرائعة التى أخذت، تخرق
شوارع القاهرة ، وقد حملوا أسلحتهم فى وضع « منعكساً سلاح » الذى أجرى
تدريبهم عليه ، والملك يلفظ آخر أنفاسه .. كأن هناك سباقاً بين تدريبهم الحركة
وبين خروج أنفاسه .. وبلغ طابورهم منحدر القلعة وبدأت مآذن القلعة
لأنظارهم فى الطريق الصاعد بيت الجامعين وانشق طابورهم نصفين ليصطفوا
على جانبي الطريق ووضعوا ينادقهم منكسة على أقدامهم وأحنوا رؤوسهم
والنعش الملفوف فى العلم الأخضر يمر بينهم .. وحمل النعش إلى داخل جامع
الرفاعى وبدأت حشود المشيعين تملأ رحاب شارع محمد على بطوائفهم المختلفة .
وانتهت الجنازة ، وركب الطلبة السيارات ، وجلس سليمان بجوار « على »
وسمع « على » تنهيدة راحة تخرج من صدره كأنما أزيح عنه عبء ثقيل ، ومرّ
بهما بائع صحف يحمل إحدى الصحف وقد كللت بالسواد وكتب عليها بالخط
العريض « مات الملك .. يحيا الملك » .
وهمس سليمان وكأنه يتحدث نفسه :
« لينحى ... إذا استحق أن يحيا » .

(٢٥)

هزيمة مشرفة

أشرف العام الدراسي على نهايته ، واشتدت المسابقات الرياضية بين الطلبة والبلاتونات (الفصائل) ، البلاتون الأول والبلاتون الثاني .. وكانت للرياضة في المدرسة أهمية كبرى للأفراد والبلاتونات .. أما من ناحية الأفراد فقد كان للألعاب الرياضية درجات يحصل عليها الطلبة المتفوقون فيها تضاف إلى مجموعهم الأساسي في الامتحان النهائي وتحتسب لهم في الترتيب .. فكان لكل فرد من الفريق الأول في كرة القدم درجة أقصاها خمسون حسب قوة اللاعب ، والفريق الثاني درجة أقصاها ثلاثون ، وللأول في وزنه في الملاكمة خمسون درجة ، والثاني ثلاثون درجة ، وهكذا في كل لعبة ، حتى لقد كان بعض الطلبة المتفوقين في الرياضة يحصلون أحيانا على ثلثائة درجة .. تضاف إلى مجموعه في الدروس فتقفز بترتيبه العشرات أو تضعه في مرتبة الأول .

وقد كانت لتلك الطريقة ما يبررها من ناحيتين : الأولى تشجيع الرياضة وجعلها في مرتبة أساسية كالعلوم .. والثانية مكافأة اللاعب عن جهده ووقته الذي يصرفه في الرياضة — بينما يصرفه غيره في الاستذكار — بدرجات تعوّض له الدرجات التي كان يمكن أن يحصل عليها لو صرف كل وقته وجهده في العلوم .. فلا يشعر أن جهده ووقته المنصرف في الرياضة ضاع سدى ، ولا يعود يرى في الرياضة مضيعة للوقت ، مفسدة للمستقبل .

ولم يكن « على » بالرياضي الممتاز .. ولكن رغبته في التفوق وخشيته من أن يكون تأخره في الرياضة سبباً لضياح مجهوده في الدروس .. جعله يذل كل ما ملك من جهد في كل نواحي الرياضة ، وساعدته في ذلك سلامة بنيته وقوة

جلده ، وفرط تحمله وشدة مثابرته .

واستطاع بجهده أن يكون أحد أفراد الفريق الثانى فى كرة القدم .

وفى ذلك العام هزم الفريق الأول للمدرسة فريق مدرسة البوليس ، وكانت مباراة الكرة بين المدرستين من أهم الأحداث فى تاريخ المدرسة .. وعلى نتائجها تتوقف سعادة أو شقاء طلبة المدرسة طول العام ، وفى غمرة السعادة التى أصابت إدارة المدرسة من الفوز على مدرسة البوليس قررت إغداق الدرجات على فريقى الكرة .. الأول والثانى ، رغم أن الفريق الثانى لم يشترك فى المباراة .. ووجد « على » ثلاثين درجة كاملة تهبط عليه من السماء .

وفى « اختراق الضاحية » ، استطاع بجلده وعزيمته أن يكون من العشرة الأوائل فحصل على عشر درجات . وفى « الشيش » عاونه الحظ فكان من الخمسة الأوائل ، فأضاف بذلك إلى درجات الرياضة بضع درجات أخرى . وبدأت مباريات الملاكمة .. ولم يكن قد حاول الملاكمة من قبل .. بل كان ينفر منها بطبيعته المسالمة وخلقه الهادئ ، ولكن لم يكن من لعبها فى المدرسة بد .. فقد كانت رياضة إجبارية على كل طالب .

وكانت مباراته الأولى مع محمود عبد الحفيظ .. أحد زملائه فى العنبر ، وكان « على » يشعر بالرهبة تزداد بنفسه كلما اقترب موعد المباراة .. فقد كان عبد الحفيظ لاعباً قديماً . ولم يكن يبدو عليه أى تهيب للمباراة .. بل كان يقول لهلى مازحاً : إنه لن يجعله يتعب كثيراً لأنه سينتهى منه فى الجولة الأولى . وكان يجلس ليقتص على طلبة الصنف (العنبر) أخبار ملاكماته الأولى فى مدرسة طنطا وكيف كسرفك أحد خضومه وأحدث للآخر ارتجاجاً فى المخ .

وكانت أحاديث عبد الحفيظ .. رغم ما فيها من مزاح .. تسبب لهلى كثيراً من الرهبة .. وتخفيض من روحه المعنوية .. وتشعره بأنه قادم على معركة خاسرة .

شئ واحد هو الذى كان يبعث فى نفسه بعض الأمل .. وهو المقارنة العملية بينه وبين خصمه .

كان يجلس ليرقبه عندما يعرى جسده أثناء تبديل ملابسه .. فيجده رفيع الذراعين نحيل الجسد .. ويجد ذراعيه إذا ما تحسسهما أو أبصرهما في المرأة قويتين صابتي العضلات ، ثم يجد أن خصمه مدمن التدخين وهو لا يطيق أنفاس الدخان ، ويجده كذلك صاحب مغامرات وجولات ، وهو لم يعرف طريقه بعد إلى المغامرات والجولات .

كان ذلك هو ما يعزبه ، ويعيش في نفسه الأمل ، إذ كان يشعر أنه في جهته يستطيع أن يحطم خصمه ، رغم ما يملكه من فن وتبارب وماض مشرف . ولم يخب ظن « على » .. بل تحقق كل ما كان يشعر به .. وعندما حلت المباراة استطاع في حلقة الملائكة أن يضرب خصمه « علة » جعلته ينسى كل ماضيه وتجاربه وفنه في الملائكة .

وتمكن « على » بعزيمته من أن يفوز على خصومه حتى وصل إلى الدور النهائي ، وكان خصمه فيها .. صلاح الدين جمال .. طالب ، ضخم طويل ، لم يكن لديه أى أمل في الانتصار عليه .

وكانت المباراة النهائية في المدرسة تقام في حفلة كبرى يدعى إليها كبار ضباط الجيش .. ورجال وزارة الحربية وغيرهم من كبار المدعوين الإنجليز والمصريين . وحل موعد المباراة .. وبدأت قاعة الجميز في ذلك المساء تشع من نوافذها الأضواء .. والمدرسة كلها تضيء بالحركة كأنها خلية نحل .. وأخذت وفود المتفرجين تتوافد عابرة فناء المدرسة بين الباب الرئيسى وباب القاعة ، واصطففت المدرسة عدا الطلبة المتبارين بالملابس الكاكية والطرايش والقوايش ، ثم قادهم باشجاويش المدرسة إلى أماكنهم في القاعة لمشاهدة اللعب .

وجلس « على » على طرف فراشه يضع قدميه في حذاء الملائكة الأسود الخفيف ، ثم ارتدى « شورت » أزرق وفانلة عادية ، ووضع الفوطة حول عنقه وكبود الفسحة فوق جسده ، والطرבוوش على رأسه ، ومد يده ليغلق الدولاب وبفسه شعور بالانقباض والضيق والرغبة ، وقبل أن يغلق الدولاب مد يده

بحركة لا إرادية ففتح. الدرج الخصوصي وأخرج علبة صغيرة أشبه بعلبة «الكروت» وفتحها وتحسس ما بها ، ثم مسه بنشفتيه وأعاد العلبة برفق إلى مكانها ، ثم انطلق يعدو وقد خف عن نفسه بعض الانقباض .

وبدت القاعة رهيبة المنظر ، بحلقة الملاكمة في منتصفها وقد شددت حبالها ولفت بقماش أبيض ودهنت قوائمها بالأزرق والأحمر وسلط عليها ضوء كشاف قوى تدلى من السقف بدا ظاهره كأنه «مكبة» سوداء وباطنه كأنه شمس ساطعة ، وفي المواجهة منضدة جلس عليها الحكم وقد تدلى أمامه مصباحان أحدهما أزرق والآخر أحمر .. وجلس بجواره الميقاتي وقد أمسك بساعة توقيت ووضع أمامه مطرقة وصينية نحاسية «جونج» وعلى جانبي الحلقة جلس مساعدا الحكم كل على منضدة صغيرة وأمامه قلم وبضع وريقات بيضاء لكتابة النتائج ، وفي ركني الحلقة وقف جنديان من معلمى التربية البدنية وقد ارتدى كل منهما فانلة بيضاء وبنطلوناً أبيض ، ولف وسطه بقايش الجمباز العريض وبجواره جردل به ماء وقطعة من الإسفنج .

وفي مواجهة الحكم صفت الكراسى الأسيوطية التى أحضرت من المكتبة والنادى وجلس عليها كبار المدعوين يتبادلون أحاديث ، وعلى الجانبين رصت مدرجات خشبية جلس عليها الطلبة يتهايمسون فى مرح .. وبدأت سيماء الغبطة على المتفرجين كأنهم يتأهبون لمشاهدة مسرحية فكهة مسلية .

وفي نهاية القاعة الطويلة الفسيحة ذات الجدران العالية والسقف المنحدر تستقر حجرتان ضيقتان منخفضتان توضع فيهما أدوات الألعاب ، وفوق سقفهما غرفة آلة العرض السينمائي عندما تستعمل قاعة الرياضة كقاعة للسينما . وفي الممر المنخفض الضيق بين حجرتي المخزن والذي يحجبه عن القاعة الكبيرة بابه الشبكي الخشبي المترجح للأمام وللخلف وجلس «على» مع بقية اللاعبين والمدرسين وممرض من القسم الطبي فى انتظار دوره فى اللعب .

وكان «على» يحاول الكلام «ولكن الرهبة كانت تعقد لسانه وتطبق على

أنفاسه .. كانت المرة الأولى أن يلاكم في حفل رسمي ويتعرض لمثل هذه المجموعة الهائلة من الأنظار والأضواء .. لقد انتصر في ملاكماته السابقة لأنها كانت أشبه بالتمرين منها بحفلات الملاكمة .. كانت بالنهار ولم يكن هناك من يشاهده سوى المحكمين والطلبة وبعض الضباط .. وكان يشعر — رغم الخشية التي كانت تملكه من خصمه قبل كل مباراة — بأنه أقوى منه .

أما هذه المرة فلشد ما يزعجه هذا الحشد المتجمهر حول الحلقة ، ولشد ما يروعه هذا المظهر الضخم الهائل .. وهو يحس أن الثقة التي كانت تستقر في قرارة نفسه في المرات السابقة قد تبددت هذه المرة .. إن خصمه يبدو طيباً مرحاً لطيفاً .. وهو قد يصحب بطيبته ولطفه ومرحه ، ولكنه لا يصحب أبداً بطوله وضخامة جسده .. وعندما يجري المقارنة التي تعود أن يجريها كل مرة ليعث الثقة في نفسه يجد أن كفة خصمه أرجح وأثقل ، ويجد أن الثقة التي كان يشد بها أزره بعملية المقارنة . تتطاير وتتبدد .

وزاد من ضيقه أن مباراته لم تكن الأولى ، بل كان عليه الانتظار والتطلع والترقب .. وكانت كل دقيقة تمر به تزيد الحمل الجاثم على أنفاسه ثقلاً ، وتملاً نفسه بمزيد من خشية ومزيد من قلق ورهبة .

وبدأت المباراة الأولى .. ولم تكن مباريات الملاكمة في المدرسة الحربية تمت بكبير صلة أو شبه إلى مباريات الملاكمة العادية ، بل كانت أقرب شياً وأشد صلة بالمعارك الدموية والمذابح .. وكان نجاح المباراة يقاس بكمية الدماء المراقبة من وجوه المتلاكمين وبمقدار الكدمات في عيونهم وأنوفهم .

وانتهت المباراة الأولى ، وأقبل المتلاكم على الحجرة الصغيرة ، وكان من العسير أن تعرف أيهما الفائز ، بل كان من الأشد عسراً أن تعرف أيهما هو .. أم هو أم غيره ؟ بعد أن أضاعت الدماء السائلة والأعين المسودة ، والأنوف المتورمة من وجهيهما كل المعالم والسمات التي كانت تميزهما قبل المباراة .

وزاد منظرهما من خوف « على » ورهبته .. وأحس بجفاف في حلقه ومرارة

في فمه وبارتخاء في عضلاته .. وودّ لو استطاع الفرار من القاعة أو من المدرسة .
وسمع صوت الجاويش الذي يقفّم المتلاكمين ينادى :

— المباراة الثانية وزن المتوسط .. بين طالب رقم ١٩ صلاح الدين جمال ،
وطالب رقم ٥ على عبد الواحد .

ثم سمع صوت المدرّب وكأنه يناديه من جوف بحر :
— هيا .. لقد حلّ دوركما .

وأحس بمغص في جوفه كأن يداً تعتصر أمعاءه .. ولكنه لم يملك سوى أن
يطرح المعطف وينزع الفانلة ثم يعدو بالخطوة السريعة وراء خصمه فيدخلان
الحلقة المضيفة من بين الحبال ثم يقفان « انتباه » أمام مدير المدرسة ويتجه كل
منهما إلى الركن الملّون بلونه : على إلى الركن الأزرق ، وصلاح إلى الركن
الأحمر .

وأحس « على » بدقات قلبه تتزايد ، وبرهته تبلغ أشدها ، وقد جلس على
المقعد الصغير بينما وقف جاويش التربية البدنية أمامه يتشأنغل بتدليك عضلات
ذراعيه وساقيه .

وعلا صوت الحكم يصيح :

— مساعدين خارج الحلقة .. الشوط الأول .. ابتدئ .

وضرب « الجونج » .. ونهض « على » في خطوات سريعة عصبية ، ومدّ يده
بالقفازات الضخمة فشد بها على يدي خصمه في تحية سريعة .

وبدأت الملاكمة .. وبمجرد بدئها واندفاعه فيها زال من نفسه كل شعور ..
حتى شعور الرهبة ، ولم يعد يحس بالأضواء المسلطة أو العيون المحدقة .. ولا عاد
يرى طول خصمه ولا يخشى ضخامته .. كل ما كان يحس به هو يد تنطلق
لتنشني ، وتنشني لتنطلق .. وقبضة خصمه تصطدم بوجهه .. وقبضته تصطدم
بوجه خصمه .. دون أن يشعر منها بأي ألم .

واستمرت الأيدي تنطلق باللكمات كأنها الطلقات في قوة وسرعة .. وهو

لا يعي شيئاً .. كأنه لا يقف في الحلقة ، حتى وصلت إلى مسامعه طرقة نحاسية
وسمع صوت الحكم ينادى :
— قف .

ثم سمع الأكف تدوى بالتصفيق .. واندفع المساعدان إلى داخل الحلقة فوضع
كل منهما مقعده وجردله ، وأحس « على » بقطعة الإسفنج المبتلة تلطم وجهه
وأحس بملوحة الدماء في فمه ، ولمح اللون الأحمر يصبغ الإسفنجة ولكنه لم يكن
يحس بأى ألم .

وأخذ المساعد يهوى عليه بالمنشفة حتى دق الجونج وصاح الحكم :
— مساعدين خارج الحلقة .. والشوط الثانى . ابتدئ .

وبدأ الشوط سريعاً قوياً كسابقه ، وكانت معظم ضرباته إلى خصمه بيده
اليسرى مفرودة ، وكانت تصيب رأس خصمه فى الوقت الذى ينحنى خصمه
ليصبيه يميناه فى أسفل صدره .

واستمر الشوط بضربات القوية المتبادلة ، يُسرى « على » مفرودة فى رأس
« صلاح » ويمنى « صلاح » مفرودة فى جانب « على » الأيسر .
وقبيل نهاية الشوط بدأ « على » يحس بالتعب ، ولكنه استمر فى ضرباته بنفس
السرعة والقوة حتى ضرب الجونج وعاد إلى مقعده .

وبدأ المساعد يمسح وجهه ويدلك عضلاته وأخذ يهمس فى أذنه :
— اخفض مرفقك الأيسر حتى لا تكشف جانبك .. إن كل ضرباته موجهة
يميناه إلى جانبك الأيسر .

وكانت نصيحة المساعد فى موضعها .. ولكن « على » لم يكن فى حالة
تسمع له بتفهم النصيح ولا كان لديه الوقت ليتعلم أساليب جديدة فى الملاكمة .
ودق الجونج وبدأ الشوط الثالث والأخير .. « على » يحس بالوهن الذى
أصابه فى آخر الشوط الثانى يزداد وبأنفاسه تضيق ، ولكنه اندفع يصوب
الضربات عنيفة قوية بنفس الطريقة التى اتبعها فى الجولتين السابقتين ، وفى كل

جولة لعبها من قبل ، فقد كان ذلك هو الأسلوب الذى اعتاد عليه .
أصابه خصمه كثيراً فى جانبه ، وأصابه هو كثيراً فى رأسه حتى سود عينيه
وفسد أنفه .. وأحس بالتعب يزداد وبالوهن يشتد ، ولكنه ضغط على ضروسه
واستمر يكيل الضربات وهو يحرك يديه بطريقة آلية لا شعورية كأنما يحركهما
غيره .

وأخيراً ، وبعد انتظار أحس به هو أكثر من سواه . طرق الجونج . وتلته
عاصفة مدوية من التصفيق . ووقف أمام خصمه يتصافحان بالقفزات الضخمة
ثم حياء مدير المدرسة وغادرا الحلقة .

وقبل أن يمد الحكم يده ليعضى المصباح الفائز قال :
— الأزرق لعب مباراة ممتازة .. والأحمر فائز .

ثم مد يده فأضاء النور الأحمر ودوى التصفيق مرة أخرى .

وعاد « على » إلى الممر الضيق وهو يحس بتلاحق شديد فى أنفاسه وضيق فى
صدره ووخز فى جانبه الأيسر ، وارتمى على مقعد طويل وهو يحس بالوخز يشتد
وبالأن يتزايد ، وكأن صدره يكاد يتحطم ، ووضع المنشفة فى فمه خشية أن
يصرخ ، وأقبل عليه الممرض يسأله عما به فأشار إلى جانبه دون أن يستطيع
النطق .. وحاول أن يتحسس الموضع الذى أشار إليه ، فأحس « على » كأنما قد
وخزته سكين وصرخ صرخة مكتومة فى المنشفة .

وأسرع الجندى الممرض بإحضار الضابط الطبيب وأقبل عليه الأخير يفحصه
وقد بلغ أقصى حالات الإعياء حتى أصبح لا يكاد يقدر على التنفس .

ولم يكد الطبيب يتم فحصه حتى رفع حاجبيه فى دهشة وصاح بالمرّض :

— انقله إلى المستشفى فى عربة الإسعاف .. إنه مصاب بكسر فى الضلوع .

وأحس « على » فيما يشبه الغيوبة بأنه قد حمل على النقالة ووضع فى عربة

الإسعاف .. ثم أحس بمطبات العربة فى الطريق إلى المستشفى ، ولم يشمر بعد
ذلك إلا وهو راقد فى فراش المستشفى .

ولم يكن الكسر شديداً ، ولم يحتج الأمر إلا للرف صدره وشده بالمشمع وتركه حتى يلتئم من تلقاء نفسه في وضعه الطبيعي .

وكان أول من زار « على » في المستشفى بعد سليمان الذي رافقه إليه هو خصمه صلاح .. فقد أقبل عليه في الصباح بعينيه السوداوين وأنفه المكدوم ، وشدَّ على يده في حرارة وجلس بجواره على الفراش ، وقال في لهجة ملؤها الحزن الأسف :

— أنا متأسف جداً يا على .. لم أكن أتصوّر أبداً أني أصبتك بكسر في أضلعك .. إنني لم أنم في الليلة السابقة . فقد كرهت نفسي .. وأنا أتخيلني أوجه لك الضربات في ضلعك المكسور .. وأنت صابر متجلد كأنه ليس بك شيء .. إنني أعتقد أنه كسر في آخر الجولة الثانية .. فلقد بدا عليك ألم شديد .. ولكنك مع ذلك استمررت في اللعب حتى خيل إليّ أن ما أصابك لم يكن سوى ألم مفاجيء زال في لحظة .

وضحك « على » وقال :

— لا عليك يا صلاح .. إنني لم أشعر بشيء مما تقول .. إنني فقط شعرت ببعض التعب في نهاية الجولة الثانية .. على أية حال الحمد لله .. على نهايتها .. إنك لا تعرف كم كنت أخشى ملاكمتك ، ولكنها مرّت على خير . — أي خير هذا ؟ لقد ضربتني ضرباً لم أتصوّر قط أنه يمكن أن ينالني منك .. أوكد لك أني كنت أنخيل أن المباراة معك لن تكون سوى مباراة تسلية .. ولكنك ضربتني ضرباً قاسياً .

وضغط « على » على يده وقال ضاحكاً :

— إذا أصبح خالصين .. لقد كنت أود دائماً أن تزداد صداقتنا .. إذ كنت أعجب بروحك المرححة اللطيفة .. وأعتقد أن هذه « الحلقة » المتبادلة هي أقوى أساس نبني عليه صداقتنا المقبلة .

— أرجو ألا يكون بنفسك شيء مني ؟

— أبداً .. أبداً .. أنت لم تصبني عن سوء قصد .

ومنذ ذلك الحين عقدت بين الاثنين صداقة قوية وودّ متين .

وقبيل المغرب كان « على » يرقد في فراشه وقد أطلق ذهنه يتصيد الهموم .
كان أكثر ما يضايقه في إصابته أنها في نهاية السنة .. وقد أوشتك موعد
الامتحانات، أن يحمل .. بل إن الامتحانات المسلية قد بدأت فعلاً .. فكيف يمكن
أن يؤديها وهو بحاله تلك .. إن شرّ ما يخشاه هو أن تضيق عليه رقدته فرصة
الامتحان فيعيد السنة ويصبح كما يقول المثل « كئانا يا بدر لا رحنا ولا جينا »
وهو يعلم أن هناك طلبة أعادوا السنة لأنهم مرضوا قبيل الامتحانات ولن
يكون هو خيراً منهم .

لسن الله هذا القدر الساخر الذي يعطينا باليمين ما يأخذه بالشمال .. ماذا
سيقول لأبيه إن اضطر إلى إعادة السنة ؟

وأحس بضيق من نفسه لأنه كان يمكن لرأخفص يده ألا يصاب وكان يمكن
أن يخرج من الجولة الثانية دون أى حرج .. ولكنها « الكبرياء » والعناد .
وأحس بضيق من صلاح لأنه استمر يضربه في ذلك الجانب مستغلاً كشفه .
وهكذا ساقه ذهنه إلى الضيق بكل شيء .. ولم تفلح محاولته في الاستعانة
بذكريات « أنجي » وعودها بأن تزيل الضيق .

وأغمض عينيه محاولاً طرد الوسوس والاستعانة بإيمانه بالله .. عندما أحس
وقع أقدام كثيرة تقترب من باب العنبر الذي رقد فيه .. ثم أبصر كبير المعلمين
الإنجليزى بوجهه الأحمر وأنفه الضخم وعصاه المترجحة في يده قد أقبل وبجواره
مدير المستشفى العسكرى وهو ضابط برتبة الأميرالاي في لهجته لكنه سورية .
وأصابت « على » رهبة من رؤية الرجل فقد كان منظره يبعث الخوف في
نفوس الطلبة في المدرسة .. إذ كان الحاكم بأمره فيها .

وأخذ الرجل يقترب حتى وصل إلى فراش « على » ثم مدّ يده إليه بلفافة أخرج
ما بها فإذا به تمثال صغير للملاك من الفضة وشد على يده مصافحاً وهو يقول

بالعربية الركيفة :

— لقد قدمت لأهنتك .. إنك قد هزمت في المباراة ، ولكن هزيمتك كانت
أشرف ما رأيت من الهزائم . ولقد كنت خيراً من الفائز .
ثم نظرت إلى مرافقه قائلاً :

— كان يجب عليك أن تشهد هذه المباراة .. لقد فاتك الشيء الكثير لأنك لم
ترها .. لقد استمر متفوقاً على خصمه حتى نهاية المباراة دون أن يشعر أحد منا أن
به شيئاً .. لقد ضرب مثلاً عالياً في قوة الجلد والمقاومة وعلو الروح .
وعاد يوجه القول إلى « على » :

— أنا لا أستطيع أن أعبر لك عما بنفسى من امتنان نحوك وتقدير لك ..
ولكنى أؤكد لك أنى لا بد أن أكافئك بما تستحق .. وهذا التمثال الذى أعطيه لك
إنما هو مكافأة رمزية .. ولكنى سأمنحك إلى جواره الخمسين درجة التى
يستحقها الفائز .. وسأتيح لك فرصة الامتحان العملى وأنت فى فراشك ..
وسأدبر كل شيء لصالحك فلا تنضق بشيء ولا تقلق على شيء .. إني أحب
الرجال وأنت رجل .

وتناول « على » التمثال وهو مشدوه حائر .. لا يدري ماذا فعل حتى يستحق
كل هذا .. وبداله كأن انفعال الرجل وحرارته .. ضرب من ضروب الجنون .

(٢٦)

حديث القمر !

كانت العرب تنساب « بأنجي » في الطريق الزراعي عائدة من المدرسة متجهة إلى القصر ، وكانت مواعيد الصيف قد بدأت وأصبحت العودة إلى البيوت إبان الظهيرة .

ولم يكن الصيف قد أثقل بحره بعد ، وكان اندفاع العرب يدفع بالهواء من النافذة فيلحق وجه « أنجي » ويعبث بخضلة شعر استلقت في إهمال على جبينها . وكانت تستغرق في شروء أيقظتها منه ضجة قطار الظهر القادم من القاهرة والذي أخذ يلاحق العرب بصفيره وضجيجيه فوق الجسر القائم على يمين الطريق .. وتوقفت العرب أمام حاجز المزلقان المغلق عند منحني في الطريق يعبر سكة الحديد ، وأخذت عربات القطار تمر متلاحقة ، وتعلق نظر « أنجي » الشارد بالنوافذ المتعاقبة في سرعة وبدا عليها من مظاهر الاهتمام والتركيز ما يوحي بأنها تبحث عن شيء معين ، وأن نظراتها للنوافذ ليست مجرد نظرات عابرة تقطع بها ملل الانتظار .

ولم تكن تلك هي المرة الأولى أن تبدو كأنها تبحث عن شيء في الطريق .. فمنذ تحركت العرب بها من باب المدرسة وهي تحديق من النافذة في لهفة واضحة وقلق ظاهر .

كان اليوم يوم خميس ، والخميس يعنى لديها شيئاً أكثر من بقية الأيام . فقد كان يحمل إليها أملاً لذيذاً ويدفع في نفسها رجاء ممتعاً . كان يوم خروج « على » واحتمال لقائه .. وكانت هذا الخميس تشعر بفراط حنينها إلى رؤيته بعد أن خيب الخميسان الماضيان رجاءها وضياع أملها .

إنها لم تره منذ آخر لقاء لهما في الحديقة تلك الليلة ، ليلة العهد والميثاق ، التي آمن كل منهما بصاحبه وشد إليه قلبه حتى آخر العمر ، وهي تخشى أن يكون تحذير « الدادة » التي أسرت به إلى أبيه عقوب الحماقة التي ارتكبها « علاء » قد بلغه وأثر في نفسه ، وأنه قد عزم فعلاً على أن يحذر لقاءها .

وأخذت ترقب الطريق منذ غادرت المدرسة ، محدقة في الأفاريز والمحطات .. علّ الصدف التي منحها اللقاء أول مرة في الصيف الماضي .. تكرّر منحها ، وتعيد هبتها ، ولكن الصدف لا تكرّر الهبة ولا تعطى أبداً حين تسأل ، إنما تأتي هبتها على غير توقع أو انتظار .

ولحت بدلة كحلية ذات شريط أحمر فأصابها رجفة وهمت بالصياح موقفة السائق ولكن رؤيتها لصاحب البدلة حبست الصيحة في صدرها فقد وجدته مخلوقاً آخر غير بغيتها المنشودة .

وتمنت لو واتها الشجاعة فأمرت السائق بالعودة إلى المدرسة الحربية حيث تسأل عنه وتصحبه معها إن لم يكن قد رحل بعد . ولكن العربة استمرت تنهب الطريق وهي مشرّبة بعنقها محدقة بعينيها من النافذة دون أن تنبس ببنت شفة . ومّر القطار دون أن تبصر في نوافذه أحداً ، وعبرت العربة المزلقان متخذة طريقها إلى القصر ، وبنفسها مزيج من ضيق ويأس ولهفة وحنين .

وعندما بلغت العربة المحطة لحت شبحاً يعبر الطريق جعلها تنتفض في مكانها وتهتف بالسائق :

سند تمهل يا أسطى محمد .

ووقف السائق قريباً من عابر الطريق الذي استمر في سيره عبر المزارع متجهاً إلى مجموعة بيوت العزبة المجاورة للجامع . وأدركت « أنجي » وهي ترنو إلى شبحه المتباعد عن الطريق أنها أخطأت للمرة الثانية ، إذ لم تجد فيه علماً .. وإن وجدت أقرب الناس إليه وهو أخوه حسين .

ودون روية هتفت منادية :

— حسين .

. وبدا كأنها قد صممت على أن تفعل شيئاً إيجابياً في سبيل اللقاء بدل هذا الانتظار البغيض لهبات صدف مغلوله اليد ، مقبوضة الكف .

وتلافت « حسين » وراءه في دهشة .. ولم يكذبصره يقع على العربته ويرى « أنجى » بداخلها حتى تهللت أساريره ، وأسرع نحوها .

وتصافح الاثنان في حرارة وكلاهما يحس أن بينهما حبباً مشتركاً .. وكانت « أنجى » تدرك أن وقفها هذه وحديثها مع حسين غير مستحب المظهر .. ولا مأمون العواقب .. فأسرعت تقول في عجلة محاولة أن تبلغ مقصدها من أقرب طريق وبأقصر حديث :

— مضت مدة دون أن يراكم أحد .

— مشاغل المدرسة كثيرة .. حبس ونوبتجية .. ومصائب أخرى .

— وعلى .. كيف حاله .. أمشغول أيضاً بالحبس والنوبتجية ؟

— على !! ألم تعلمي ما حدث له ؟

وأحست برجفة من سؤاله وأجابت متسائلة وهي تتوجس من ردّه خيفة :

— ماذا حدث ؟

— إنه في المستشفى العسكري .

— المستشفى .. لماذا ؟ ماذا حدث له ؟

— كسر ضلعه .

— كيف ؟

— في مباراة الملاكمة النهائية .. أوشك على الفوز بالبطولة .. كانت مباراة

عجيبة . فقد ...

ولم تكن « أنجى » في حالة تسمح لها بسماع وصف المباراة .. فقد أحست

بغشاوة على عينيها وأصابها غثيان جعل أطرافها تبرد ووجهها يشحب .

ووجدت نفسها تسأل مقاطعة بصوت خافت :

— وكيف حاله ؟

— الحمد لله بخير .. إن حالته العامة جيدة .. ولكن العلاج يحتاج إلى رقدة طويلة حتى يلتئم الكسر .

ولم تعرف « أنجي » بم تجيب .. كانت تحس أنها في أشد الحاجة إلى الاستلقاء على فراشها حتى لا تخثر مغشياً عليها .

وتتممت تقول باللهجة مجهددة أشبه بالهمس :

— بلغه سلامي .

ثم هزت رأسها مشيرة بالتحية ، قائلة بنفس اللهجة الخافتة :

— مع السلامة .

وأجاب « حسين » وهو يشير لها وقد أخذ بوجهها الشاحب وصوتها

المرتعد :

— مع السلامة .

ووجهت القول إلى السائق :

— اطلع يا اسطى محمد .

وتحركت العربى ، ووقف حسين يرقبها مشدوهاً .

ماذا حدث للصبية الرقيقة المرفهة ؟ ماذا روعها إلى هذا الحد ؟!

... إنها أوشكت على الإغماء .

أىكون نبأ أخيه قد أفزعها مثل هذا الفرع ، وآلمها مثل هذا الإيلام ؟

... لِمَ كل هذا ؟! وهى ليست أمه .. ولا أخته !

أهذا هو الحب ؟!

عجباً !! عجباً !!

أيقرب الحب غريبين .. مثل هذه القرى .. التى تفوق قرى الدم وعشرة

السنين الطوال ؟؟

لقد كان يعرف مدى شعور أخيه نحوها .. وكان يستحسق أخاه ويستكثر أن

يمنح إنساناً أياً كان مثل هذا القدر من الشعور .. ولكنه الآن .. وبعد أن رأى وجهها الشاحب ، وسمع صوتها المرتعد الذى مازال يتردد فى أذنيه .. لم يستنكر شعور أخيه .. فقد بدا شعورها مكافئاً له ، أو يزيد .

ولكنه مع ذلك ما زال يعجب من قوة الشعورين المتكافئين .. من أى نبع يتدفقان ؟ ... ومن أى أفق يشرفان ؟. لماذا ؟ وكيف ؟

أىكون هذا .. هو الحب ؟

وهز رأسه ورفع كتفيه وعاد إلى داره .

ووصلت « أنجى » إلى القصر واتجهت إلى حجرتها فى وجوم وشروء وغثيان ، وارتمت على فراشها منهارة متهاكة ، وأقبلت عليها « الدادة » متسائلة فى دهشة :

— ماذا بك يا أنجى ؟

— أشعر ببعض التعب والإعياء .

— ألا تنوين النزول للغداء ؟

— لا أستطيع .. إني فى حاجة إلى الراحة .

— أحضر لك الطعام هنا ؟

— لا .. لا .. سأنزل عندما أستريح .

وأقبلت عليها « الدادة » تجسها وتنحسسها ، فضاقت بها « أنجى » ذرعاً

وقالت فى ضيق :

— اتركينى الآن وحدى .. ليس بى شىء .. إني أريد فقط أن أستريح .

واستطاعت « أنجى » باستلقائها على الفراش أن تهيب لجسدها بعض الراحة والاستقرار .. ولكن ذهنها لم يستقر ولم يهدأ .. بل أخذ يتقلب فى رأسها ويتململ .. لهف نفسها عليه .. فى رقدته وفى إصابته .

ترى كيف كانت إصابته ؟ .. أتراه قد تألم كثيراً ؟ !! ليتها كانت بجواره حتى تخفف ألمه وتضمده كسرته .. ليتها تملك له شيئاً أكثر من هذا الاستسلام اليأس والتفكير العاجز .

ترى !! أما زال يحلم بها كما تعود أن يحلم ؟! أكان يذكرها في آلامه ، وأحزانه وأشجانه ؟

أف .. لهذا العجز واليأس .. لقد كانت تحس بشدة الشوق وفرط الحنين قبل أن تعلم نبأ إصابته .. أما الآن فهي تود لو تدفع نصف عمرها لكي تراه وتتحدث إليه .. إنها تشعر أن حياتها معلقة بقاء ونظرة وكلمة . إنها يجب أن تراه ، فليس هناك ما يمكن أن يحول بينها وبينه .. إنها ستذهب لزيارته في المستشفى فهم لا شك يصرحون بالزيارة .. وزيارة المرضى ليست بالإثم الممنوع ولا بالجرم المحرم .

أجل .. أجل .. ستذهب غدا لزيارته بعد أن تخرج من المدرسة .. فهي تعرف المستشفى العسكرية الكائن بجوار الشكنات في الطريق إلى مصر الجديدة .. والمسافة إليه ليست بالبعيدة .. والزيارة كلها لن تستغرق أكثر من نصف ساعة ... لن تؤثر كثيراً على موعد عودتها .. والأسطى محمد .. رجل طيب .. وهو يحبها ويكره كل ما يسيئها .. ولا تظن أنه يمكن أن ينقل عنها ما يسبب لها أى ضيق .

وبهذه الطريقة في التفكير .. وبهذا القرار الذى انتهت إليه .. أمكنها أن تهيم لذهنها المتململ المكدود سكينه واستقراراً وأن تمنح نفسها الحزينة الموجهة عزاء وراحة .

وعندما أقبل الليل كانت « أنجى » تجلس على مقعد طويل (شيزلونج) أسفل نافذة عريضة قد تدفق منها نور فضى أرسله ساكن في كبد السماء وضاء المحيا مشرق السمات ، يسط كفه بالنور على الكائنات فى عدل ومساواة وفى غير بخل ولا تقتير .

وتطلعت « أنجى » إلى ساكن السماء الصامت الكريم وبدا لها وهى تحديق فيه أنها تلمح على شففيه بسمة عطف وحنان .. وأحست من نوره المنبسط على وجهها ورأسها بمسة كفين رقيقين يتحسسان شعرها فى لين ورفق .. وخيل إليها

أن ساكن السماء يحمل إليها في بسمته ومسته رسالة يود أن يسرّ بها إليها ..
وأحسست باسترخاء لذيد وفتور ممتع .. وحدثت القمر حديثاً صامتاً بهشتين
مطبقتين وعينين رانيتين قائلة في شروود وسرحان :

.. آه من طول الفرقة .. وبعد الشقة .. وفرط الحنين .. وقلة الزاد .. لا
لقاء .. ولا حديث .. ولا نظرة تروى .. أو كلمة تشبع .. كم أحس بالوحدة
والوحشة والفراغ .

، ويخيل إليها أن القمر يهمس إليها متسائلاً في عتاب :
— وحشة وأنا معك ؟

— أنت صامت لا تتحدث ، إنك ترمقني في رثاء دون أن تقول شيئاً .
— أخشى أن أقطع بالحديث صمتك الجميل .. وأقلق إحساسك المرهف ..
أخشى أن أقلقك في وحدتك وأزعجك في خلوتك .

— لا .. لا .. لا تخش شيئاً .. حدثني عنه فليس أحب إلى نفسي من
الحديث عنه .. قل لي كيف يرقد ، وكيف يجلس ؟! كيف يصحو وكيف
ينام ؟! كيف يفكر .. وكيف يحلم ؟! قل لي إنه لا يتألم ؟! قل لي إنه يذكرني كما
أذكره .. ويفكر في كما أفكر فيه ؟! قل له إني ما زلت أميرة أحلامه وملكة
أوهامه .. فقد أضحى هو أمير حياتي وسيد قلبي وملك نفسي وسلطان
روحي !! قل له إني أحبه .. حباً يتدفق كالسيل .. لا يني ولا ينقطع .. حباً
يجرف في طريقه كل عقبة .. ويهدم كل سد !! قل له إن هيكله القابع في قلبي قد
ثما حتى ملأه .. بل ملأ نفسي كلها .. وأضحى هو أنا !! قل له عن حبي فأنا
لا أجسر على قوله عند اللقاء .. وقد أجمنى الوجد .. وعقد لساني الجوى !! ..
قل له ولا تكف عن القول .. فحبي أقوى من كل قول .. وآخر من كل
حديث !! .. قل له ولا تخش التزيد والمبالغة .. فكل ما ستقول أقل مما أحسن
وأضال مما أشعر .. قل له .. فديت كسره بأضلعي .. قل له إن ألمي مما به أشد من
ألمه .. قل له :

أرجفوا أنك شاك موجع ليت لي فوق الضنى ما أوجعك
نصامت الأعين إلا مقلقة تسكب الدمع وترعى مضجعك
وغشيت عينيها غشاوة دمع حجبته عنهما القرص الفضى .. ومدت يدها في
صمت إلى درج بجوارها .. وأخذت منه منديلاً صغيراً جففت به عبراتها ..
وعلى ضوء القمر بدت في المنديل بقعتان داكنتان لآثار دماء .
وضمت المنديل إلى شفتيها وأنفها .. ورنّت إلى القمر من خلال سحابة الدمع
التي عادت تهمي مرة أخرى وأردفت تقول في حمديتها الصامت :
— أتدرى ما هذا ؟

... —

— إنه المنديل الذي جففت به دمه .. لقد مزجت به دمعي .. وبودى لو
مزجت به دمي .. إلى أحس به في هذا المنديل .. وأشعر حين أمسك به أني أطبق
عليه .. هذا المنديل يحمل بين أنسجته أعز ما في الوجود .. وأحب ما في الكون .
لقد أحسست ساعة أن نَزَفْتُ إصبعة .. أن قلبي هو الذي ينزف .. ومددت
يدي بالمناديل أضمد جرحه .. وكأني أضمد جرحاً في قلبي .. لقد كان عزائي
في جرحه أني استطعت أن أضمده له .. ليتني أستطيع أن أجبر كسره كما ضمدت
جرحه .

وأغمضت عينيها وأحست بالكفين يمسحان شعرها في عطف شديداً وحنان
بالغ .

وعادت تنظر إلى القمر الراني نظرة توسل وتقول بعينيها راجية :
— ليتك تحمل إليه مسة يدي .. كما حملت إلي بنورك مسة كفيه .
ولم يخيب القمر الكريم رجاءها .. ففي تلك الساعة وقد أطفئت الأنوار في
المستشفى العسكري وساد السكون عنابر المرضى إلا من آهه هنا وأنة هناك ..
كان الطلبة المرضى قد استغرقوا في النوم إلا واحداً رقد على ظهره وشد صدره
بالأربطة وأخذ يهز رأسه متمللاً ضائقاً .. وأغمض عينيهِ في الظلمة محاولاً

استدعاء النوم واصطياذ الذهن الشارد .. وفي تلك اللحظة هبت نسمة دفعت مصراع النافذة التي استقر تحتها وتدفق منها شعاع من ضوء القمر انبسط على وجهه ، وفتح عينيه فاستقر نظره على بسملة رقيقة تلوح في تعاريج القرص الفضى ، وأحس من الشعاع المنبسط كفاً حنوناً تمتد من النافذة فتمس في رفق جبينه وتتحسس وجهه .. وشعر بالحمل الذي أخذ بخناقه وأطبق على صدره قد تبدد ، وانطلقت من صدره زفرة حارة حملها كل ما به من ضيق وملل .. وأغمض عينيه واستسلم إلى سبات مريح ونومة هادئة .

وفي اليوم التالى ذهبت « أنجى » إلى المدرسة قلقة مهمومة وعندما جلست خلال الفسحة القصيرة فى الفناء الأخضر المتسع أسفل النخلة التى تعودت أن تجلس بجوارها كان يبدو عليها الوجوم والاستغراق فى التفكير . وأقبلت عليها صاحبها « سناء » أخلص صديقاتها .. وأعزهن عليها .. وقلت مازحة :

— أنجى .. لا تجلسى هكذا كأنك عجوز مائة عام .. أى همّ تحملين ؟! الأولاد .. أم البيت ؟! ما زال أمامنا كثير على هذا الهم والتفكير .

ولم تجب « أنجى » فعادت تتساءل ناهرة :

— قولى ما بك ؟ .. آه .. تذكرت .

واقتربت من أذنها تقول هامسة :

— لا بد أنه لم يخرج بالأمس .. أجل .. أجل .. إن الأمس هو الخميس .. لا

بد أنه محبوس :. الذنب ذنبك أنت .. ألم تجدى خيراً من هذا الشقى الخائب ؟ إلى لا أذكر أنه خرج أسبوعاً واحداً ؟!

ولم تضحك « أنجى » بل ازداد وجهها تجهماً .. وجلست « سناء » بجوارها وأحاطت كتفها بذراعها وكفت عن مزاحها .. وتساءلت فى دهشة :

— ما بك يا أنجى .. حدثينى .. تكلمى ولا تجلسى هكذا صامتة حزينة ..

أغضبك أحد ؟ .. أبوك .. أم علاء .. أم .. أم على ؟ ألم يخرج بالأمس ؟ .. لعل

- عنده نوبتجية .. أم أى مانع آخر ؟
وأجابت « أنجى » وهى تحاول جهدها أن تكبت رغبتها فى البكاء :
— إنه فى المستشفى .
— ماذا به ؟
— لقد كسر ضلعه فى الملاكمة .
— كسر ضلعه ؟ من أنباك ؟
— أخوه .
— وكيف حاله ؟
— قال إنه بخير .. ولكنى لا أصدق .
— ولماذا لا تصدقيه ؟
— أتظنين أن كسر الضلع أمر سهل ؟ لا بد أن يكون به خطورة ؟
— أنا لم أجرب كسر الضلع .. ولكنى لا أدرى لماذا تجزمين أن به خطورة .
ما دام أخوه قد قال إنه بخير فيجب أن تصدقيه .. ويجب أن تبعدى عن نفسك
هذه الوسوس ، والأوهام .
— إنى أريد أن أراه .
— انتظرى حتى يخرج من المستشفى .
— لن أنتظر .. لقد قررت أن أذهب إليه .
— تذهبن إليه ؟ أجننت ؟! تذهبن إليه وتزورينه أمام الناس ؟! بأى
صفة ؟! كيف تستطيعين الذهاب ؟! وهل سيسمح لك أبوك ؟
— لن أقول له .. سأذهب بعد الخروج من المدرسة .
— اسمعى يا أنجى .. إياك وهذا الحمق .. إن السائق سيعرف .. وكذلك
سيراك كل زملائه من المرضى .. لا .. لا .. إنك تجنن عليه .. إنك لا تدريين ما
يمكن أن يفعل أبوك لو علم بما بينكما .
وزاد تحذير « سناء » من قلق « أنجى » وضيقها .. إنها تريد الذهاب .. وهى

تعلم العواقب التي يمكن أن تترتب على هذه الزيارة .. ولكنها تحاول أن تدفعها عن ذهنها وتبعد عنها عن تفكيرها .. وهي تحس بالراحة عندما تجد عزمها قد استقر على الذهاب . ولكن الوسوس تعود مرة أخرى لتحذرها من العواقب .. ويستمر النضال في ذهنها بين الرغبة في الذهاب والخشية منه .

وانتهت الدراسة دون أن تفهم « أنجي » كلمة واحدة مما سمعته في يومها . وخرجت تحمل حقيبتها بين أفواج البنات ذات « المرايل » الزرق والنياب البنية .. وعبرت البوابة التي تكأكأ عليها حسد من المستقبلين ، وسارت تبحث عن العربية بين العربات المتراسة بجوار الرصيف ، وفتحت الباب ، واتخذت مكانها في العربية ، والصراع في ذهنها على أشده .. تذهب ؟! أو لا تذهب !! الحنين والشوق واللهفة والحب يدفعانها دفعاً إلى الذهاب .. والخوف والخشية .. يمنعانها عنه .. الخوف والخشية عليه .. وعلى أبيه .. فهي تذكر قول مربيتها .. وتحذيرها لأبيه .. وهي تذكر تحذير « ساء » بأنها تجنى عليه .. إنها تود الذهاب من أجل نفسها ، ولكنها تخشاه من أجله .

أجل .. من أجله .. يجب ألا تذهب .

هذا هو ما استقر عليه رأيها الأخير .

وتحرك السائق متجهاً إلى المحطة في طريقه إلى القصر .

وبلا وعي ولا إرادة .. وكأن شخصاً آخر يتحدث غيرها .. قالت :

— دوّر يا أسطى محمد .. على مصر الجديدة .

ودون أن يسأل السائق لف بالعربة متخذاً الطريق العكسي .. وعندما

وصلت العربية إلى المستشفى العسكري قالت « أنجي » بنفس البساطة والعزم والإصرار الذي غيرت به اتجاه العربية :

— قف يا أسطى محمد .. انتظرنى برهة .

وهبطت من العربية وعبرت الباب .. وبالسؤال أرشدها أحد الجنود

المرضين إلى عنبر الطلبة ، وفي غمضة عين كانت تقف أمام فراش « على » وقد

أن

أغمض عينية وراح في إغفاءة وشرود .
وأحسست كأن قلبها يوشك أن يقفز من بين أضلعها ، وقبل أن تحاول إيقاظه ،
فتح عينية ، فبدت عليه دهشة شديدة ، وعاد يغمض عينية كأنه غير مصدق ..
ثم هتف وقد تلاحقت أنفاسه :

« أنجى .. أنت ها ؟ ! »

ومدّت يدها فأسلمتها إلى كفه الضاغطة ، وقد علت شفيتها ابتسامتها الرقيقة
العذبة التي تملؤه بالثقة وبالإيمان وقالت هامسة :

— أجل يا على .. كان يجب أن أكون هنا من قبل .. ولكني لم أعرف إلا
بالأمس .

— لقد كنت هنا دائما .. أنت لا تبرحيني لحظة .

— وأنت أيضاً لم تبرحيني لحظة واحدة .. لقد أحسست بالكسر في
أضلعي .. وليس في أضلعك .. أتألمت كثيراً ؟
— أبداً .. أبداً .

وعلت وجهه ابتسامة مشرقة وأردف يقول ضاحكا :

— لم أر في حياتي أغلى من هذه الضلع .. لقد منحنتني سمعة طيبة وتمثالا ،
وخمسين درجة .. وامتحاناً عملياً في الفراش .. ونجاحاً مؤكداً ، وترتيباً
مضموناً .. وأعز من كل هذا .. منحنتني .. أنت .. أي ضلع هذه ! ليتني
تكسر لي في كل يوم ضلع !

(٢٧)

أريدك كما أنت

لم يكن « على » مبالغاً في حسن ظنه بفضله المكسورة فقد منحته فعلاً ما توقع .. منحته السمعة الطيبة والنجاح المؤكد والترتيب المضمون ، وخيراً من هذا كله .. منحته « أنجي » .

أما عن السمعة الطيبة فقد أضحي « على » من أبرز طلبة المدرسة وأطيبهم سيرة وأحسنهم ذكراً .. وأما عن النجاح والترتيب فقد انتقل « على » إلى السنة الثالثة واستمر محافظاً على ترتيبه الثالث واستحق أن يرقى إلى رتبة الجاويش بعد أن منح الأول رتبة الباشجاويش والثاني رتبة البلوك أمين .. وبدأ يمارس في عامه الجديد في المدرسة سلطة ضباط الصف العظام ، ومنحته رتبته المهابة والسلطان بين الفيران المدعورة من المستجدين .. وأخذت سترته بأشرطتها الحمراء فوق الذراعين تثير الذعر أينما حلت وبدأت تحتل مكانها على باب الحمام لتحجز له الحمام في يوم المياه الساخنة حتى لا يجسر الطلبة وصغار صف الضباط على الاقتراب منه .

وكان « على » جاويشاً محبوباً .. رغم أن ألزم صفات الجاويش في المدرسة أن يكون مكروهاً .. ككل صاحب سلطان ، وحاكم أفراد ، ومنفذ قوانين ، ومحافظ على نظم ، وموقع عقوبات ، وقد استمد المحبة من تجنبه الخطأ الشائع الذي يقع فيه كل صف ضابط .. أو كل حاكم ، وهو سرعة نسيان متاعب وآلام الفرد .. بمجرد أن ينتقل من وضعه كفرد .. إلى وضعه كضابط صف أو كحاكم ، وسرعة تلونه وتشكله بقالبه الجديد .. وانطباعة وأعماله ، واقتناعه بأنه هكذا يجب أن يكون الحاكم .. وبأنه يتحتم عليه أن يتغير هو ليلامم القالب

الجديد .. وبقينه بأن الفرد يجب أن يبقى كما هو يمارس فيه الحاكم سلطانه ، وأن عليه أن بتألم كما تألم هو ويقاسى كما قاسى هو .

ذلك هو الخطأ الشائع الذى استطاع « على » تجنبه ، فكان يمارس سلطته كجاويز وملتء نفسه شعور الفرد .. كان إذا ما تصرف مع فرد .. تذكر نفسه فى موضعه .. كان يذكر حيرته كفأر مذعور .. عندما يقف أمام الفيران المذعورة .. كان يذكر إحساسه بالظلم عندما يوشك أن يرتكب ظلماً .. كان يذكر نفسه نكرة منسياً يحاول أن يبذل طاقته لكى يصبح شيئاً .. فلا يفوز فى النهاية بغير العقاب . كان يذكر ذلك فيمنح بدل الجزاءات .. كلمات تشجيع .. للمنسيين المكافحين الذى لا يعرفهم أحد ولا يشجعهم أحد .

كان محبوباً لأنه كان قبل أن يصدر الحكم على الخاطيء يضع نفسه فى موضعه ويصدر الحكم على نفسه قبل أن يصدره عليه .. فإن قبلت نفسه الحكم وقعه عليه ، وإن لم تقبله .. عفا عنه ، واستبدل بالجزاء نصحاً وإرشاداً .

كان محبوباً لأنه خير من يقدر آلام الناس ، ويعتبر ظروفهم ، وخير من يستفيد من إحساسه بالآلام لكى يرد الآلام عن سواه ولا يكرر منعها لغيره . كان محبوباً .. لأنه لا يرد بغضاً ببغض ولا إساءة بإساءة .

كان محبوباً ، لأنه ذكى ، والذكى يعرف كيف يكسب الحب ويعرف كيف يحرز الانتصار خالياً .. قدر ما استطاع وما استطاعت نفوس الناس — من شوائب الكره والبغضاء والحسد .

هكذا كان الجاويز خمسة على عبد الواحد .. وذلك ما منحتة إياه ضلعه المكسورة من سمعة طيبة وترتيب مضمون وقد توطدت علاقته بخصمه الذى تسبب فى كسره الأماشى صلاح الدين جمال وأصبحا يكوّنان مع صاحبه القديم الجاويز سليمان زكى ثالثاً متين الرابطة يكاد لا يفترق لحظة واحدة .

وكان سليمان قد أصبح أقل سخطاً وأخف ثورة ، فقد اعتبر ذهاب « الملك » الأرستقراطى المتعالى القريب الذى كان يمثل سلالة خديويى الأتراك

أكثر مما يمثل حكام المصريين .. وتولى الملك شاب يبدو أكثر مصرية وأحسن فهماً لنفوس المصريين وتقديراً لمشاعرهم وإحساساً بأمانيتهم وآلامهم .. اعتبر سليمان رحيل ذاك وإقبال هذا ، بالإضافة إلى ائتلاف الأحزاب ، وتوقيع المعاهدة ، أساساً لبداية عهد جديد ، وتأهباً للسير في الاتجاه الصحيح نحو بناء أمة جديدة .

وفي إحدى الأمسيات وقد جلس « سليمان » و « علي » يستذكran في المكتبة (حيث كانت المذاكرة في المكتبة إحدى مزايا القسم النهائي) أطبق « سليمان » كتاب الطبوغرافيا والقياس بعيداً .. ثم أقبل على « علي » يضرب ظهره بشمعة وكانت تلك إحدى علامات الانسجام الذي يظهرها سليمان وصاح بعلى :
— كيف الحال ؟

ونظر إليه « علي » دهشاً وتساعل :

— ما هذا ؟! أجننت ؟! ألم أقل لك مائة مرة أن تكف عن هذه التحية

الحيوانية ؟

— أنا سعيد .

— سعيد ؟ .. وأنا مالى .

— أنا سعيد بهذه الدفعة الجديدة التي قررت المدرسة أخذها في يناير .

— طبعاً كلما كثر المستجدون .. زاد استمتاعك بالسلطة .. ستجد مرتهاً

للإمارة .. فقد اعتادت الدفعة القديمة على العسكرية .. ولم يعد لنا عندهم هييتنا الأولى .

— لست أقصد هذه الناحية .. أنت تعرف أنه ليس هناك أتعب من

المستجدين .

— إذاً ماذا يسعدك ؟

— يسعدني أنها ظاهرة تضخم في الجيش ، وبدايه فهو وترعرع .. تسعدني كما

أسعدني التخلص من سيطرة الإنجليز على الجيش ورفع قبضتهم عنه .. تسعدني كما

أسعدنى خروج كبير المعلمين الإنجليزى ، ووضع مصرى محله .. ألم يسعدك هذا ؟

وصمت « على » وأطرق .. وتذكر الرجل الإنجليزى يزوره فى المستشفى ويقدم إليه التمثال ويقول له « إنى أحب الرجل ، وأنت رجل » وقال على :
— إنى لم أكرهه أبداً .. بل أحبته من كل قلبى .. لقد كان معلماً أمثل وكان يعطى لكل حقه .

— أنا أيضاً لم أكرهه لشخصه .. بل أحبته كما أحبته أنت ، ولكنى مع ذلك سعدت بخروجه .. فقد رالت بخروجه قبضة من قبضات الإنجليز المسكة بخناقنا .. يجب ألا ننظر إلى الإنجليز كأفراد .. فهم فى أفرادهم نماذج طيبة فى المعاملة والخلق ، ولكنهم فى مجموعهم نماذج سيئة للاستعمار والأنانية ، وللخلق السياسى السيئ البغيض .. المماطل الكذوب ، المنافق المحتال ، وهم لا يحتلوننا كأفراد بل يحتلوننا كدولة ، وعلى هذا الأساس يجب أن نعاملهم ونحس لهم . إذ الرجل قد يكون قَدْرُك وأعجب بك ، إغجاباً بفرد ، ولكنى أؤكد لك أنه لا يحترمك أو يحترمنى ونحن ضمن مجموعة المصريين لأنه فى نظرتة إلى المجموعة يسيطر عليه التوجيه السياسى الذى يفرض عليه كفرد فى مجموعة مستعمرة مهيمنة .. وعلى هذا يجب ألا ننظر لهم إلا كأعضاء فى تلك المجموعة المسيطرة الجائرة على أنفاسنا ، ويجب أن نعمل كل جهدنا لتخلص من قبضتها .. وإنى أعتقد أن نمو الجيش عو خيز وسيلة لذلك التخلص ، بل هو الوسيلة الرسمية فى المعاهدة لأنهم يدعون أنهم سيتركوننا عندما يكون جيشنا أهلاً للدفاع عن القناة .

— وهل تظن أنهم من البله بحيث يمكنون لنا من هذه الزيادة التى تضعف قبضتهم علينا ؟

— إنهم سيمكنون لنا من الزيادة لأجل الاستعانة بنا فى حرب مقبلة ، فزيادته تبدو فى صالحهم ، وهذا هو ما يجب أن نستفيد منه . يجب استغلال المصلحة المشتركة بيننا لكى نعزيز مصلحتنا .. لأن تلك هى وسيلتنا الوحيدة للاستفادة ،

لأنه إذا تعارضت مصالحنا فنحن الخاسرون لأننا الطرف الأضعف ، وكلما ازدادنا قوة ازدادت قدرتنا على اقتناص جزء أكبر من هذه المصلحة .

— أعتقد أننا نستطيع أن نقاوم الإنجليز بالقوة ؟

— لست أقصد مقاومتهم بالقوة .. بل بالإحساس بالقوة .. إن إحساسنا بها يزيد من قوتنا وينقص من مقاومتهم .. إنى أشعر بالتفاؤل ، ويخيل إلّى أننا نسير في الطريق الصواب .. وسنقتطع حقوقنا على مرّ السنين قطعة قطعة .

وحمد « على » الله على تفاؤل سليمان وعلى انتهاء تمرّده وثورته ، حمد الله لمجرد رغبته في سعادة سليمان واستقراره دون أن يكون له إحساس بالمسألة أكثر من هذا ، فقد كان تفكيره لا يتجاوز أفق نفسه وما يحيط به من مجتمع منظور يرتبط به .. لم يحاول التطلع إلى الأفق البعيد المتسع الذى يتطلع إليه سليمان ، فقد كان يشعر أن هذا ليس من شأنه ، وأن هناك أفراداً مخصوصين من السياسيين ومن دار في فلکهم مسئولون عن هذا .

كان « على » يعتبر محيطه محدوداً بأفق البيت والمدرسة ، وأن المتحرّكين في فلکهم لا يتجاوزون أهل بيته وأهل مدرسته ، يخيم على كل هؤلاء مخلوق واحد باسط جناحيه .. ماد سلطانه .. مسيطر على كل آفاقه بحيث لا يتطلع بذهه أو بنظره إلا ووجدّه في مداره .. فكل فكرة مرجعها إليه .. وكل عمل هدفه هو . كانت « أنجى » منتهى آفاقه ، وقد زادت الأيام من إحساس كل منهما بالآخر ، وتوثيقه به .. إن كان هناك ممزید من إحساس وتوثيق .

ومنحهما العام الجديد فرصة أكبر للقاء ، فقد سافر علاء إلى إنجلترا في صحبة الأمير كمال ، وأخست « أنجى » بحرية أكثر .. وزادت فرصة خروج « على » من المدرسة .. بعد أن أضحى في السنة الثالثة .. وأضحت عقوبات الحبس التى توقع عليه ضئيلة إن لم تكن معدومة .

وبدأ اللقاء في أول الامر خفياً مختلساً ، ولكن الحب والزمن والتكرار أعطاه صفة الحق والطبيعة ، ولم يعد الاثنان يبذلان نفس الجهد في إخفائه .. بعد أن تأصل في نفسيهما الإحساس بأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر ، وأن ميثاق الوفاء

بينهما لن تقدر قوة على الأرض على نقضه .

وأقبل الربيع وانتصف ، وبدأت بوادر نهاية العام الدراسي في الظهور ، سرت إشاعة أن هناك نيه في أخراج القسم المتوسط في نهاية العام ، واختلفت الأقوال في طريقة إخراجه .. فمن قائل إنه سيجرى امتحان قبل الامتحان النهائي يخرج فيه القسم النهائي ، ثم ينتقل القسم المتوسط إلى النهائي ، ويحل طلبة من الإعدادي محلهم . ومن قائل إن القسم النهائي سيتخرج بأقدميته الحالية بلا امتحان . ومن قائل إن القسم سيضم إلى القسم النهائي ويدخل القسمان في نهاية العام امتحاناً واحداً كدفعة واحدة دون النظر إلى كل ما سبق من امتحانات ودون أن تضم لهم مجموعاتهم كما كان يحدث دائماً في الامتحان النهائي .

وكانت الشائعة الأخيرة هي أكثر ما يسيء إلى طلبة القسم النهائي .. فقد كانت تحرمهم من كل الجهود السابقة وتحرمهم من كل كسب حصلوا عليه في امتحان المتوسط والإعدادي ، وتدخلهم من جديد في معركة مع طلبة المتوسط .. بينما كانت المعركة بينهم محصورة على بضعة عشر طالباً .. وكان كل منهم يكاد يضمن الاستقرار في أقدميته عند الخروج .

والتقى « على » بـ « أنجي » ذات مساء في مكانهما المختار تحت الشجرة الكبيرة ، وأحست « أنجي » ببعض الشرود يملكه بين آونة وأخرى فسأله :

— ما بك يا على ؟ إن في ذهنك ما يضايقك !

وأجاب « على » متضحكا :

— لا يفوتك شيء من ذهني .. كأنك تقرئين ما به ؟

— كأني ؟ .. إني فعلاً أقرأ ما به .

— إذاً قولي ماذا به ؟

— أصبت بشيء من الفشل في المدرسة ؟! خسرت مباراة .. أو أخذت

درجة سيئة في امتحان ؟

— إنه كذلك فعلاً .. لقد خسرت في مباريات الشيش .

- أهذا يحزنك ؟ كل إنسان يخسر مرة ويكسب مرة .
- ليست هناك مرة بعد هذه المرة .. إنها التصنيفات الأخيرة .. وكنت آمل أن آخذ فيها بضع درجات تعاونني في نهاية العام .. ولكن لاحظ خانني .. لقد كسبت في العام الماضي عشر درجات في الشيش .
- لا تحملهما .. ستعوضها في لعبة أخرى .. ألم تقل لي إنك ضامن ترتيبك لأن المنافسة بينكم تكاد تكون معدومة ، وأن كلا منكم قانع بترتيبه وأن الذي يليك مغرق في قرض الشعر ؟
- وضحك « على » وأجاب :
- أجل .. قلت لك هذا .. ولكن أخشى أن يتبدل الحال .. ونجبر على دخول معركة كبيرة .. فهناك إشاعة بأن القسم المتوسط سينضم إلينا .. ويضيع كل مجهودنا السابق سدى .
- وماذا تخشى من ضم الفرقتين ؟! إنك ستخوض امتحاناً كالذي خضته .. وستتفوق فيه كما تفوقت في سابقه .
- لا أظن .. لقد تفوقت في الأول لأنه كان امتحاناً مناجماً خاطفاً .. دخانا كأننا دون استعداد .. ولكن فرصة الاستعداد لهذا الامتحان طويلة ، وأنا أكره طول الاستعداد .. وبوادر الفشل في الشيش تجعلني أخشى أن يكون لاحظ قد أدبر .
- لا تكن متشائماً هكذا .. هبك تأخرت في الترتيب بضعه أفراد .. ماذا يضيرك هذا ؟
- يضيرني أن أفقد البعثة إلى إنجلترا .. إنها هي التي عزتني عن سقوطي في كشف الطيران .
- لقد حمدت الله على سقوطك .. فأني أكره أن يظل قلبي معلقاً معك بين السماء والأرض ، وكذلك أكره أن تذهب إلى هذه البعثة .
- إني أريدها من أجلك .. أريدها حتى أعود إليك إنساناً مثقفاً له قيمته بين

الضباط ، وفي المجتمع . لا أريد أن أتهم — كبقية الضباط — بالجهل .
— أنا أريدك كما أنت .. أريدك فقط .. ولا أريد التخلي عنك لأى سبب من
الأسباب .. أتفهم ؟

— أجل أفهم .. ! ومن أجل ذلك ، أريد أن أكون أهلاً لك .. أنت تريدينى
كما أنا ، ولذلك تجعلين « لأنا » قيسة ، وتجعلينى أريد أن أجعل من « أنا » هذا ..
شيئاً يليق بك ويستحق حبك وتقديرك .. ومن أجلك أدفع « أنا » إلى المكافحة
والنضال .. ليكون أفضل وأكمل .. أعرفت لماذا أحرص على ترقيتى وأخشى
على أقدميتى ؟

وأخذت « أنجى » تنقر بأطراف أصابعها الرقيقة على ساقه وقالت ضاحكة :
— دعنا الآن من حديث المدرسة .. ما رأيك لو ركبنا سوياً فى الأسبوع
القادم .. إني سأكون فى عطلة يوم الجمعة وسأمرهم أن يعدوا لنا جوادين ،
وسأنتظرك عند الشروق وراء السوبة ، لنخرج من الباب الخلفى إلى المزارع ؟
— وأبوك ؟ هبى أنه ..

— لن يكون موجوداً .. سيسافر إلى الإسكندرية طوال هذا الأسبوع
لاستقبال علاء عند عودته .. إنها فرصة طيبة لكى نركب سوياً . إني أتوق إلى
الركوب بجوارك .

وعاد « على » إلى المدرسة ، وقد بددت « أنجى » بحديثها ضيقه وأزالت
همه ، ونجحت فى إزالة ما سببته هزيمة الشيش فى نفسه من تشاؤم ويأس .
وبدأ ضرب النار فى ذلك الأسبوع وألغيت من أجله الطواير والدروس ،
واستيقظ الطلبة يوم السبت قبل نوبة صحيان .. واصطفوا فى أرض الطابور
يحملون بنادقهم معلقة على أكتافهم .. وقد ارتدوا البل والزمزم ووضعوا شطائر
الحلاوة الطحينية والجبن الأبيض داخل « شنطة » الجراية .

وتحرك « على » مع الطابور .. وقد غطت المظلة الكاكية جبينه وتدلّت على
ظهره .. وسار أمام الطابور يقرع الأرض بقدميه فى ثبات وشدة .. وقد أمسك

بيسراه قايش البندقية وعلق صفارته في زرار قميصه الكاكي الذى تدلى خارج البنطلون .

وقضى اليومين الأولين في تجربة البنادق والتمارين غير المحتسبة .. وفي اليوم الثالث بدأ الضرب المحتسب الذى تتوقف عليه درجة ضرب النار العمل التى ستضم إلى مجموع الامتحان النهائى .

ويبدو أن سوء الحظ الذى أمسك بخناق « على » في مبارزات الشيش .. أنى أن يفلته في ميدان ضرب النار .. بدأ الضرب بتمرين بطيء على مسافة المائتى ياردة .. ورقد « على » فوق التبة .. وبدأت التخت فوق الدروة واضحة جليلة وأمر المعلم بالتعمير ثم أمر بالضرب .

وأغمض « على » عينيه اليسرى وحاذى الدبابة وسط شيز الناشنكاه وثبت البندقية على كتفه .. وكنم أنفاسه مراعيًا كل قواعد التنشين والضرب .. ثم ضغط الضغطة الأولى .. وأخذ يعتصر الثانية .. ونحرجت الطلقة رادة البندقية في كتفه .. ودفع الترباس معمرًا الطلقة الثانية .. ثم خفض البندقية .. وثبت عينيه على التخته منتظرًا نتيجة الضرب .. وهبطت التخت الأربع ورفع المؤشر على ثلاث مشيرًا إشارات مختلفة بين السوادة والجباى والخارج ، وبقيت تخته وأحدة لم يؤشر عليها .. هى تخته . فصاح ضابط الضرب آمراً عامل التليفون الجالس على الجهاز الموصل بالدورة :

— قل لثمرة ٣ دور وأشر .

وردد العامل قوله .. وبعد لحظة ظهر العلم الأحمر يعلو ويخفض علامة الصفر .

وبهت « على » وأحس بضيق شديد .. وتلقى طابور الضارين الأمر بضرب

الطلقة الثانية .. وضغط على التثك وخرجت الطلقة .. وبعد لحظة ظهر العلم الأحمر مرة ثانية .. وتكرر الأمر في المرة الثالثة : واضطراب « على » يزداد وضيقه يشتد .. وعندما هم بإطلاق الرابعة سمع رنين التليفون وصاح العامل مبلغاً إشارة ضابط الدروة :

— حضرة الضابط يقول الظاهر إن نمرة ٣ يضرب على التختة نمرة ٢ لأنه وجد فيها طلقتان ولم يجد في نمرة ٣ ولا طلقة .

واكتشف « على » الأمر بعد أن ضاعت منه إصابات ثلاثة ، فقد كانت التختان متقاربتين .. وكان لا يكاد يبدأ التنشين حتى يوجه بندقيته إلى نمرة ٢ بدلا من نمرة ٣ ، وتوترت أعصابه ، وأحس بالبندقية تهتز في يده وهو يضرب الطلقتين الباقيتين من التمرين .. وكانت النتيجة أن ضاع عليه التمرين بأكمله . وتملكه التشاؤم ، وملاه الاضطراب .. ولم تستطع أعصابه التي خانتها في التمرين البطيء أن تسنده في الحافظ والسريع .. وهكذا انتهى الضرب بتقصير « على » فيه .. وفقده لدرجته .

وأحس « على » بقسوة اللطمة الثانية التي وجهها إليه ، الحظ أو التقصير . لا يدري . وحاول أن يستعين بأقوال « أنجي » على طرد اليأس وتبديد الحزن والضيق .. وفي يوم الخميس أعد بنظليون الركوب في حقيته ، وحاول أن يتناسى نتيجة ضرب النار بتصوره كيف سيركب في شروق الغد بجوار « أنجي » وكيف سيعبران بجواديهما المزارع والمروج .. إن هذا حلم قديم يوشك أن يتحقق . وقبل أن يغادر المدرسة ليحقق حلمه ، وجه إليه القدر لطمته الثالثة ، ووقف أركان حرب المدرسة في طابور الفسحة ليعلم الطلبة أن طلبة القسم المتوسط قد تقرر ضمهم بدون امتحان إلى طلبة القسم النهائي ، وأن الكل سيعطون برنامجاً

مقتضباً ، وسيؤدون فيه امتحاناً واحداً يتوقف عليه نتيجة تخرجهم .
ولم يكن النبأ جديداً على مسامع « على » فقد تناقلته الألسن كإشاعة منذ
مدة طويلة ، وقد حاول أن يوطن نفسه من قبل على قبوله ، ومع ذلك لم يكـد
يسمعه حتى أحس أن معركة الامتحان ستكون قاسية ، وشعر أن الأقدمية التي
احتفظ بها خلال العامين توشك أن تفلت منه بعد كل ما بدا من بوادر سوء الحظ .

وحمل « على » الحقيبة متجهاً إلى داره ، محاولاً جهده أن يلقي عن كاهله ما
أثقله خلال الأسبوع ، وأن يفرغ ذهنه وقلبه من أحزانها حتى يصفو لـ
« أنجي » وحتى لا يثقل عليها بهوموم ومضايقاته .

أجل ! يجب أن يتمتع وإياها بالنزهة المنشودة مهما حدث .
وعاد إلى الدار ، ولم يجد هناك سوى أمه وبهية ، وتلقفته الأم مرحبة مهللة ،
وتناولت بهية الحقيبة من يده متسائلة :

— أبها شيء تود غسله ؟

وكانت قد تعودت دائماً أن تغسل ملابس حسين الذي يحضرها في حقيقته ،
ولكن « على » أجاب :

— لا .. ليس بها سوى بنطلون ركوب .

وتساءلت الأم :

— وماذا ستفعل به ؟

— لقد أحضرته لأنى أنوى الركوب .

— ركوب !! ألا يكفيك ركوب المدرسة ؟

— هذا ركوب سهل ، سأتنزه قليلاً في الصباح مع « أنجي » .

ومصمصة الأم بشفتيها كأنما لم يعجبها الحال ولكنها لم تعلق على قوله

وحوّلت دفعة الحديث إلى ناحية أخرى قائلة :

— أعد لك الغداء ؟

— الا ننتظر حتى يحضر أبى ؟

— أبوك لن يحضر ، لأنه مشغول فى السوبة لأن الأمير سيمر عليها فى العصر .

— ولكن الأمير قد سافر طوال الأسبوع !

— لقد عاد مع ابنه ، بعد أن استقبله فى الأسكندرية عند عودته من سفرة .

— وأحس « على » كأن كابوساً ثقيلاً أطبق على أنفاسه ، وبداله أن سوء

الحظ قد أقسم ألا يفارقه .

(٢٨)

جواد جامع

في ذلك الوقت الذي أحس « على » بخيبة أمله بعودة الأمير وابنه ، كان « علاء » يتفقد الإصطيلات سائلاً عن جواده . ووجد « عبد الحميد السائس » منهمكاً في تنظيف سرج « أنجي » وإعداد سرج آخر بجواره ، فسأله في دهشة : — ما هذا ؟ .. من أمرك بإعداد السرج ؟

ورفع السائس رأسه وهو يضع زخم الركابات في السرج : — سمو الأميرة .

— أقصد السرج الآخر ؟

— هي أيضاً .. لقد أمرتني بإعداد السرجين وشدهما على جوادين جوادها ميمي والجواد عنتر .

— عجباً !! إنها لم تخبرني .. أتتوي ركوب الجوادين وحدها !

— أظنها ستركب مع علي بك .

— علي بك .. علي بك من ؟

— علي بك الضابط .

— الضابط ؟ .. لا أذكر أننا نعرف ضابطاً باسم علي بك .

— علي بك ابن الرئيس عبد الواحد .

— بك ؟! أو قد أضحى ابن الجناني « بك » ؟

وبصق على الأرض في ازدراء ، ثم أردف يقول مستكراً :

— إذا فأنت تعد له هذا السرج ليركب عليه .. وستشدد له جوداً ليمتطيه ..

ولكن أيعرف كيف يركب الجياد ؟

وكان « عبد الحميد » كغيره من العمال والفلاحين يحبون علياً إذ كانوا يحسون أن حلة الضابط لم تغير من شعوره نحوهم ومعاملته لهم .. فقد كان هو .. اللطيف الطيب المتواضع الذى يشعرهم جميعاً أنه ابنهم أو أخوهم .
وكره « عبد الحميد » هذا الازدراء والاستنكار من علاء وودّ لو يترك السرج من يده ليناوله صفعة يفرج بها عن غيظه من كبريائه .. ولكن « أكل العيش » والحرص على الرزق جعله يكتفى بالتصوّر دون التنفيذ وقال مجيئاً على سؤاله وهو يحنى الرأس منهك في إعداد السرج :

— أظنهم يتعلمون الركوب في المدرسة .

— ليس ما يتعلمونه ركوباً .. إنما هو شغل عرجية وسياس .

— إن الضباط معروفون بأنهم أقدر الناس في الركوب ، وسمو الأمير والدك من خير الفرسان لأنه كانه ضابطاً .

— كلام فارغ .. أنا أركب خيراً من سمو الأمير .. دون أن أكون ضابطاً .. أنت حمار لا تفهم في الركوب .. فك هذا السرج ، فلن أدع ابن البستاني الوضع يمتطى صهوة جيادنا الكريمة .

ورفع « عبد الحميد » رأسه وضغط على نواجذه حتى بدت عظام صدغيه وجانبها جبينه تتحرك في غيظ مكبوت وقال في إصرار :

— لقد أمرتني السيدة الصغيرة بشده .

— قلت لك .. فكه .

— إني لا أستطيع أن أعصى أمرها .

وصمت « علاء » برهة وبدت عليه سيماء التفكير وهو ينظر إلى السائس العنيد في غيظ ، وأخيراً قال متسائلاً :

— قلت لى أى جواد ستشده له ؟

— عنتر .

— كيف يركب « عنتر » ؟ .. لا .. لا تشده له .. إذا كان ولا بد من أن

يركب فلتشده له « برق » .. الجواد الأزرق الجديد .
وكان « عبد الحميد » يعرف قصده من هذا الطلب .. فالجواد « برق » لا
يبتطلي من فرط شقاوته .. وحمد الله أن الجواد مصاب بالعرج ، وأنه بذلك وفر
عليه مشقة الجدل مع الفتى السيء الشرير القصد . فقال :

— الجواد برق .. أصيب بالعرج .

وبدا الضيق على وجه « علاء » ، وتمتم في غيظ :

— أصيب بالعرج ؟! .. لِمَ ؟

— لقد انطلق من الإسطبل واصطدمم بالبوابة .

وساد الصمت برهة و « علاء » يهز ركبته في عصبية ظاهرة وأخيراً قال كمن
نوى أمراً :

— اسمع .. أعد لي حصاني .. سأركب أنا أيضاً .

وقبل الشروق استيقظ الثلاثة : أنجي ، وعلاء ، وعلى .. ولم تكن « أنجي »
قد وجدت فرصة للقاء « على » حتى تنذره بعودة أبيها وأخيها . ولذلك لم تجد بداً
من الوفاء بوعداها وانتظاره بالجوادين حيث تواعدا على اللقاء .. وكانت تعتقد
أن من السهل الخروج بالجوادين في هذا الوقت المبكر دون أن يكتشف أمرهما ،
وكانت تستطيع أن تعتمد على الساييس « عبد الحميد » في كتمان الأمر .
وحتى لو اكتشف الأمر .. فإنها تستطيع أن تحتل بضع كلمات تأنيب
وبضع ساعات غضب .. في سبيل الخروج مع « على » .. وفي سبيل الوفاء
بوعداها له .

وذهبت إلى الإسطبل فوجدت « عبد الحميد » ينتظر بالجوادين ووجدت
جواداً آخر ينتظر في الطريقة بين الإسطبلات وقد شدّ عليه أحد السروج فتساءلت
في دهشة :

— لمن هذا ؟

— لسيدى علاء .

— أقد أمرك بشدّه ؟

— أجل .

— من تلقاء نفسه !! أم عرف أنى سأركب ؟

— بل عرف أنك ستركبين .. لقد أبصرنى أعد السرجين .. فسألنى عن أمرهما فقلت له : أحدهما لك .. فقال : والآخر . فقلت : أظنه لعلى بك .

وبدت على « أنجى » سيماء القلق والضيق وتمتت قائلة :

— لم قلت له هذا ؟

وأطرق عبد الحميد وبدأ عليه أسف شديد وأجاب :

— أنا متأسف جداً .. لم أكن أظن أن هذا يسوؤك .

وأعادت « أنجى » الابتسامة إلى شفتيها وقالت متضحكة :

— لا داعى للأسف .. حصل خير .. هات الجواد .

واقترب بجوادها الأشقر ذى العنق والرأس الصغير .. والمعرفة الذهبية المتهدلة ، والجسد الملفوف .. وركع على إحدى ركبتيه وشبك أصابع كفيه معداً منها درجة كدرجات السلم ، ورفعت « أنجى » قدمها فركزت بها على كفه ووثبت بالساق الأخرى فاستقرت على ظهر الحصان وربت عنقه فى رفق ومنحته بضعة ألفاظ تدليل ثم قالت لعبد الحميد :

— هات الجواد الآخر واتبعنى .

وقبل أن يسحب عبد الحميد الحصان صاح بسائس آخر .

— نخذ بالك من عنتر حتى يأتى أفندينا الصغير .. وإذا سأل على قل له إنى

ذهبت مع سمو الأميرة .

ووصلا إلى السوبة فوجدا على سير متمهلا وقد ارتدى بنطلون الركوب الكستور ، وقميصاً أبيض ولف القالشين على ساقه لفه سوارى معكوسة محكمة ، وبدأ رأسه عارياً وقد نما شعره فى مقدمة رأسه فاستطاع أن يشرقه فرقاً يكاد يبين .. وبدأ فى جبينه خط يفصل بياض الجبين عن سمرة الوجه أحدثه طول

ارتدائه للطير يوش في شمس الطواير .

وأقبل « على » يحيى « أنجى » في لهفة وشوق .. وسلم على عبد الحميد سلام صديق .. وحاول عبد الحميد أن يساعد على امتطاء الجواد بالارتكاز على ركبتيه — كما تعود أن يفعل مع سادته — ولكن « على » تناول منه الأسراع وقال مازحاً :

— لا تفسدنى يا عبد الحميد .. لم يعودنا معلم السوارى أن يساعدنا على الركوب أحد .. لقد علمنا أن نركب وحدنا .. هكذا .

وقصر « على » الأسراع ورمى بالزيادة إلى الناحية الأخرى من عنق الحصان كما تعلم .. ثم وضع قدمه اليسرى فى الركاب وقفز بالأخرى فاستقر على ظهر الحصان واضعاً قدمه فى الركاب الآخر .

وبدا « على » فوق الحصان منبسط الكتفين .. بارز الصدر .. مرفوع الهامة .. جالساً فوق جواده فى اعتداد وثقة ويسر . وقال لأنجى :

— هيا بنا .

ونظر إليه « عبد الحميد » وهو يسير بجوار « أنجى » وهز رأسه ، وتمتم فى إعجاب :

— ابن الجنائى !! والله خير منك يا ابن الأمير .. يا أصفر الوجه .. يا هزيل الجسد .

واتجه الراكبان إلى الباب الخلفى . وقال « على » وهو يرمق « أنجى » فى إعجاب :

— كنت أخشى ألا تتمكنى من الحضور فقد علمت نبأ عودة أفندينا وعلاء .
— من أنباك ؟

— والدنى ووالدى .

— لم أشأ أن أحنث بوعدى .. وأحسست بنفسى لهفة إلى رؤيتك والخروج معك ووجدت المتعة تستحق المغامرة فأقدمت عليها .. آملة أن نستطيع الخروج

والعودة في هذا الوقت المبكر دون أن يرانا أحداً .. وإن كان أُملى قد خاب لأن «علاء» قد عرف أننا سنركب وطلب أن يعدّوا له هو الآخر جواداً .

وبدت الدهشة والقلق على وجه « على » وتساءل وهما يعبران البوابة :
— ومتى ؟

— لقد رأيت الجواد معداً له الآن ، وإن كنت أعتقد أنه لم يستيقظ بعد .
ولم تكذّ تنتهي من قولها حتى سمعا وقع حوافر تقترب ثم بدا علاء يندفع بجواده نحوهما ، وتوقف « على » وتمهلت « أنجي » حتى بلغهما صائحاً في لهجته الساخرة :

— يبدو أنكما على عجل .. لماذا لم تتكرما بانتظارى ؟
ثم وجه القول إلى على :

— كيف حالك يا حضرة الضابط !! لماذا لم ترتد البدلة ذات الشريط الأحمر ؟ ما هذا الذي تلفه على سافك ؟
ثم أطلق قهقهة عالية

وحاول « على » أن يسيطر على أعصابه وألا يدع الغضب يستبد به فقال في هدوء :
— صباح الخير .

واستمر « علاء » في قهقهته وتضاعد الدم إلى وجه « أنجي » وصاحت غاضبة :

— الرجال المهدبون يزدون التحية .. إنه يقول لك صباح الخير .
وأجاب علاء في لهجته الساخرة :

— طبعاً .. ومن أدري منك بما يفعله الرجال المهدبون .. ما دمت في رفقتهم ؟

وعاد يلقي على « على » وحصانه نظرات فاحصة ثم بدا عليه فجأة كأنما اكتشف أمراً خطيراً .. وقفز من فوق جواده واقترب من جواد « على » وهو

يقول « معلقاً » بغمه في أسف :

— ما هذا؟! إن الشريحة تكاد تقطع بطن الحصان .. لقد حذرت هذا الحيوان عبد الحميد دائماً من هذا . كان يجب عليك أن ترقب ذلك بنفسك . وفي خلال حديثه كانت يده تعمل في فك الشريحة (التي تشد السرج ببطن الحصان) .. ثم انتقل إلى رأس الحصان دون أن يترك لعل فرصة الاعتراض ، وأردف في لهجته السريعة وهو يمسك باللجام .

— واللجام أيضاً .. إنه يكاد يمزق فمه .. لا بد أن أؤدب هذا الغبي . ثم فك العروة التي تشد الأسراع في اللجام . وقبل أن يلحظ أحد ما فعل .. تراجع عن الحصان .. ثم قال وهو يرفع يده بالسوط :

— أظنك تعلمت الركوب جيداً .. وتعرف كيف تمسك بنفسك . هيا أرنا .

ثم هوى بالسوط فجأة على مؤخرة الحصان .. فانطلق الحصان مرتاعاً من الضربة المفاجئة ومرق من البوابة ثم انحرف في الطريق المجاور للترعة .

وكانت العملية التي قام بها علاء سريعة ومفاجئة وغير متوقعة ، ووقف ينظر إلى الحصان المنطلق براكبه وإلى أخته المشدوهة الصارخة في فزع ، وانطلقت من صدره عاصفة من القهقهة وهو يشير بإصبعه إلى « على » ويكرر صائحاً :

— أرنا شطارتك .. يا حضرة الضابط .. إن الركوب ليس لأبناء الجنائية حتى ولو أضحووا ضباطاً .

وأفاقت « أنجي » من ذهول المفاجأة .. واندفعت بجوادها وراء الجواد الجامح .. ومضت لحظة بعلى أفقده فيها روعة المفاجأة السيطرة على نفسه وعلى أعصابه .. وتملكه نوع من الذعر أضاع كل ثقته بنفسه وأنساه كل ما تعلمه من الركوب وأحس بنفسه على ظهر الجواد كريشة في مهب الريح .

وانتهت صدمة المفاجأة وبدأ « على » يتألك نفسه وسيطر على أعصابه

وأحس بالجواد يندفع اندفاع مجنون ، والريح تنفذ إلى خياشيمه فتزيده اندفاعاً ..
وأخذت أوراق الشجر المدلاة على الطريق تصدم وجه « على » وعدل جلسته
على السرج وثبت نفسه فوقه وأخذ يلم الأسراع المدلاة على عنق الحصان .
وكان يعلم أن خير طريقة لإيقاف الجواد الجامح هو أن يدور به في دائرة تضيق
رويداً حتى يقف .. وأن يجذب اللجام جذباً خفيفاً متقطعاً ويلعب به في فمه وألا
يشده بعنف مستمر حتى لا يزيد في اندفاعه .. ولم يكن عمل الدائرة بالشئ
المستطاع .. فقد كان السور على يمينه والترعة على يساره .. ولم تكن هناك
وسيلة سوى أن يحاول جذب الأسراع جذباً متقطعاً المرة بعد المرة .
وجذب الأسراع الجذبة الأولى .. والأخيرة .. إذ لم يكده يجذبها حتى سحب
طرفها من اللجام بعد أن فكها علاء .. ووجد « على » الأسراع قد شدت في يده
بعد أن فقدت صلتها بفم الحصان ، وفقد هو بذلك كل سيطرة له عليه وأضحى
الحصان في انطلاقه حراً من كل سيطرة وقيد .
وتسرب الخوف إلى نفس « على » .. وزاد إحساسه بالخطورة ترجح السرج
أسفله وعدم استقراره تحت ضغط ركبتيه .
واستمر الحصان في الانطلاق ، و « على » يكاد يوازن نفسه بين اللجام
المخلوع والسرج المفكوك ، حتى وصل الحصان بمحاذاة الكوبرى وبدأت في
مواجهته عربة تحمل كوماً من الخضروات فانحرف فجأة إلى الكوبرى . وحاول
« على » أن يطبق بركبته بكل ما استطاع من قوة ، ولكن انحراف الحصان
المفاجيء قذف به على الأرض والسرج بين ركبتيه والأسراع في يده .
ولم تصب الواقعة « على » بسوء .. بل استطاع النهوض قبل أن تصل إليه
« أنجي » وتهبط إلى جواره وقد تلاحقت أنفاسها وشحب وجهها .
وحاول هو أن يسرى عنها .. فرسم على شفثيه ابتسامة باهتة ، وقال وهو
يجاهد في التقاط أنفاسه :
— أنا متأسف جداً .. لأنى سببت لك هذا الإزعاج .. إنى سأحاول أن أتى

بالحصان وأذهب به إلى الإسطبل .
وأجابت وهي تتفحصه في لهفة :
— دعك من الحصان .. ألم يصبك أنت شيء ؟
— لا .. لا .. لا شيء أبداً .
— لقد كدت أجن وأنا أعدو وراءك . لست أدري كيف أقدم هذا المجنون
على فعلته هذه .. أنا آسفة جداً .
— ليس هناك داع للأسف .. لقد كنت أستطيع أن أوقف الحصان لولا أن
اللجام قد فك من فمه .. وفقدت سيطرتي عليه .. إني أحس بالخجل لسقطتي
هذه .. ولكن الانحراف كان مفاجئاً ، والسرج كان مفكوكاً .
— لِمَ تخجل .. وقد وقعت باللجام والسرج ؟! إنك فعلت أقصى ما يفعله
راكب .. إن السبب هو هذا الجنون الذي ارتكبه أخى .. الحمد لله أنه لم يصبك
سوء .

— المهم الآن هو إحضار الحصان .
— لا .. لا .. أظن أن من الخير أن نعود سريعاً قبل أن يتكأ كأحولنا الناس ،
وسيتكفل عبد الحميد بإحضار الحصان .
وعاد الاثنان إلى الإسطبل ، وسارت « أنجى » بجوار حصانها وحمل على ..
بقايا حصانه من سرج ولجام ، وقد حاول جهده أن يكتب آلام الواقعة ،
واستقبلهما عبد الحميد في دهشة ، فأمرته « أنجى » بأن يتسلم السرج واللجام
ثم يذهب لإحضار الحصان الشارد .
وافترق الاثنان وشدت « أنجى » على يده وودعته بنظرة ملؤها الأسف
والاعتذار قائلة :
— الحمد لله على سلامتك ، سنحاول الركوب في فرصة أخرى .. سأنتظرك
في الخميس القادم .

وعاد « على » إلى البيت وملء نفسه الخيبة والخذلان والضيق والسياس ، ولم

يكن يعرف بعد ما أصاب الحصان ، ولكن يأسه كان مبعثه الإحساس المفرط بسوء الحظ الذى يأخذ بخنقه ويمسك بتلابيبه والخشية مما يمكن أن يخلفه الحادث من عواقب ، والتجمل من نفسه لتلك السقطلة التى سقطها أمامها ، والشعور بالهزيمة أمام أخيها الذى استطاع للمرة الثانية أن يغلبه على أمره .

وآوى إلى حجرته ، وأبدل ملابسه فى صمت ، وأخذ فى إعداد حقييته للعودة إلى المدرسة وهو يحس أنه لم يعد هناك ما يستوجب بقاءه .. وأن من الخير أن يستفيد بوضع ساعات يستذكرها فى المدرسة .

وكان يشعر وهو يعد الحقيبة بالقلق على الحصان الشارد المنطلق .. ويدعو الله أن يتمكن عبد الحميد من إعادته سليماً حتى لا تتصل أنباء الحادثة إلى الأمير فتؤيد ما يمكن أن يدلى به « علاء » من وشايات وتهم .

ولكن الحصان المنطلق لم يكن فى حاجة إلى أن يعيده أحد .. فقد اندفع فى عدوه كأن به مسباً من جنون منهرفاً بعد عبوره الكوبرى إلى الجانب الآخر من الطريق ، وظل يعدو فى زعر شديد حتى ظهرت فى منعطف الطريق فجأة إحدى سيارات اللورى المقبلة من الاتجاه الآخر ، وفوجئ السائق بالحصان يندفع أمامه ، فلم يستطع أن يوقف العربى أو ينحرف بها عن طريق الحصان فضربه ضربة ألقتة نافقاً فى ساعته .

وكان علاء أول من اكتشف الحادثة .. فقد وقف يرقب الحصان بعد أن ضربه بكرى باجه ، وأبصر من بعيد وقوع « على » وعودته حاملاً السرج ، وأطلق ضحكة شامتة حمقاء ثم انطلق فى أثر الحصان .

وأبصر علاء مصرع الحصان ، ورغم أن منظر الحادث المفاجئ أذهله وروعه إلا أن ميله الخبيث إلى الأذى إلى رؤية الدماء المسفوكة ، وتوقعه لما يمكن أن يحدثه مصرع الحصان من عواقب وخيمة على « أنجى » وابن البستانى قد دفع فى نفسه إحساساً بالنشوة .

وفى عودته أبصر « عبد الحميد » مقبلاً على ظهر أحد الجياد ياحثاً عن الحصان

المهارب .

ونظر إليه علاء وقال في سخرية :

— على مهلك يا عبد الحميد .. مالك مستعجل هكذا ؟!

— إن أحد الخيل قد انطلق .. وأريد استرجاعه .

— لا داعي للتعجل .. فهو ينتظرك في منعطف الطريق .

— رأيته واقفاً هناك ؟

— بل رأيته راقداً .. البقية في حياتك .. لقد صدمه لورى أرداه قتيلاً ..

عسى أن يعجبك .. ويعجب « أنجي » هانم ، حتى تستمر في إهداء الخيل إلى أبناء الجنائبة . هيا .. إن جثته ملقاة هناك على قارعة الطريق . اذهب واستمتع برؤيتها ، وسأتكفل أنا بإبلاغ النبا السار إلى إني .. إن شاء الله سيخرب بيتك وبيته حتى لا تعودا مرة ثانية إلى التسلية بخيله .

ولم يكذب حتى من قوله حتى لكز حصانه عائداً إلى القصر ، وترك حصانه في الإسطبل ، وذهب لكي يسرّ إلى أبيه بالخير .

ووجد أباه يغتسل في الحمام ، وكان يعرف مدى حرصه على الخيل .. وجزعه من أن يصاب أحدها بأبسط الإصابات . فلم يمهله حتى يعود إلى حجرته .. بل ذهب إلى الحمام وقال له بسهولة كأنه يلقي إليه تحية الصباح :
— لقد مات عنتر .

وأضاع صوت اندفاع المياه من الصنبور وانهماكه في الاغتسال ، صوت علاء فلم يبلغ مسامعه . وعاد علاء يكرر بصوت أعلى :
— أقول إن عنتر قد مات .

والتفت الأب مذهولاً وكف من الاغتسال ورفع حاجبيه وفغراه في دهشة وصاح بابه :

— من الذى مات :

— عنتر .. الحصان عنتر .

— وكيف ؟

وكانت « أنجى » فى حجرتها قد أخذت تبدل ملابسها فوصلت إلى أذنيها صيحة الأب متسائلاً عن عنتر ، وأرهفت السمع فى خشية وقلق ، وسمعت صوت أخيها يجيب :

— لقد صدمه أحد اللوريات وهو يعدو فى الطريق .

— ومن الذى أطلقه من الإسطبل ؟! وأين كان السائس ؟

— إن السائس هو الذى أخرجه بعد أن أعده للركوب .

— ركوب من ؟

— « على بك » ..

وانفجر الأمير وهو يجد علاء يجيبه ببرود إجاباته القصيرة المتقطعة ، وصاح

به :

— على بك من ؟

— على بك الضابط .. ابن الجنائنى .. صديق « أنجى هانم » .. إنها هى التى

أمرت بإعداد الحصان له ، وهى التى اصططحته معها .

وأحست « أنجى » كأن عود ثقاب ألقى على صفيحة بترول ، أو كأن عاصفة

قد هبت فجأة فلم تبق ولم تذر .

وبعد لحظة كانت تقف أمام أبيها وهو يهذر صائحاً بكلمات ثائرة غير

مفهومة ، وأخيراً أمكنها أن تفهم من قوله :

— ابنتى أنا تركب مع ابن الجنائنى !! كان يجب أن أحطم رأسك قبل أن تفعل

هذا .. ولكنى سأعلمك كيف تتصرفين كابنة أمير ، لا كابنة رعاع ..

وسأعرف كيف أؤديهم ، وأريهم أن هذا الحصان الذى قتل بعشرة منهم ..

أجل .. سأقتل هذا الحيوان الذى تسبب فى قتله هو وأباه وكل عائلته .

وأرسل الأمير الثائر فى طلب عبد الواحد وهو مستمر فى ثورته وهياجه ،

وانسحبت « أنجى » إلى حجرتها وانكفأت على فراشها تنتحب مرتجفة وهى

تشعر أن سداً منيها يوشك أن يقام بينها وبين « علي » .
وكان « علي » قد أتم إعداد حقييته ، ودهشت أمه عندما رآته يستعد للعودة
إلى المدرسة . وأسرعت تعد له الإفطار ، وألحت عليه أن يجلس ليتناوله .
وازدرد « علي » بنزع لقمات حتى يطعم أمه ويقنعها أنه لم يخرج علي « لحم
بطنه » ، ثم تناول حقييته وهم بالخروج ، وقد عزم أن يطعمن علي عودة الحصان
قبل أن يرحل إلى المدرسة .. ولكنه لم يكد يجتاز الباب حتى فوجئ بأبيه مقبلاً
عليه مطأطئ الرأس ، شارداً الذهن ، وقد بدا عليه وجوم شديد ، وبهت
« علي » من نظره ، وسأله وهو يحس برجفة في جسده :

— ما بك يا أبى ؟

ورفع الأب رأسه ونظر إلى ابنه نظرة حزينة يائسة ثم أطلق من صدره زفرة
حارة وأجاب :
— لقد فصلت .

وعاد « علي » يسأل في صوت لا يكاد يسمع :
— وله ؟

وفي لهجة عاتبة أجاب الأب :

— لأجل الحصان الذى قتله .. كنت أظنك أعقل من هذا .. ولكن
مشاعرك قد أطاشت صوابك ، وعقلتك بمن لا يمكن أن يحسوا لك بغير
الاحتقار .. أرجوك يا علي .. اسحق هذا الشعور الأحمق اليائس الذى يدفع بك
إلى التهلكة .. ليس من أجل نفسى ... بل من أجل مستقبلك الذى أرقى في سبيله
ماء وجهى .

(٢٩)

لا يلتقيان

مرت بعلى بعد ذلك فترة من أسوأ فترات حياته .. تعاونت عليه خلالها كل مسببات الشقاء وبواعث الحزن والفشل واليأس ، بلا قبس من عزاء ولا بارقة من أمل .

وفرض على نفسه الحبس في المدرسة بعد أن وجد فيها مفراً من الزوبعة التي خلفها وراءه في البلدة ، بعد أن اعتقد أن لقاء « أنجي » أضحي أمراً مستحيلاً . وانطوى في غمرة حزنه محاولاً التعلل بالاستذكار وهو يحمل في الأوراق أمامه دون أن يعي منها شيئاً ، وأسطر التاريخ تراقص أمامه محاولة أن تجتذب ذهنه ليتتبع معركة بئر السبع وهجوم اللنبي في غزة ومطاردة الأتراك وعبور نهر العوجة . ولكن ذهنه كان شاردأ في أشياء لا صلة لها ألبتة باللنبي أو المطاردة أو غير ذلك من دروس التكتيك والطبوغرافيا .

وبدأت الامتحانات العملية ، وبدأت معها مظاهر الفشل وسوء الحظ ، وكان للوهم أثر كبير في نفوس המתحسين عندما يضعون الدرجات في الامتحانات العملية . فقد كانوا يحكمون على الطالب بأقدميته ومظهره وسمته « وفهلوته » أكثر مما يحكمون عليه بنتائج العملية الواقعية التي يسديها في الامتحان إذ كانت أذهانهم تكاد تعد للدرجة بمجرد منول الطالب أمامهم وقبل أن يؤدي شيئاً منها .

وأعجب ما في الأمر أن أول الفرقة المتوسطة (التي ضمت إلى الفرقة النهائية والذي كان ترتيبه فيها الحادى عشر في أول امتحان فلم يستطع أن يقفز مع المشر الأوائل) بدا للمعلمين عندما ضمت الفرقتان كأنه أول فرقة ، وبدأ يحتل في

أذهانهم مركز الأول ، فأخذ تقديرهم له يزداد ودرجاتهم تتضخم مجرد إحساسهم أن هذا أول فرقته . وفي الوقت نفسه نفذت إلى رعو سهم سلسلة التقصيرات التي منى بها « على » في مختلف الامتحانات والمباريات التي بدأ بها موسم الامتحانات فهبط تقديرهم له ، ولم تعد أذهانهم معدة لوضعه في مرتبة عالية لا تبصر العين إلا حسناتها ومزاياها .. وهبط مستوى الدرجات الذي يضعونه فيه إلى المرتبة الثانية حتى قبل أن يبدأ الامتحان .

وهكذا أخذت روحه المعنوية في الهبوط كلما تعاقب عليه الفشل .. وزاد من انحطاط معنويته طول انطوائه في المدرسة وانقطاع كل سبل الترفيه وتقييد نظام العيش والمناظر المحيطة به . فما من شك هناك أنه ليس أقتل لروح الطالب المعنوية من طول الحبس وكثرة الانطواء وفرط التكرار الملل الكئيب .

وزاره « حسين » المرة بعد المرة محاولاً أن يخرج به من عزله ، ولكنه كان يتعطل بالحاجة إلى الاستذكار وبقرب الامتحان وضرورة الاستعداد للمعركة النهائية التي ستوقف عليها أقدميته وسفره إلى الخارج .

وحاول صلاح وسليمان أن يشداه من غمرة يأسه ولكنه أحاط نفسه بسياج منيع من العناد والإصرار والزهد في كل شيء إلا الاستذكار . وقال له صلاح في أحد أيام الخميس على مائدة ضباط الصف وقد انتهى الطعام وانصرف الطلبة :

— يا على دعك من هذه المذاكرة .. إنها هي السبب في كل ما أصابك من فشل حتى الآن .. إنك تفوّقت في أول امتحان لأنك خضتته بطريقة خاطفة لم تسنح لك فيها فرصة استذكار . فلماذا ترهق نفسك هكذا؟! يا أخى لعن الله البعثة . ولعن الله الأقدمية .. إنك مثلي إنسان عاقل ، ذكي فلماذا تحاول أن تحشر نفسك في زمرة السخفاء من المتفوقين الذين لا سلاح لهم في الحياة إلا الصم .. قم يا أخى قم .. والله لن أدعك تقضى على نفسك وتنحط إلى درك الأوائل الأغبياء .. هات هذه الأوراق .

ونخطف صلاح منه أوراق التاريخ وكتاب هندسة الميدان .
وقفز « على » وراءه صائحاً :

— كف عن هذا المزاح يا صلاح .. إنك خلّيت البال ، لأن الطير ان أنقذك من
الاستذكار ، ولو كنت ستخوض غمار الامتحان لما كان لديك لحظة تقضيها
لتسدى إلى نصائحك ، ولما تركت المذاكرة لحظة واحدة ، هات الكتب
أرجوك .

وتدخل سليمان قائلاً :

— لا تعطه الكتب يا صلاح .. إني واثق أنك تنظر في صفحاتها دون وعي ..
إنك في حالة إجهاد وضيق لا يمكن أن تفهم معها شيئاً . إني أرقبك منذ ثلاثة أيام
وأنت متوقف عند الصفحة الخامسة عشرة من مذكرات التاريخ وقد كادت
الصفحة تبلى من فرط ما أمسكت بها يدك .. ومع ذلك فإنك لا تتجاوزها ..
أفتريد أن تفهمني أنك منذ ثلاثة أيام وأنت لا تذكر غير موقعة بير السبع ؟! لا
تكن عنيداً يا على .. إن هذه الطريقة التي تكبت بها أحزانك .. ستزيد من
غلوائها .. اخرج ونفس عن كربك وفرّج عن نفسك .

وأجاب « على » محاولاً التجلد والاستخفاف :

— ليس بي ما يستدعي التفريج والتنفيس .. إني غير متضابق من البقاء في
المدرسة .

— إنك من فرط ضيقك لم تعد تحس بضيق .

وأردف صلاح :

— ستخرج اليوم بالإكراه .

— لن أخرج ولن أذهب إلى البيت .

— لا ضرورة للذهاب إلى البيت ، سنخرج للتمشي في البلد ، وسنذهب إلى
سينما ثم نأكل بعض الشطائر في الأمريكيين ونعود سوياً للمبيت في المدرسة . قم
بنا .

— لا .. لا .. أنا متعب من سهر المذاكرة ليلة أمس ، وأريد أن أنام .

— حسن .. لتتم حتى الخامسة .. إننا لن نخرج قبل السادسة .

وفي الخامسة والنصف ارتدى صلاح ملابسه وذهب إلى عنبر « على » يستحمته .. فلم يجد له أثراً وألقى الفراش مرتباً والدولاب مغلقاً .. وانطلق يبحث عنه في كل مكان .. في المكتبة والنادى والفرق والميس حتى يئس من العثور عليه ، وأخيراً ذهب إلى سليمان وكان يعمل جناوياً نوبتجياً وقد ارتدى القايش والسونكى ووقف في الطرقة السفلى يعد كشوفات التمام .

وتساءل سليمان :

— ألم تخرجنا بعد ؟

— إني لا أجد علياً .. أتظنه نخرج وحده ؟

— غير معقول .. أبحثت عنه جيداً ؟

— في كل مكان .. في المكتبة .. والنادى .. والميس .. وعند الحلاق . لم أترك مكاناً إلا فتشته .. يجب ألا نتركه هكذا في غمرة يأسه . لا بد أن نجعله يسرى عن نفسه قليلاً .

— اسمع يا صلاح .. أنا أعرف أين هو .. أعرف البقعة التي تعود أن يلجأ إليها ليخلو إلى نفسه ويحاول المذاكرة .. أعرف ميدان « الثلاثين ياردة » ؟ إنك تجده تحت إحدى أشجار السرو الضخمة التي تفصل الميدان عن ملعب الكرة .. أو تجده في المشتل القريب على يسار مدخل المدرسة تحت عنبر الصنف الرابع .

وهمّ صلاح بالذهاب إلى المشتل عندما لمح أحد طلبة مدرسة البوليس يجتاز بوابة المدرسة مقبلاً عليه وعرف فيه « حسيناً » أنحأ « على » فتلقاه مرحباً . وسأله حسين :

— أين على ؟

— إني أبحث عنه .

— أليس موجوداً في المدرسة ؟

— أعتقد ذلك .. وإن كنت حاولت العثور عليه عبثاً .. لقد أتفقنا على أن نخرج سوياً للذهاب إلى السينا والعشاء في الأمريكين .. إنه في حالة سيئة من اليأس والانهيار .. فقد لازمه النحس أخيراً في كل شيء .. حتى الملائكة التي حصل فيها في العام الماضي على خمسين درجة .. قد ضاع أمله فيها هذا العام ، إذ أصيب بشرخ في إبهامه الأيسر خلال التمرين مما اضطر المستشفى إلى تجبيس إصبعه ومنعه من دخول المباراة .

— ولكن ألا نستطيع أن نجده ؟

— بل لا بد أن نجده وأن نخرج به لنبعده عن ذلك الجو اليأس المتشائم الذي يطبق على أنفاسه .

ونحت إحدى أشجار السرو الضخمة المستقرة في أقصى ملعب الكرة والمتهدلة أغصانها على سور السجن الحرى ودروة ضرب النار ، كان يستقر « على » فوق بعض شكائر الرمل وقد أسند رأسه على الشجرة ومدد ساقيه وفرد يسراه بكتاب الطبوغرافيا الأحمر وقد وضع سباته بين الصفحات ليحدد الصفحة التي وقف عندها .

و كانت الشمس تنهوى وراء ظهره خلف جدران السجن .. مرسله أشعتها الحمراء الآخذة في الشحوب والانقراض على أطراف الأشجار المحيطة بمدرسة التربية البدنية وأورطة الأساس ، وعلى الأسقف المنحدرة المتناثرة هنا وهناك ، وكأن الأشعة المجررة أذيالها صيحات استغاثة من الشمس الهابطة لا تلبث أن تبدد في ذلك الفراغ البعيد ، وأحس « على » كأن نفسه قد أطبقت عليها جدران السجن الكائنة وراءه ، بل كأن كل ما حوله قد أضحي سجناً موحشاً مظلماً ، وأن هتافات الرجاء التي كانت تنبعث من قلبه ما تلبث حتى تبدد كتلك الأشعة المنقرضة ويعقبها الصمت الثقيل والظلمة المطلقة .

وأغمض عينيه وأطلق تنهيدة يائسة .. كل شيء حوله يبعث على اليأس حتى منتهى الأمل قد أضحي منتهى اليأس .

وماذا يمكن أن يأمل منها ويرجو من حبها ؟! أكل ما يرجوه هيام دائم ..
وأحلام مستمرة ؟! أمذا هو ما يمكن أن يعلق به حياته ويجعله منتهى أمله ؟! إن
مجرد محاولته الركوب معها قد أدت إلى تلك الكارثة .. ومن السخف أن يحاول
أن ينسب ما حدث إلى مجرد سوء الحظ .. فإن سوء الحظ لم يفعل أكثر من أن
عجل بالنتيجة ، ولو لم تحدث الفرقة أمس لحدثت اليوم أو غداً .

إن حياتنا لا تتشكل حسب مشاعرنا وأهوائنا .. إن هناك قيوداً مادية تحتم
سيرنا في اتجاهات لا تملك مشاعرنا تغييرها .. رغم أننا في نشوتنا وهيامنا نجزم
لأنفسنا أنه يكفي أن نشعر وأن يبادلنا الطرف الآخر الشعور حتى يهون كل أمر
ويضحى غير ذلك من الماديات المفروضة علينا تفاهات لا تدخل في حساب رسمنا
لمستقبلنا ولا تؤثر على تنفيذ مشروعات أمانينا وخطط أحلامنا .

ولقد أرضاه وملاً بالغبطة نفسه ، أن يبادل الشعور ، وأخذ العهد والميثاق
على أنه أقصى مطمعه في هذه الدنيا .

وبعد ! .. إنه يجلس الآن في عجز ويأس .. وينظر إلى المستقبل في عجز أشد
ويأس أعظم .

لقد ظن أنه يكفي لكي يصعد من القرار ليجاورها في القمة أن يدخل المدرسة
ويخرج منها ضابطاً .. فيصبح نداً لها وأهلاً لمشاركتها حياة واحدة .

ولكنه يحس الآن أنه ما زال يقف وراء أسوار هائلة وسدود منيعة ، وأن أمتن
أو ثقة الشاعر وأشد أربطة الأحاسيس أعجز من أن تشد أحدهما للآخر لتجتاز به
تلك الأسوار العالية من التقاليد والفوارق .

وهو لا يعيش في القرون الوسطى حتى يستطيع أن يختطفها من قصر أبيها ..
ويقر بها على جواد .. إنما هو يعيش في مصر .. البلد الطيب الهادئ .. الذي
ينزل كل ما به في مجراه الهادئ ، لا يحيد عنه ولا يفور ولا يثور .. والأسياد
سيظلون أسياداً ، والعبيد عبيداً .. والسياح القائم بين هذا وذاك سيظل قائماً بلا
أمل في زواله أو رجاء في تخطيه .

هو في مصر .. بلد السكينة والاستكانة .. لا أمل له في فورة تقلب والأوضاع، وتجعل على الإناء أسفله، وأسفله عليه .. ولا في عاصفة تطيح بالسدود والفوارق .. وتحطم قلاع الكبرياء والعجرفة والأرستقراطية .
وتذكر تمرد سليمان وثورته .. وأحس بأنه قد بدأ يلتقي به في تفكيره من زاوية مخصوصة .. ومن ناحية معينة .

ولكن حتى هذا التفكير .. لا يعدو أن يكون أوهاماً لا يزيد الأمل فيها عن أوهاام الاختطاف على جواد ، ولا يغير من الوضع الجامد الصلد الذي يحيط بها كقالب من حديد يعضى على كل منها شكلاً مخصوصاً لا تستطيع المشاعر أو الإرادة والرغبة أن تغير تكوينه أو تبدل هيئته .

وملأت المرارة نفسه .. وحاول أن يستعين على إزالتها أو تخفيفها باجترار هنيئات اللقاء الحلوة وتذكر المناجاة العذبة ، ولكن طول اليأس أفقده القدرة على الاجترار والتذكر ، وغلبت عليه مرارة التفكير ، ودفعته إلى تصيد الهموم والأحزان .. فسأل نفسه في مرارة : أما كان عليها أن تذكره ؟! إنه لا يستطيع أن يكتب إليها .. فلماذا لا تكتب هي إليه ؟! ألم تزعجها غيبته ؟ أم ترى الفرقة قد أطفأت ما بها ؟! وأنها اقتنعت أن ما بينهما لم يكن سوى نزوة في القلب ، أزالها صوت العقل وحكمة التقاليد ؟

وتذكر مناقشته لحسين ونصيحته له بأن يتجنب الطريق الوعر الشائك الذي يخوض فيه . وقوله :

« الطريق الوعر الشائك هو الذى تسير فيه أنت .. أنا لا أشد نفسى إلا بمتعة ليلة ، ولكنك توثق نفسك بهوى عمر .. أنا إن تخلت عنى لفظتها ، وأنت إن تخلت عنك حطمتك وبددتك هباء . إني أمدّ يدي إلى ما تستطيع أن تصل إليه ، أما أنت فتمدّ يدك إلى النجوم والسحاب .. أنا أمسك بمن في طريقي ، أما أنت فتسير في طريق وترجو ما في الطريق الآخر .. وطريقك سفلى ، والطريق الآخر علوى .. والطريقان — بأوضاع حياتنا الراهنة .. التي لا أمل لنا في تغييرها —

يسيران مستقيمين متوازيين .. أحدهما في الأرض والآخر في السماء ..
والطريقان المستقيمان المتوازيان كما تعلم لا يلتقيان أبداً .
وردد لنفسه في مرارة .. أجل .. لا يلتقيان أبداً .

وأحس وهو يهمس لنفسه بالحديث اليائس بحفيف أقدام تطأ الحشائش .
وفتح عينيه ، وأدار رأسه فإذا بحسين يقترب منه وقد سار صلاح بجواره .
وهتف صلاح مازحاً :

— ما شاء الله .. تتركني أدوخ عليك في المدرسة كلها وأنت تختل هنا بكتاب
الطوبوغرافيا ... قم وكفى حلقه في الكتب والمحاضرات .. إن هذا هو
الذي سيودي بك .. قم ..

ونهض « على » في تناقل ، وأقبل يحيى أخاه في شيء من الدهشة قائلاً :

— أهلاً .. حسين ماذا أحضرك ؟

— ألم أوحشك ؟! لقد حضرت لأراك .. وأخرجك من ذلك السجن الذي
سجنت فيه نفسك .. هيا بنا .

— إلى أين ؟

— لا تسأل إلى أين .. سأخرج بك .. ولو على أسنة الرماح .
وسار الثلاثة عابرين ملعب الكرة متجهين إلى بناء المدرسة ، وصعد الأخوان
إلى نادي الطلبة وتخلف صلاح قائلاً :

— سألق بكما حالا . عليك به يا حسين . لا تدعه حتى يرتدى ملابسه .
وجلس الأخوان في أحد أركان النادي على كرسيين أسبوطيين متقابلين ،
وكان الصمت قد نсад بينهما طيلة الطريق ، وقطع « على » الصمت متسائلاً :

— كيف حالكم جميعاً ؟!

— على ما يرام ..

— وأبي ؟

— بخير .. إنه يعجب من انقطاعك عن الذهاب إلى البيت ، ويتساءل هل

أغضبك منه شيء .. لقد قال لى إنه لم يقصد لومك على ما فعلت .. ولا قصد الإساءة إليك ، ولكنه فقط خشى عليك من الاندفاع فى طريق شائك وعمر لن ينتهى بك .. وأنت تسير فيه بهذا الاندفاع والحاررة .. إلا إلى مأساة أو كارثة .. ألم أقل لك أنا نفسى هذا ؟! أتذكر ؟

وأطلق « على » تهيدة ضيق ، ثم أجاب بعد لحظة صمت :

— لا داعى الآن لكل هذا .. فأنا لا أخرج لأنى أريد الاستذكار .. إن الامتحان قد قرب .. ويوما الخميس والجمعة هما الفرصة الوحيدة التى يمكن استغلالها . ولا أريد أن أضيع الوقت فى الذهاب والإياب ، وأنت تعرف أن المذاكرة فى البيت أمر متعذر .

— على .. هذا الكلام لا يقال لى .. إنك تعرف قدرتك على فهم ما بنفسى ، وتعرف أن لى نفس القدرة على فهم ما بنفسك . أنا لا أستطيع خداعك وأنت لا تستطيع خداعى .. دع الأمور تجري بأيسر من هذا . لا تغلق نفسك فى هذا القالب الحديدى وتفرض عليها إحساساً معيناً تأبى الفكاك منه .. لا تشيد حياتك على أمنية ، بغيرها تصبح فى عداد العدم .. إنك تسجن نفسك يائساً حزيناً محموماً لأنك حصرت كل تفكيرك فى مخلوقة واحدة .. متعذرة المنال . بل لا يمكن بحال أن تكون لك ، وأنت تدرك هذا لو فكرت فيه بذهنك لا يقلبك . وقد بت تحس أن الحياة بغيرها قفر يباب .. حطم أسوار سجنائك وانطلقى خارجة تجد الحياة ما زالت بخير .. وتجد بها من النعم المتعددة ما تغنى كل منها عن الأخرى .. إذا استعصت هذه ، أغنتك عنها تلك . ستخرج معى الآن . وسأريك أن الدنيا .. التى أظلمت من حولك ما زالت تضيء حول الناس .. سأريك أن هناك وسائل أخرى للاستمتاع والتنعم .. قم وارقد ملابسك .

— الوقت متأخر .. وأنا مجهد .

— الوقت ليس متأخراً ، وأنت مجهد من فرط التكرار والملل والحبس الذى تعيش فيه .. لقد أقسمت أن أخرج بك .. لن أدعك بأى حال .. وأؤكد لك

أنك ستعود إلى المدرسة وقد ذهبت عنك هذه الغمة وبت أهدا نفسا وأوفر نشاطاً .. وأقدر على الاستذكار الذى أنت حريص عليه .. قم يا على .. هيا بنا . وجذبه من يده .. وسار الاثنان إلى العنبر .

إن أخاه على حق فى كل ما قال .. وهو يشعر أنه لو استمر مقيدا نفسه بين هذه الجدران القائمة لا تبصر عيناه إلا سطوراً من سحف الدراسة .. لقضى عليه اليأس .. أو أصابته جنة .

وانتهى « على » من ارتداء ملابسه وقد أحس بالعبء الجاثم عليه قد أخذ يخف .. وجلا ميد الحزن واليأس قد بدأت تتفتت . إن مجرد إلقاء الكاكي عن جسده وارتداء بدلة الفسحة .. بعث فى نفسه شعاعاً باهتاً من الأمل فى احتمال رؤيتها .. احتمالاً — مهما ضعف — فهو مع إقبال الحظ وسنوح الصدف .. جائز الحدوث .. وهو خير من الاستحالة التى فرضها على قدره الحظ ومحاولات الصدف .. ببقائه اليأس بين جدران المدرسة .

وغادر ثلاثتهم المدرسة . وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساء . وشوارع القاهرة مزدحمة بالمارة والمتسكعين والباعة المتجولين ، وواجهات المحال التجارية تشع بالأضواء الملونة والمروضات الأخاذة .

ووقف الثلاثة برهة على ناصيتى عماد الدين وفؤاد الأول حيث نهاية خط المترو ، وحيث يتكاكأ حشد من الواقفين المتطلعين ، كأنهم فى سوق أو فى معرض لا يكاد عابر الطريق يجد طريقه بينهم . وفى هذا الحشد الرابض على الناصية أمام محل الأمريكين اندس عدد كبير من أصحاب الأشرطة الحمر والستر الكمحلية والسوداء ذات الياقات المغلقة العالية يعرضون أجسادهم المصلوبة وقاماتهم المشوكة ويستعرضون الخليط النسائى الهابط من عربات المترو والصاعد إليها ، أو المنتظر على محطة الترام ما بين بنات المدارس وعاملات المحلات . وبين كلا الفريقين العارض والمستعرض يجرى تيار لا ينقطع من النظرات العابرة التى تترواح بين التعجب والتطلع والابتسام ، وتنطلق الوجوه الهابطة فتذهب فى

طريقها ويتحرك الترام بالمنتظرات وتحل على الرصيف وجوه جديدة فتلقفها
الأعين المراقبة بنفس النظرات كأن الوجوه لم تتغير، وكأنها مكلفة بأداء واجب
لا مناص من تأديته.

ووقف الفرسان الثلاثة وسط الحشد وقد تملكث النشوة صلاح وحسين
وأخذت أعينهما تترجح في مقلتيهما بين محطة الترام والمترو والوجوه الرائحة
الغادية.. وتخفف الضجيج والأنوار والوجوه المحتشدة والثغور الباسمة اللاغطة
الكثير من أحزان «على» وسرت نشوة صاحبيه إلى نفسه، وأخذ يتطلع بعينيه
تطلعا غير مترجح ولا حائر بل تطلع متلهف باحث فاحص كأنما يوشك أن يبصر
في تلك الوجوه وجهاً معيناً ويرى بين البسمات العابرة بسمة مخصوصة، ويسمع
اللفظ الدائر نبرات عزيزة وهمسات حيوية.

وأحس «على» بعد فترة من الوقت، شيئاً من الحرج وهو يقف بين المتسكعين
على قارعة الطريق يحلق في الوجوه الغادية الرائحة، وقال لحسين متسائلاً:
— أسظل واقفين، هكذا على قارعة الطريق؟ لقد كنت دائماً أعيب على الطلبة
هذه الوقفة، بل أذكر أنى وقعت عقاباً على بعض الطلبة لأنى رأيتم يغازلون على
قارعة الطريق، تماماً كما يبدو علينا أننا نفعل الآن.

وأجابه صلاح ضاحكاً:

— ألا يعجبك كل هذا السيل من الوجوه الحلوة؟! انظر إلى هذه الواقفة على
محطة المترو.. هذه الفتاة العارية الذراعين.. الواسعة العينين.. إنها تنظر إليك.
والقى «على» نظرة إلى حيث تقف الفتاة فوجد الفتاة تبسم.. فزاد إحساسه
بالحرج وأجاب:

— لا يجدر بنا أن نقف هذا الموقف.

وتساءل صلاح:

— إلى أين تريد بنا أن نذهب؟

— إلى أى مكان غير هذا.

وتدخل حسين قائلاً:

(رد قلبى — ج ١)

— هيا بنا ندخل الأمريكين.. إني أحس بجوع وأريد أن أتناول بعض الشطائر.
ودخل الثلاثة سائرين بين المناضد المكتظة بالجالسين وعكست مرايا المحل
صورهم في كل ناحية فأصلح كل منهم هندامه وألقى نظرة رضاء على شكله،
وصعدوا السلم الخشبي إلى الطابق الثاني المنخفض السقف المطل على الطابق
الأول.

وطلب حسين زجاجة بيرة وبعض الشطائر وشاركه صلاح فيما طلب،
واكتفى «علي» بكوب من الآيس كريم بالصودا.. أخذ يقلبه بالملعقة الطويلة حتى
اختلطت الصودا بالجلال بالشراب الأحمر وأخذ يرشفه بأنبوبة القش الرفيعة .
وجرى بين الثلاثة حديث مرح لطيف، واستطاع حسين وصلاح بخفة
دمهما، وحلوا نكاتهما، أن يرفعا عن كاهل «علي» جزءاً مما تبقى من أحزانه
الجاثمة.. عاونهما في ذلك المرح البشاع في جوار المكان وبضعة الوجوه الحلوة
المحيطة بهم.

وانتصفت الساعة الثامنة فقال حسين وهو يهم بالنهوض:

— هيا بنا.

وتسائل علي:

— إلى أين؟

— إلى القاعة.. إن العمل يبدأ في التاسعة.

وأجاب «علي» معترضاً:

— سأعود أنا إلى المدرسة.

ونظر إليه حسين في دهشة قاتلة:

— إلى المدرسة؟!!

ثم جذبه من يده في غيظ وأردف:

— هيا.. ولا تكن سخيلاً.

(٣٠)

السمراء الراجية

أقبل الثلاثة على صالة « نعيمه محمد » في شارع عماد الدين ، وكان مدخل الصالة يبدأ ببضع درجات رخامية تقضى إلى باب انسدت عليه ستارة من القطيفة الخضراء وقد وقف عليه « إبراهيم المفترى » وهو حيوان ضخم ، ضيق الجبين .. عريض المنكبين .. أغم القفا ، قد ارتدى بنطلوناً من الفانلة وسترة إنجليزية من القماش الكاروهات تحتها قميص أزرق أخرج ياقته المفتوحة فوق ياقة الجاكتة .. وأمسك في يمينه عصا قصيرة غليظة . وأخذ بصيح بين آونة وأخرى صيحات، تهديد ناهراً بها الباعة والصبية ومظهراً سطوته وبطشه ، محرراً خلالها من تقاطيع وجهه الغليظ الخشن المليء بالندوب والتعاريج كل ما استطاع تحريكه زيادة في إظهار القوة والجبروت .

وعلى أول الدرج وقف « على أبو ستة » وهو حيوان آخر ، وإن كان يبدو في مظهره نقيض الحيوان الأول لنحافته وهزاله وقد ارتدى جلباباً و « طاقية شبكية » و « جزمة كاوتش » كانت بيضاء وقد « كعبها » مستعملاً إياها « كشيش » وخرج من ثقب في مقدمها إصبعه السادس الذى كنى من أجله « بأبى ستة » وأمسك بيديه كومة من الإعلانات الحمراء كتب عليها اسم الصالة وبرنامج العرض .. وعدة صور للمطربين والمنولوجيست والراقصات المشتركين فيه ، ومن بينهم راقصة مصر الأولى ، والمنولوجيست . الخفيفة ، والمنولوجيست السوري ، والمطربة العراقية ، والثلاثى الراقص .

وكان « أبو ستة » مغمض العينين .. مفتوح الفم .. مرفوع العقيرة بالصياح والضجيج ، معلناً عن البرنامج بفمه كما يعلن بيده ، وفوقه قد استقر إعلان في

الحائط بالخط العريض والصور الملونة ، فوق المدخل قد كتب اسم الصالة المسماة باسم صاحبها بالمصاييح الكهربائية التي أخذت تطفئ وتضيء .
وكان شباك التذاكر قد استقر في يمين المدخل .. وكان المفروض أن يقصد الداخل إليه لقطع التذاكر قبل أن يتجه إلى الباب ، وكان المفروض أيضاً أن « إبراهيم المفترى » لا يظهر افتراءه على أئمه إلا على من يحاول الدخول إلى الباب رأساً دون أن يعرج على شباك التذاكر .

ومع كل هذه المفروضات اتجه « حسين » يتقدم صاحبيه في ثقة واعتداد إلى الباب الذى وقف عنده الحيوان المفترس المعقد الأسارير .. الجائر بالصياح والزئير .. والذى لم يكديرى « حسين » يتقدم صاحبيه حتى انفرجت أساريره وانقلب زئيره إلى ترحيب لين واستقبال هاش باش .. وأزاح الستار ودفع الباب قائلاً :

— أهلاً وسهلاً حسين بك .. الصالة نورت .

— كيف الحال يا أبو خليل ؟

— رضا .. نحمده .

— والست كيف حالها ؟

— الحمد لله .

— هل أتت ؟

— طبعاً .. من الساعة الثامنة .. تجدها في حجرتها أو في البار .

واجتاز الثلاثة الباب ، و« على » مأخوذ بمظاهر الألفة التي يستقبل بها أخوه .. من الجرسونات والأرتيستات وبعض الزبائن .

ولم يكن المكان من الداخل بالاتساع الذى يتصوره « على » بل كان أشبه بقاعة رحبة في أحد المنازل الكبيرة ، يقوم على يسار الداخل مسرح أسدلت عليه ستارة من القطنية الحمراء قد طرز عليها بالقصب اسم صاحبة الصالة .. وأمام المسرح عدة صفوف من المقاعد وضعت وراءها بضعة مناخذ صفت حولها

الكراسي الخيزران ، وفي الأجانب « ألواج » حجزت عن القاعة بحاجز من الخشب ، وعلى يمين القاعة وضع البار بممراته الكبيرة التي غطت الجدار والأرفف الزجاجية التي صفت عليها زجاجات الجون هييج والديسوارس ، والهوايت هورس ، وأمام المرأة وضع « البنك » الخشبي المغطى بالرخام والفاصل بين « ستاورو » عامل البار وبضعة الزبائن الذين اعتلوا صهوة المقاعد العالية واتكأوا بمرافقهم على الرخام وأخذوا يسيغون رشقات الويسكى بقطع الخيار والجنبرى وسلطة الطحينة .

وعندما توسط الثلاثة القاعة بدت نعيمة محمد (أو نعمات أو نعيم أو سلسلة أسماء أخرى اشتهرت بها) مقبلة من باب صغير مجاور للبار ومفض إلى ممر ضيق يؤدي إلى حجرات الأرتيستات ومتصل من الناحية الأخرى بالمسرح . وبدت « نعيمة » في إقبالها على كثير من الإغراء تعاون في إظهاره جمال لم تعف آثاره ، ومكياج متقن ، وثوب مشدود على الجسد مبرز للردين ، مطبق على النهدين ، كاشف لما بينهما من مجرى زاد الإطباق من عمقه فبدا كأنه أخذود في لحم الصدر .

وأقبلت ربة الصالة تخطر في مشيتها خطوات أستاذة في السير وفي الحركة ، تعرف كيف تستفيد من خطورة بهزة في الردف أو رحة في الصدر وبدت عليها بشاشة طبيعية عندما وقع بصرها على حسين ، وافتر ثغرها عن ابتسامة عريض أبدت أسناناً نصف بيضاء وأزاحت الحسننة الصناعية المرسومة بالكحل على طرف فمها إلى أعلى ، وقالت مرحبة بعد أن جذبت نفساً من سيجارة بين أصابعها وأطلقت ليضيف إلى هواء الصالة مزيداً من دخان :

— أهلاً .. أهلاً .. ازيك يا سونة . نورت الصالة .

ومد حسين يده فشده على يدها الممدودة مرحباً ، وقال معرفاً إياها

بصاحبيه :

— على أخى .. وصلاح صديقي .. والست نعيمة أشهر من نار على علم طبعاً .

وأجابت « نعيمة » مرحة في طهجة لا تخلو من الدهشة :
— أخوك ؟! .. أهلا .. وسهلا .. الشبه واضح جداً .. ولكنه يبدو أهدأ
منك كثيراً .. إنك عفريت .

— أنا !! .. ياما في الحبس مظالم .. إني طيب جداً .
— أنت ؟! آه منك ! إن الشقاوة تكاد تقفز من عينيك .
ورنت يبصرها إلى صلاح ، وبدأت كأنما تحاول أن تتذكر شيئاً ثم قالت :
— هذا الوجه ليس غريباً علي ! لا بد أننا التقينا من قبل .
وضحك صلاح قائلاً :

— أجل .. لقد التقينا فعلاً .. أما زلت تذكرين ؟
— إن ذاكرتي لا تنسى أبداً .. التقينا مرة في القطار الذاهب إلى المنصورة .
— أجل .. ومرة أخرى .. في بيت « سنية قشطة » في الإسكندرية .
— أجل .. أجل .. صحيح .
ثم قلبت البصر بين الثلاثة وقالت مستدركة :
— ولكن مالكم تقفون هكذا ؟
وأجاب حسين :

— سنجلس في أحد الألواج . إني قد دعوت صديقي .
— بل أنا دعوتكم أنتم الثلاثة .. أنت ضيفي الدائم .. وضيفك ضيوفي ..
تفضلوا .

ثم صفقت يديها منادية أحد الجرسونات امرأة إياه بقولها :
— سل البهوات عما يطلبون ؟ وابق تحت أمرهم .
ثم وجهت القول إليهم مردفة :
— عن إذنكم لحفلة .. حتى أرى البنات .. إن « سنية » مريضة ولا بد أن
أجهز غيرها لتشغل نمرتها .
واتجه الثلاثة إلى اللوج الأول .. وبنفس « على » شعور خليط من الحرج

والابتهاج .. الحرج من ذلك الترحيب باعتباره مظهراً مشيناً يحاط به أخوه ويديه أمام الناس كأنه أرتيست أو شريك في الصالة ، والابتهاج بنفس الترحيب باعتباره مظهراً للتميز على بقية المتفرجين يدفع في نفسه كبرياء وغروراً لا يستطيع كبشر الترفع عنه ، أو التخلص من الإحساس به .

واستقر بهم المقام في اللوج .. ومضت فترة قبل أن يستطيع « على » أن يتمالك نفسه .. ويعلمئن إلى أن الأضواء لم تعد مسلطة عليهم .. وإن الأنظار التي لفتها دخولهم الثلاثة بملابسهم الرسمية وترحيب « نعيمة » بهم قد تحولت عنهم .. وأخذ بدوره يصوب بصره في هدوء من مكمنه ليفحص به على مهل وفي تودة الخليلط الصاحب المحيط به .

ولم تكن النمر قد بدأت .. وكانت تتجاوب في الصالة ضحككات ونكات ونداءات تتعالى عن طنين الكلام العادي الذي بدا من فرط استمراره وطبيعته كأنه صمت .

وأقبل الجرسون بكأس من الويسكي وزجاجة بيرة وبعض أطباق « المزة » ، وقال صلاح لعلي وهو يفرغ زجاجة البيرة في كوبه :

— ستشاركني هذه الزجاجة ؟

— لن أشارككما سوى المزة .

وصاح حسين بالجرسون وهو يقذف في فمه بقطعتين من الجنبرى .

— اسمع يا محمد .. قل « لسفروت » أن يعد لي طبق « سلطة حمص » مخصوص .. وهات طبق جنبرى آخر .

وكان صلاح وحسين ، منذ أن دخلوا القاعة ، يتصرفان ويضحكان ويتحدثان ويتبادلان الإشارات والمغازلات في طرب وفي غير كلفة كأنهما يجلسان في بيتهما وسط أهليهما وعشيرتهما .. وبينما لم يستطيع « على » أن يتحرر من إسار الحرج والحياء .. أو يحطم قيد التكلف والإحساس بالغربة ، والضياغ في هذا المجتمع الصاحب الماخن .

واستمر. « على » يوجه شعاع البصر المراقب في جلسته .. وهو يحس بشيء من الراحة ، فقد كان دور المتفرج المراقب يلائم طبيعته أكثر من دور الواقع تحت المراقبة المعرض للمشاهدة .

وتنقل بصره بين خليط عجيب من الناس لا يذكر أن مكاناً غير هذا يقدر على أن يضم مثله .. كان يرى في الصف الأول « ثلة » أغلب ظنه أنها من طلبة الجامعة .. قد أخذوا يتبادلون النكات والسخافات بطريقة استعراضية تجعل الناظر إليهم يوقن أنهم يتعمدون لفت الأنظار أكثر مما ييغون الضحك في حد ذاته ، وأنهم يعتبرون أن دورهم في الصالة أكثر من مجرد مشاهدين عاديين .. فهم يودون لو استطاعوا مشاركة أصحاب العرض والتمزج في أدوارهم .

وبجوار هؤلاء أستاذ معمم يبدو أنه « عمدة » غليظ الرقبة ، ضخيم الرأس قد سلب بصره على سnaire المسرح كأنما يود أن يستشف ما وراءها .. أو كأن هناك شيئاً مخصوصاً يتعجل رؤيته ، وبجواره جلس عجوز أصلع ، أكرش ، مهذل الشوارب ، قد انهمك في قذف ما بكيس في يده إلى فتحة فمه ثم الاندفاع في مضغه بطريقة آلية سريعة كأنما هو مكلف بمضغ كمية معلومة في وقت محدود .

واستمر الخليط يتتابع على ناظره .. من مشاهدين وأرتيستات ، بوجوههن المصبوغة وأجسادهن شبه العارية ، وقد استشعر نوعاً من التسلية والطرب وهو يسلط شعاع بصره ويستكشف به الناس دون أن يشعر به أحد .. واستمر يتنقل به من المقاعد إلى الألواح المقابلة ، إلى المناضد ، إلى الباعة حتى استقر فجأة على عينين مصوبتين إليه بترقبان بصره المتحرك بين الناس وقد بدت فيهما نظرة بها شيء من التوسل الخفي ، والرجاء المستتر ، وأحس فجأة أن بصره المتحرر قد قيد إلى هاتين العينين وكأنهما فخ قد أعد له وظل فاتحاً فكيه حتى انزلق بينهما .

ولم يشاء الفرار .. واستمر يحدق برهة في العينين .. وكانتا عينين متسعيتين طويلتي الهدب يعلوهما حاجبان أسودان ثقيلان لم تعبت بهما يد التزجيج ولا أعاد رسمهما قلم الخطوط وجبين أسمر ضيق هبطت منابت الشعر فغطت أعلاه ،

وشعر أسود ثقيل قد رفع إلى أعلا وطوى في حلقة كبيرة في مؤخرة الرأس ،
وأسفل العينين أنف نصف دقيق ونصف مستقيم ، بمنتصف قصبته عقلة صغيرة
لا تكاد تبين ، وفي أسفله بعض الفرطحة التي لا تعيبه ، وأسفل طاقتى الأنف غم
لا تنطبق عليه الأوصاف المثلى للجمال ولكنه يكون مع بقية الوجه شيئاً لطيفاً
يستريح الإنسان إلى النظر إليه .

ونقل « على » بصره من العينين المتشبتين به ، ولكن لم يطل به البعد عنهما
حتى عاد مرة أخرى .. وفي هذه المرة مسهما ببصرة مساً سريعاً ثم هبط فاحصاً
الجسد .

كان الجسد على خلاف سواه من الأجساد المعروضة في الصلاة .. لم يكن به
امتلاء ولا اكتناز .. ولا فتنة صارخة ولا أنوثة متفجرة .. ولم يكن بالجسد
عيب ، ولكن العيب كان وجوده في الصلاة مجرداً من وسائل الإغراء بلا صدر
نافر ، ولا ردف مكتنز ، ولا ذراع ملفوف أو ساق ممتلىء ، بل قوام ممشوق
معتدل في نحول وضمور لا يلفت النظر العرييد فيه بروز مغر أو نتوء مثير ..
وكأنما أدركت صاحبته افتقارها إلى مواهب الإغراء وأدوات الإثارة فكفت
نفسها مؤنة العرض .. وقنعت من الثياب المفتوحة الصدر الكاشفة عن الكتفين
والذراعين والإبطيين ببلوزة بسيطة حمراء مستديرة الياقة يصل كمها إلى المرفق
ولا يكشف إلا عن الساعد الأسمر الرقيق ، وجيب أسود فضفاض ذى ثنيات
أشبه بثنيات سروال الأسكوتش .

بوجه عام كانت صاحبه بوجهها الأسمر الخالى من الأصباغ وشعرها الأسود
المعقوص على قمة رأسها ، وجسدها النحيل الرقيق .. وثيابها البسيطة .. تكور
شيئاً غير ذى قيمة ولا موضوع في الصلاة .. شيئاً لا يتلهف عليه روادها أو
يجدون به ما يغرى بالإقبال .

والذى جعلها غير ذات موضوع في الصلاة .. هو نفسه ما جعلها ذات
موضوع في نفس « على » .. فقد كان بقلبه الحساس وشعوره المرهف .. نفور
من اللحوم المعروضة والأجساد المكشوفة العارية .. كان أكثر إحساساً بقيمة

الإنسان ، وكان يستشعر من نظره إلى الأجساد المعروضة نوعاً من الهوان البشري والإذلال الآدمي .. وكان يحس غضاضة وحرماً من كل ما يحيط به .

وفي وسط هذا الجو المشحون بالمجون والفجور .. وجد « على » صاحبتنا أشبه بالناسك بين الفجار .. والعابد بين الكفار ، وأحس أنها لا بد وأن تكون مختلفة في التفكير والتكوين عن بقية صاحباتها العابثات المبتذلات .. وتساءل في نفسه عما إذا كانت تستطيع بجسدها الرقيق وسماتها البريئة الطيبة أن تؤدي ما تؤدين وتفعل ما يفعلن .

ولمح « حسين » تحول نظره « على » وثباته على ناحية معينة فحول بصره ليرى ذلك الشيء الذي جذب اهتمامه .. والتقى بصره بالعينين السوداوين .. فابتسم وأشار محمياً ، فأجابته بابتسامة وإشارة ، ورغب « على » في أن يستفسر عنها ، ولكن إحساسه بالهرج منعته عن السؤال وكفاه حسين — الذي يستطيع أن يفهم بسهولة ما برأسه — مؤنة السؤال . فقال موضحاً :

— هذه كريمة .. كريمة الولد .

— ولد !!

— أجل .. إنهم يدعونها كذلك لنحوها وضمور جسدها .. إنها بنت غلبانة .. طيبة .. ولكنها — كما تقول الست نعيمة — خمة .. وليست على شيء من « اللحلحة » .. لقد كانت على وشك أن تطردها .. لأنها كعدمها ، لا فائدة منها لا على المسرح ولا في الصلاة ، فليس هناك أمل منها في أن تكون راقصة لها قيمة ، بجسدها النحيل الذي لا يوجد به شيء يهتز أو يترجرج ، ولا تنفع في الصلاة في الفتح ، فهي لا تجيد الإثارة والإغراء وقد تمر عليها الليلة بأكملها لا يفتح لها أحد الزبائن زجاجة واحدة ، وقد رأفت الست بحالتها فأبقتها على أن تكتفى بنسبة الفتح .. وأن تساعد في أدوار الكومبارس نظير استبقائها في الصلاة .

وكان « على » يسمع من أخيه حديث ثقة خبير ، وهو خالي الذهن تماماً من أسرار الصالات بما فيها من فتح ونصب .. ورغم أن حديث حسين عن

« كريمة » ، لم يكن به شيء من المديح أو التقدير ، فقد استراح « على » إليه ، وأحس أنه ينطبق كثيراً على الأثر الذى تركته صورتها فى ذهنه ، واغبط لأنها « لخمّة » وأنها « كعدمها » فى المسرح والصالّة .

وقبل أن يلقي عليها نظرة أخرى أطفئت الأنوار ورفعت الستارة . وبدأ العرض بمنولوجست أسمر خفيف الدم أخذ يلقي منولوجاً عن « زوج الاثنين » بمصاحبة البيانو ثم تبعه بآخر عن « الحماة » وثالث عن « عاقبة الصبصة » واستعاده النظارة عدّة مرات وهو يخفى ثم يعود مرة أخرى .

وأسدل الستار ومضت فترة قصيرة قبل أن تبدأ الوصلة الغنائية الأولى ثم رفع الستار عن المطربة القديمة « فتحية صبرى » وقد جلست بجسدها السمين تتوسط تحتها ، وانساب شعرها المفروق من الجنب المائل على جبينها وأغرقت عينيها بالكحل ، ورسم خال كبير على الأرضية الحمراء التى فرشت فوق خديها وبدأت سنة ذهبية تلمع من خلال خطى شفيتها المرسومين بالأحمر وهى تبسم بحبيبة على تحيات الجماهير .

وكان تحتها يتكوّن من خليط عجيب متناقض من البشر ، فعلى اليمين جلس « قانونجى » ضريح قد أكل الجدرى وجهه ووضع القانون على ساقيه وأخذ يجرى أصابعه على أسلاكه محاولاً ضبطه .. وبجواره عازف « كان » طويل أعجف نحيل تهدل شعره حتى غطى قفاه ووصل إلى كتفيه ، ذو وجه مضغوط من الجانبين يبدو كأنه قطاع وجه ، وأنفه طويل كالمنقار ، ربط عنقه برباط أسود منفوش ، ورفع « الكمان » مسنداً عليها ذقنه رافعاً معها أحد كتفيه غير ملق بالآلى شيء مما حوله ، وعلى يمينه عازف « الناي » .. وقد جلس فى استكانة ومذلة كأنه متسوّل يطلب إحساناً .

وعلى اليسار جلس الجناح الآخر من التخت .. مبتدئاً بعازف العود الذى يبدو نشازاً وسط خليط العجائز الذى يتكوّن منه التخت بشعره الأصفر الناعم المسبب ، ووجهه الأبيض النضر المتورد الخدين ، الأحمر الشفتين ، الذى يتوفر

فيه من الأنوثة أكثر مما بوجه الأنثى التى بجواره ، والمعروف أن الصبى عازف العود يقوم بدور عشيق المطربة إلى جانب عزف العود .. وبجواره « قزم » تدلت ساقاه من مقعده وأخذت فى الاهتزاز والتأرجح دون أن تبلغ الأرض وقد ارتدى رديجوتاً أسود باعتبار ما كان ، وأخضر زيتى باعتبار ما هو كائن ، واستقر رأسه الصغير الذى اختفى نصفه تحت طربوش فضفاض والنصف الآخر داخل ياقة القميص المتسعة وأمسك « بالطبلة » على « حجره » وأخذ يوزع الطرقات والابتسامات على الجماهير .

وبجوار القزم . وفى أقصى الطرف الأيسر ، استقرت « هيئة » الرق ، وكلمة هيئة ليست فيها مبالغة فى وصف الرجل .. فهو وحده يكوّن هيئة كاملة .. قائمة مميزة مستقلة بذاتها عن بقية التخت .. بفخامتها وضخامتها .. واعتدادها وهيبتها .

هذه الهيئة هى « محمود دنجل » .. وهو ليس أبرز ما فى التخت فحسب ، بل أبرز ما فى الصالة ، بل أبرز ما فى القطر ، إذا كان هناك من يقدر ويفهم .
جلس « دنجل » بجسده الضخم الطويل العريض الممتلىء عابس الوجه ، مقطب الجبين ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة .. ولا ترمش له عين أو تتحرك من وجهه عضلة .. غير ملق بالآلى إلى الهاتفات المتعالية من أرجاء القاعة بتحيته والنداء عليه « دنجل .. ازيك يا دنجل » والرجل يبدو كأن لاصلة له بالتخت أو بالمسرح أو بالصالة بل كأنه تماماً رئيس وزارة أو رئيس دولة .. يفتتح منشأة كبرى أو يشهد احتفالاً بمولد النبى .. بجلسته الوقورة وسماته الجادة العابسة ونظراته الرزينة ، وكل ما به .. عدا شيئاً واحداً .. يخرج من كل تلك الهيبة والوقار ، ويربطه بالست « فتحية صبرى » وبالتشكيلة العجيبة فى تحتها .. وهو « الرق » الذى أمسك به بين كفيه .

وتبدأ الوصلة .. وينهمك الكل فى الأداء .. مترنحة أجسادهم ، مهتزة

أوصاهم .. إلا « دنجل » فهو في مباشرة عمله لا يخرج عن وقاره ورزاقته .. ولا يزيد كل ما يفعله على أن يرفع « الرق » الصغير بيده ويطرقة بأصبعه بضع طرقات .. ويهزه بضع هزات .. بين حين وآخر .. وهذا هو كل ماتفعله الهيئة الضخمة الموقرة الكبرى من جلائل الأعمال .

جلس « على » يرقب الرجل ويستمع إلى الغناء ، وقد سرى عن نفسه وأحس بالكثير من الطرب والمرح .. وبين لحظة وأخرى يحس برغبة خفية تدفعه إلى أن يحول بصره ليطوف به باحثاً في الظلمة عن وجه أسمر نحيل وعينين سوداوين طويلتي الهدب تتسلل منهما نظرة رجاء خفى .. واستعطاف مستتر .
وقبل أن يجد « على » الوجه الرقيق .. سمع صوتاً أرق يهتف في شبه همس :
— ازيلك يا حسين .

وأجاب أخوه وهو يتلفت نحو صاحبة الصوت :
— أهلاً .. كريمة .. تفضلي .

ثم وقف نصف وقفة وقدم لها مقعداً خالياً .. وجلست « كريمة » بينه وبين أخيه قائلة :

— لا بد وأن يكون هذا أخاك .

— كيف عرفت ؟

— الشبه واضح .

وضحك حسين وأجاب :

— عجيب أن يشعر الناس كلهم بهذا الشبه إلا أنا وهو .

ووجهت الفتاة سؤالها إلى « على » وقد بدت عليها مظاهر الاهتمام به :

— أهذه أول مرة تحضر إلى هنا !

ورد صلاح ضاحكاً بالنيابة عن على :

— هذه أول وآخر مرة .

وسألت « كريمة » في شيء من الدهشة :

— إلى هذا الحد ؟ ألا تعجبك ؟

وأجاب حسين :

— ليس له في الطيب نصيب .

ونظرت « كريمة » إلى « على » وقد بدت في عينيها النظرة الرقيقة الذائبة

المتوسلة وتساءلت قائلة :

— لماذا لا تتكلم ؟

ورد « على » ضاحكا :

— إنى لا أجد فرصة للكلام .. أنت تسألين وهما يجيبان . كيف أتكلم ؟

وهمّ حسين بالكلام ممسكاً بذراع « كريمة » ، ولكنها دفعته بمرفقها ناهرة

إياه في مزاح وقالت :

— لقد أتيت للجلوس معه .. إنه ضيفي الليلة .

ومرت في تلك اللحظة الراقصة « كوكب » بكتفيها العاريتين ، وإبطيها

المكشوفين وصدرها يتقدمها ليفتح لها الطريق .. وردفاها اللذان يتبادلان

الصعود والهبوط متأرجحان ككفتي ميزان .

« وإذا حضر الماء .. بطل التيمم » .. وإذا كانت « كريمة » في عرف حسين

تيمماً يمكن أن تغنى إذا غاب الماء .. فإن « كوكب » في نظره بجرأ زائراً

رجراجاً يبطل كل تيمم .

وترك حسين التيمم لعل .. ومدّ يده فأمسك بذراع « كوكب » وجذبها

إلى اللوج قائلاً :

— ياسيدى .. سلامات .. بنمسي .

ونظرت كوكب إلى حسين وهتفت مرحبة :

— أهلاً .. سونه .

تم استقرت على المقعد الخالي بين صلاح وحسين .
وأحسست « كريمة » بشيء من القلق خفيفة أن يجذب الصيد الجديد « علياً »
كما جذب صاحبيه ، ورفعت إلى وجهه عينيها الواسعتين وبهما النظرة الراجية
المتوسلة .

ولم يملك « علي » إلا أن يجيبها من عينيها برد حنون وابتسامة رقيقة .

(٣١)

عد ثانية

انتهت وصلة الغناء ، وبدأ اسكتش راقص تقوم به « كوكب » مع بعض الراقصات المساعدات بينهن « كريمة » وغادرت الاثنان اللوج قبل انتهاء الغناء لارتداء ملابس الرقص والاستعداد للظهور .

وظهرت « كوكب » وقد تجردت من ملابسها إلا غشاء رقيقاً من التل تدلت منه خيوط من الخرز والترتر وأخذت تهتز وتتلوى .. وتنحني وتنثني ، محاولة الكشف عن أقصى ما يمكن كشفه .. وجعلت تؤرجع صدرها ورد فيها على نغمات الموسيقى .. معبرة بعينيها وشففتها وكل سماتها عن أقصى إحساسات غزيرة الأنثى .. ملهبة حواس المشاهدين ، مثيرة دماءهم حارة في عروقهم ، و« على » يرقبها وبنفسه خليط من الإحساس بالرغبة والإحساس بالرتاء والخرج والضيق حتى ظهرت ثلة من الراقصات المساعدات ، يحطن بها منشدات مهترات .. بينهن « كريمة » لا يستر جسدها أكثر مما يستر جسد « كوكب » وغيرها من الراقصات .

وزاد إحساسه بالضيق والرتاء عندما أبصر « كريمة » تهز ساقها ويديها .. وقد بدت نخافتها النسبية بجوار امتلاء أجساد غيرها من الراقصات .. وتمنى لو استطاع أن يحضر ملاءة فيغطي بها جسدها ويحملها من فوق خشبة المسرح ويضعها في مكان أمين مستور .

وانتهى الاسكتش وأسرعت « كريمة » بإبدال ملابسها .. وقد بدت عليها عجلة ظاهرة وسألها « كوكب » في سخرية :

— على مهلك يا ست كريمة .. إن الصيد لن يفر .. لقد جاء نقبك على

شونة .

— ليس لأحد بي شأن .

— أنصحك فقط ، يدل أن تضيعي وقتك مع تلميذ يطلب لك شوب بيرة أو كوب ماء ، ابجشي عن زبون « سقع » يفتح لك شيئاً تأكلين به عيشاً .
— لا أريد نصيحة من أحد .

— أنت وشأنك .. ولكن احذري من أن تمدي حبالك إلى حسين .. فأنت تعرفين من اختصاص من هو ؟ وتعرفين أن الست « نعيمة » لا تتسامح كثيراً في اختصاصاتها .

— ليس لي بحسين شأن .

— إني أحذرك فقط ، وذنبك على جنبك .. أنت تعرفين جيداً أنها لم تعدك في المرة الأخير إلا بشق الأنفس .

واندفعت « كريمة » في الممر المؤدى إلى القاعة نافرة غضبي ، وقد تلاحقت أنفاسها وتوترت أعصابها .. وعندما أوشكت أن تدخل القاعة توقفت برهة ، ولكي تهدئ من روعها .. وتكبت مظاهر الانفعال البادية على وجهها ، ولتحاول إقناع نفسها بنصيحة « كوكب » .. وعدم تضييع وقتها مع التلاميذ والأنصراف إلى ما هو أجدى وأنفع .

ولكنها لم تكد تدلف من باب القاعة ، حتى صوّبت بصرها ناحية « على » والتقى بصره يبصرها ، كأنما كان يرقب مقدمها ، وعلت وجهها بسمة ، فردّ البسمة ، ووجدت نفسها تسير نحوه بلا إرادة ، وقد تملكها إحساس بنشوة ممتعة ، وفي الطريق إليه اعترضتها دعوة من « عمدة » ريقى منتفخ الأوداج والجيوب ، قد أفرط في الشراب حتى كاد يتهاوى من فوق مقعده .. ولم تكد تمر به ، حتى جذبها من يدها داعياً إياها إلى الجلوس .. وكانت هذه الدعوة هي خير ما ترجوه « كريمة » من ليلتها .. ولكنها أحست منها في ذلك الحين ضيقاً شديداً ، وتخلصت من الرجل بسرعة متلفطة حولها خشية أن ترى صاحبة الصالة

(رد قلبي — جـ ١)

فرارها منه ، ولكن لم يكن هناك سوى « كوكب » التى بدت فى الباب ووقفت تضرب كفاً بكف قائلة فى دهشة :

— لقد جئت البنت .. إنها لا تجد ما تأكله ، وترفض النعمة بقدمها . لقد تركت الفرصة تفلت من يديها .. إن الرجل ما كان يدعوها .. لولا إفراطه فى السكر .. وفقدانه الوعى والإدراك .. دبور زن على خراب عشه .. أنا مالى . وكان المسرح مشغولاً فى ذلك الوقت باسكتش فكاهى خليط من الغناء والتهريج .. وجلست « كريمة » بجوار « على » وابتسمت قائلة :

— أعجبك رقصى ؟

— بل أعجبتنى أنت بلا رقص .

— وماذا لم يعجبك فى رقصى ؟

— أنا لا أعجب بالرقص بصفة عامة .. إنه يثير فى نفسى شعوراً بالشفقة والعطف على الراقصات ، وأنت فى نظرى خير من مجرد راقصة . لقد تملكتنى رغبة وأنا أشاهدك عارية على المسرح أن أذهب وألفك بملاءة وأحملك بعيداً . — أحقاً تملكتك هذه الرغبة ؟

— أجل .

— ولماذا لم تفعلها ؟

— لعشرة أسباب .. تماماً كأسباب القائد التركي الذى لم يضرب تحية للأسطول الإنجليزى .. فلما حاكموه وسألوه عن سبب عدم تأدية التحية قال إن لديه عشرة أسباب : أولها أنه لا يوجد لديه « جبه خانة » فلم تحاول المحكمة سماع بقية الأسباب وبرأته .

— والسبب الأول عندك ؟

— إنه لم يكن لدى ملاءة .

— براءة .. لا داعى لبقية الأسباب .

وضحك الاثنان ، ومضت برهة استغرق كل منهما فى تفكيره .. ثم قطعت

« كريمة » الصمت قائلة :

— لست أدري أى شيء جذبتنى إليك عندما وقع بصرى عليك تعبر باب الصالة ، لقد أحسست كأن بيننا صداقة قديمة . لم يكن وجهك غريباً علفتى .. وتمنيت لو استطعت أن أجلس إليك وأتحدث معك .. وعندما جلست معك .. أحسست أنى وجدت شيئاً كنت أبحث عنه .

وأحس « على » من حديث الفتاة المخلص الذائب ومن عينيها المتوسلتين المستعطفتين كأن خطراً يوشك أن يحيق به .. إن حديثها ونظراتها تبدو كأنها بداية عشق .. وهو لا يستطيع أن يجزم هل يمكن أن يحدث العشق هكذا من أول لقاء وأول نظرة .. عن نفسه هو لا يحس بأكثر من عطف واستلطاف .. ربما كان مبعثه اختلاف الفتاة عن بيعتها وتميزها بمظهرها الخاص عن الجو الذى رآها فيه .. ولو رآها فى غير هذا المكان لما استطاعت أن تلفت نظره .

أجل .. إن أحساسه لا يمكن أن يزيد عن هذا .. أولاً لأن المخلوقة ذاتها لا يمكن أن تثير فى نفسه أكثر من هذا .. وثانياً لأنه هو نفسه لا يملك من مشاعره أكثر من هذا .. ولا يتسع قلبه للملء المحتل المغتصب لواحد سوى محتلة وغاصبة .. والمقارنة بين الطرفين عبث وسخرية .. بل هى شيء لا يمكن أن يخطر له ببال .. إذ يبدو أن مجرد التفكير فيها إهانة لا يغفرها لنفسه .. وسلطان الغائب الميئوس من لقاءه أقوى فى نفسه من كل سلطان ، وحبه أملاً لقلبه من كل حب . وهو بهذا الشعور الذى لا يزيد على مجرد عطف واستلطاف لا يستطيع أن يقابل هذا الحديث الذائب الحار ينذر بحب على وشك الانبثاق ، ثم .. أكثر من هذا وذاك .. إنه ليس الشخص الذى يستطيع أن ينشئ علاقات فى مثل هذا الوسط ، والمخلوقة مهما كانت لطيفة ومميزة عن سواها .. لا تزيد عن راقصة ، ويتحتم على كل من له علاقة بها أن يكون أحد زبائن الصالة وروادها .. لا .. إن كل هذا يبدو كالكابوس الثقيل يطبق على أنفاسه .

وهمست به تستدعيه من شروده .. ونظر إلى عينيها فوجدها تبتسم فى رقة

وتقول له :

— إنك كثير الشرود .. أين ذهبت ؟

— لم أذهب بعيداً .

— ليتك تبقى معي ؟

— إني معك الآن .

— الآن وبعد الآن .. ألن تأتي معه ؟

وأشارت بعينها إلى أخيه الذي انهمك في مشاهدة المسرح ، وتساءل

« على » :

— إلى أين ؟ .

— إلى البيت .. إنه يعود بعد كل سهرة مع الست « نعيمة » وسأخلي نفسي

من كل موعد وسأعود معكما وأكون لك وحدك .

وإذا كان مجرد التلميح بالحديث الناعم ، والنظرات المتوسلة ، قد أشعرا

« عليا » بخطر يوشك أن يحل به .. فقد جعلته الدعوة الصريحة يجفل كأن إنساناً

قد دفعه فجأة ليلقي به إلى هاوية .. ولم يملك إلا أن يتراجع بعنف ليتقوى خطر

الدفعة .. وبدأ على وجهه التجهم والشرود ، وأطرق ، وأحست « كريمة »

بغريزتها الأثر الذي تركته في نفسه .. وتملكها الندم على اندفاعها وتمتعت في

أسف :

— إني آسفة .. إذا كنت قد ضايقتك .. كل ما أرجو هو ألا أفارقك

بسرعة .. إني أريد أن أطيل لقاءك ما استطعت .

وكان « على » أرق من أن يصد الطائر المهيض المتوسل .. وأسمى من أن يجرح

مشاعره ، فهمس في لهجة رقيقة حنون :

— أنا الآسف لأني قد خدشتك من حيث لا أقصد ، وخذلتك من حيث لا

أريد .. إني في الواقع شخص لا يلائمك في شيء .. إني أختلف كل الاختلاف

عما تبغين .. إن مجيئنا هنا محض صدفة ، ولا أظن هناك ما يبرر لقاءنا بعد ذلك ،

ولا يمكن أن يكون بين أحدهما والآخر إلا ما بين مسافرين في قطارين يسيران في اتجاه مضاد لا يكاد يبصر أحدهما الآخر حتى يختفى .. لقد تركت في نفسي أثراً طيباً ، وأرجو أن أكون قد تركت في نفسك مثل هذا الأثر .. حتى بعد أن قلت ما قلت .

ولم تجب « كريمة » فقد ازدردت ريقها كأن في حلقها غصة وازدردت طبقة لامعة بدت في الظلمة تترقرق عينيها ، وتحجب النظرات المتوسلة التي تفيض منها .

ومذ « على » يده فربت ظاهر يدها المستندة على ركبتيها .. وتساءل هامساً :
— أقد ضايقتك قولي ؟

وكست وجهها ابتسامة رقيقة وهزت رأسها ببطء وأجابت في صوت به رنة أسي :

— أنت تضايقتني ؟ .. إني لا أذكر أني أحسست منذ عشرات السنين بما أحسست به هذا المساء من سعادة .. ولكني دائماً .. بيني وبين السعادة .. تنافر شديد .. لا تكاد تلم بي إلا كلمح البرق .. ليس الذنب ذنبك إنما هو ذنبي أنا .. هكذا حظي في الحياة .. دائماً تعرض علي ما لا أريد .. وتحرمني من كل ما أريد .

وضحك « على » في شيء من المزاراة وأجاب :

— كلنا كذلك .. تلك هي طبيعة الحياة .

وانتهى الاسكتش الفكاهي ، ودوت الألف بالتصفيق ، وأسألت الستارة . وأضيئت الأنوار .

وأقبل أحد الجرسونات فهمس في أذن « كريمة » بضعة كلمات أجابته عليها بقولها :

— حاضر .. قل لها سآتي حالا .

وسأل حسين مستفسراً :

— ماذا يقول ؟

— لا شيء .. إنه يقول إن الست تطلبني .

ونفض « على » واقفاً فتساءل حسين في دهشة :

— إلى أين ؟

— سأعود إلى المدرسة .

— تعود !! إن الساعة لم تبلغ الحادية عشرة ، وما زلنا في أول السهرة ؟

— إنى لا أستطيع السهر بعد الحادية عشرة ، وأشعر بالنوم يثقل أجفاني ،

والتعب يدب في مفاصلي .

— انتظر على الأقل حتى ينتهي البرنامج .

— لا .. لا .. لا بد أن أعود الآن .

وسأل « على » صاحبه :

— أتنوى البقاء يا صلاح ؟

— أجل .. سأبقى حتى أتم السهرة .. لست أرى صبراً للعودة .

ومد « على » يده مصافحاً « كريمة » فاستبقت يده قائلة :

— سأوصلك حتى الباب .

— لا داعي للتعيب . اذهبي أنت إلى الست نعيمة حتى لا تتأخرى عليها .

— بل لا بد من توصيلك .. إنك ضيفي الليلة .

ومد يده مودعاً أخاه وصاحبه وسأله حسين :

— ألا تنوى الذهاب إلى البيت غداً ؟! إن أبى يريد أن يراك .

وصمت « على » برهة ثم أجاب :

— سأذهب .. وأنت ؟

— سأذهب أنا أيضاً .

— إذا نلتقى هناك غداً ؟

ثم مد رأسه وأسر في أذنه :

- لا تذكر لقاءنا .. فالمفروض أنى لم أخرج من المدرسة إلا يوم الجمعة .
وهزّ « على » رأسه هزة موافقة .. ثم غادر اللوج متجهاً إلى الباب وقد
سارت « كريمة » بجواره وسألتها قائلة :
— لماذا انصرفت مبكراً ؟
— أتسمين الحادية عشرة مبكراً ؟
— ألم يمكنك الانتظار أكثر من هذا ؟
— بل لم يكن من الخير الانتظار أكثر من هذا ؟
— خير لمن ؟
— لك ولى .
— لى أنا ؟ لماذا ؟
— إن الست قد طلبتك ؟
— كنت سأذهب إليها ثم أعود ؟
— ولهذا قمت ، لكى لا تعودى .
— ولماذا تريدنى ألا أعود ؟
— لأنى لا أستطيع أن احجزك طول الليلة دون أن أطلب لك شيئاً ، وأدعك
تهجرين عملك وزبائنك الذين تحصلين منهم على رزقك .
— لقد كنت أفضل الجلوس معك على كل شىء .
وتصادف مرورهما فى تلك اللحظة على منضدة « العمدة » المخمور الذى لم
يكديراها حتى صاح بها مشيراً إليها بسبابته :
— أنا أريد هذا . أريد هذا الولد « المسلوع » . ياناس مزاجى هكذا . يا
حضرة الضابط ، تاخذ خلور رجل كام وتتركها ؟! أموت فى عود القصب . يا
حلو .. أموت فى « عصاعيص النقارية » .
وأحس « على » أن الدم قد تصاعد إلى وجهه ، وغلى فى عروقه ، وتوقف فى
مكانه ، وهمّ بأن يتجه إلى الرجل المخمور ولكن « كريمة » جذبتة بلطف من

ذراعه قائلة :

— لا تلق إليه بالا .. إنه سكران لا يعى ما يقول .. هيا بنا .
ووصلا إلى الباب ، ووقف « على » ومدّ يده مصافحاً كريمة :
— تصبحين على خير .
— وأنت من أهله .

ولم تترك يده .. بل استبقته في يدها كأنما تكره أن تتركه .. وصمتت مطرقة
برهة .. ثم رفعت إليه عينيها المتوسلتين وهمست قائلة :
— عدنى أن تعود ثانية ، ولو مرة واحدة ؟
— سأعود !

— كنت واثقة من ذلك .. فلا أظن ما بيننا يمكن أن ينتهى بمثل هذه السرعة
الخاطفة .. إذا كان لقاءنا اليوم لقاء راكبى قطارين متضادين فى الاتجاه .. فغداً
قد يغير أحدهما قطاره ويلحق بالآخر .

ولم يكن قول على « سأعود » إلا مجرد إنهاء حديث .. ولكنه عندما رأى
تغلق الفتاة بقوله .. تكره أن تأخذ عليه وعداً تقيده به .. وتقيم عليه صلة
موهومة ، وبدأ عليه تجهم نهم عن أفكاره ، فابتسمت كريمة وأردفت فى مرارة :
— لا تضيق بقولى .. إنه مجرد عزاء أعلل به النفس .. عد أو لا تعد ، فذلك
شأنك وحدك . لا يستطيع أحد أن يجبرك عليه .

ومرة أخرى أحس « على » بعطف شديد يملكه نحو الطير المهيض ، ولم
يمالك إلا أن يقول جازماً وهو يضغط على يدها :
— بل سأعود .. سأعود لكى أراك .

وغادر « على » المكان ، وسار فى طريق عماد الدين الذى خف ضجيججه
وهدأت حركته .. وتضاءلت أنواره ، حتى وصل إلى شارع الملكة نازلى ،
ووقف ينتظر أتوبيس (١٠) وهو يرقب أرض الطريق اللامعة .. تجرى فوقها
عربات التنظيم برشاشاتها وفرشاتها الكبيرة الزاحفة فى مؤخرتها .. والكناسون

يتبعون العربات بمكانسهم الطويلة ، يزيحون بها المياه والقاذورات إلى جانب الأرصفة ، وبين آونة وأخرى يعبر به تاكسي منطلق أو عربية مارقة .
وركب الأوتوبس ، وجلس بجوار النافذة ، وأزاح زجاجها واستقبل هواء الليل الرطب ، وأخذ منه أنفاساً طويلة ، كأنما يستعين بها على طرد غبار أثارته في نفسه دوامة طارئة .

ونام « على » ليلته وبقايا الدوامة تظن في رأسه وتدور في صدره . لقد كانت « كريمة » أشبه بطائر شارد اقتحم نافذة حجرته ، وأخذ يطوف بها متخبطاً مصططاً بزجاج النوافذ والأبواب .

ولم يحاول « على » أن يعترف لها بأي مكان في نفسه ولا في تفكيره ، ومع ذلك فقد كان لا يكاد يتناساها ويغفل عنها حتى يوقظه منها ما يشبه لعامة جناح الطائر المتخبط في زجاج النافذة .. ويفتح عينيه فيبصر العيين السوداوين بهما الطويلة ونظراتهما المستعطفة المتوسلة الراجية .. ويكاد يسمع من حفيف الشجر « لا تضيق بقولى .. إنه مجرد عزاء أعلل به نفسى .. عذ .. أو لا تعد .. ذلك شأنك أنت وحدك .. لا يستطيع أحد أن يجبرك عليه » .

أجل !! إنه شأنه وحده ، ولن يعود ؛ فليس ثمة سبب واحد يمكن أن يربط بين أحدهما والآخر .

. واستيقظ في الصباح وقد عزم على الخروج من المدرسة والذهاب إلى البلدة . وقد أحس بانطلاق تام من قيود الحزن والضيق واليأس التي كانت تطبق على نفسه ، ووجد نفسه يستقبل نسيم الصباح الرطب وشدو أطياره المزقزقة وحفيف أوراقه المهتزة المترنحة بإحساس مرهف سببه مجرد تفكيره في أنه عائد إلى ناحية « أنجى » .. وأنه سيمر على أسوار قصرها .. ويعبر مكان اللقيا على التربة وراء كوم الغاب .. وأن احتمال رؤيتها في عربية عابرة ، أو على ظهر جواد ، قد بات قريباً ميسوراً

وارتدى ملابسه ، وخرج يهز مصباحه في الطرقة وهو يصفر بفمه ، وفي

منتصف الطرقة التقى سليمان خارجاً من عنبره ، وقد ارتدى لبس النوبتجية وأمسك بأوراق التمام في يده ، وهتف به سليمان ضاحكاً وهو يراه يسير نشطاً في ملابس الفسحة ، وقد انهمك في الصفير :

— ما شاء الله .. أمن حبس مطبق إلى انطلاق تام ؟ إلى أين تذهب في هذه الساعة المبكرة ؟! ألم تكفك سهرة الأمس ؟!

— لقد عدت في الحادية عشرة ومرت في العنبر فوجدتك نائماً .

— ولماذا عدت مبكراً ؟

— لأنني أكره السهر .. وأكره جوّه .

— وإلى أين أنت ذاهب ؟

— إلى البيت .

— إلى البيت فقط ؟

— أعتقد ذلك .

— ألم يطرأ جديد على المسألة ؟

— أبداً .. ولكنني أجد أن طول الغيبة عن البيت شيء لا مبرر له .. وأنا لن

أغيب كثيراً .. سأرى والدتي وأعود بسرعة .

— حتى إذا لقيتها ؟

— لا أظن اللقاء مستطاعاً .

— ولم لا ؟ .. إن اليوم يبدو من بدايته يوماً مفترجاً .. انظروا وأشار سليمان

إلى شجرتين ضخمتين من البانسيانس قائمتين بجوار المدخل في فناء المدرسة .

ورد « على » متسائلاً :

— أنظر ماذا ؟

— شجر الترقى .

— ماذا به ؟

— لقد بدأ في الازدهار .

وكان الطلبة يسمون الشجرتين « شجر الترقى » فقد كان موسم أزهارهما الحمر الناريه يحل دائماً فى يوليو وهو موعد الترقى ، وكان الطلبة يتفاءلون دائماً بهذه الأزهار ، ويرون فيها بشيراً للترقى ، ويرقبونها فى لهفة خشية ألا تزهر فيكون فألاً سيئاً بعدم حدوث الترقية .

وضحك « على » قائلاً :

— على أية حال إن الترقى واقع أكيد .. سواء أزهرت الشجرة أم لم تزهر .
— ليس هناك فى هذه الدنيا شىء أكيد (ولا تقولن لشىء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) قل إن شاء الله دائماً ، واستبشر خيراً بالشجرة المزدهرة .. إنها فآل طيب .

وغادر « على » المدرسة .. سائراً فى الطريق وعيناه ترنوان إلى كل عربة ، وجلس فى الأوتوبيس بجوار إحدى النوافذ اليمنى المطلّة على ناحية المدرسة ، وأحس برجفة فى قلبه وهو يقترب من بنائها ، وأخذ يتطلع بعينه إلى الفناء متوهساً بإياها وراء كل ثوب بنى .

وأخيراً وصل إلى البيت وفى نفسه إحساس بالخيبة من جفوة الصدف والضيق بإصرار الحظ على ألا يهبه لقاء بعد أن تعذر اللقاء إلا عن طريقه .
وأقبل على الباب فطرقة ، وبعد لحظة فتحت « بيهة » ووقفت أمامه تلقاه بغير دهشة ولا ابتهاج ولا ترحاب مما كان يتوقع أن تلقاه به ، كأنما كانت تنتظر مجيئه ، أو كأنه لم يغيب طوال المدة الماضية ، أو كأنه خرج منذ هنيهة وعاد ثانية .. أو كأن بنفسها منه شيئاً ، أو

وراعه منها ومن البيت سكون مريب ، وأدهشه استمرار وقوفها بالباب المفتوح كأنما تنتظر شخصاً آخر .. فلما طال بها الانتظار دون أن يبدو أحد .. سألته :

— ألم يأت حسين ؟

وهز « على » رأسه فى دهشة قائلاً :

— وأتني لى أن أعرف .. لقد أتيت وحدى من المدرسة ، وربما يأتى بعد قليل .

— أتيت وحدك ؟ ألم يمر بك الشيخ معوض ؟

— الشيخ معوض ؟. الشيخ معوض الفقى ؟ .. يمر على أنا ؟ .. لماذا ؟

— ليستدعيك أنت وحسين .

— لماذا ؟! ماذا حدث ؟

وأغلقت « بهية » الباب وهمست قائلة :

— لا تصح هكذا ، حتى لا تقلقه .

— أقلق من ؟

— أباك .

— ماذا به ؟

— لقد أصيب ليلة أمس بغيوبة ، وسقط فى حجرته بلا وعى .. وقد

استدعينا الطبيب فى منتصف الليلة .. فقال إنه مصاب بضغط فى الدم ، و ...

ولم يستمع « على » إلى بقية حديثها واندفع إلى الحجرة وهو يحس كأن يداً قاسية تعصر قلبه ، وفى الحجرة المظلمة ، المغلقة النوافذ أبصر أباه راقداً على فراشه مغمض العينين ، وقد جلست بجواره أمه واضعة رأسها بين كفها . ولم تكذب تحس بوقع أقدامه حتى أقبلت عليه تضممه إلى صدرها ، وعيناها تهميان بسيل من الدموع وهى تنبتم :

— الحمد لله .. على كل حال .. نزلت « النقطة » على نصف وجهه

وذراعه ، وأكد لنا الطبيب أنها ستشفى بإذن الله .

وأحس المريض الراقد بالحركة والصوت ، ففتح عينيه وأبصر بابنه . فأشار

إليه بذراعه السليم وهتم به بلسان ملتو .

وانحنى « على » فوقه يقبذه فى لطفة . وضمه الأب سيده القادرة بأقصى ما

يستطيع من حنو وحب .

وفي المساء عاد « علي » إلى المدرسة .. وعبر الفناء فوقع بصره على الشجرتين
المزهرتين اللتين بدت أزهارهما حمراء نارية في مصباح كهربائي ينعكس عليهما من
عمود بالطريقة .

وخيل إليه أنه يسمع في حفيفهما صوت ساخر يردد : « إنه يوم مفترج .. إنه
فأل حسن » .

(٣٢)

ضابط مستجد

مرت بعلى بعد ذلك فترة مظلمة كئيبة أطبق عليه خلالها عبء اليأس أثقل مما كان .. ووجد نفسه يخوض معركة الامتحان بأعصاب منهارة محطمة .. لا تلوح له بارقة أمل أو ومضة رجاء تشد أزره وتقوى ساعده .

وانتهى الامتحان دون أن يعرف كيف بدأ ولا كيف انتهى ، وكأنما كان يعبر خلاله ضباباً ثقيلاً معتماً لا يريه مما حوله شيئاً ، ولم يكن يغادر المدرسة إلا فترة قصيرة يرى فيها أباه .. ثم يعود أدراجه ليرتدى البنطلون الكاكي القصير ، والقميص الأبيض ، والحذاء الكاوتش ، ويحمل مذكرات الدراسة ليخلو بها إما في حمام السباحة وإما تحت شجرة الجازورينا المجاورة للسجن .

وكان واثقاً من إخفاقه في الامتحان .. موقناً أنه فقد الكثير من أقدميته .. وأنه لم يعد له أمل في أن يكون ضمن بعثة الأربعة الأوائل المسافرة إلى وولتش في إنجلترا لدراسة المدفعية ، ولقد أكدت الشائعات السارية بين الطلبة إحساسه .. وتناقلت الألسن تأخر الشاويش « على عبد الواحد » في الامتحان تأخراً بيناً .

وتعود « على » أن يكسو وجهه سيما التجهم حتى أضحي ملازماً له .. وقلت بسمته وندر مزاحه .. وحاول صلاح وسليمان أن يسريا عنه ويبعدا عنه شبح الكآبة الجاثم عليه .. ولكنهما لم يفلحا إلا للحظات كان يضحك خلالها ضحكة سطحية لا يلبث أن يعود بعدها إلى الاكتئاب الذي تأصل في نفسه .

ولم يكن زملاؤه وحدهم هم الذين ضايقهم اكتسابه ويأسه ، بل لقد أحس به مدرّسوه من الضباط ، وكان الضابط الأحمر الضخم الذي يعمل أركان حرب المدرسة على صرامته البادية وشدته التي يقاسي منها الطلبة يشعر بعطف شديد على

« على » فقد عرف بحكم مركزه نتيجة الامتحان قبل إذاعتها ، وساءه تأخر « على » ، كما ساءه من قبل سوء الحظ الذي لاقاه في المباريات الرياضية والامتحانات العملية .. وأحس بما يعانیه من ضيق ، وبدت له مظاهر الكآبة جليلة على وجهه عندما كان يراه في أرض الطابور أو في الفرق أو الميس ، وحدث قبيل ظهور النتيجة أن مرّ به « على » في الطرقة ، وكان الرجل يقف في منتصفها يرقب سير الطلبة في أرض الطابور ، ويصيح بهم ناهراً كعادته ، وعندما اقترب منه « على » رفع يده بالتحية واستمر في سيره ، ولكنه ناداه بصوته الجمهوري ونبراته الممدودة صائحاً به :

— شاويش على .

وصاح « على » مجيئاً بنفس اللهجة الممدودة والصوت المرتفع الذي كان أحد مظاهر العسكرية الجيدة :

— أفندم .

واندفع يعدو إليه بالخطوة السريعة ثم وقف ضارباً عقبيه أحدهما في الآخر رافعاً يده بتحية شديدة .

ورّد الأركان حرب التحية .. وتحدث على غير عادته ، بصوت لا يسمعه كل من في المدرسة وبدا كأنه يئذل في ذلك جهداً خاصاً ، حتى يقتصر سماع الحديث على « على » وحده .

قال وفي لهجته نبرات الإمارة والشخط التي لم يستطع التخلص منها :

— اسمع يا شاويش على .. مالك تبدو حزيناً هكذا ؟ ماذا بك ؟

— لا شيء يا فندم ؟

— بل بك شيء .. أنت تحس أنك قد تأخرت ، ومن أجل هذا أنت حزين .. لقد تأخرت في ترتيبك فعلاً .. وتأثرنا جميعاً لتأخرك .. لأننا نعلم أن ترتيبك كان يجب أن يكون خيراً من هذا . ولكنها مسألة سوء حظ ، كلنا نصاب بسوء الحظ في بعض مراحل حياتنا .. إذا كان سوء الحظ قد أصابك في أدق مراحل

حياتك العسكرية التي تتقرر فيها أقدميتك .. فإننا عوّضناك عن الترتيب خيراً ،
إذ عينت في السوارى بإجماع الآراء .. آراء إدارة المدرسة وإدارة السوارى .
إنك تتمتع بسمعة طيبة جداً ، وإذا كنت لم تحصل على ترتيب متقدم .. فقد
حصلت على المركز الذى لا يفوز به إلا أول الدفعة ، وهذه أول مرة نشد فيها عن
هذه القاعدة ، ولقد شدّنا عنها لشخصك أنت ، وليس لوساطة أحد من
أجلك ، وأرجو أن يكون فى قولى هذا عزاء لك على تأخرى فى الترتيب . اذهب
وفك عقدة وجهك . لا أريد أن أراك حزينا بعد الآن .

ثم صاح به فى لهجة آمرة خشنة وقد تقطب جبينه وتجهم وجهه :

-- انصرف .. ولا تبج لأحد بما قلت لك لأن النتيجة ما زالت سرية .

ورفع « على » يده بالتحية .. ثم استدار دورة كاملة وانطلق فى سبيله .
ولقد أحس « على » من قول الرجل بكثير عزاء ، عزاء كان مبعثه شيئاً آخر
أكثر من ذهابه إلى السوارى وتقدير المدرسة لشخصه ، وهو إحساس الرجل
الحسن الغليظ بضيقه وألمه ، ورغبته فى إزالة أحزانه وتخفيف وجيعته .. رغبة
كانت من القوة بحيث جعلت الرجل — وهو المفرط فى حرصه ودقته
وعسكريته .. الشديد فى ضبطه وربطه — يجازف بإعلان النتيجة وينبئه بالحل
المعين فيه بمنتهى الصراحة رغم أن النتيجة ما زالت سرية لا يجسر على إذاعتها
أحد .

وأخيراً حلّ يوم التخرج . ولم يكن « على » يحس فيه بالفرحة التى كان
يحسها زملاؤه التى كان يتوقع هو نفسه أن يحس بها ، وأعلنت النتيجة ، ورغم
وثوقه من التأخير بها فقد أحس بمرارة الفشل ، وهو يجد نفسه قد انزلق فى وقفته
من الثالث إلى العاشر . وغادر صالة الجوائز بعد إعلان النتيجة فى جمهرة زملائه
الذين اختلط بهم أولياء أمورهم فرحين مستبشرين ، وتسلى وحيداً مكتئباً
لبحمل حقيقته من العنبر ، ويغادر المدرسة .

وفى الطريق إلى العنبر أقبل عليه سليمان يضمه فى فرح قائلاً :

— وراءك إلى النهاية .. يبدو أن القدر قد سمع على ألا يفرق بيننا . أذكرك يوم

قبولنا في المدرسة سوياً !! لقد كانت أقصى أمنية لي أن أكون معك في سلاح واحد .. فما بالك وقد أصبح هذا السلاح .. السواري .
وأجابه « على » بابتسامة باهتة لم يستطع أن يحو بها الاكتئاب البادى على وجهه .. رسأله سليمان :

— ما باللك يا على ؟ أتظل مكتئباً حتى في يوم تخرجك ؟ إنه أسعد أيامنا .. ماذا يحزنك ؟! ألا نك لم تذهب إلى البعثة .. في ستين داهية البعثة وأصحابها .
— ليست البعثة وحدها يا سليمان .. البعثة وغيرها .. ليس هناك شيء يستحق الفرحة .. مرض أوى .. الإخفاق المتوالى .. والإرهاق المضنى .
— إن أباك تمسنت حالته ولم يعد به ما يزعجك .. والفشل قد انتهى ، والإرهاق قد زال .. ولكنى أعرف جيداً ما يضايقلك .
— ماذا تعنى ؟

— أعنى أنها هى النسيب .. ولكنى حتى من هذه الناحية يبدو لي أن ما صرنا إليه حير مما كنا فيه .. بل خير من أى شيء يمكن أن نكون .
— لست أرى ذلك .

— كيف ؟ .. إنك الآن قد أضحييت ضابطاً ، وأضحى وقتك ملكك وفرصة اللقاء ميسورة سهلة .. أو على الأقل أيسر مما كانت .. وهذه البعثة التى فقدتها قد جاء فقدها في صالحك .. إنك تعتقد أنك ستعود منها وأنت أهل لها .. ولكنى أعتقد أن غيبنا أربع سنوات كانت ستطردك من ذاكرتها .. وتمحوك من قلبها .. إنك حسن البظن بالزمن وبالبعد ، إنهما كفيلا أن يقطع كل ما بينكما .. أما الآن فأنت أمامها دائماً .. وأنت ضابط سواري .. يرمقك كل إنسان بعين الإعجاب والاحسد .. إن رأسك برأس أى أمير من أقاربها .. ألم يكن أبوها نفسه ضابط سواري ؟ احمد الله وألق عن كاهلك هذا الاكتئاب الذى تعودته بطول الصحبة ومضى المدة .. أنا لأفهم في الحب كثيراً .. ولكنى واثق أن هذا الاكتئاب مبعثه طول الفرقة وفرط الحرمان .. ولست أرى ما يبرره الآن وأنت (رد قلبي — ج ١)

موشك على لقائها .. فإنك ولا شك ملاقيها قريباً .. فك عقدة جبينك ..
يفرجها الله أمامك .. هيا يا أخي ولا تدعني أدم على تعييني معك في السواري .
ولم يملك « على » إلا أن يضحك ، وحمل حقييته وسار مع سليمان مغادرين
المدرسة بعد أن ودعا زملاءهما الذين ارتدى البعض منهم حلة الضابط التي أعدها
منذ الصباح حتى يرتديها بعد إعلان النتيجة ، وحتى لا يخرج من المدرسة إلا
ضابطاً .

ووصل « على » إلى البيت واستقبله « حسين » على الباب ووراءه « بهية »
ولم يكذبها حتى هتف به :

— مبروك يا حضرة الضابط .. لقد أضحي لك على حق التعظيم .. في أى
وحدة عينت ؟

— السواري .

— هائل .: إن شاء الله سأعين أنا أيضاً في سواري البوليس .. حتى نأق إلى
هنا سوياً بالخيول وندوس على أعناق من لا يعجبنا .
وصافحته « بهية » وقالت ضاحكة :

— ولكن لماذا ترتدى هذه البدلة ؟! لماذا لا ترتدى البدلة ذات النجوم ؟

— ليس هناك مبرر للعجلة .. ما زال أمامي أسبوع أستعد فيه قبل أن أقدم
نفسى للسواري .

وصاح حسين :

— يا قلبك .. أتتوى الانتظار أسبوعاً قبل أن ترتدى البدلة ؟

— سأنتظر حتى ينتهى الترتي من صنعها .

— إن برودك يقتلنى .. سأذهب إليه اليوم ولا أتركه حتى يسلمها لى .. إني
أريد اصطحابك للزهو « للعيافة » بك .

واستقبلته الأم مزغردة مهللة وضمته إلى صدرها في شوق صائحة :

— عقيبى لك يا حسين .

ثم رفعت يديها إلى السماء داعية :

— ربنا يميني حتى أراك عريسين وأفرح بزواجكما .

وأجابها « حسين » ضاحكا :

— فال الله ولا فالك .

وبدا الامتعاض على « بهية » وتساءلت مستنكرة :

— أقد أضحي الزواج فألا سيئاً ؟

وربت الأم ظهرها ضاحكة وقالت :

— لا تصدق قوله .. إنه يمزح .

وتخلص « على » من أحضان أمه ودلف إلى حجرة أبيه وكان يجلس على الأريكة وقد بدا عليه الهزال وذهبت عنه أعراض الشلل الذي أصيب به وإن كانت قد تركت آثاراً تبدو في ثقل نطقه وبطء حركته .

وأقبل « على » على أبيه فضمه في شوق .. ولم يستطع الأب أن يمنع عبراته من الانسياب على تجاعيد خديه .. وتحسس رأس ابنه بخنان وقال بصوت خفيض كأنما يحدث نفسه :

— مبروك يا على .. الحمد لله الذي شفاني .. حتى أراك كما أريد ، وحتى أرى أن

تعبي لم يذهب سدى .. إني أود أن أراك بالبدلة ذات النجوم ؟

وضحك « على » وردد ضحكته حسين الذي وقف بالباب مهتماً صائهاً :

— قل له يا أبي .. هذا البارد .. إنه يقول إنه ما زالت أمامه فرصة أسبوع ..

كأن البدلة عبء ما زال أمامه فرصة للتحرر منه .. سأذهب الآن إلى الترزي وأهدده بالقتل إن لم يمه البدلة ؟

وضحك الأب قائلاً :

— لا ضرورة للقتل .. فلست أحب .. لكي أراه ضابطاً .. أن أراك أنت

سجيناً .

وقال « على » :

— إن موعدا غداً ، وأعتقد أنه لا بد أن يكون قد أتمها .
وانتهى « على » من « زفة » الاستقبال وضجيجها واستقر في حجرته ، وبدأ
الشوق الكامن واللهفة المكبوتة تتحرك من مكمنا .. وأحس بخنين شديد إلى
رؤية « أنجى » أو السماع عنها .. وود لو حدثه أحد عن أخبارها ، أين هي ؟
وماذا تفعل ؟ ألم تسأل عليه ؟! أقدر سلمت بالقطيعة ، واستكانت للفرقة ؟
ولكن سؤال من في البيت .. بعد كل ما حدث .. كان شيئاً لا يجسر على
إتيانه .. وكان الشخص الوحيد الذى يمكن أن يحدثه عنها أو ينبئه بخبرها هو
حسين ، ولكن حسين .. يبدى بأسه الدائم من علاقته بها ، وهو فوق ذلك ،
لا يكاد يدرى عنها شيئاً ، فهو لا يستقر في الدار لحظة ، وهو مشغول بمغامراته
وسهراته عن محاولة تتبع أخبارها .
ولم يكن أمام « على » سوى الاستسلام للواقع .. والاقتناع بالأحلام
والأماني .. والطواف بمواقع الذكريات الخفية حتى لا يبصره بها أحد .. والتعلل
بصدفة حسنة للقاء يجود به القدر .
ومر الأسبوع .. وجدران القصر تقف أمامه كأنها السد القائم بين إبليس
والجنة ، لا أمل في زواله ولا رجاء في تخطيه ، والأنباء ممنوعة والصلة مقطوعة .
وحلّ يوم تقديم الضباط الجدد أنفسهم إلى وحداتهم .. يوم الرحيل إلى
السوارى .. وكان « على » قد علم أنه لا بد له من سكنى الميس لأن ميس
السوارى يحتوى على ثمانية حجرات يقطنها أحدث ثمانية ضباط .. وكلما ضم إلى
السلاح ضابط حديث احتل إحدى الحجرات وأخرج منها الضابط الأقدم ليقطن
في الخارج ويحصل على بدل السكن .
ولو لم يجبر « على » على سكنى الميس لسكن من تلقاء نفسه ، فقد كانت
المسافة بين بيته والسوارى تجعل حضور طاوور الصباح المبكر متعذراً .. إلا إذا
بات في الميس بجوار الشكنات والإسطبلات .
 واجتمع الضباط في قسم القاهرة وألقى فيهم قائد القسم النصيحة المعتادة بأن

يكونوا مثالا للجد والاستقامة .. وأوضح لهم العبد الملقى على أكتافهم وحاجة معسر إليهم ، وأوصاهم بالضبط والربط والمحافظة على هيئة الحلة العسكرية التي يرتدونها .

وتفرق الضباط بعد ذلك كل إلى وحدته ، واصطحب « على » صاحبه « سليمان » إلى إدارة السوارى ، وسار كل منهما يقرع الأرض بكعب حذائه الطويل محدثاً شخلة ورنيناً بتروس المهماز .. وكأن كلا منهما يلبس زوجاً من الخلاخيل وقد وضعاً يسراهما على جفير السيف السوارى ذى المقبض الكروى المزركش اللامع حتى لا يتأرجح بجوارهما .

وعبرا بوابة السوارى .. وردا على تحية عسكري « القره قول » ، الذى وقف فى الطرقة المشرفة على الشارع ممسكا بمزراقه ذى الفلانديرة الحمراء الخضراء ، وسار فى الطريق الطويل المؤدى إلى الثكنات ، والمحدود يمينه بسور الحملة الميكانيكية (التى أضحت سلاح خدمة الجيش فيما بعد) ، ويساره بأرض فراغ متسعة متربة (أصبحت فيما بعد ثكنات الآلايين الميكانيكيين) وقد بدت فى نهايتها حديقة خضراوات تضم برجاً للحمام وبيتين صغيرين مائلى السقف على الطريقة الإنجليزية (أصبحت فيما بعد رياسة الفرسان) .

ووصل الضابطان المستجدان — كما استمرا يسميان حتى تخرجت الدفعة التالية — إلى مكتب أركان الحرب ، وهو يحتل مع مكتب القومندان ومكتب الكتبة بناء أرضياً قديماً سميك الجدران يتوسط صف الأبنية التى تتكوّن منها عنابر العساكر ومكاتب الأورطتين السوارى .. وقد أحاط بالبناء سور عال من الدرنة العجوز الخضراء ، وبدت فى مواجهته أرض فراغ بين صف الإسطبلات المواجه لصف المكاتب والعنابر سورّت بقوائم خشبية ، وقد علما فيما بعد أنها الزريبة المعدة لتربية الخيول المستجدة .

استقر على سليمان منكمشين أمام الصاغ أركان الحرب وقد جلس على مكتب يتوسط الحجرة ، وعلى يساره مكتب آخر جلس عليه اليوزباشى

الركبدار الذى يقوم بتعليمهما الركوب فى المدرسة .
وكان أركان الحرب بادى الرقة والتهديب ، ودق جرساً بجواره فدخل
الجندى المراسلة ، فقال له فى صوت منذر :

— هات فنجانين من القهوة ، وابعث الشيخ قرد .
وكان من السهل على « على » أن يدرك أن فنجان القهوة للشرب .. ولكن
الشيخ « قرد » لماذا يطلبه ؟! بل لماذا يوجد عندهم أصلاً . هذا الشيخ « قرد »
بل أكثر من هذا . لماذا يكون القرد شيخاً .. أو الشيخ قرداً ؟!!
وبعد برهة طرق الباب فى رفق ثم دخل بلوكامين وقور هادىء يسترق الخطأ
حتى وقف بجوار مكتب أركان الحرب دون أن ينبس ببنت شفة .
ورفع الرجل وجهه عن بضع أوراق أمامه ثم قال له :

— اسمع يا شيخ قرد .
ووضح الأمر لعل واستراح ذهنه وأخذ يتابع حديث الرجل وهو يردف
قائلاً :

— اكتب فى دفتر الأوامر وصول حضرتى الضابطين وسأذكر لك الأورطة
التي سيلحق بها كل منهما فيما بعد .
— حاضر يا فندم .

— واكتب إنه ستجرى غداً تجربة لطابور التوزيع سيحضرها قائد القسم فى
أرض الطابور ، وراء الأورط المشاة .
— حاضر يا فندم .

— واكتب لحضرات الضباط فى الدور الدائر أنه سيقام فطار عمومى يوم
الخميس القادم..

وظل أركان الحرب يملأ أوامره .. والشيخ « قرد » يجيب بحاضر يا فندم ،
حتى انتهت الأوامر ، وانتهى « على » وصاحبه من شرب القهوة ، وهما ما زالا
منكمشين فى مقعديهما .

وغادر الرجل المكتب .. فهما بالنهوض ولكنه أجلسهما قائلاً :
— انتظرا قليلا .. حتى أنبئ سعادة القومندان بحضوركما .. حتى تمثلا
أمامه .

وبعد لحظة عاد يضرب الأرض بحذائه الطويل قائلاً لهما :
— تفضلا .

ودخل الاثنان مكتب القومندان .. رجل ربعة ، عريض الأكتاف ، قد
اختفى نصفه الأسفل وراء المكتب وعلت رأسه صورة « للملك » تقاطع فوقها
مزارقان بالفلانديرات تتوسطهما خوذة مائلة .

وألقى الرجل بضع نصائح خاصة بالاهتمام بالعساكر وبالخييل والعناية
بالسروج والإسطبلات ، ثم وجه القول إلى الصاغ الواقف بجواره :
— ليذهب كل منهما إلى إحدى الأورطتين .. الأقدم في برنجي ، والأحدث

في كنجي .. من فيكما الأقدام ؟

وأجاب « على » وقد رفع يده إلى جانبه كأنه ما زال تلميذاً في المدرسة :
— أفندم :

— حسن .. أريد منكما أن تكونا مثلاً طيباً .. إن مهمة ضابط السوارى
ليست بالمهمة الهينة .. إنها ليست بمجرد حذاء طويل ، وحصان يركب .. إنها
تحتاج إلى مشقة سنين حتى يضحى الواحد منكما ضابط سوارى أصيلاً ..
تفضلاً .

ورفعاً أيديهما بالتحية .. ثم استدارا للخلف ، وغادرا الحجرة .
وذهب « على » للأورطة الأولى وهو يحس برهبة الغربة التي تصيبه كلما غيّر
موطنه وبدّل مقامه .. كان يشعر بخوف من كل ما حوله ، من الضباط ، وصف
الضباط والجنود .. والخييل .. كانت تملأ نفسه وحشة تدفعه إلى الرغبة في
الفرار ، ولم يكن بنفسه أبداً أى إحساس بأنه ضابط محترم ، وأنه سيكون له
سلطان على هؤلاء العساكر الذين يمرون به .. وأنه سيكون صاحب إسطبل مليء

بالخيول والسروج .

وكان للأورطة مكتبان : مكتب للقائد وأركان حربه ، ومكتب آخر للبوكامين .. أما الضباط فلم يكن مفروضاً عليهم أن يبقوا في المكاتب .. واتجه « على » إلى مكتب البلوكامين .. حيث وجد بعض الضباط واقفين ببابه ، وحياهم تحية عسكرية مضبوطة فرحبوا به وهنأوه ، ودخل أقدمهم لينبئ أركان الحرب بقدمه ، فطلب منه أن يدعه ينتظر حتى ينتهى القائد مما بيده من أعمال . ووقف « على » ينتظر وقد ضاق بالوقفة وبضغط الحذاء على قدمه .. بعد برهة طلب قومندان الأورطة الضباط ، فدخل « على » في أعقابهم واصطفوا أمام مكتبه ، ووقف « على » في طرف الصف وقفة انتباه مضبوطة .. وقد شد جسده ، وأبرز صدره ، واتخذ نقطة في الحائط أمامه لا يحول عنها بصره ، إلا بقدر ما يسترق النظر إلى الشخص الجالس أمامه ثم يعيد بصره إلى الأمام مرة أخرى .

ووجد « على » في قومندان الجديد رجلاً وسيم الوجه .. فارع القامة ، لم يستطع المكتب الموضوع على منصة خشبية (حتى يميز مكتب القومندان من مكتب أركان الحرب الموضوع على الأرض في مواجهته) أن يخفى إلا قدر يسيراً من جسده الذى تمددت ساقاه من أسفله وتعالى صدره وكشفاه من أعلاه . وكان التجهم يبدو على وجهه ، وقد أخذ يقلب أوراقاً في يده ثم يتحدث دون أن يرفع بصره عنها قائلاً في لهجة زاجرة :

— هذه نتيجة نخزية .. هذا لا يمكن أن يكون تفتيشاً .. إن العناكب تعلق أسقف الإصطبلات .. والخيول كالزفت .. والسروج كالقطران .. كل هذا وأنتم تعلمون أن قائد القسم سيحضر الطابور غداً .. ماذا تنتظرون حتى تنظفوا الخيول والسروج ؟! أنتظرون أن ينزل ملاك ليفتش عليها ؟! . اسمع يا حضرة اليوزباشى (موجهاً القول إلى اليوزباشى أركان حرب الأورطة) حضرات الصباط لا يغادرون الشكنات حتى يعدوا بلوكاتهم . وسأعيد التفتيش مرة ثانية

بعد الظهر .. مفهوم ؟

وهنا فقط رفع بصره عن المكتب ، وأخذ يسأل الضباط واحداً واحداً .

— مفهوم يا عبد الرحمن أفندى ؟

— أيوه يا فندم .

— مفهوم يا عثمان أفندى ؟

— أيوه يا فندم .

حتى وصل إلى آخر الصف فوجد وجهاً جديداً لم يره من قبل ، وقد شدّ جسده وأبرز صدره ، وأخذ يحملق في الحائط .. ونظر إليه في دهشة . ثم نظر لأركان الحرب وتساءل قائلاً :

— ودا يبقى إيه ؟

وأحس « على » في تساؤل الرجل نوعاً من السخرية والاستخفاف والاحتقار .. وتصاعد الدم إلى وجهه ، ولكنه استمر في وقفته المصلوبة ينظر أمامه .

وحاول الضباط جهدهم أن يكتموا الضحك الذي يصطخب في صدورهم وأجاب أركان الحرب منقذاً الموقف :

— إنه الضابط الجديد .

— وماذا أحضره الآن ؟

— لقد دخل مع الضباط .

ودون أن يوجه الرجل إليه كلمة واحدة قال لأركان الحرب :

— دعه ينتظر في الخارج .. ولا يحضر حتى أطلبه .

وخرج « على » وهو يحمل أول لطمّة أصابته في عزته كضابط .. ومالبث أن لحق به أركان الحرب قائلاً في نوع من التعطف لكي يضيع أثر قلة ذوق القومندان :

— لقد كان جناب البكباشي غاضباً على الضباط لإهمالهم التفتيش .. إنه

سيطلبك حالا .

وبعد برهة طلبه الرجل ، ولم يعتذر إليه .. بل كرر له النصيح وطلب منه أن يكون صلباً شديداً .. لأن الطراوة لا تتفق مع ضابط السوارى .. وعليه أن يتحمل كل قسوة لكي يكون ضابطاً جيداً .

وتسلمه أركان الحرب بعد ذلك فأخذ يشرح له ما استطاع في الأورطة وأنباءه أنه سيلحق ببلوك إبراهيم افندى لأنه ضابط قديم .. شديد الضبط والربط ، وأنه سيستفيد منه كثيراً . ثم أخبره أن العربة البروسيانى ستكون معدة لنقل مهماته إلى حجرته بالميس فى أى وقت ، وأنه سيطلب من إبراهيم افندى أن يأمر بإعدادها له .

وفى تلك اللحظة أقبل إبراهيم بقامته الطويلة ووجهه الأسمر ، وأنفه الضخم ، ورأسه الذى أخفى صلعته طربوش طويل مائل على أحد الحاجبين ، وقال له أركان الحرب وهو يقدم إليه علماً :

— لقد أمر جناب البكباشى بأن يتمرن الضابط الجديد معك ، وهو يريد منك أن تجعله خيراً منك .

— حاضر يا فندم .

وفى عصر ذلك اليوم شاهد أهل البلدة أمام بيت « على » عربة يجرها بغلان ويجلس فى مقعدها جنديان من السوارى وقد حملت العربة بفراش ، ودولاب ، وسجادة قديمة ، وشماعة ومقعدين ، وقد وقف « على » يرد تحيتهما وهما يتحركان بالعربة مغادرين الدار ..

وقبيل المغرب شاهد ضباط السوارى القدامى الجالسين فى حديقة الميس العربة البروسيانى تقف بباب الحديقة ، كما شاهدوا الأثاث المتواضع يحمله عساكر الميس ليضعوه فى الحجرة التى خصصت لأحد الضباط الجدد .

وبات « على » ليلته الأولى فى الميس وملء نفسه وحشة الغربة ومرارة الفقرة وآلام الشوق والحنين .

(٣٣)

من يدريك ؟

كان السوارى كغيره من وحدات الجيش في تلك الفترة منهمكا في الاستعداد لطابور التشويج ، ولم يكن لعلی وصاحبه نصيب في ذلك الطابور باعتبارهما ضابطین مستجدين لا يؤتمنان على الركوب في مثل هذا الاستعراض الكبير ولذلك اقتصر عملهما في طابور الصباح على الركوب في الخانة مع العساكر المستجدين . وأقبل « علی » في الصباح المبكر ليخرج في أول طابور له ممتطياً حصانه . وكان المفروض أن يعد للضابط المستجد حصان هادئ حتى يتعود الركوب بالحداء الطويل ، وحتى تذهب عنه الرهبة وتشد ركبته فوق السرج « على حد تعبير السوارى » .

واقرب « علی » من الحصان الذي أعده له إبراهيم أفندی من بلوكة الذي أمر بالتدريب فيه ، وكان « علی » يحس بشيء من الرهبة وهو يوشك أن يعتلى حصانه كضابط لأول مرة في حياته .. وكانت خشيته مبعثها الخوف من احتمال الوقوع وهو ضابط محترم بحدائه الطويل وحلته الأنيقة أمام العساكر المتطلعين إليه بعين فاحصة مترقبة .. محاولين أن يستشفوا من كل حركة من حركاته أى نوع من الضباط يكون ؟ صارماً جاداً .. أم مهزأراً فرحاً .. قاسياً شديداً .. أم ليناً عطوفاً ؟! قوياً أم ضعيفاً ؟. قديراً أم عاجزاً ؟

لقد سبق له الركوب طول العامین الماضيين .. ركب كثيراً .. وتسليخت ركبته كثيراً ، ووقع كثيراً . ولكن وقوعه وقتذاك كطالب لم يكن يضره ، فقد كان فرداً في الطابور ضمن عشرات الطلبة وكان المفروض فيه أن يقع كما يقع غيره .. أما الآن .. وقد أضحى ضابطاً فإن الوقعة ستسجل عليه .. وستبقى

ملاصقة له مدى حياته كضابط سوارى .. هذا هو ما كان يجول بخاطرته ويملؤه رهبة وخشية وهو يقترب من الحصان الذى أمسك بأسرعه العسكرى السائس .

وزاد من رهبة « على » منظر الحصان القلق المتوثب ورأسه المرفوع وحوافره التى لا تفتأ تضرب الأرض بين آونة وأخرى . ولم يكن منظر الحصان المتيقظ الجميل يوحى بالهدوء .. وأحس « على » برهبته تتضاعف وهو يجد السرج الذى شدد به الحصان سرجاً صغيراً ملتصقاً بظهر الحصان كأنه ورقة التوت أو المايوه البيكىنى ، بحيث لا يشعر راكبه بالأمان الذى يحس به وهو يغوص فى بحر السرج النفراقي المقعر بين طرفيه العاليتين : المؤخرة .. والمقدمة المسماة القربوص والتى تجد فيها يد الراكب منجاة من الوقوع وملاذاً من « المرمطة والبهدلة » ولا كان كسرج الضباط الذى تعلوه القبوة المشدودة فى مقدمته ، مسند يسند إليه الراكب ركبتيه ويشعر بأمان نسبي وطمأنينة مريحة .

وتذكر « على » وقعتته من حصان الأمير وأقبل يختبر الشريحة التى شد بها السرج إلى ظهر الحصان ويختبر كذلك الأسراع المشدودة فى حديد اللجام .. وعندما اطمأن إليها لم الأسراع بيده وأمسك الراكب المعدنى ودس فيه قدمه اليسرى ثانياً ركبته بقدر ما يسمح بنظلون الركوب الجديد والحذاء الصلب الطويل .. ولم تبد على الحصان أية رغبة فى الاستسلام للركوب .. وأخذ يدور حول نفسه ، ويضرب الأرض بقدميه ، و « على » يحاول تقصير الأسراع حتى يوقفه .. والعسكرى السائس يصنبح به .. أو بها .. (كما أفصح من صيحته) :
— بس يا بنت الخسيصة ... اتفضل اركب يا حضرة الضابط .

وقفز « على » قفزة قوية وضعته على ظهر الفرس . ولم تكد الفرس تحس بثقله عليها حتى بدت وكأنما قد أصابها مس من جنون أو كأنما ركبها جن .. كان أول ما فعلت الفرس الحمقاء هو أن شبت بقدميها الأماميتين وأرسلت صهيلاً طويلاً كأنه صيحة طرزان .

وتملك « على » في أول الأمر خوف شديد .. وأحس كأن قلبه يوشك أن يسقط في جوفه .. ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ووجد أن سمعته قد باتت معلقة بظهر هذه الفرس الجامحة فألصق ركبتيه وفخذه بجانبها ومال إلى الأمام حتى لا يختل توازنه فيسقط .

ويبدو أن الفرس أحست بعدم جدوى حركتها تلك في إسقاط الراكب فهبطت بقدميها الأماميتين المرفوعتين ولم تكد تستقر بهما على الأرض حتى أطلقت ساقها الخلفيتين في الهواء بعدة ضربات سريعة متوالية مقوسة ظهرها عقب كل ضربة حتى أحس « على » أنه يوشك أن ينخلع من فوق ظهرها ليسقط صريعاً تحت أقدامها .. وازدادت ساقاة تشبثاً بالسرّج .. واضطر أخيراً إلى أن يحيط عنقها بذراعيه حتى يحفظ توازنه .

وكلت الفرس من الضرب « بالجوز » والبرطعة بساقها في الهواء .. وراكبها ما زال مستقراً على ظهرها ويبدو أنها كانت قد أقسمت بأية حال ألا تبقيه .. أو أنها لم تكد تطيق أى ثقل على ظهرها .. فلم نجد بداً لكى تلقيه من فوقها إلا أن تسقط به على الأرض . وفعلاً لم تكد تستقر لحظة بعد أن انتهت من الضرب بساقها في الهواء حتى انطرحت على جانبها .. ووجد « على » نفسه طريح الأرض معها .. فاقداً آخر أمل في الاحتفاظ بهيئته وبقاء السقوط بعد أن تهاوت هي نفسها .

وأحس بثقلها يضغط على ساقه اليسرى .. ولكن لم يدم ضغطها طويلاً حتى نهضت هي وحدها مندفعة تعدو في أنحاء القشلاق بين الإسطبلات والمكاتب مخلقة إياه راقداً على الأرض معلنة عن سقوطه بأكبر ضجة ممكنة .

ووقف « على » وهو يحس بكثير من الحيرة والخجل والضيق والغیظ من أن يفعل به سوء الحظ الشيء الوحيد الذى كان يخشى وقوعه .

وفي تلك اللحظة أقبل الصاغ أركان الحرب بحصانه ، وأعد « على » نفسه لسماع اللوم والتأنيب والسخرية من عجزه في الركوب ، وأعد نفسه كذلك

لسرد الدفاع عن نفسه ، ولكنه وجد الصاغ يهبط من حصانه ويقبل عليه جزعاً
سائلاً إياه :

— هل أصابك شيء ؟

— لا يا فندم .

— ماذا حدث ؟

— لقد سقطت بي الفرس .

وفي تلك اللحظة أقبل عسكري يسحب الفرس المنطلقة ، ونظر إليه الصاغ

في دهشة ثم صاح :

— أين إبراهيم أفندي ؟

— في الإسطبل .

— أرسله إليّ .

وأقبل إبراهيم أفندي بقامته الطويلة ورأسه المائل ، يضرب الأرض بقدميه

ورفع يده بتحية شديدة .. وطرق عقبيه إحداهما بالأخرى قائلاً :

— أفندم .

— من أي بلوك هذه الفرس ؟

— من بلوكي أنا .. إنها الفرس المستجدة .

— من الذي أمر بشدها ؟

— أنا يا فندم .. لأن كل الخيل القديمة مستعملة في طابور الاستعراض .

وصرخ الصاغ في وجهه صائحاً :

— يا إبراهيم أفندي .. تشدّ الفرس المستجدة للضابط المستجد .. وتقول لي

إن الخيل القديمة كلها في الطابور .. بناقص حصان يا إبراهيم أفندي .. أو شد له

حصان من بلوك آخر .. أو لا تشد له أصلاً .. أي شيء ممكن بدل أن تتركبه هذه

الفرس المجنونة التي لا يقدر على ركوبها إلا ركبدار قديم .. تفضل يا إبراهيم أفندي

شد له حصاناً آخر من فضلك .. حصان من خيلك أنت .. مفهوم ؟

— مفهوم يافندم .

وهكذا تلقى « على » اللطمة الثانية فى حياته الجديدة كضابط سوارى .
واستمرت بعد ذلك طوابير « التجارب » ، واستمر « على » و « سليمان »
يخرجان مع المستجدين ، حتى حلّ يوم الاستعراض .
كان يوماً مشهوداً ، باكرت فيه وحدات الجيش فى الخروج من ثكناتها .
وتصاعدت أنغام الموسيقى العسكرية تدوى فى جنبات شارع الخليفة المأمون ،
وأخذت القوات تصطف فى الساحة المتسعة المسماة أرض الرصدخانة الواقعة
أمام السوارى فى كوبرى القبة .

وانتهى الاصطفاف وبدأت تخفت أصوات النداءات التى أعد بها الضباط
وحداتهم من « انتباه » إلى « هذا » إلى « كتفاً سلاح » ، وتولى زمام الطابور
قائد قسم القاهرة ، وقد وقف بحصانه فى منتصف الساحة أمام القوات المصطفة
ووراءه ضباط أركان الحرب على خيولهم القلقة التى لا تفتأ تهز رأسها الذى تدلت
أسفله « شرابات » حمراء خضر ، ووراءهم قد وقف الجاويش الإشارجى يحمل فى
يده علماً يخفضه ويرفعه حسب نداءات القائد ليوحد حركات الطابور . وعندما
أعد الطابور أدى قائد قسم القاهرة التحية لرئيس هيئة أركان حرب وسلمه قيادة
الطابور .

وبدا الفرسان فى أقصى اليمين فى الجانب الأقرب لبناء القرعة العسكرية وقد
اصطفوا بخيولهم ومزاريقهم التى ترفرف عليها « الفلانديرات » الملونة ،
وبجوارهم اصطف الهجانة بجمالهم الفارعة الأعناق المشرّبة الرعوس وعمائمهم
العالية ووجوههم السوداء اللامعة ، وبجوار الهجانة اصطف المدفعية بمدافعها
المجرورة والمحملة ، وبدأت بعد ذلك « أورط » المشاة وفى أولها المدرسة الحربية .
وفى منتصف الطابور اصطفّت الموسيقى متجمعة فى الخلف ، وأمام الطابور
استقر سراق المدعوين ملاصقاً للشارع وقد توسطته منصة عالية .. ورفرف
عليه علم أخضر كبير .

وفي السراشق الرئيسى استقر كبار القوم من أمراء ووزراء ، وسفراء ونواب ، وشيوخ وأعيان .. وحول الساحة قد تكأ كآ الشعب بمختلف طبقاته يشهد تنويج « ملك » شاب جديد .

وكان « على » و « سليمان » قد جلسا يرفيان الطابور مع المشاهدين وبنفسيهما إحساس بالمرارة والخيبة لعدم اشتراكهما فى الطابور ولا سيما أن كل زملائهما فى الوحدات الأخرى قد اشتركوا فى الاستعراض مع وحداتهم .

وأخذ « على » يرى نفسه بعين الوهم وقد امتطى الفرس الشقراء الجميلة التى أوقعته بعد أن رؤىها وساسها وهو يقود أحد البلوكات فى الطابور ، ويسير بارز الصدر ، مرفوع الهامة .. فى اعتداد وثقة ، وقد وقفت « أنجى » فى السراشق ترقبه فى فخر واعتزاز ثم تدعوه بعد الطابور للركوب معها فى العربة والجلوس فى الحديقة حيث تعودا أن يجلسا .

ويطلق « على » من أنفه نفخة سخرية ، ومن فمه زفرة يأس ، ويزجر نفسه عن الاستمرار فى الأجلال اليائسة ، والآمال العقيمة .

ما الداعى لكل هذه الخيالات ، وهوان يركب ، وهى لن تحضر !!؟ ولكن لماذا لن تحضر !!؟ إن الأمراء كلهم موجودون ، ومن المحتمل أن تكون قد حضرت مع أبيها .. من يدرى !! وهز كتفيه فى يأس .

ولكن هبها حضرت .. ما الفائدة ؟! أيستطيع أن يقفز إليها وسط هذا الحشد الهائل من الحكام والكبراء والعظماء وهى جالسة مع أبيها وأخيها ليحدثها ويناجيها ويبلغها لفته عليها وشوقه إليها ؟!

لا .. لا .. لا ضرورة لكل هذا .. يكفى إذن أن يضافحها . بل يكفى أن يلتقى بصراهما من بعيد . إن نظرة واحدة من بُعد يمكن أن يروى بها نفسه الحرى ، وروحه الظمأى .

وخول نظره إلى السراشق الرئيسى ، وحاول أن يفحص من به .

عبث في عبث .. إن العثور على إبرة في كومة من القش لأسهل كثيراً من العثور على وجه معين وسط تلك الآلاف المحتشدة من الوجوه التي تبدو من بعيد متشابهة متماثلة .

وأعادته من أفكاره إلى أرض الطابور طلقة مدفع دوت معلنة بداية الطابور ووصول صاحب العرش .. ثم بدت بشائر الموكب ذى الخيول المطهمة والحلل البيض المزركشة بالقصب يتهاذى من ناحية مبنى القرعة .. وقد تقدم الموكب بعض ضباط الياوران وفي الوسط أقبل « الملك » على جواد أحمر بادی الاستكانة والهدوء ، وبدا « الملك » من فوقه وسيماً ، جميل القسمات ، حلو السمات ، صلب القوام ، مرفوع الهامة ، وسار وراءه بقية ضباط الياوران .

وضجت الساحة بالتصفيق والتهتافات وبدت على وحوه الناس فرحة واستبشار بالوجه السمح الجميل ، وعبر سليمان لعلی عما يجيش في صدورهم ويفيض بأفئدتهم قائلاً :

— إني أحب هذا الملك .. فسيماه تبعث على التفاؤل ، وأشعر أنه أقرب إلى قلوب الناس من أبيه .. إن تلك الهوة السحيقة التي كانت تفصل بين الشعب والتاج والتي تجعل أحدهما في أخفض قرار والآخر في أعلى قمة لم تعد قائمة .. منذ أن رأيت صورته وهو مقبل من الخارج ليتولى الملك .. ومنذ أن سمعت صوته وهو يذيع بيانه الأول على الشعب .. أحسست أني أحبه وأن الشعب سيحبه .. وأدركت أنه يمكن أن يكون معقد آمالنا ومحط رجائنا ، وأن مصر يمكن أن تبدأ على يديه عهداً جديداً وبعثاً قوياً .. أجل يا على .. إن هذا « الملك » الشاب الوسيم ، يمكن أن يقود مصر إلى قمة المجد ويحقق لها حريتها واستقلالها وله في نفوس الناس من الحب والولاء .. وحسن الظن .. وطيب الرجاء .. ما يمنحه الأرض الخصبة التي تزهر نبتة وتقوى غرسه .. ألا ترى أنت فيه ذلك ؟! انظر إليه .. وإلى ترحيب الشعب به .. إن صله « الملك » بشعبه يجب أن تكون كذلك .

ولم يكن « على » قد تناول المسألة في ذهنه بمثل هذا العمق ، ولا حاول أن

(رد قلبي — ج ١)

يربط بين الملك والشعب ، ولا أن يفكر في قدرته واستطاعته ، ولا في أن يكون معقد آمال .. ومحط رجاء .. كل هذا لم يدر بخلده .. ولن يدور بخلده .. فهو يجد فيه نوعاً من سفسطة سليمان وهوايته للسياسة والوطنية ، هواية لا يجد « على » لها في نفسه موضعاً .

إن الملك يبدو وجيهاً أنيقاً وسيماً .. هذا هو كل ما كان يراه « على » ، وكان ذهنه بعد ذلك أكثر انهماكاً في تتبع الطابور في الساحة واختلاس النظر للبحث عن وجه معين في السراشق منه في تتبع صلة « الملك » ، بالشعب .. أو البحث في قدرته على تحقيق الحرية والاستقلال .

وقف « الملك » في منتصف الساحة أمام الطابور يتلقى التحية . وعندما انتهى السلام الملكي بدأ التفتيش بصيحة قائد الطابور : « تشكيل مفتوح .. مارش » ثم أخذت الموسيقى تعزف مارش التفتيش بلحنه الطروب العذب ، وبدأ الركب الملكي بخيوله المطهمة وحلله المزركشة مروره على القوات مبتدئاً من الميمنة حيث اصطف السوارى .

وانتهى التفتيش وعاد « الملك » بموكبه إلى منتصف الساحة حيث نقطة المرور التي ارتفع فيها العلم مرفراً فوق سارية عالية .
وقف « الملك » ووراءه رئيس هيئة أركان حرب بجسده الطويل ، ورأسه الأشيب ووجهه البادى الطيبة ، البارز عظام الوجنتين والذقن ، وانطلقت صيحة من قائد الطابور : « تشكيل مضموم .. مارش .. الضباط والبيارق . تعود إلى مراكزها » .

ثم توالى بعد ذلك سلسلة من النداءات التي تشكل الوحدات للمرور في الاستعراض ، وبدأ المرور وتحركت القوات في دائرة كبيرة لتبدأ السير على خط المرور من ناصية مبنى القرعة .. وتقدمت الموسيقى إلى الأمام في منتصف الساحة لتواجه نقطة الذات الملكية ولتعزف لكل وحدة المارش الخاص بها أثناء المرور .
وبدأ مرور السوارى .. بإدارته في المقدمة ثم بيرقه الذى طرزت عليه المواقع

الحربية التي خاضتها وحداته .. ومرت أورطتا السوارى فى هيئة طابور بلوكات يتقدمهما قائد الأورطة ، ويتقدم كل ضابط بلوكه .. مشدود الجسد .. بارز الصدر بروزاً يكاد يمزق أضلعه .. مرفوع الرأس .. صارم التقاطيع .. لا يرمش له جفن أو تتحرك له جارحة .. كأنما هو تمثال من صلب ثبت على ظهر الحصان .. فلا يكاد يقبل على نقطة المرور حتى تنطلق من فمه صرخة تكاد تشق لها حنجرتة : « بلوك .. لليمين انظر » .. وكأنما لا يأمر بها بلوكه فحسب .. بل يأمر بها القوات المستعرضة كلها .. ومعها كذلك الجماهير المحتشدة .. ولا يكاد ينتهى من نداءه حتى يرفع مقبض السيف بشدة إلى فمه بحيث يكون حذّه عمودياً أمام رأسه ، وبنفس الشدة يخفضه ليركز بقبضة يده على ركبته والسيف ممدود على طول ذراعه وذبابته مصوبه بالميل أسفل .

وكلما مرّ ضابط .. وضع « على » نفسه مكانه .. ثم وضع توءم الروح فى السرادق تشخص ببصرها إليه بين الأعين المتطلعة ، ويشعر تمتعة تعقبها حسرة وهو يجد نفسه لا يمتطى أكثر من مقعد ، ويجد النظرة المختلطة تعود من السرادق بخفى حنين عاجزة عن التعلق بالوجه المنشود بين آلاف الوجوه المرصوفة .

وانتهى مرور السوارى تم تلاه مرور الهجانة بجنودها السود ذوى العمام معتلين السنام العالية وكأن رءوسهم أطراف المآذن تعلوها القباب .. ثم بدأت مارشات الأورط تعزف خلال مرورها الواحدة بعد الأخرى .. و « على » يرقب زملاءه السائرين فى الاستعراض ويسميهم لسليمان واحداً بعد واحد شاعرين بغبطة وتسلية لمآهم ممسكين بسيوفهم وقد تجهمت وجوههم وتصلبت أجسادهم فى القالشين الملتف حول سيقانهم والقوايش المخيطة بخصورهم .

وفى الأورطة الأخيرة علت ثغر « على » ابتسامة واسعة وهو يرقب « محمود عثمان » وقد كوّن مع قائد الأورطة وأركان حربها ثالوثاً أسود بدا عليه التناسق والانسجام .. وضحك سليمان قائلاً :

— صدفة عجيبة تلك التى وضعت عثمان فى مكانه الملائم بين الضابطين

الأسودين .. يجب أن يطلقوا على هذه الأورطة أورطة السودان .
وعادت القوات بعد المرور إلى أماكنها في الساحة مرة أخرى . وعلا الهتاف
بحياة « الملك » . ثم صدحت الموسيقى بالسلام الملكي ، وانتهى الطابور .
واشتد الهرج والمرج .. وتزاحمت العربات .. واختلطت أصوات
« الكلاكسات » بصيحات الحناجر .. وبدأ استعداد الوحدات للعودة إلى
ثكناتها .. وتعالى النداءات المختلفة ما بين « صفا » و « انتباه » و « كتفا
سلاح » و « جنباً سلاح » .
وأحس « على » بالكثير من الخذلان وهو يقرب جموع المدعوين في السرادق
الرئيسى .. يتفرقون متجهين إلى العربات المتزاحمة في الطريق ، دون أن يبصر
بينهم بارقة تضىء جوانحه وتشرق في حناياه .
وسار سليمان وصاحبه يشقان طريقهما عائدين إلى الثكنات واستطاعا أن
ينفذا من بين الأجساد المحتشدة حتى وصلا إلى رصيف شارع الخليفة المأمون
الذى تدفقت فيه العربات المتزاحمة .. وسنحت فرصة للعبور بعد عربة مرقت
لم يكن في ذيلها عربة أخرى تسد الطريق ، وهم « سليمان » بالعبور بسرعة إلى
الرصيف الآخر ، ولكن « على » كان يقف مشدوهاً يحملق بعينيه في المارقة .
لقد كانت عربة الأمير إسماعيل .. إنه يعرفها جيداً .. العربة « الهمبر »
السوداء .. ويحفظ رقمها جيداً ، ولقد أبصر من خلال زجاجها الخلفى رأس
الأمير بشعره الأبيض الناعم ، الذى يغطى قفاه الأحمر المكتنز وجزءاً من صدغه
العريض وأذنه الكبيرة .. وأبصر كذلك جزءاً من شعر أصفر يشع منه سنا أضواء
كسنا البرق في قلبه .. وأبصر .. أم تراه واهماً ؟! وأن هذا الذى أبصره غير كائن
إلا في حدقة عينيه .. يراه في كل ما يبصر ، وما لا يبصر .. في الطريق وهو سائر ،
وفي الخانات وهو راكب .. في سقف الحجرة إذا ما أغمض عينيه ، وفي السماء
إذا ما فتحهما .. في النجوم وفي الغمام .. وفي القمر المثل من خلل الغمام ..
أتراه قد أبصر الآن ذلك الشيء المرسوم في حدقته ، أم رآها حقاً ؟

بل رآها .. وتنسم عبيرها .. إنه يكاد يجزم بذلك .. أجل .. أجل .. إنها هي .

وجذبه سليمان من ذراعه في شدة .. وقد ضاق بوقفته ، والعربات مقبلة تقطع عليهما الطريق وتمنع المرور وصاح به :

— ما بالك تستمرت في مكانك كالصنم ؟

وأجاب « على » بغير وعى وهو يسير بجواره وبصره ما زال مثبتاً في العربة المتباعدة :

— إنها هي .. هي .

— من ؟

— إنها هي عربتهم .. هذه التي مرّت بنا .. لقد لححت بها أباه .

— وماذا تريد من أبيها ؟

— بل لحتها هي .. أجل .. إني واثق من ذلك .

— أو اثنى أنت أنك رأيتها ؟

— أعتقد ذلك .. لقد خيل إليّ أنى لححت جزءاً من شعرها .

— ولكن هب أنها هي فعلاً . ماذا يمكن عمله الآن ؟! أتحب أن نأخذ أحد

بلوكات السوارى لنطارده بالعربة ونختطفها منه .. ثم نأخذها أسيرة إلى الميسر أ

إلى سرجخانة أربعجى بلوك ؟

ولم يكن يبدو على « على » كبير استعداد لتقبل السخرية ، ولا كان من

حضور الذهن بحيث يحاول أن يفهم ويجاوب .. كان ذهنه منطلقاً وراء العربة ،

ولم يستطع أن يجيب سليمان إلا بقوله :

— لو تقدمنا ثانية لاستطعت أن أراها قبل أن ترق العربة .

أجل .. ثانيه واحدة ، كانت تقوده أمام العربة بدلاً من خلفها .. وكان

يستطيع — بفرض وجودها في العربة — أن يبصر وجهها ، وأن يلصح بسمتها

الريقة التي تبعث الأمل في نفسه والقوة في روحه .

(رد قلبي — ج ١)

وبدا لسليمان أن يقطع عليه سبيل الندم وأن ينزع من تفكيره حرف الامتناع .. وألا يتركه معلقاً « بلو » تقدم ثانية .. لحدث كذا ، وكذا .. فقال في لهجة ثقة :

— لو تقدمنا ثانية لما فزت بأكثر من وجه الأمير ، ومن قفا الأمير لوجهه ..

ياقلبي لا تحزن !

وأجاب « على » في إصرار وضيق :

— لو تقدمنا ثانية لرأيته .

— أنت واهم .. إني لم أبصر بالعربة سواه .

— ولكنني أبصرت جزءاً من شعرها .

— أنت أحياناً تبصر ما تحب أن تبصر ، لا ماتبصر فعلاً .

وكانا قد دلفا من باب السوارى ، وقرع جندي القره قول عقبيه إحداهما بالأخرى ورفع يده بالتحية إلى أعلى المزارق متخذاً وضع « عمودى سلاح » . ولم تستطع طرقة الكعبين أن توقظ « علياً » من شروده فنبهه سليمان بقوله :

— رد التحية ، وإلا أرد أنا .

ورفع « على » يده مجيباً التحية بحركة آلية .

ولم يجد « على » مبرراً لا استمرار الجدل في وجودها وعدم وجودها ، ورؤيتها ، وعدم رؤيتها .. لقد كان الأمر في الحالتين مؤدياً إلى نتيجة واحدة ، وهو ازدياد الإحساس بالخذلان واليأس وتضاعف الشعور باللهفة والحنين .

وعادا إلى الميس ، وجلسا في البهو ، وارتقى « على » على أحد المقاعد الفوتيل الكبيرة المحيطة بالمدفأة المبنية في بروز يتوسط البهو الطويل المتسع وأغمض عينيه في استرخاء واستغرق في التفكير ، بينما تشاغل سليمان في إدارة جهاز الراديو محرراً مؤشر المحطات يمينا ويساراً محدثاً أقصى ما يمكن من القرعة والأصوات السريعة المختلطة حتى استطاع الحصول على إحدى المحطات الشرقية التي كانت تذيع أغنية لورد كاش الشائعة : « بتريد أبقي بالأوده .. وضروري تمشى ع الموده » .

وترك سليمان الراديو يلعلع بالأغنية ، ثم عاد إلى « على » فارتمى على مقعد آخر بجواره ، وصاح بعلى :

— هاى .. وحدوه .

و لم يجبه « على » فانتقل بصره منه إلى صورة فى أعلى المدفأة « للملك فؤاد » كتب عليها إمضاء « الملك » . وقال :

— لماذا يبقون على هذه الصورة حتى الآن ؟

وفتح « على » عينيه متسائلا عن الصورة التى يعنيها ، وأردف سليمان :

— هذه الصورة يجب أن تزال ، وتذهب مع صاحبها إلى حيث ألفت . يجب أن توضع صورة « الملك » الجديد .. يجب أن يوضع الأمل محل اليأس .. سأرفعها الآن .

وقفز فوق المقعد لينزل الصورة فصاح به « على » :

— لا تكن أحمق يا سليمان .. هذا ليس من شأنك .. إنه من شأن ضابط الميس وأركان الحرب والقومندان .. ثم إني لست أرى مبرراً لهذا التحمس الشديد الذى تبديه « للملك » الجديد .. والحق الذى تحنقه على الملك القديم .. كأنما هو قد قتل أباك ؟!

— لقد قتل أمتى .

— وحتى بفرض صحة قولك .. من يدريك أن الابن يختلف فى جوهره عن أبيه ؟! من يدريك أن هذه العصا لن تكون من تلك العصية ؟ من يدريك أن العرق الدساس لا يجعل من الحمل ذنباً ؟! من يدريك أن ..

— لا .. لا .. إني أحس بأنه شىء آخر غير أسرته .. إني أرجو لمصر على يديه شىء كثيراً .

(٣٤)

جلسة المختلس

بدأ « على » بعد ذلك يشعر بمشقة العمل وإرهاقه المفرط .. فقد انتهى طابور التوزيع الذى كان يستحوذ على كل اهتمام إدارة السوارى والذى شغلها مؤقتاً عن الالتفات إلى الضابطین المستجدين .. ومرمطتهما وعكنته مزاجهما .
ولم يشعر « على » فى حياته الجديدة بفارق كبير عن حياته فى « المدرسة » .. القبيض .. لقد وجد فيها مشقة أكبر وإنها كأشد . إذ أضحت أشق ما فى المدرسة وهو طابور الركوب الذى لم يكن يزيد فى القسم النهائى على ثلاث مرات .. أضحت واجباً يومياً لا بد من أدائه .. وزادت مشقته وطالت مدته .. ولم يكن « على » يشعر فى أى وقت من أوقات عمله بالسوارى أنه ضابط .. فقد كان فى الطابور يعامل كأنه عسكرى .. كان يركب بسرجه نقراتى .. ويدخل فى الخانة ويخضع لأوامر التعليمجى كأى عسكرى ، ويرفع الركاب كلما أمر حكمدار الطابور يرفعه ، وكان شر ما فى الأمر أنه يشعر أنه بحكم كونه ضابطاً يجب أن يكون خيراً من أى عسكرى فى الطابور فكان عليه أن يبذل أقصى جهده وأن يتحمل ويصبر ويتجلد حتى لا يبدو منه ما يفضله أمام العساكر الذين قد يتولى قيادتهم بعد انتهاء التعليم .

وكان يعرف أن هذا التعليم الذى يرهقه الآن لم يكن سوى مقدمة لتعليم أكثر إرهاقاً وأشد قسوة ، وهو فرقة «الركبديريه » التى لا بد أن يحضرها كل ضابط جديد لكى يصبح « ضابط سوارى » وبغيرها لن يزيد فى نظر أهل السوارى عن مشاة راكب .

وكان يستيقظ فى الخامسة أو الخامسة والنصف كعادته فى المدرسة ليكون فى

الإسطبل في السادسة أو السادسة والنصف حيث يجد إبراهيم أفندي في انتظاره يغدو ويروح بين الخيل والعساكر كأنما قضى ليلته في الإسطبل . فإذا انتهى الطابور لا يستطيع العودة لإراحة جسده قبل أن يقف على « حوض السقية » حتى تنتهى الخيول من الشرب ، ولا بد له أن يشترك مع العساكر والضباط في الصفير لها حتى تنعم بشربة هنيئة مريئة ، وتنطلق خلال ذلك مئات النوبات من البروجي لا يستطيع أن يميز إحداها عن الأخرى .. فقد كانت نوبات السوارى تختلف تماماً عن النوبات التى حفظتها أذناه وهو فى المدرسة .. ولم تكن النوبات تقتصر على نوبات الأعمال المحددة بمواعيد .. بل كانت هناك نوبات أشخاص .. فللجاويش نوبة ، ولأومباشى العيادة نوبة ، وللباشجاويش نوبة ؛ ولا ينفك البروجي ، ينادى عليهم بيوريه كلما طلبهم أحد .. ويغرق « على » فى الحيرة غير مدرك سر تلك النوبات الحمقاء المتتالية ، التى لا يكاد يميز منها سوى ثلاث نوبات . ، نوبتى سقية وعليق لأنه كان يعرفهما من الخيل نفسها إذ كانت تحس بهما قبل أن يحس بهما هو ، وكانت لا تفتأ تصهل وتضرب الأرض بحوافرها فى قلق حتى يقدم الشراب والطعام .. أما النوبة الثالثة فهى نوبة طومار لأنه كان يعرف أية كارثة يمكن أن تحل به إذا تغيب عن الطومار .

وعندما ينتهى السقى والعليق يعود إلى الميس لتناول الإفطار أو يكتفى « بشطير » فول أو طعمية من الكانتين ، ويطفئ حرقته بكوب من شراب المانجة ، إذا تعذر الذهاب إلى الميس ، ثم يواصل بعد ذلك طابور السوارى الثانى وهو طابور تعليم سيف ومزراق .

ويبدأ بعد ذلك الطومار .. ثم التفتيش على الخيل والإسطبلات .. ثم سقية وعليق الظهر ، ثم أعمال المكاتب التى لا تنتهى إلا وقد حلت الثانية ظهراً .

ولا يكاد ينتهى من الغداء حتى يحل موعد طابور بعد الظهر .. وعند انتهاء الطابور يشعر « على » أن قدميه لم تعودا تقويان على حمله فيلجأ إلى الراحة فى حجرته حتى وقت النوم .

ومرت بضعة أيام بعد طاير التويج و « على » منهمك في عمله لا يكاد يجد من وقته فسحة للتفكير إلا قبيل النوم وقد استلقى على فراشه قبل أن يأخذ الكرى بمعاقد أجفانه تماماً كما كان يفعل في أيام المستجدين في المدرسة .
وفي ذات يوم كان عليه أن يقوم بأعمال النوبتجية . وكانت أول نوبتجية يقوم بها وحده بعد أن قام ببضعة نوبتجيات « يدك » وهي نوبتجيات تمرين يصحب فيها الضابط الجديد ضابطاً قديماً في نوبتجيته حتى يعلمه مآدق من أمر النوبتجية وما خفى .

وذهب « على » بعد انصراف الضباط ليصطحب الجاويش النوبتجى لصرف اليك (طعام العساكر) وكانت الساعة قد جاوزت الثانية ، وشمس يوليو تصوب سياطها المحرقة على الرعوس والأجساد ، و « على » قد أمسك بخيزرانة رفيعة قصيرة وسار يضرب الأرض بحذائه الطويل المعفر القدمين ، الملوث باطن العنق بزغاء أبيض جاف هو خليط من صابون السرج وعرق الحصان وشعيراته ، وبنطلون الركوب الثقيل قد ضغط على ركبتيه وشمر إلى أعلى وبدت في رقعتي فخذه آثار بنية حمراء نضج بها ورنيش السرج وصبغته ، وثبت البنطلون إلى وسطه قايش الجلد العريض الذى يشد خصره ويجذب بحمالته كتفه اليسرى .. وفي داخل البنطلون حشر ذيل القميص الكاكي الذى أحالت الشمس والغسيل لونه في بضعة أسابيع وأضاعت صبغته فجعلته أشد ميلاً إلى الصفار والبياض ، ومن فتحة القميص — الذى استقر على كل كتف من أكتافه اسبلايط يحمل نجمة وحيدة — برز عنق « على » صلباً رقيقاً معروفاً ، استقر عليه وجه بادی الهزال والنحافة قد كسته صرامة أعيائها الجهد ، فأضفى عليها خيوطاً من ضيق وكلال واستكانة .

وتوقف « على » أمام باب المطبخ وراء الاسطبلات في صف الأبنية القصيرة الموازية للبوابة الخلفية والمطلّة على الصحراء والخانات ، ورمق صفوف القراوانات النحاسية المصفوفة على الأرض أمام المطبخ . ثم سأل الأومباشى

الواقف أمامها والذي طرق مهموزيه المقوسين طرقة أشبه بطرقة الصاجات ،
ورفع يمينه بالتحية ممسكا بيساره خيزرانة تبدو كأنها في السوارى من لوازم
النوبتجية وصف الضابط .

وتبين فيه « على » أحد صف ضباط الأورطة الأولى التى هو فيها فتساءل :
— أين قروان الأورطة الثانية ؟

— ما زال الأومباشى عبيد يجمع النوبتجية .

وأحس « على » بالضييق والحنق .. إنه يكاد يقف على قدميه ، وهذا الحيوان
النوبتجى لم يجمع القروان بعد ، ولا بد له أن يلطع فى الشمس حتى تحضر
قروانه .

وصاح « على » فى حنق :

— قل للبروجى يضرب أومباشى نوبتجى كنجى أورطة .

وكان « على » قد بدأ يتأقلم ويستعمل البروجى فى كل راحة وغدوة .

وانطلق البروجى يضرب نوبة لم يستطع « على » بالطبع أن يميز كنهها ولا أن
يعرف ما إذا كان للأومباشى النوبتجى أم لأركان حرب السوارى .. المهم أنه بعد
لحظات أقبل الأومباشى عبيد يسوق أمامه بالخيزرانة بضعة عساكر يحملون
القروان ويعدون أمامه وهو يصيح بهم على مسمع من « على » :

— أجرى يا ابن الحصان منك له .. فى المرة القادمة إذا تأخرتم سأجلدكم فى
عواميد الإسطبل .

وأحس « على » بالخرج والأومباشى يسب العساكر ويهددهم بالجلد وعلى
مسمع منه ، ولم يدر كيف يتصرف ، ولكن لسعة الشمس وفرط الجهد جعلته
يفضل « الصهينة » ويصم أذنيه كأن لم يسمع ، وصاح بالأومباشى :

— بسرعة يا أومباشى .

وصاح الأومباشى بطابوره المساق :

— قف .. تمام يا فندم .

وأخذ العساكر يرصون القروان في الجانب المقابل لصفوف القروان الأخرى . وبدأ في تلك اللحظة الأومباشي الطباخ يحمل القزان الضخم بمساعدة عسكري آخر ثم وضعه بجوار القروان ، وغاب في المطبخ برهة ثم عاد يحمل « حلة » صغيرة بها سائل أحمر شبيه بالصلصة ، ورفع غطاء القروان وسكب فيه ما بالحلة .

وبدت الدهشة على وجه « علي » وهو يرى ما بالحلة وسأل الطباخ :
— إيه ده ؟

— بهارات .. نضعها فوق العدس ،
— ولكن أين الخضار واللحمة ؟
— ستوزع في المساء .

— ولماذا ؟

— لأن التعيين يأتي متأخراً من النزول ولا نجد وقتاً لإعدادة إلا في العشاء .

— ولكن في المرة السابقة صرفناه في الغداء ؟

— لا بد أنه كان تعييناً .. جافاً .. فاصولياً ناشفة .

ودخل « علي » إلى المطبخ فوجد كومة من قشر « الكوسة » ملقاة في أحد أركانه ووجد على الفرن قزانين يثران من الغليان .. ورفع الطباخ غطاء أحدهما قائلاً :

— هذه هي الكوسة والأرز .

ثم رفع الآخر بعد أن غطى الأول مردفاً :

— وهذه هي اللحمة .

واقتنع « علي » وخرج ، ثم طلب منه « كبشة » لكي يتذوق العدس ، منفذاً التعليمات التي وضعها له إبراهيم أفندي عندما علمه أصول النوبتجية .

ورشف من « الكبشة » رشفة طويلة استطعمها في غير تكلف ولا ادعاء وقال للطباخ :

— اصرف .

وانتهى الطباخ من الصرف وانتهت بذلك آخر مهمة من مهمات النوبتجية قبل الظهر ، وأحس « على » أنه يستطيع أن يلجأ إلى الميس لينعم ببعض الأكل والراحة والظل . ونظر إلى الساعة فوجدها الثانية والنصف فقال للجوايش النوبتجي .. ساعده الأيمن في النوبتجية :

— سأذهب إلى الميس .. وأظن لم يعد لدينا ما نعمله حتى طابور العصر ؟
— لا يا فندم .. تستطيع حضرتك أن تذهب لتستريح .. وسأعد أنا العليقة لتكون جاهزة بعد الطابور .

— سأتى إليك فى الساعة الرابعة .. وإذا حدث أى شىء احضر إلى فى الميس .
وسار « على » مغادراً المطبخ متجهاً إلى الميس .. ولم يكذب يبلغ طريق الميس ، حتى أبصر بلوكامين الأورطة يقبل عليه مسرعاً من ناحية المكاتب فتوقع مشكلة جديدة وتوقف حتى وصل إليه ، وقد أحسن بصيقه يتزايد وصبره يكاد يفقد .. وقبل أن ينطق البلوكامين بكلمة صاح به :

— ماذا أيضاً ؟! إنى سأحضر فى الرابعة .. ألا يمكن الانتظار حتى أعود ؟
ومدّ البلوكامين يده بمظروف أزرق قائلاً :

— إنها رسالة لحضرتك أحضرها مندوب البريد فى بريد اليوم .

وتناول « على » الرسالة وهو يتساءل فى دهشة :

— رسالة لى أنا ؟

— أجل .. مكتوب عليها اسم حضرتك .

وقرأ عليها اسمه مكتوباً بالخط العربى الركيك ، ولم يجد هناك مبرراً لاستمرار مناقشته مع البلوكامين أو إشراكه فى دهشته .. فقال له فى لهجة يشوبها الاعتذار :

— إنى فى الواقع لم أكن أتوقع رسائل ، ولذا دهشت من إقبالك على مسرعاً .. وخشيت أن يكون قد حدث شىء .

— إني لم أنتظر عودتك بعد الظهر خشية أن يكون بها شيء عاجل .
— متشكر يا محمود .. إذا حدث أى شيء .. أنا موجود فى الميس .
— حاضر يا فندم .

وحياه البلوكامين تحية لينة ليس فيها شيء من طرق الكعوب أو رجفة الأيدي .. وعاود « على » سيره إلى الميس ، وهو يقلب الرسالة فى دهشة شديدة دون أن يحاول فضها .

من الذى يمكن أن يرسل إليه مثل هذه الرسالة على السوارى ؟ وأحس بذهنه يحاول أن يدفعه فى عنف إلى اتجاه معين .. اتجاه ممتع لذيد .. ولكنه مالبث أن قاوم المحاولة مقاومة شديدة .. ولم يرد أن يترك نفسه ألعبوبة فى يد الأمانى الحلوة تدفعه دفعة هو جاء عابثة .. إلى متعة أسرع فى الزوال من وميض البرق .. لا تلبث حتى تتركه فى بهمة من اليأس حالكة مدهيمة .

لا .. لا .. لن يذهب به السخف إلى محاولة إيهام نفسه احتمال كتابتها إليه .. لن يترك نفسه تتعلل بوهم كاذب .. يمسك بين يديه الدليل الأول على كذبه .. الرسالة نفسها ؟ التى لا يمكن أن تكون منها .

ولكن لِمَ لا ؟! أية استحالة هناك فى أن تكتب إليه ؟
ولكن لِمَ تكتب ؟! ولماذا لم تكتب من قبل .. إذا كانت كتابتها إليه فى حيز المستطاع ؟

أيها الغبى كفى خداعاً لنفسك ، إنها لا يمكن أن تكون صاحبة الرسالة ، قد تكون من أخيك أو أبوك أو بهيمة . أو أى صديق .. إنها قد تكون من أى إنسان عداها .. ولكن ليس هناك ما يدعو أحداً من هؤلاء إلى الكتابة إليك .
وكذلك ليس هناك من سبب يدعوها إلى الكتابة .

ولكن لماذا لا يريح نفسه فيفتح الرسالة ويقطع الشك باليقين ؟ ألا نه يخشى اليقين ويستعذب الشك ؟! ألا نه يرغب فى التمتع بضع لحظات باحتمال كونها صاحبة الرسالة ؟

وكان قد قطع طريق الميس الذى قام على جانبيه جداران عاليان من شجر الدرننة وتوسطته أحواض تكاثفت فيها زهور الجارونيا الحمراء .. وعبر بوابة الحديقة القائمة على طراز فرعونى مبسط واتجه إلى النافورة المستديرة التى تتوسط الحديقة والتى أخذت مياهها تتدفق من رأس حصان حجرى فى منتصفها .

وبالأفكار المتزاحمة فى رأسه والرسالة غير مفضوضة قد أطبقت عليها يده فى جيبه ، دخل قاعة الميس فوجد سليمان متشاغلا كعادته بإدارة مفتاح الراديو ووجد بعض الزملاء القدامى الذين يقطنون فى الميس قد جلسوا فى انتظار إعداد الغداء ، وترك سليمان الراديو وأقبل على « على » يسأله :

— ما بالك تأخرت هكذا ؟!

— كنت أصرف اليك .

— تصرفه فقط أم جلست مع العساكر حتى اطمأنت إلى أنهم أكلوه ؟

— أرجوك يا سليمان .. ليس عندى مزاج للتريقة .

ولم تكن بعل رغبة فى المناقشة .. كان يود الاختلاء إلى الرسالة ، والتفكير فيها .. والشك فى مرسلها .. ثم .. الإقدام على فتحها .. وارتمى على أحد المقاعد فى ركن قصى ويده ما زالت فى جيبه مطبقة على الرسالة ، وذهنه ما زال يدفعه بين الأمل .. واليأس .. والشك فى أن تكون هي .. واليقين بأنها لا يمكن أن تكون .

وأخيراً .. وفى لحظة إقدام ، وفى غفلة من الرفاق المنهمكين فى الحديث وسماع الراديو .. أخرج الرسالة من جيبه وفض الغلاف وسحب الخطاب من داخله وألقى عليه نظرة خاطفة فإذا به مكتوب بالإنجليزية وبقلم رصاص .

وأدهشته لغته فى بادئ الأمر .. ولكنه ما لبث أن مر بذهنه خاطر جعل قلبه يوشك أن يثب من بين أضلعه ووجد أصابعه المرتجفة تفرد الورقة فى حرص ونخشية ، ووقفت عيناه على كلمة عزيزى « على » بالإنجليزية .. وقبل أن يقرأ كلمة أخرى قلب الورقة واندفعت عيناه تنقبان عن الإمضاء ، فإذا به

« المخلصة أنجي » .

ودون أن يقرأ الرسالة ، أطبقت يده عليها كأنها يخشى أن يختطفها أحد ودسها في جيبه وهو يتلفت يمنة ويسرة وبنفسه إحساس يخفى خلسته عن أعين الرقباء . ومضت فترة سكون حاول خلالها أن يهدئ الأنفاس المتلاحقة في الصدر ، ويسكن القلب في الحنايا .. الهاتف بين الضلوع ، ويفكر في المنة الجلى والهبة العظمى الهابطة من السماء المنطوية في الجيب .

إنه لا يريد أن ينتهبا في نظرات خاطفة وقراءة عجل ، ولا يريد أن يلقي صاحبها بعد طول فرقة ولهفة على ملاء من الصحاب وبين ضجيج الراديو وهتافات الزملاء ، يل يريد أن يختلي وإياها في هدوء وسكينة ولقاء طويل متمهل .

إن خير ما يفعل هو أن يحتفظ بها في جيبه حتى ينتهى من الغداء ، ثم يأوى إلى حجرته ويغلق الباب عليه ويخلو إليها لينصت بين الكلمات إلى همساتها ويتنسم من السطور عبيرها ، ويتذوق ما بها حرفاً وحرفاً ونقطة نقطة .

وكان الضباط قد خلعوا ملابسهم واستبدلوا بالخذاء الطويل وبنطلون الركوب بنطلوناً طويلاً يريح سيقانهم من ضغط الخذاء الطويل وثقله .. ويبدو أن أحدهم وهو عبد الرحمن ، وكان أشدهم مرحاً وأكثرهم استهتاراً ، قد بالغ في طلب الراحة فارتدى البيجامة وجلس على إحدى الأرائك ماداً ساقيه على مسندها في ضجعة مريحة وأخذ ينثر النكات والضحكات ذات اليمين وذات اليسار .

وعندما أبصر علياً منطوياً في ركنه ، شارد الذهن ، بادي التفكير ، وهو ما زال يرزح تحت ثقل « الفيلدبوت » موثق القيد بينطلون الركوب والقائش صاح به :

— هاى .. أنت يا ضابط يا مستجد .. مالك تجلس هكذا بالشدة الكاماة !!
أتتوى الطعام أم القتال ؟! أم تراك فرحاناً بالفيلدبوت !! قم وحل عن نفسك ،

ورحرح .

وكان « على » يعرف سلاطة لسانه .. وقدرته على السخرية .. ولم يكن لديه في تلك اللحظة من حضور الذهن ما يدفعه إلى الدخول معه في حديث ومزاح فأجابة إجابة مقتضبة وذهنه ما زال معلقاً بالرسالة الزرقاء المطوية في جيبه :

— إلى نوبتجى .

— نوبتجى ! .. أظن إبراهيم أفندى أفهمك أن النوبتجى لا بد أن يبقى طول اليوم بالفيلدبوت ؟

وكان ذلك هو ما أكدته فعلاً إبراهيم أفندى . وما ضرب له المثل عليه بنفسه طوال مدة النوبتجية إذ لم يفارق الحذاء الطويل قدمه حتى الثانية عشرة بعد انتهائه من المرور على دوريات العنابر والإسطبلات والقره قول .
وأجاب « على » نفس اللهجة المقتضبة :
— أجل .. لقد أكد لي ذلك .

— الله يخرب بيتك يا إبراهيم أفندى .. كما أفسدت الضابط المستجد .. إياك أن تسمع كلام إبراهيم أفندى .. وإياك أن تقلده في شيء .. لا ترفع يدك بالتحية لكل إنسان كما يفعل . لا تعدو وتشب ولا تجرى « كالمكوك » بلا مناسبة بين الإسطبل والعنبر .. لكى تكون ضابطاً محترماً .. لا تفعل أبداً ما يفعله إبراهيم أفندى .. إن ما يفعله إبراهيم أفندى .. اسمه عندنا « المنكره » .. فيجب ألا تكون « منكراً » كما إبراهيم أفندى .

— ولكن ما يفعله إبراهيم أفندى هو ما تنص عليه الأوامر .

— أيها الغبى .. ليس كل ما فى الأوامر يجب فعله .. يكفىك جداً لكى تؤدى واجبك وترضى ضميرك أن تفعل نصف ما فى الأوامر .. أما الباقي فليس عليك إلا أن تكتب فى تقرير النوبتجية أنك فعلته ، دون أن تفعل منه شيئاً .. كلنا نفعل ذلك .. حتى إبراهيم أفندى .. أظنه يفعل فى نوبتجيته العادية كل ما فعله

أمامك ؟! لقد علّمك خطأ .. علّمك ما يجب أن يفعل ، لا ما يفعل .. أتظن أنه حقاً أمضى طيلة يومه بالفيلدبوت ؟
— أجل .

— لقد ضحكك عليك .. إنه تركك في فترة الظهيرة مدعياً أنه سيذهب وحده للتفتيش على السروج حتى لا يتعبك معه وطلب منك أن تنتظره في البهو .. أتدرى أين ذهب ؟

— إلى السرجخانة ؟

— بل إلى الفراش .. لقد خلع بنطلون الركوب والحذاء وتمدد « بالبيجامة » أربعة وعشرين قيراطاً ، وتركك مقيداً في ملابسك .
— وكيف عرفت ؟

— لقد دخلت حجرتة صدفة فظننتي أنت ، وقفز من فوق الفراش وهبط أسفله خوفاً من أن يفتضح أمره .
— غير معقول .

— بل هو ما حدث فعلاً .. لا تظن أن كل ما هو واجب يفعل ، ولا كل ما هو ممنوع يجتنب ، وإلا أضعت عمرك سدى . قم وارتد البيجامة كما أفعل أنا . ولا يهلك أحد .

وفي تلك اللحظة أقبل إبراهيم أفندي ، ونظر إلى عبد الرحمن وهو يدعو « على » لبس البيجامة وقال له مستنكراً :

— ما هذا يا عبد الرحمن ؟! أتجلس في البهو بالبيجامة ؟

— ليس هذا من شأنك .

— لو رآك حضرة الصاغ .

— حضرة الصاغ لن يراني لأنه لا بد وأن يكون الآن في بيته .

وألقي إبراهيم نظرة من النافذة وقال في دهشة وتحذير .

— إن حضرة الصاغ مقبل في الحديقة .

وأجاب عبد الرحمن يا ستخفاف :

— ولو .. قديمة .

ولكن ملامح إبراهيم كانت جادة وتحرك بسرعة تجاه الباب منذراً بقية الضباط :

— يا جماعة .. حضرة الصاغ آت على دراجته في طريق الميس .. أنزلوا أقدامكم عن مساند المقاعد وكفوا عن الصياح .

وأسرع الضباط في الاعتدال في جلستهم .. وأحس عبد الرحمن أن الصاغ آت حقاً .. فوثب وثبة وضعت أمام إحدى النوافذ الخلفية بجوار المدفأة ووثبة أخرى هبط بها إلى الطريق الخلفى المؤدى إلى المطابخ .

واندفع إبراهيم مقهقهة .. وصاح بعبد الرحمن :

— هذه هي الشجاعة والإفلا .. أعد أيها الأرنب .

— لا يا عم . سأرتدى القميص والبنطلون . هذه المرة أتت سليمة .. المرة القادمة سيأتى هو .

وأقبل سفرجى الميس يعلن الضباط بإعداد الطعام فنهضوا إلى الشرفة الخارجية المشرفة على الحديقة حيث تعد المائدة طول الصيف .

والتف الضباط حول المائدة وبدأت النكت وانطلقت الضحكات .. وصاح عبد الرحمن وهو يمد عنقه وينظر في صينية بطاطس صغيرة أمام إبراهيم أفندى أرسلتها له والدته وقال ساخناً :

— طبعاً ليس بها لحمة .. قل لو الدتك يا إبراهيم أفندى إن هناك شيئاً يسمى اللحمة .. يضعه الناس الطيبون في صواني البطاطس .

— إن اللحمة توضع وحدها .

— ولماذا توضع وحدها ؟ ما رأيك في أن تعطينى ثلاث قطع بطاطس وملعقة سلطة طحينة .. وأعطيك قطعة لحمة ؟

— قطعة لحمة .. ليس بها عظم ؟

— مرافق .

— ومعها خيارة ؟

— لا تكن طماعاً ، قطعة اللحم تساوى خمس قطع بطاطس .

واستمرت المناقشات والتسويات والنكات والضحكات و « على » شارد
الذهن غائبه .. لا يكاد يعي مما حوله شيئاً . ولم يكده ينتهى من تناول قطعة
البطيخ ، حتى انسحب من المائدة متسللاً إلى حجرتة .. وأغلق الباب وجلس
على « فوتيل » ومدد ساقيه وأخرج الرسالة .

(٣٥)

دعوة

عزيزى « على »

أبدأ رسالتى إليك بالاعتذار عن لغتها .. فأنا أعرف أنك تحب مصريتك ..
وحبى لها — من أجلها ومن أجلك — لا يقل عن حبك .. ومع ذلك أراى
مضطرة لأن أكتب بالإنجليزية .. لا لأنى لا أعرف العربية ، بل لأن قدرتى على
التعبير بالأولى خير من قدرتى على التعبير بالثانية .. ولو كنت أكتب رسالة عادية
لمخلوق عادى .. لما شعرت بحاجة إلى القدرة على التعبير ، ولكان سواء لى
أكتبها بالعربية أم بالإنجليزية ولكنها رسالة لك أنت .. أشعر وأنا أهـ بكتابتها
بفرط حاجتى إلى هذه القدرة .. وبأن ما بى من مشاعر أعمق وأكبر من أن تنقله
إلى الورق تلك الكلمات العادية التى تعودنا أن نستخدمها للتعبير عما بأنفسنا ..
وإننى — بلا جدال — فى أشد الحاجة إلى ابتكار وسائل جديدة تستطيع أن تفى
بحاجتى .

هذه هى المرة الأولى التى أكتب إليك .. ولست أدري لِمَ لم أكتب إليك قبل
هذا ! لعلنى لأنى لم أتعود المبادأة بشيء ، وأن طبيعتى هى الانتظار . وفى حنينى
إليك .. ولهفتى على لقائك .. كنت أجلس وأنتظر .. أنتظر أن تأتى إلى ذات
ليلة وأنا أجلس تحت الشجرة الكبيرة .. أو تخرج إلى ذات فجر من وراء كومة
الغاب عند السرعة وأنا أسير على الطريق وحيدة بجوady .. بل كنت أترك الترولى
ينزلق بى من المنحدر .. علك تخرج من وراء السوبة .. لا لتنقذ جسدى هذه
المرة .. بل لتنقذ روحى من طول وحشة .. وفرط حنين .

كنت أنتظر .. وأنتظر .. وكنت آمل من القدر أن يفعل شيئاً .. مادمت

لا تفعل أنت .. كنت آمل منه أن يلقي بك في طريقى ، كما سبق أن فعل وأن يدبر لى ولو صدفة حسنة واحدة ، ولكنه فيما يبدو لى قد تخلى عنى وأغفلنى من حسابه .

ولست أدري إلى متى كنت أنوى الاستمرار فى الانتظار والاستسلام والتعلق بأوهام هبوطك إلى من السماء .. أو منحك لى لقمة سائغة بوساطة الحظ والصدف .

ولقد تعذرت على أخبارك .. بعد أن انقطع أبوك عن الحضور إلى الحديقة .. وبعد أن ثار والدى وهددنى بأشد العقاب .. إذا عرف أنى رأيتك أو أن هناك أقل صلة بينى وبينك .

ومع ذلك لم أعدم وسيلة لكى أعرف بها أنك تخرجت فى المدرسة والتحق بالسواري .. وعندما أنبأنى أبى أنه قد دعى لمشاهدة العرض العسكرى ، الذى سيقام احتفالاً بالتتويج ، أحسست برجفة بين حوائجى ، وتمنيت لو استطعت مشاهدة العرض إذ بدا لى أنك لا بد ستشارك فيه .. بل خيل لى من فرط الحنين إليك أنك أنت العرض كله ، وليس بالعرض سواك .

ولم أرد أن أبين لأبى لهفتى على الذهاب معه .. حتى لا يساوره الشك ويدرك سبب رغبتى فى الذهاب ، بل لقد خشيت أن يكون قد أدرك من ملامحى ما طاف بذهنى .. ويكاد المريب يقول خذونى .

ولم أعلق على قوله بشيء .. وكأن الأمر لا يهمنى قليلاً ولا كثيراً .. بل كأنى لم أسمع من قوله شيئاً .. ولكن .. عندما جلست للغداء سألته ببساطة عما يفعلونه فى الاحتفال بالتتويج ، فسألنى بدوره ضاحكاً :

— ألم تشاهدى عرضاً عسكرياً من قبل ؟

— وأنى لى أن أشاهده ؟

— إذا تعالى معى لتشاهديه .

— أهو شيء يستحق المشاهدة ؟

— طبعاً يستحق .. إن البلد لا تحتفل بطابور التتويج كل يوم .. إنه احتفال لا يحدث إلا عند كل تغيير ملكي .. أى عندما يموت « الملك » ويعتلى العرش « ملك » آخر .. وأظن البلد لا يموت فيها كل يوم « ملك » .
وهكذا اصططحبني في يسر إلى الاحتفال .

وهناك جلست أرقب .. لا أرقب الطابور كله بالطبع .. ولكن أرقب شيئاً معيناً .. خلته قائماً على ظهر أحد الخيول ، التي تبدو عن بعد في أول الطابور .
والبصر — كالسمع — خداع .. يبدى لنا بسهولة ما نود أن نراه حتى ولو لم يكن له وجود .. وهكذا أخذت تبدو لي كالسراب .. على كل جواد وفي كل فارس يروح أو يغدو .. فإذا ما دقت البصر وجدته غيرك وتبدد السراب .
وعملت نفسي بأني سأراك حتماً عندما يبدأ الاستعراض ويمر الطابور أمامنا ..
ولكن الطابور مرّ وأنا لا أراك إلا رؤية سرابية .. يبددها التحقيق .
ولا أظنك تدرك مدى الخيبة التي أحسست بها وأنا أرى العرض ينتهى دون أن أجد لك أثراً .. وأنا التي لم آت إلا لرؤيتك ولم أكن أتوهم بالطابور سواك .
وأخيراً .. وأخيراً .. جداً ..

حدثت المعجزة .. حدثت .. وذهبت .. في مثل ومض البرق .
لقد لمحتك لمحة خاطفة .. والعربة تمزق بنا .. وأنت تحاول عبور الطريق مع زميل لك .

وترك « على » يده تسقط بالرسالة في حجره .. وطار بذهنه إلى العربة المارقة
وخصلة الشعر الذهبية المهدلة التي تبدو من الزجاج الخلفى .
إذا فقد كانت هي .. لم يكن واهماً ولا متمنياً .

أجل . أجل .. إنه لا يخطئها قط . إنه يراها حتى ولو لم يعصرها .. إن له قدرة على الإحساس بها .

وتملكته نشوة شديدة وهو يحس أنها قد رآته كما رآها ، وأن اللقاء قد حدث

رغم أنه لم يدركه حين حدوثه .
ورفع يده بالرسالة وعاود القراءة .

« وكدت أصبح بالسائق أن يقف ، وأصبح بك أن تأتى لتركب معى ،
ولكننى تذكرت أبى .. ولم أملك سوى الصمت والشرود .. والانطلاق
بالذهن وراءك .. واستدعائك بالوهم والتخيل .

وعدت إلى البيت وبنفسى حنين جارف إلى رؤيتك وشوق لا يقاوم إلى
لقائك ، وكأنما كانت تلك اللمحة الخاطفة ، وميض الشرر الذى يسبب انطلاق
قذيفة الشوق لتدك حصن الصبر والمقاومة وتهدق قلاع الاستسلام والانتظار .
لقد أحسست أن لنفسى على حقاً .. حقاً فى الحياة .. وأن ذلك الوقت
الذى أضعته فى الانتظار لم يكن من الحياة فى شىء .. بل هو زمن سلب من الحياة
يلقى به فى غمار العدم .

ورأيت خير وسيلة للخروج من هذه السلبية التى فرضتها على نفسى هو أن
أتصل بك اتصالاً مباشراً دون حاشية إلى وميض أو رسول .. فأمسكت القلم
لأكتب لك .. وساءلت نفسى فى دهشة .. لماذا لم أكتب من قبل ؟
عجباً !! إن الإنسان ليضيع عمره وهو مستسلم عاجز ، ثم يكتشف فجأة أن
وسيلته للوصول إلى ما يرجو فى متناول يده ، وأنه ليس عليه إلا أن يكف عن
الاستسلام والانتظار ويمد يده ليأخذ ما يريد .

وأنا أمد يدي إليك وبى حيرة وقلق ، والوساوس تدفعنى إلى أن أسائل نفسى
وأنا أمد يدي .. أما زلت أنت كما أنت ؟ أما زلت أنا فى نفسك كما أنا ؟ أما زلت
الحلم الجميل .. والأمنية العذبة ؟ أم قد بددت الفرقة الحلم وبدل الزمن الأمنية !
عن نفسى أنا .. إن كان للزمن والفرقة أثر .. فهو زيادة الإحساس بك ..
وبموقعك فى نفسى ، وضرورتك فى حياتى .

لا شك أن الزمن ينسى .. ولكن معك أنت .. لم يكن له إلا تأثير مضاد

للنسيان .. يعلم الله .. لِمَ !! فذكراك لا يزيدنا الزمن إلا جدّة .. وصورتك لا يزيدنا طول الفرقة إلا وضوحاً وعمقاً .

والآن .. لست أدري ماذا أكتب . إني أرى الكلمات تملأ الصفحات ، ولكنى مع ذلك أحس أنى لم أقل شيئاً .. فالأفكار تموج فى ذهنى مختلطة متشابكة ، وإن كانت كلها تتركز فى النهاية فى جملتين : شوق إليك ، ورغبة جارفة فى رؤيتك .

ولست أدري ما إذا كنت قد قلت ذلك فى كل ما سطرته إليك .. أم لم أقله بعد .

لقد انتهيت خلال هذه الفرقة إلى تفكير جازم أكيد .. إلى أننا ما يسمونه النصفين المتمم أحدهما للآخر .. وأن الطبيعة قد خلقتنا ليتمم كل منا صاحبه .. وأنه إذا كانت تقاليد الحياة وأوضاعها قد فرضت علينا نوعاً من الفرقة فى فترة من حياتنا .. فلا بد أن الطبيعة وهى العامل الأعظم قوة .. والأشد غلبة ، لا بد أن تعيد إصلاح ما أخطأته العوامل الأخرى ، وأننا إذا صممنا على أن يكون أحدنا للآخر .. فلسنا إلا معاونين للطبيعة فى أداء واجبها .

وبهذا التفكير عزم أن أكف عن انتظاري وأخرج عن سلبيتى .. وألأ أدع رغبات الغير فى المحافظة على المظاهر التافهة تغلب رغباتنا فى المحافظة على حقنا فى الحياة .

وبهذا العزم أمسكت القلم لأكتب إليك ، وأقول كل ما بنفسى .
إنى سأسافر إلى الإسكندرية غداً ويخيل لى أن فرصة اللقاء هناك — لم استطعت الحضور — ستكون أكثر سناً .. لأننا سننزل هذا العام فى فندق « سان استفانو » حتى تتم الإصلاحات التى يقوم بها أبى فى بيت الإسكندرية .. والفندق غالباً ما يعج برواده فى المساء مما يجعل اللقاء فى ساحته أو حديقة السينما أمراً مستطاعاً .

إنى أسمع صوت أبى ينادىنى للنزول معه إلى البلد لابتياح بعض المشتريات .

ولست أريد أن أؤجل رسالتى ، ولذلك فسأختمها الآن حتى أقذف بها فى أقرب صندوق بريد أستطيع إلقاءها به .

وددت لو أراك قبل السفر ، ولكنى لا أظن القدر سيتكرم ويمنحنى هذه الفرصة بعد طول انتظار .

على أية حال .. لن أحاول انتظار منحة بعد أن قررت أن أمد يدى لأخذ ما أراه حقاً فى الحياة .. سأكتب لك من الإسكندرية مرة أخرى بعد أن نستقر فى الفندق وأعرف كيف تجرى حياتنا هناك .

كل ما أرجوه أن تدبر أنت وسيلة للحضور ولو لبضعة أيام .
وإلى أن أكتب لك ثانية أرجو لك أطيب التمنيات .

المخلصة دائماً

« أنجى »

ومرة أخرى ترك يده تسقط بالرسالة فى حجره ومدد ساقيه وأغمض عينيه ..
وحلق بذهنه بعيداً .. بعيداً .. وكأن الرسالة أجنحة تطير به إلى عالم هنىء مليء
بالنشوة والمتعة .

كانت الرسالة بما فيها .. شيئاً غير مصدق .. كان يحتاج إلى جهد لإقناع
العقل به وبصحة وقوعه ، وأخذ يتحسسها بأصابعه بين لحظة وأخرى ليتأكد
من وجودها .. ثم يستعيد لذهنه ما بها .. ويرفعها إلى بصره ليتأكد من أنها
موجودة حقاً .

ووجد نفسه ينهض من مقعده ويغادر الحجرة ويسير فى حديقة الميس متجهاً
إلى الشكنات .. وهو يشعر بمتعة من كل ما حوله .

لقد أضفت عليه الرسالة رونقاً وبهاء .. حتى لكأن كل شيء قد تغير فى
غمضة عين .. وبدت الأحواض المليئة بالجارونيا وقد أبيضت أوراقها وفتحت
أزهارها وبدت الأشجار تترنح أغصانها وتترنم طيورها ، والشمس قد خفت

سعيها وهذا هليها .

ووصل إلى الإسطبلات فبدت لأول مرة حبيبة إلى نفسه بجدرانها الضخمة وأسقفها المنحدرة ، ووصلت إلى أذنيه أصوات النبهة والصهيل .. وطرقات الحوافر وشخشخة الجنازير ، وصيحات السباب من أفواه نوبتجية الإسطبلات وكأنها تكوّن أوركسترا ، رائحة النغم حلوة للحن .

لقد أحس لأول مرة أنه يحب الثكنات بما فيها من أبنية وخيل وجنود ، وزال عنها كل ما يسبب النفور والضيق .. وجلس على طرف أحد أحواض « السقية » يرقب المياه المتدفقة إليها ، ثم رفع عينيه إلى الأكوام المرصوفة في التبانات من بالات السبلة والتبن والدريس .. وأخذ يرقب أومباشى العليق وهو يخلط الشعر بالتبن والنخالة والملح معاً وجبة دسمة للخيول .

ووسط هذا الجو الخيب إلى نفسه أخرج من حبيه منبع السعادة ومبعث النشوة ، وأخذ يلتقط منها فقرات ليقرأها مثني وثلاث ورباع كأنما يوشك أن يؤدى فيها امتحاناً .

ومرّ اليوم .. يوم النوبتجية المفروض أنه من أثقل وأشق أيام العمل ، و « على » منطلق في الثكنات يتمم على السلاح ويشمع السرجاخانات ويصرف اليملك ، ويدب بقدميه في ثقة واعتداد دون أن يحس بمشقة ولا ملل . وفي كل فترة راحة يخرج من جيبه الزاد ليتزوّد منه بفقرة يقرأها أو جملة يلمحها .. ثم يجيب في ذهنه عما يقرأ ، ويعلق على ما يلمح .

« يفيل إلّي أن فرصة اللقاء — لو استطعت الحضور — ستكون أكثر سنوحاً » .

ولكن كيف يستطيع الذهاب ؟! أيكفنه الحصول على إجازة ؟! أم يسافر ظهر الخميس ويحضر مساء الجمعة ؟! ولكن ماذا يقول لوالديه اللذين ينتظران يومى العطلة ليتمتعاً بلاقائه ؟ يقول إن لديه نوبتجية .. أو يقول إنه مسافر إلى الإسكندرية في عمل ؟!

« كل ما أرجوه هو أن تدبر أنت وسيلة للحضور ولو لبضعة أيام » .
إنها ترجوه .. كأنما هو لا يود .. ولو أدى الأمر إلى الفرار من الشكنات لأقدم عليه .

« وإلى أن أكتب إليك ثانية .. أرجو لك أطيب التمنيات » .
وكان عليه بعد ذلك أن يرقب جندي البريد . الذي لم يكن يشعر من قبل أن له وجوداً ، ولم يطل به الانتظار ، إذ لم يصبح اليوم التالي حتى أقبل عليه الجندي وهو يرقب الطومار ، وسلمه الرسالة الثانية ، ذات المظروف الأزرق .
وقال إبراهيم افندي ضاحكاً ، وهو يرى الجندي يسلمه الرسالة :
— ما شاء الله يا علي افندي ، بدأت الرسائل الزرقاء . حلال عليك ، إني لم يصلني خطاب أزرق إلا بعد سنتين خدمة .

وأجاب عبد الرحمن الذي كان قد ضاق بالوقوف في إسطنبول وأقبل على إسطنبولهما يتسلى بمشاغبة إبراهيم افندي :
— أجل .. إني أذكره .. لقد وصلك علي يد محضر .
وصاح به إبراهيم منذراً :

— عد إلى إسطنبولك يا عبد الرحمن .. إن قومندان الأورطة يمر الآن .
— أنا لا يهمني حتى قومندان السواري نفسه .
وارتفعت صيحة طويلة من ناحية إسطنبول عبد الرحمن « انتباه » .. وانطلق عبد الرحمن يعدو إلى إسطنبوله قائلاً :
— يا نهار اسود .. إنه يمر حقاً .
وضحك إبراهيم وقال معلقاً :
— اجتر يا عديد .

وأمسك « علي » بالرسالة ، ودسها في جيبه بسرعة دون أن يفضها أو يقرأ عنوانها كأنما يخشى أن يختطفها منه أحد ، أو كأنه يخشى عليها من شر حاسد إذا حسد .

وتعجب إبراهيم من وضعه إياها في جيبه دون قراءة .. وتساءل في دهشة :
— ولماذا لا تقرأوها ؟

ونخيل إلى « على » أن كل من في الإسطبل من جنود ونخيل قد كشف أمره
وهتك ستره ، وأنه لو أخرج الرسالة وفضها فسيمدون أعناقهم لقراءة ما بها .
وأجاب في ارتباك شديد :

— ليس بها شيء مهم ، والقومندان على وشك الوصول .

— ما زالت أمامك فسحة حتى ينهى مروره في « تشنجي بلوك » ، وهو
بلا شك واجد من الأقدار والملاحظات في بلوك عبد الرحمن ما يضيع فيه نصف
يومه .

ومع ذلك فلم يجسر على فض الرسالة أو قراءتها ، كأنما خشى أن تراق منها
قطرة ، أو تطير منها كلمة .. كان يشعر أنه لا يستطيع قراءتها إلا في خلوة وقد
أغلق عليه الأبواب والنوافذ وتحصن ضد الرقباء والمتطلعين .

وانتهى الطومار والسقية والعليق وضربت بضع عشرة نوبة من نوبات البورى
لم يميز منها « على » كعادته شيعاً . وبدأت فترة المكاتب ، وأحس أنه لا يستطيع
أن يصبر حتى تنتهى المكاتب ثم يذهب إلى الميس لقراءة الرسالة ، ولم يجد خيراً بعد
أن نفذ صبره من أن يلجأ إلى السرجخانة (حجرة السروج الملحقة بالإسطبل)
لينهب فيها زاده دون أن يشعر به أحد .

وتسلل إلى الإسطبل بعد أن خلا من الجنود ، عدا النوبتجي الذى لم يكدره
حتى صرخ « انتباه » رغم أنه لم يكن هناك من يتلقى نداءه غير النخيل التى لم تعره
أدنى التفات ، بل استمرت في العبث والحركة برعوسها وأرجلها .

وأمر « على » النوبتجي بأن يستمر في عمله ، ودخل إحدى حجرتي
السرجخانة ، وكان لأربعجي بلوك (وهو البلوك الذى يتمرن به مع إبراهيم
افندى) حجرتان ضيقتان بدل الحجرة الواسعة والملحقة بكل إسطبل ، ويبدو
أن الإسطبل نفسه قد بنى أخيراً في مؤخرة القشلاق بين البوابة الخلفية والقسم
البيطرى .

وجلس « على » على صندوق خشبي كبير ، وضعت به مهمات الإسطبل وبعض الحدايد والعهد الزائدة ، ومهمات السرج الملكي ، وأدوات البولوا الخاصة بإبراهيم الذي كان متعلقاً بكل أهذاب الأرستقراطية .. من بولو ، وجولف ، وصداقة كل من استطاع من الأجنيبات الشقراوات ذوات العيون الزرق مهما قبح شكلهن .

وفض « على » الرسالة ، وأحس بشيء من الضيق والحذلان وهو يجد الكتابة لا تشغل سوى صحيفة واحدة لا تشبع نهمه ولا تروى ظمأه .
وأخذ في قراءتها على مهل بعد أن قلبها جيداً عله يجد بها كتابة أخرى مختبئة في أحد الأركان :

عزيزى على :

أكتب إليك من الإسكندرية في أول فرصة استطعت أن أدخل بها إلى نفسى ..
إنى أجلس فى حجرى البى أستطيع أن أبصر من نافذتها أمواج البحر الزرقاء تلتقى بالأفق فى تجعدات رقيقة وأسمع هديرها ليناً ناعماً .. حتى ليكاد ينطبق عليه لفظ (تحرير) أكثر من (هدير) .

كل ما حولى يدفعنى إلى الحنين إليك .. هذا السكون السائد ، والبحر الساجى ، والزرفة المترامية ، تملؤنى رغبة فى أن أراك لتشارك المتعة بها والنظر إليها .. إن إحساسى بالمتعة أضحى ناقصاً ، لأنى لا أكاد أحس بمتعة حتى أذكرك ، وأتلهف على أن تشاركنى الإحساس بها ، حتى لكأنك بت وسيلتى للإحساس وبغيرك لا أحس بشيء إحساساً كاملاً .

أرجو أن تكون قد دبرت وسيلة للحضور ، فالفرصة للقاء أكثر سنوحاً مما كنت أظن .. إن أبى سيعود فى الغد إلى القاهرة وسيقضى بضعة أيام لحضور بعض المؤتمرات والجمعيات التى يشترك فى رياستها ، و « علاء » مشغول بحيث لا أكاد أرى له وجهاً ، والفندق فى المساء مليء بالرواد ، بحيث لا يكاد يحس فيه أحد بأحد وليس أسهل من اللقاء فيه ، ولا آمن عاقبة .

لن أطيل عليك في الكتابة لأني أود أن أرسلها بسرعة لأؤكد لك رغبتى
الشديدة في حضورك ولأؤكد لك سهولة اللقاء .

سأنتظر مساء الخميس في الساحة أو القاعة الخارجية . ولن يصعب عليك
العثور على .. وإذا حضرت في غير الموعد فتستطيع أن تتصل بى في تليفون
الفندق على ألا تجيب إلا إذا رددت عليك أنا .

وتقبل أطيب تمنياتى
المخلصة دائماً
« أنجى »

وكانت الدعوة حارة ممتعة .. ولكن التفكير في تنفيذها ، كان مربكاً ..
معقداً .. شاقاً .. عسيراً .

إنه لم يذهب إلى الإسكندرية إلا مرة واحدة .. فى صغره ، وهو لا يكاد
يذكر منها إلا سيدى جابر بمحطته وشاطئه والشارع الموصل بين هذا وذاك الذى
يمر بجوار ثكنات الجيش الإنجليزى .

ومع ذلك فهى تسأله ببساطة أن يذهب ليلقاها فى « سان استفانو » ،
ويبحث عنها فى القاعة الخارجية أو فى الساحة ، وهو لن يجد مشقة فى العثور
عليها .

عفا الله عنها .. وغفر لها حسن ظنها به .

إنه لن يجد مشقة فى العثور عليها فحسب .. بل سيجد مشقة فى العثور على
الفندق نفسه .. فهو يهاب كل جديد ، ويخشى من كل ما لم يعتد عليه . إن
مواهبه وقدرته وشخصيته لا تظهر إلا فى النطاق الذى ألفه وتعود عليه ، أما أن
تلقى به فى بلدة لم يزرها فى عمره إلا مرة واحدة .. ثم تطلب منه أن يذهب إلى
أكبر فنادقها .. ليلقى ابنة أحد الأمراء ، فإن فى ذلك التهلكة الكبرى .

إنه حقاً قد أضحى « ضابط سوارى » ، وهو فى مركزه مخلوق محترم تتطلع
إليه الأعين بالاعجاب والتقدير ، وهو فى مظهره لا يقل أناقة ولا وسامة عن أبناء

الطبقة الأرستقراطية الرفيعة ، ومع ذلك فهو ما زال في باطنه يشعر بأنه هو هو .. ابن الرئيس عبد الواحد ، ربيب الطبلية والحصير والعيش الجاف والبنطلون ذى الرقعة ، وهو لا يأنف من ذلك ولا يشعر منه بخرج حتى يحاول انتزاع نفسه منه ، وقطع ما بينهما من صلة وطية في زوايا الإنكار والنسيان .. بل كان يحس بالحنين إليه والاعتزاز به ، ويشعر عندما يعود إلى البلدة والبيت براحة ممتعة وسكينة لذيذة ، وهو يقبل على جيرانهم من الفلاحين ومعارفهم من العمال إقبال مرحب مشتاق في غير تصنع ولا كلفة ويكاد يضمهم إلى صدره غير عاىء بأن تلوث أتربتهم جلته . كان إحساسه بهم وبقرّبهم منه إحساساً قوياً ، وعلى النقيض منه كان إحساسه بالطبقة الأخرى .. كان يشعر بأنه بينها غريب ضال .

وبتلك الرهبة .. وذلك الشعور .. أحس بمدى المشقة التى لا بد أن يلاقها من أجل اللقاء المنتظر ، ومدى التهلكة التى يوشك أن يلقي بنفسه فيها ، وهو يذهب إلى الإسكندرية ، ويقتحم الفندق الكبير .. ويضل في متاهاته باحثاً عنها .

ومع ذلك فلم يكن هناك بد من أن يقدم عليها .. بل لو كان عليه أن يخوض في سبيل اللقاء معارك يراق فيها دمه لما تردد .. فقد كان الحنين لا يقاوم واللهفة لا ترد .

وفي صباح الخميس كان قد أعد العدة للسفر ، وأجرى كل ترتيب لازم ، وأنبا سليمان بما نوى عليه ، ورغم أن سليمان لم يرتح لرغبته في السفر إلا أنه لم يملك أمام عزمه الأكيد إلا أن يسلم له به ، وذهب ليوصله إلى قطار الظهر الذاهب إلى الإسكندرية .

ووقف سليمان على الرصيف بجوار شباك القطار يقطعان الوقت بالحديث حتى يتحرك القطار ، وقال سليمان :

— أعلمت أنهم ينوون نقلنا إلى الآلايين الجديدين الميكانيكيين اللذين

أنشئوها ؟

— من قال لك هذا ؟

— سمعت من صالح افندى مساعد أركان الحرب ، لقد قال إنك ستنتقل إلى
آلات السيارات الخفيفة ، وأنا سأنقل إلى الدبابات الخفيفة .

— أين هي هذه السيارات والدبابات ؟! إن كل ذلك لا يزيد على أسماء هيكلية
لا نرى منها في الواقع غير بضعة المدافع الخفيفة التي يمرن عليها الجاويش الإنجليزي
بعض الضباط .

— إن الدبابات والعربات توشك أن تصل ، والآلات قد شكلت فعلاً .

— على أية حال أنا أفضل البقاء في الخيالة .

— لا تكن غيباً .. إن الآلات الميكانيكية هي وحدات المستقبل .. إنها
الوحدات المدرعة المقاتلة .. إن البعثة العسكرية تعمل جادة في تدريبنا وإتمام
تسليحنا ، ومن الغباء أن نربط أنفسنا بالخيال في زمن التطور .

— إني لا أشعر بالغبطة والنشوة إلا بين الخيل .

— لأنك حصان ابن حصان .

وتحرك القطار . وضحك « علي » وهو يلوح بيده لسليمان ويقول له :

— متشكر .

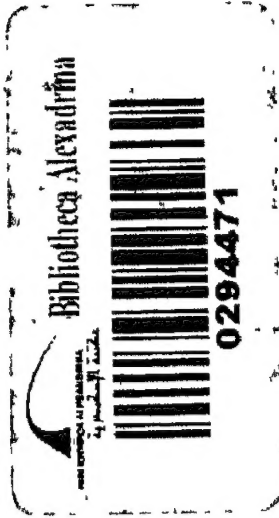
تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني .

فهرس الجزء الأول

صفحة	صفحة
١٧٣ عبء ثقيل	الإهداء ٥
١٨٤ تدبير مفاجيء	المقدمة ٧
١٩٥ طريق شائك	١ — ماء الوجه ٩
٢٠٦ تهشة ..	٢ — الفراشة الطائرة ١٧
٢١٦ ريح الرحاء	٣ — العبيد والآلهة ٢٧
٢٢٥ خطايا البشر	٤ — كبرياء ضائعة ٣٦
٢٣٦ إذا استحق أن يحيا	٥ — سد منيع ٤٧
٢٤٧ هزيمة مشرفة	٦ — يقظة المواعدة ٥٦
٢٥٨ حديث القمر	٧ — خطاب توصية ٦٤
٢٧٠ أريدك كما أنت	٨ — كلام لين ٧٣
٢٨٢ حواد جائع	٩ — الدرج يتناقص ٨٢
٢٩٥ لا يلتقيان	١٠ — لقاء مفاجيء ٩١
٣٠٧ السمراء الراجية	١١ — وسيلة وغاية ١٠٠
٣٢٠ عد ثانية	١٢ — محض صدفة ١١٠
٣٣٤ ضابط مستجد	١٣ — توافه الأمور ١٢٠
٣٤٧ من يدريك	١٤ — الليلة الأخيرة ١٣١
٣٦٠ جلسة المختلس	١٥ — إحساس بالظلم ١٤٢
٣٧٣ دعوة	١٦ — عودة وسؤال ١٥٢
	١٧ — تحد ١٦٢

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجيلة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com